التَاريخُ الأُمَويّ والعَبَّاسِيّ

تأليف

أ.د/ يسري أحمد عبد اللّه زيدان

د/ طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عُبَيَّة

قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

٢٠١٤

جميع حقوق الطبع محفوظة للمركز
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

تم التنسيق والإخراج الفنى
بإدارة إنتاج الكتاب بالمركز
Email: entagalketab@yahoo.com

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	هـ
القسم الأول تاريخ الدولة الأموية	
الوحدة الأولى: قيام الدولة الأموية	٣
الوحدة الثانية: ولاية العهد، ووراثة الخلافة	٣٩
الوحدة الثالثة: أهم الثورات والفتن في العصر الأموي	٥٥
الوحدة الرابعة: الفتوحات الإسلامية في عصر الدولة الأموية	١٠١
الوحدة الخامسة: من مظاهر الحضارة في عصر الخلافة الأموية .	١٤٧
الخاتمة: أسباب سقوط الدولة الأموية	١٦٣
القسم الثاني تاريخ الدولة العباسية	
الوحدة السادسة: خلفاء العصر العباسي الأول (١٣٢- ٢٣٢هـ) ..	١٧٥
الوحدة السابعة: خلفاء العصر العباسي الثاني: عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢- ٣٣٤هـ)	٢٢٩
الوحدة الثامنة: خلفاء العصر العباسي الثالث (عصر نفوذ البويهيين)	٢٥٥
الوحدة التاسعة والأخيرة: خلفاء العصر العباسي الرابع (عصر نفوذ السلاجقة وما بعده)	٢٦٣
من أهم المصادر والمراجع	٢٨٥
ملحق خرائط	٢٨٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقـدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وبعد،

فهذا كتاب موجز في " تاريخ الدولتين الأُموية والعباسية ". وينقسم إلى قسمين، يتناول الأولُ منهما : "عصر الخلافة الأُموية "، وكانت مدة هذا العصر قصيرة، لا تزيد عن اثنين وسبعين عاما (٤١- ١٣٢هـ)، لكنه كان من أكثر عصور التاريخ الإسلامي ثراءً في تَعدُّدِ قضاياه السياسية والفكرية، وتشعُّب حوادثه التاريخية، وكثرة ما فيه من فتن وثورات. ويتناول القسم الثاني:" تاريخ الخلافة العباسية "، عبر ما يزيد علي خمسة قرون (١٣٢-٦٥٦هـ)، وصلت فيها الدولة العباسية في عصرها الأول (١٣٢- ٢٣٢هـ) غايتها: سياسةً وقوةً وحضارةَ. لكنَّ هذه القوة السياسية بدأت بعد هذا العصر في التردِّي؛ بسبب عناصر تحكَّمتْ في الخلافة وليس لها من العلم والدين والإدارة، فتراجعت الخلافة سياسيَا، لكنها واصلت تألُّقها الحضاري، ولذا لم يصاحب التخلف السياسي تخلفٌ فكريٌّ أو حضاري، وسرعان ما استعادت الخلافة عافيتها وقوتها في العصر الرابع (٤٤٧- ٦٥٦هـ)، إلي أن تكالب عليها أعداء الإسلام فنالوا منها، وحققوا مرادهم بالقضاء عليها.

ونظـرًا لطـول الفتـرة التاريخيـة التـي يتناولهـا الكتـاب فقـد عمـدنا إلـى الاختصار، والاكتفاء بالملامح الرئيسية والمعالم الكبرى لكل مرحلة تاريخية، دون التعرض للتفاصيل، مع العناية بتحليل الأحداث والوقائع، ورصد بعض الجوانب الحضارية، والرد علي الشبهات المتصلة ببعض الخلفاء والحوادث، وذلك بصورة تتناسب مع طبيعة الدراسة في المرحلة الجامعية. وقد آثرنا حذف الهوامش حتى لا يتضخم الكتاب، مكتفين بذكر قوائم بأهم المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في الإعداد والتأليف.

وقد جاءت موضوعات الكتاب في صورة " وحدات "، تبدأ كلُّ وحدة منها بذكر الأهداف المرجُوَّة من دراستها، ويتبعها ذِكْرُ العناصر التي يتكون منها موضوعها، ثم تنتهي بملخص يجمع أهم الأفكار والمعلومات، مع تقويم ذاتي يتضمن أسئلة متنوعة، يقوم الدارس بالإجابة عليها، ليختبر معلوماته ومدى قدرته على التحصيل.

واللهَ تعالى نسأل أن يجعل عملنا خالصًا لوجهه الكريم. والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وصلى الله علي محمدٍ النبي وآله وصحبه وسلَّم .

المؤلفان

أ.د. يسري أحمد عبد الله زيدان

د. طه عبد المقصود عبد الحميد عُبيّة

القسـم الأول

تاريخ الدولة الأموية

د/ طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عُبَيَّة

الوحدة الأولى
قيام الدولة الأموية

الأهداف :

في نهاية هذه الوحدة ، ينبغي أن يكون الدارس ملماً بما يلي :

١- التعرف علي النسب الأُموي، ومن أين انحدر الخلفاء الأُمويون.

٢- معرفة حقيقة النزاع الذي وقع بين الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ﷺ ومعاوية بن أبي سفيان ﷺ، على إثر مقتل الخليفة الشهيد عثمان بن عفان ﷺ.

٣- التعرف علي الموقف الصحيح للصحابة في أحداث معركتي الجمل (٣٦هـ) وصفين (٣٧هـ).

٤- معرفة كيف نشأت فرقة الخوارج، وقتال علي بن أبي طالب لهم في معركة النهروان (٣٨هـ)، ثم تآمرهم علي مقتله رضي الله عنه (٤٠هـ)، وأنه لم يعهد لأحد بالخلافة من بعده، والبيعة لابنه الحسن بالخلافة.

٥- التعرف علي قصة تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية ﷺ، عام الجماعة (٤١هـ)، واجتماع الصحابة علي البيعة له .

٦- ومن مجموع ما سبق يكون الدارس ملماً بالأحداث التاريخية التي انتهت بقيام الخلافة الأموية.

العناصر:

يمكن عرض موضوع هذه الوحدة من خلال العناصر الآتية:

١- النسب الأموي، وأسماء الخلفاء الأمويين.

٢- البيعة لعلي بن أبي طالب ﷺ بالخلافة، وبداية النزاع بينه وبين معاوية بن أبي سفيان الأمير على بلاد الشام.

٣- معركة صفين (صفر ٣٧هـ) وحادثة التحكيم وما أسفرت عنه من نتائج.

٤- ظهور الخوارج، وقتال علي ﷺ لهم في معركة النهروان (٣٨هـ).

٥- مقتل علي بن ابي طالب ﷺ، والبيعة لابنه الحسن بالخلافة.

٦- تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية، وقصة الصلح بينهما.

٧- بيعة الصحابة لمعاوية بالخلافة، وبداية عصر الخلافة الأموية.

تمهيد - التعريف بالبيت الأموي:

تنتسب الأسرةُ الأمويةُ في الأصل إلي "أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قُصي بن كلاب". وفي "عبد مناف" يلتقي "بنو أمية" مع "بني هاشم بن عبد مناف بن قُصي". وعلي ذلك فإن هْاشمًا هو عمٌّ " أُمية". وإلى "بني هاشم" ينتسبُ نبَيُّنا محمد ﷺ ، فهو "محمدُ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب" .

وقد كان "عبد شمس" أكبر أبناء "عبد مناف"، وكان تاجرًا من سادات قريش، ويتولي قيادة الحرب، وكان حريصًا علي حرمة الكعبة ، وأنجب أولادًا كثيرين، من أبرزهم: "أميةُ (الأكبر) بن عبد شمس"، ومنه ينحدر معظم نسل بني أمية، وكان سيدًا من سادات قريش مثل أبيه، ويعادل في الشرف والرِّفعة عمَّه "هاشمَ بنَ عبد مناف"، كانا يتنافسان رئاسة قريش.

ولعل أبرزَ ما كان يُميز "أميةَ بنَ عبد شمس" كثرةُ الأولاد ، فقد أعقب عشرةً من الأولاد الذكور، كلُّهم ساد وشرف . وإلي اثنين من أولاده تنتهي الفروع الأموية التي كانت فيها الشهرة والخلافة ، وهما : "حرب بن أمية" و"أبو العاصي بن أمية" .

فأما "حرب بن أمية" فقد ورث شرفَ أبيه "أمية"، وكان رئيسًا لقريش بعد "عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف"، وكان من حُكامها؛ أي الذي يلجأ إليهم أصحابُ الخصومات للحكم بينهم فيها، لرجاحة رأيه. وقيل : إنه من المعدودين في بلغاء قريش وفصحائها، وإنه أولُ من استعمل الكتابة العربية في مكة، ومن أوائل من أنكروا شرب الخمر، وعُرف عنه الكرم. وكان "حربُ بن أمية" قائدًا لبني أمية وأحلافها في حرب "الفِجار" الرابع، التي وقعت بين "قريش" ومن معها من "كنانة" (في ناحية)، و"قيس عيلان" و"ثقيف" وأحلافها (من ناحية أخري)، وكان ذلك في أواخر القرن السادس الميلادي، وهي الحرب التي شهدها الرسول محمد ﷺ مع عمومته وهو في سن العشرين من عمره. وقد تحمل "حرب" الديات في ذلك اليوم

من ماله حينما دعا الناسُ إلي الصلح بعد أن كثر القتل بين الفريقين.

وإذا كانت قريش كلُّها قد شاركت في هذه الحرب فإن بروز دور الأسرة الأموية زاد من مكانة هذه الأسرة، وجعلها ندًا للأسر الأخرى، وأهمها "بنو هاشم".

ومن أبناء "حرب بن أمية" الذين نالوا الشرف والمكانة العالية في الجاهلية: "أبو سفيان" واسمه "صخر"، كان من أشراف قريش، ذا حلم ورأي ودهاء، وكان يقود المشركين في الحرب ضد المسلمين، قادهم في " أُحد" و"الأحزاب"، ولم يُسلم إلا عام فتح مكة (٨ هـ) وتألفه رسول الله ﷺ وأعطاه في ذلك اليوم ما لم يُعط أحدًا غيره حين قال : "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقي السلاح فهو آمن ".

وقد شهد أبو سفيان "غزوتي" حُنين " و"الطائف" مع رسول الله ﷺ، وأعطاه النبي ﷺ مائة بعير وأربعين أوُقية، وأعطي مثل ذلك لابنه " يزيد ابن أبي سفيان"، وأرسل رسول الله ﷺ أبا سفيان عاملاً علي " نجران" كما عينه أبو بكر ﷺ على "الصدقات" في اليم. واشترك في معركة اليرموك بالشام (سنة ١٣هـ) التي انتصر فيها المسلمون علي الروم، وفُقئت عينُه. وكانت وفاته بالمدينة النبوية في زمن خلافة عثمان بن عفان ﷺ (سنة ٣١هـ). وقيل: (سنة ٣٢هـ)، وقد اقترب عمره من سبعين سنة .

ولأبي سفيان أولاد كثيرون، منهم من مات علي الشرك، مثل حنظلة، قُتل يوم بدر. ومنهم من أسلم، كأم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، زوج رسول الله ﷺ، توفيت (سنة ٤٤هـ). ويزيد بن أبي سفيان: أسلم عام الفتح، وحضر غزوة حُنين، وولاه أبو بكر الصديق ﷺ علي أحد الجيوش الأربعة التي توجهت لفتح بلاد الشام، وولاه عمر بن الخطاب ﷺ أميرًا عليها، وكان أول من وليها من المسلمين، ثم توفي في طاعون عَمْواس (سنة ١٨هـ).

ومن أبناء أبي سفيان: "معاوية" ﷺ، وأمه هي "هند بنت عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس". أسلم في عام "عُمرة القضاة" (٧هـ) ثم أظهر أسلامه عام الفتح

(٨هـ)، وكان من كتبة الوحي لرسول الله ﷺ، وشهد معركة اليمامة (١٢هـ) في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ، واشترك في قتل "مُسيلمة الكذاب". ولم يزل "معاوية" مع أخيه "يزيد" بالشام في خلافة عمر ﷺ ، حتى توفي "يزيد" فولاه عمر مكانه أميرًا علي الشام، واستمر واليًا عليها مدة خلافة عثمان بن عفان ﷺ (٢٣-٣٥هـ)، ثم وقع الخلاف بينه وبين علي بن أبي طالب ﷺ بشأن إقامة حد القصاص علي قتلة عثمان ﷺ، واستمر الخلاف إلي أن قتل علي ﷺ، وتولي ابنه الحسنُ الخلافة، ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١هـ. وسيأتي الحديث عن ذلك في دراستنا لهذا الموضوع.

وكان لمعاويةَ أولادٌ، بنين وبنات، منهم "يزيد بن معاوية" الذي تولي الخلافة بعهد من أبيه (سنة ٦٠هـ)، واستمر خليفة مدة أربع سنين، وتوفي في ربيع الأول (سنة ٦٤هـ). ومن أولاد "يزيد بن معاوية" : "معاوية بن يزيد"، ويقال له "معاوية الثاني" . تولي الخلافة بعهد من أبيه "يزيد" مدة أربعين يومًا، وقيل: شهرين، وقيل غير ذلك، ثم مات عن إحدى وعشرين سنة، ولم يعهد لأحدٍ بعده بالخلافة.

وهؤلاء الثلاثة (معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وابنه يزيد، ومعاوية بن يزيد) يمثلون الفرع السفياني من الخلفاء الأمويين .

وبعد موت "معاوية الثاني" انتقلت الخلافة الأموية من الفرع السفياني إلي الفرع المرواني، حينما اجتمع بنو أمية علي تولية مروان بن الحكم بن أبي العاص بن حرب بن أمية بن عبد شمس" الخلافة، بعد أن كادت تخرج تمامًا من الأسرة الأموية إلي عبد الله بن الزبير ﷺ. وسيأتي بيان ذلك لاحقَ في موضعه من الدراسة إن شاء الله تعالي .

و"مروان" هو جدُّ الخلفاء الأمويين الذين جاءوا من نسل أولاده الثلاثة : عبد الملك بن مروان، و"عبد العزيز بن مروان"، و"محمد بن مروان". وقد تولى عبد الملك الخلافة (٦٥-٨٦هـ)، ثم ابنه "الوليد بن عبد الملك" (٨٦-٩٦هـ)، ثم "سليمان بن عبد الملك" (٩٦-٩٩هـ)، وبعده "عمر بن عبد العزيز ابن مروان" (٩٩-١٠١هـ)، ثم "يزيد بن عبد الملك" (١٠١-١٠٥هـ)، ثم هشام ابن عبد

الملك (١٠٥-١٢٥هـ)، وبعده "الوليد بن يزيد ابن عبد الملك" (١٢٥-١٢٦هـ)، ثم "يزيد بن الوليد بن عبد الملك" (١٢٦هـ) ثم "إبراهيم بن الوليد (١٢٦هـ). وأخيرًا "مروان بن محمد بن مروان بن الحكم" (١٢٧-١٣٢هـ)، وهو آخر الخلفاء الأمويين. وإليك هذه الملاحظات:

أولاً : كان عددُ الخلفاء الأمويين أربع عشرة خليفة، ثلاثةٌ من الفرع السفياني، وأَحَدَ عَشَرَ من الفرع المرواني. ومن الباحثين من يري أن عدد الخلفاء الأمويين اثنا عشر خليفة، حيث كان عبد الله بن الزبير متغلبًا علي أقاليم واسعة من الدولة الإسلامية، أي : في الحجاز واليمن والعراق وخراسان، من (سنة ٦٤هـ) إلي(سنة ٧٣هـ)، وفي هذه الأثناء لا يَعْتبرُ البعضُ فترة معاوية "الثاني" ومروان بن الحكم، وجزءًا من حكم عبد الملك بن مروان خلافة أموية.

ثانيًا : كانت مدة الخلافة الأموية واحدا وتسعين سنة، وتسعة أشهر، تبدأ من (٢٥) ربيع الأول (سنة ٤١هـ)، وهو اليوم الذي بويع فيه معاوية بن أبى سفيان بالخلافة، وتنتهي بمقتل آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد علي أيدي العباسيين لثلاث بقين من ذي الحجة (سنة ١٣٢هـ).

ثالثًا : كانت مدة أربعة من الخلفاء الأمويين فقط سبعين سنة، وهم معاوية ابن أبي سفيان (الخليفة الأول) وعبد الملك بن مروان (الخليفة الخامس)، والوليد بن عبد الملك (الخليفة السادس)، وهشام ابن عبد الملك (الخليفة العاشر). وبقية الخلفاء كانت مدة خلافتهم مجتمعة إحدى وعشرين سنةً فقط .

قيام الدولة الأموية

البيعة لعليّ بن أبي طالب ﷺ بالخلافة بإجماع الصحابة:

قُتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ شهيدًا مظلومًا يوم الجمعة لثمانِ عشرةَ مَضَتْ من ذي الحجة، سنة خمس وثلاثين، بأيدي الثائرين من الرعاع الخارجين

عليه. ولقد ساد الهَرْجُ والاضطراب عاصمةَ الخلافة «المدينةَ النبوية»، ولم يَعُدْ ثمَّة سلطةٌ عليا تحكم الدولةَ الإسلامية، ولم يكن في استطاعة " الخوارج" الذين يسيطرون على «المدينة» أن يقيموا خليفةً منهم، لأنهم يعلمون أن هذا الأمرَ يخُصُّ الصحابةَ من المهاجرين والأنصار وحدهم، وأن الناسَ تَبعٌ لهم في ذلك، فأخذوا يَعْرِضُون «الخلافةَ» على كبار الصحابة (أمثال علي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر)، لكنهم كانوا جميعًا يُعرِضُون ويرفضون، لضخامة المسئولية .

لكن كانت الأمة في حاجة إلى (إمام) ينقذها من هذه الفوضى، ويقودها إلى بر السلامة والأمان، وتجتمع عليه الكلمة، ولابد من الإسراع في ذلك قبل أن يقعَ الخلافُ والشرُّ، فيكون له أسوأُ النتائج. ومن هنا ألحَّ الناسُ على أبي الحسن عليّ بن أبي طالب ﷺ أن يَقْبلَ البيعةَ بالخلافة، ولم يزالوا به حتى أجابهم ووافقهم بعد تَمنُّع شديد منه، وقَبِلَ البيعةَ تقديرًا للمسئولية الدينية، وإنقاذًا للأمة من المخاطر المحيطة بها. وقد عَبَّر هو ﷺ عن ذلك بقوله – كما جاء في رواية الطبري– :« لولا الخشيةُ على دينِ الله لم أُجِبْهم».

وقد روى أبو بكر الخلاَّل في كتاب (السُّنَّة) كيفيةَ اختيار عليّ ﷺ للخلافة، بإسناده إلى محمد بن الحنفية (وهو أحد أبناء عليّ) – قال: بعد أن ذكر مقتلَ عثمانَ ﷺ والتزامَ عليٍّ دارَه – « فأتاه أصحابُ رسول الله ﷺ فقالوا: إن هذا الرجل قد قُتل (يعني عثمان ﷺ)، ولا بد للناس من إمام، ولا نجدُ أحدًا أحقَّ بها منك، أقدمَ مشاهدَ، ولا أقربَ من رسول الله ﷺ . فقال عليّ: لا تفعلوا، فإني وزيرٌ خيرٌ من أمير. فقالوا: لا واللهِ، ما نحن بفاعلين حتى نبايَعك. قال: ففي المسجد، فإنه ينبغي لبيعتي ألا تكون خفيًا، ولا تكونَ إلا عن رضا المسلمين، فلما دخل المسجدَ جاء المهاجرون والأنصار فبايعوه، وبايع الناسُ».

ولقد كان الصحابة في هذه المحنة يُصرِّحُون بأنه « لم يكن يَصْلُحُ للخلافة إلا عليّ». وكان – بحقٍّ – أحقَّ بها وأهلَهَا في ذلك الوقت، إذ كان هو أفضلَ الصحابةِ الموجودين حينئذ. وقد روى البيهقي بإسناده عن الإمام أحمد أنه قال:

« لم يكن أحدٌ أحقَّ بالخلافة في زمانِ عليّ مِنْ عليّ». ولذلك قَصَده الصحابةُ، وألحوا عليه في قَبُول البيعة، واتفقوا على بيعته، وارتضوه جميعًا.

وليس بصحيح أن طلحةَ بنَ عُبيد الله والزبيرَ بن العوام رضى الله عنهما بايعا مُكْرَهَيْن تحت تهديد الثائرين المسيطرين على المدينة. وإنما الصحيح – والذي دلت عليه الروايات الصحيحة – أنهما بايعا برضا وطواعية. ومن الأدلة الدالة على ذلك ما رواه الطبريُّ في تاريخه عن عوف ابن أبي جميلة قال: أما أنا فأشهد أني سمعتُ من محمد بن سيرين (وهو تابعي ثقة، توفي١١٠هـ) يقول: «إن عليًا جاء فقال لطلحة: ابسطْ يدَك يا طلحةُ لأبايِعَك. فقال طلحة: أنت أحقُّ وأنت أميرُ المؤمنين، فابسطْ يَدك. فبسط عليٌّ يده، فبايعه». وروى عُمر بن شبَّة في كتاب (أخبار البصرة) – بإسناد صحَّحه ابن حجر– عن علقمةَ النخعي (من تلامذة ابن مسعود) قال: قال الأشتر النخعي: «رأيتُ طلحةَ والزبيرَ بايعا عليًا طائِعيْن غيرَ مُكْرَهَيْن».

والحاصلُ أن بيعةَ عليّ بن أبي طالب ﷺ تمت بإجماع الصحابة، المهاجرين والأنصار، ولم يتخلف أحدٌ منهم عن البيعة، ومن ثمَّ أصبح خليفةً وإمامًا حقًا، يجب على سائر الناس طاعتُه، ويحرُمُ عليهم مخالفتُه. وقد نقل كثيرٌ من أهل العلم الإجماعَ على صحة الخلافة لعليّ ﷺ وشرعيتها، وأحقيتَه لها بعد عثمان ﷺ. وقد امتنع معاويةَ من إعطاء البيعة، فكان بينهما بَعدُ ما كان، أي: وقع بينهما قتالٌ بسبب الخلافِ الذي حدث حول قضيةِ إقامة حدّ القصاصِ على مَنْ قَتَل عثمانَ ﷺ.

وعدمُ إذعان معاوية ﷺ لعلي لا يؤثر على الإجماع المنعقد له بالخلافة، لأن معاوية لم يقاتل عليًا على الخلافة، ولم ينكر إمامته وفضله وأحقيته، وإنما كان يقاتل من أجل تعجيل إقامة حد القصاص الشرعي على الذين اشتركوا في قتل عثمان ﷺ، وكان معاويةُ يظن أنه مصيبٌ في اجتهاده وسعيه هذا، لكنه كان مخطئًا، وهذا ما استقر عليه أهلُ السُّنَّة واتفقوا عليه وقرروه في كتبهم.

عليٌّ يعزل الولاة الذين عينهم عثمان وموقف معاوية بن أبي سفيان أمير

الشام من العزل :

بعد أن تمت البيعةُ لعلي ﷺ بالخلافة: «كان عليه أن يواجه الموقفَ الصعبَ الذي نتج عن استشهاد أمير المؤمنين عثمان ﷺ بكل تعقيداته». وكانت أولَ خطوة خطاها بعد البيعة أنه أقدم على عزل الولاةِ الذين ولاهم عثمانُ ﷺ، مثلَ أبي موسى الأشعري ﷺ (أمير الكوفة)، وعبد ِالله بن عامر بن كُريز ﷺ (الوالي على البصرة)، وعبدِ الله بن سَعْد بن أبي سَرْح – أخِ عثمان من الرضاع – (وكان أميرًا على مصر)، وخالد بن أبي العاص (أمير مكة)، ومعاوية بن أبي سفيان (الوالي على بلاد الشام)، ويَعْلَى بن أمية (الوالي على اليمن). وقد رأى عليٌّ ﷺ أن الأمور لن تستقيم إلا بعزل هؤلاء الولاة، وأدرك أن من الأسباب الرئيسية للفتنة عدم رضا مجموعة من الناس عن الولاة الذين عينهم عثمان ﷺ. وهنا لا بد من التأكيد على أن عليًا ﷺ لم يعزل هؤلاء الولاة لعجزهم وظلمهم، كما أشاع عنهم رؤساء الفتنة الذين سعوا في قتل الخليفة عثمان ﷺ .

والحقُّ أننا إذا ما تعرفنا على سيرة الولاة الذين ولاهم عثمان ﷺ فسوف ندرك أنهم كانوا من خيرة الرجال، كفاءةً وعدلاً وقدرة على إدارة شئون ولاياتهم، ولم يكن عند واحدٍ منهم ما يقدح في دينه أو أمانته في خدمة الإسلام. وقد فتح الله تعالى على أيديهم الكثير من البلدان، وقاموا بدور الجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام، وساروا في الرعية سيرةَ العدل والإحسان، وبذلوا الجهدَ في توفير الأمن والاستقرارِ في بلادهم، والتوسعةِ على الناس في الأرزاق. وكان منهم مَنْ تقلَّد مهامَّ الولاية قبل ذلك في عهدي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

والولاةُ الجدد الذين عينهم عليٌّ ﷺ – وكانوا أيضًا من خيرة الرجال وأفاضلهم، ولا يقلون كفاءةً ودينًا وخبرةً عن الولاة المعزولين– هم: عُبيد الله ابن عباس (على اليمن) بدلاً من «يَعْلَى بن أمية». وعثمان بن حُنيف (على البصرة) بدلاً من «عبد الله بن عامر بن كُريز». وعمارة بن شهاب (على الكوفة) بدلاً من «أبي موسى الأشعري». وقيس بن سعد بن عبادة (على مصر) بدلاً من «عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح». وسهل بن حُنيف (على

الشام) بدلاً من «معاوية بن أبي سفيان».

ولقد استطاع ثلاثة من هؤلاء الولاة الجدد الوصولَ إلى ولاياتهم ومباشرةَ أعمالهم دون مشاكل، وهم: عثمان بن حُنيف الذي وصل إلى البصرة بعد أن تركها عبدُ الله بن عامر ذاهبًا إلى مكة. والثاني: عُبيد الله بن عباس الذي وصل إلى اليمن بعد أن تركها يَعْلَى بن أمية. ووصل قيسُ بن سعد بن عبادة إلى مصر، وكان ابنُ أبي سَرْح قد غادرها قبل مقتل عثمان، فلم يَعُدْ إليها، واعتزل الفتنةَ، فسيطر عليها محمدُ بن أبي حذيفة، وهو من الذين اشتركوا في إثارة الفتنة على عثمان. أما عمارة بن شهاب – الوالي الجديد على الكوفة – فلم يتمكن منها؛ لأن أهلها تمسكوا بأبي موسى الأشعري ﷺ، فقبِلَ الخليفة منهم ذلك، وكتب إليه أبو موسى بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم له. وكذلك لم يستطعْ سهلُ بن حنيف دخولَ الشام، فقد منعه جندُ معاويةَ من ذلك .

وكان كلٌّ من عبد الله بن عباس، والمغيرة بن شعبة قد أشارا على عليّ ابن أبي طالب ﷺ بالإبقاءِ على الولاة الذين عينهم عثمانُ إلى أن تستقرَّ الأحوالُ، ويعودَ الأمنُ والاستقرارُ. لكنّ عليًا ﷺ رفض هذه المشورةَ. ثم اقترح ابنُ عباس عليه أن يُقرَّ معاويةَ – خصوصًا– على ولاية الشام، وقال له: « إني أخشى إن عزلتَه عنها أن يطلبَك بدم عثمان، ولا آمنُ من طلحةَ والزبيرِ أن يتكلما عليك بسبب ذلك» .

إن هذا الاقتراح الذي أشار به ابن عباس اقتراحٌ وجيه وجيد؛ فمعاويةُ لم يكن موضعَ شكوى من أحدٍ من رعيته – أهل الشام– ولم يشترك أحدٌ منهم في الفتنة ضد عثمان ﷺ، ولا سعى أحدٌ منهم في قتله، فإذا أبقى عليٌ معاويةَ في ولايته لا يلومه أحدٌ. وكان ابنُ عباس من ناحية أخرى يعرِفُ أن معاويةَ لن يُذْعِنَ لقرار العزل، وسيبقى في ولايته. لكن عليًا ﷺ لم يقبل ذلك، وتمسك برأيه، وعزم على عَزْل جميع الولاة، بما فيهم معاوية، واستعمل حقه – كخليفة مسئول – طبقًا لاجتهاده، لما يراه محققًا لمصلحة الأمة، ولتحقيق الانسجام الإداري والسياسي بين الخليفة وأعوانه .

ومن الملاحظ: أن الإمامَ عليًا ﷺ لم يعاملْ الشامَ كما عاملَ الكوفةَ، فبينما

وافق على إبقاء أبي موسى واليًا عليها بناء على رغبة أهلها، فقد رفض إقرارَ معاويةَ في ولاية الشام، مع أن تمسُّكَ أهلِها به كان أشدَّ من تمسُّكِ أهلِ الكوفة بأبي موسى الأشعري. وهنا يجب أن نتذكر نصيحةَ حبر الأمة عبد الله بن عباس لعليّ بإبقاء معاوية في ولايته؛ لأنه كان يمثّل قوة كبيرة. وأغلبُ الظن أنه إذا فعل ذلك لكان من الممكن أن تتفادى الأمةُ كثيرًا من الحوادث والعقبات التي شُغلت بها وأعاقتها عن مواصلة مسيرتِهَا زمنًا، ولكنها إرادة الله وقضاؤه. ويعلق ابنُ تيمية رحمه الله على موقف الإمام عليّ مِن عَزْله معاويةَ فيقول: «فليت عليًا تألَّفَ معاويةَ وأمَّرهُ الشامَ وحَقَنَ الدماء ». وقال ابن تيمية أيضًا: « كان معاويةُ خيرًا من كثير ممن استنابه عليّ، فلم يستحق أن يُعزَلَ ويُولَّى مَنْ هو دونه في السياسة، فإن عليًا استناب زيادَ بن أَبيه (أي: وهو أقلُّ من معاوية فضلاً ومنزلة). وقد أشاروا على عليّ بتولية معاوية، وقالوا له: يا أمير المؤمنين تولّيه شهرًا، واعزِلْه دهرًا. ولا ريب أن هذا كان هو المصلحة، إما لاستحقاقه، وإما لتأليفه واستعطافه، فقد كان رسول الله ﷺ أفضلَ من عليّ، وولَّى أبا سفيان، ومعاوية خيرٌ منه، فولّى مَنْ هو خيرٌ من عليّ مَنْ هو دون معاوية ».

ومن ناحية أخرى كان من المأمول أن يستجيبَ معاويةُ لقرار العزل، ويتأسى في ذلك بسعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما، عندما عزلهما عُمَرُ بن الخطاب ﷺ، فَقَبِلا وآثرا مصلحةَ الأمة على نفسيهما. لكنَّ معاويةَ ﷺ لم يفعل، ورفض البيعةَ لعليٍّ بالخلافة، إلا بعد أن يقيمَ القِصَاصَ على قَتَلَة عثمان ﷺ، ولم يكن معاويةُ ينازعُه الخلافة، ولا يرى نفسَه أفضلَ منه، وقد أقر هو نفسه بذلك للوفد الذي أرسله عليّ إليه لما احتدم الخلاف بينهما – وفيهم أبو مسلم الخولاني– حيث قال له: أنتَ تنازع عليًا ؟ أَوَ أنت مثله ؟ فقال: « والله إني لأعلمُ أنه خيرٌ مني وأفضلُ، وأحقُّ بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمانَ قُتِلَ مظلومًا، وأنا ابنُ عمه، وأنا أطلبُ بدمه، وأَمْرُهُ إليَّ ؟ فقولوا له: فَلْيُسلِّمْ إليَّ قَتَلَةَ عثمان، وأنا أُسلِّم له أمرَه». فلما أتوا عليًا وكلَّموه بما قاله معاوية قال: « يدخل في البيعة ويحاكمهم إليَّ»، أي عليه أن يبايع أولاً، ثم يرفع القضية إلى الحاكم لينظر فيها؛ لأنه المسئول الأول عن إقامة الحدود.

لقد امتنع معاويةُ وأهلُ الشام عن البيعة لعليّ، ورأوا أن يقتصَّ على ﷺ من القتلة أولا، ثم يدخلوا في البيعة، ورأوا أن البيعة لعليّ لا تجب عليهم، وأنهم إذا قُوتلوا على ذلك كانوا مظلومين. وكان معاوية ﷺ يرى أنَّ عليه مسئولية الانتصار لعثمان، والقوَد من قاتليه، والله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء:٣٣]. لذلك جمع معاوية الناس، وخطبهم بشأن عثمان، وأنه قُتل مظلومًا على يد سفهاء منافقين لم يُقدِّروا الدَّمَ الحرامَ، إذْ سفكوه في الشهر الحرام، وفي البلد الحرام. فثار الناس واستنكروا، وأيدوا معاوية في دعواه وموقفه .

ومن هنا يتبين أن محل النزاع هو التعجيل بتنفيذ حكم الله في القتلة وهذا هو السبب الرئيسي في رفض أهل الشام – بقيادة معاوية بن أبي سفيان – البيعةَ لعلي، ورأوا أن تنفيذَ حكم القصاص مُقدَّم على البيعة.

والحق أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ لم يكن أقلَّ من غيره حرصًا على إقامة الحد على قتلة عثمان، وأنه لن يُقصِّرَ في إقامة الحدِّ على قاتلٍ أبدًا، فضلاً عمن قتلوا الخليفة، لكن الموقف الذي هم فيه آنذاك لا يمكِّنه من ذلك، فإذا كان الذين نفَّذوا القَتْلَ في عثمان ﷺ عددًا محدودًا (قيل: هم الغافقيُّ بن حرب زعيم ثوار مصر، ومعه سُودان بن حمران، وكِنانةُ بن بشر التُّجيبي)، إلا أنَّ وراءَهم عشرةَ آلاف من الثائرين الذين ضَلَّلوهم وأقنعوهم بسلامة موقفهم، ومن ثَمَّ فهم مستعِدُّون للدفاع عنهم، ولذلك كانوا عندما يسمعون قائلاً يقول: مَنْ قتل عثمان؟ كان العشرةُ آلاف يصيحون: «نحن جميعًا قلناه» ومن هنا كان رأيُ عليّ بن أبي طالب واجتهادُه: الصبرَ والتَّرَيُّثَ ريثما تهدأُ الأوضاعُ، ويعودُ الناسُ إلى بلادهم، وعندئذ يمكنُ التحقيقُ في الأمر، وإقامةُ الحدّ على القتلة الحقيقيين. وقد عبَّر الإمام عليّ عن موقفه هذا عندما دخل عليه جماعة من رءوس الصحابة بعد إتمام البيعة له– فيهم طلحة والزبير رضي الله عنهما – وطلبوا منه إقامة الحدود، والأخذَ بدم عثمان، فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مَدَدٌ وأعوان، وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا. وقال لهم: «ياإخوتاه، إني لست أجهلُ ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عُبْدَانُكم،

وثابت إليهم أعرابُكم، وهمْ خِلالكم (أي: يعيشون بينكم) يَسُومُونكم ما شاءوا (أي: يسيطرون عليكم) فهل ترون موضعًا لقدرةٍ على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا، قال: فلا – والله – أرى إلا رأيًا ترونه أبدًا، إلا أن يشاء الله...».

وقد فسَّر ابن تيمية في (منهاج السنة النبوية) موقفَ عليّ بن أبي طالب ومعاويةَ في قضية القصاص بقوله: « لم يكن علي – مع تفرق الناس عليه– متمكنًا من قَتْل قَتَلَة عثمان إلا بفتنة تزيد الأمرَ شرًا وبلاءً، ودَفْعُ أفسدِ المفسدتين بالتزام أدناهما أَوْلَى من العكس؛ لأنهم (أي: الذين احتلوا المدينة النبوية وقتلوا عثمان) كانوا عسكرًا (أي يمثلون قوة كبيرة مسلحة)، وكان لهم قبائلُ تَغْضَبُ لهم، والمباشرُ منهم للقتل (أي: الذين نفذوا جريمة القتل)– وإن كانوا قليلاً– كان رِدْؤهم (أي: الذين يساندونهم) أهلَ الشوكة، ولولا ذلك لم يتمكّنوا. ولما سار طلحةُ والزبير إلى البصرة ليقتلوا قتلة عثمان قام بسبب ذلك حرب (الجمل) قُتل فيها خَلْقٌ. ومما يبين ذلك أن معاويةَ قد أجمع الناسُ عليه بعد موت علي، وصار أميرًا على جميع المسلمين، ومع هذا فلم يقتل قتلة عثمان الذين كانوا قد بقوا (أي: على قيد الحياة)... فإن كان قتلُهم واجبًا – وهو مقدور له – كان فعله بدون قتال المسلمين أولى من أن يقاتل عليًا وأصحابه لأجل ذلك. ولو قتل معاويةُ قَتَلَة عثمان لم يقع من الفتنة أكثر مما وقع ليالي صِفّين. وإن كان معاوية معذورًا في كونه (بعد أن صار خليفة) لم يقتل قتلة عثمان– إما لعجزه عن ذلك، أو لما يفضي إليه ذلك من الفتنة وتفريق الكلمة، وضعفِ سلطان– فعليٌّ أَوْلَى أن يكون معذورًا أكثر من معاوية، إذ كانت الفتنةُ وتفريقُ الكلمةِ وضَعْفُ سلطانِه بقتل القتلة لو سعى في ذلك أشدَّ...».

هذا ما كان يراه علي بن أبي طالب ﷺ . لقد كان موافقًا – من حيث المبدأ – على وجوب إقامة القصاص من قتلة عثمان ﷺ، لكنه رأى أن يُرجئَ القصاصَ من هؤلاء إلى حين استقرار الأوضاع، وهدوء الأمور، واجتماع الكلمة. وبناء على هذا فإن الاختلاف الذي وقع بين علي ومعاوية لم يكن في أصل المسألة، وإنما كان في الطريقة التي تُعالَجُ بها هذه القضية.

وقد بدأ عليٌّ في مراسلة معاوية مرةً بعد مرة، يدعوه إلى البيعة والدخول في الجماعة، لكن ذلك لم يؤد إلى نتيجة، وبقي معاوية على مطالبته بالقصاص من

قتلة عثمان، أو تسليمهم إليه- باعتباره ولي دم عثمان- قبل النظر في البيعة، وساندوه في ذلك سبعون ألفًا من أهل الشام، كلهم يبكون تحت قميص عثمان المعلق على منبر المسجد الجامع بدمشق. وعندئذ عزم عليٌّ بن أبي طالب على قتال معاوية، واعتبره من البُغَاة الذين خرجوا على طاعةِ الخليفة، فأعد العُدَّةَ، وجهز جيشه ليسير به إلى الشام لقتال الفئة الباغية. وقد نصحه كثيرون بعدم اللجوء للحرب؛ لأن عواقبها وخيمة، ومنهم ابنه الحسن ﷺ الذي قال له: «يا أبتِ، دَعْ هذا، فإن فيه سَفْكَ دماءِ المسلمين ووقوعَ الاختلاف بينهم». لكن عليًا ﷺ لم يقبل ذلك وصَمَّمَ على القتال. وبينما هو يستعدُّ لذلك جاءتْه أخبارٌ أخرى مُفْزِعَة لم تكن في حسبانه، تُخبره بمسير السيدة عائشة رضي الله عنها في جماعة من الناس- فيهم طلحة بن عُبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهما- من مكة إلى البصرة يبحثون عن قتلة عثمان، فتوجه إليهم بجيشه، وتطورت الأحداث إلى وقوع القتال فيما يُعرف بمعركة الجمل (منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ).

وبعيدًا عن تفاصيل الأحداث **فإن خلاصة ما تطمئنُّ إليه النفس بعد الدراسة المتأنية المحايدة لما حدث في معركة الجمل ومقدماتها:** «أنه لا عائشةَ ولا طلحةَ ولا الزبير ولا عليًا ﷺ كانوا يريدون القتال وسَفْك الدماء، ولم يكونوا يتصورون أن ذلك سيحدث، وكلُّ ما دفع عائشةَ ومن معها للخروج إلي البصرة هو اقتناعهم بأن عثمانَ قُتِلَ مظلومًا، وعليهم تقع مسئوليةُ إقامة الحد على قتلته، ولم يكونوا أبدًا معادين لعلي أو معترضين على خلافته، وكانوا جميعًا يميلون إلى الصلح، لولا أن السبئية (أتباع عبد الله بن سبأ) أفسدوا كل شيء، وأوقعوا الحرب، فعليهم (أي: السبئية) تقوم التَّبعة، وتقعُ المسئوليةُ؛ لأنهم هم الذين أشعلوا الفتنة من البداية، وقتلوا خليفة المسلمين ظلمًا. أما الصحابة الكرام الذين اشتركوا في هذه الحرب، فأصدق تعبير عن موقفهم ما قاله ابن خلدون عنهم: «وإذا نظرتَ بعين الإنصاف عَذَرَت القوم أجمعين، وعلمتَ أنها فتنة ابتلى الله بها الأمة».

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري): «إن أحدًا لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا عليًا في الخلافة، ولا دعوا إلى أحدٍ منهم ليولوه الخلافة،

وإنما أنكرتْ ومَنْ معها على عليٍّ ﷺ مَنْعَه مِن قَتْل قَتَلَةِ عثمانَ، وتركِ القصاص منهم . وكان عليٌّ ينتظر من أولياء عثمان أن يتحاكموا إليه، فإذا ثبت على أحد يعينه أنه ممن قتل عثمانَ اقتص منه، فاختلفوا بحسب ذلك، وخشي من نَسَبَ إليهم القتلَ أن يصطلحوا على قتلهم، فأنشبوا الحرب بينهم (أي: أثاروها) إلى أن كان ما كان».

ولقد ندمت عائشة رضي الله عنها ندمًا شديدًا على ما حدث، وقالت: «والله لوددت أني متُّ قبل هذا اليومِ بعشرين سنة». وندم عليٌّ هو الآخر على ما حدث، وقال العبارة نفسها التي قالتها عائشة «فكان قولُهما واحدًا» كما يقول الطبري في (تاريخه) .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية معلقًا على أحداث معركة الجمل: «إن عائشة لم تقاتل ولم تخرج لقتال، وإنما خرجتْ لقصدِ الإصلاح بين المسلمين، ثم تبين لها فيما بعد أن تركَ الخروج كان أولى، فكانت إذا ذكرت خروجَها تبكي حتى تُبِلَّ خِمَارَها. وهكذا عامة المسلمين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال. فندم طلحةُ والزبيرُ وعليٌّ رضى الله عنهم، ولم يكن يومَ الجملِ لهؤلاء قَصْدٌ في الاقتتال، ولكن وقع الاقتتالُ بغير اختيارهم، فإنه لمَّا تراسل عليّ وطلحة والزبير وقصدوا الاتفاقَ على المصلحة، وأنهم إذا تمكنوا طلبوا قتلةَ عثمان– أهل الفتنة – فخشي القتلة، فحملوا على عسكر طلحة والزبير، فظن طلحة والزبير أن عليًا حمل عليهم، فحملوا هم دَفعًا عن أنفسهم، فظن عليّ أنهم حملوا عليه، فحمل هو دفعًا عن نفسه، فوقعت الفتنة بغير اختيارهم، وعائشة رضى الله عنها راكبة، لا قاتلتْ، ولا أمرتْ بقتال».

معركة صِفّين وحادثة التحكيم:

لم يمكث عليٌّ بن أبي طالب ﷺ بعد موقعة الجمل بالبصرة طويلاً، فبعد أن أعطى أهلُها بيعَتهم، واستقام له الأمرُ، وشيَّع أمَّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها لما أرادت الرجوع إلى مكة، اتجه بجيشه إلى الكوفة ليستعدَّ لملاقاة معاويةَ بن أبي سفيان بالشام، فقد كان عليٌّ لا يزال يرى أن معاوية على رأس الفئة

الباغية، ويجب قتاله ليعود إلى الجماعة. وأصر معاويةُ هو الآخر على موقفه من معاقبة قَتَلَة عثمان أولاً قبل إعطاء البيعة لعلي.

جهز عليّ ﷺ جيشًا كبيرًا قدَّرته الروايات ما بين خمسين ألفًا أو مائة وخمسين ألفًا، ويضم عددًا من الصحابة البدريين وأصحاب بيعة الرضوان، وتوجه به إلى «صِفّين»، حيث كان معاوية قد سبق إلى هناك بجيش يقارب جيش علي ﷺ في العدد، ستين ألفًا أو سبعين ألفًا، أو مائة وعشرين ألفًا. وبعد أن فشلت كلُّ جهود الصلح والمفاوضات بين الفريقين، وبعد أن توالت الوفودُ التي أرسلها عليّ إلى معاوية تدعوه إلى الدخول في الطاعة والجماعة دون جدوى: دارت بينهما معركةٌ هائلة في (شهر صفر سنة ٣٧هـ)، قُتل فيها من الجانبين نحو سبعين ألفًا، خمسة وعشرون من جيش عليّ ﷺ، وخمسة وأربعون من جيش معاوية. وكان من بين القتلى في صفوف جيش عليّ: عمار بن ياسر، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم. ولما رأى الناس كثرةَ القتلى، تنادوا من الجيشين يطلبون وقف القتال، فجعل أهل العراق (جيش علي) يصيحون في أهل الشام (جيش معاوية) قائلين: مَن لِثُغُور العراق إن فَنِي أهل العراق؟ ويردُّ الآخرون: مَن لثغور الشام إن فني أهل الشام؟ أي أن الفريقين كانا يتوقان إلى وقف القتال، وهنا جاءت فكرة التحكيم.

والتحكيم: هو رفع المصاحف من قِبل جيش معاوية والاحتكام إلى القرآن الكريم، ووقف القتال فورًا بدلاً من سفك الدماء، وإبقاءً على البقية الباقية من المسلمين، والاتفاق على ما فيه مصلحة المسلمين. وكانت الفكرة من عند عمرو بن العاص. وقد قبلها الطرفان، وأوقفت الحرب، وكان هذا مطلبًا ملحًّا لجميع الناس، بعد أن أفزَعهم عددُ القتلى.

وقد اختارَ كلُّ طرفٍ مَن يمثله في التحكيم، فوكَّل عليّ أبا موسى الأشعري (عبد الله بن قيس)، ووكل معاوية «عمرو بن العاص»، وكُتبت بين الفريقين وثيقة (في الثالث عشر من صفر سنة ٣٧هـ). وهذه الوثيقة توضح الإطار العام الذي يحكم المباحثات، وتوضح الهدف منها، وهو الإصلاح بين الأمة وعدم

ردها إلى الفرقة والحرب، كما تحدد مدة المباحثات، بعد ستة أشهر من الاتفاق، ومكان التحكيم، وهو « دومة الجندل»، وهو مكان متوسط بين الكوفة والشام والحجاز، غرب مدينة «الجوف» شمال الجزيرة العربية. واشترطت الوثيقة رضا الفريقين عمن يحضر المباحثات، أما الشهود فيختار كل طرف شهوده، وتلتزم الأمة بنصرة قرارات التحكيم كما يلتزم بذلك الشهود . وقد اجتمع الحَكَمَان في الموعد المحدد، ومع كل واحد منهما وفد من بضع مئات، أحدهما يمثل أهل العراق، وفيهم أبو موسى الأشعري، وعبد الله بن عباس، والآخر يمثل أهل الشام، وفيهم عمرو بن العاص، وحضر الاجتماع جَمْعٌ من الصحابة، وفيهم عبد الله بن عمر (وهو من الذين اعتزلوا حرب الجمل وصِفّين ولم يشترك فيهما)، وفيهم عبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة. ويقال: كان سعد بن أبي وقاص من بين الحضور، والصحيح – كما ذكر ابن كثير في تاريخه – أنه لم يحضر، وكان هو الآخر من الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة.

والذي نراه بعد النظر في الروايات وتمحيصها أن التحكيم لم يُسفر عن شيء، أي: أن الحَكَمَيْن افترقا ولم يتوصلا إلى اتفاق، ولا حلٍّ للقضية التي وقع بسببها الخلافُ، واجتمع من أجلها الحكمان، وهي القصاصُ من قَتَلَة عثمان ﷺ، حيث يرى عليّ ﷺ أن المصلحة تقتضي تأخير القصاص إلى حيث تهدأ الأحوالُ، ويعود الأمنُ والاستقرارُ، وكان يرى أن القضية ينبغي أن تأخذَ مجراها الشرعي والقانوني، بأن يتقدم أولياءُ المقتول بدعواهم إلى الحاكم، ثم يتم النظر فيها حسب الأصول المتعارف عليها في القضاء، وقد اعتبر عليٌّ معاويةَ باغيًا؛ لامتناعه من أداء البيعة، والدخول في طاعة الإمام وجماعة المسلمين، وانحيازه بجنده في الشام، وإصراره على إقامة حد القصاص أولاً على القتلة.

والدليل على أن التحكيم لم يتم التوصُّلُ فيه إلى حلٍّ للخلاف: ما أخرجه عبد الرزاق في (مُصنّفه) عن معمر، والطبري – من طريق يونس– كلاهما عن الزُّهري قال: « لما نشر أهل الشام المصاحف بمشورة عمرو بن العاص حين كاد أهل العراق أن يغلبوهم هاب أهلُ الشام ذلك إلى أن آل الأمر إلى التحكيم، ورجع كلٌّ إلى بلده، إلى أن اجتمع الحكَمان في العام المقبل بدومة الجندل،

وافترقا عن غير شيء، فلما رجعوا خالفتْ الحَرورية (الخوارج) عليًا، وقالوا: « لا حكم إلا لله ». وروى ابن عساكر في (تاريخ دمشق) ما يفيد أن الحكَمين اتفقا على ترك أمر الخلافة لكبار الصحابة الذين توفى النبي ﷺ وهو عنهم راضٍ، ليروا فيه رأيهم.

وممن انتصر لهذا الرأي من العلماء القاضي ابن العربي المالكي في كتابه (العواصم من القواصم)، وأيده في ذلك العلامة محب الدين الخطيب، واستدل ابن العربي بما رواه الدارقطني: أن عمرو بن العاص لما جاء موعد التحكيم التقى مع أبي موسى الأشعري فقال له: ما ترى في هذا الأمر؟ فقال أبو موسى: أرى أنه في النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم. فقال عمرو: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ قال أبو موسى: «إن يُستَعَنْ بكما ففيكما المعونة، وإن يُستَغْنَ عنكما فطالما استغنى أمرُ الله عنكما».

وقد بقيتْ الأوضاعُ على حالها، عليٌّ بن أبي طالب ﷺ خليفةُ المسلمين ويتصرف في البلاد التي تحت حكمه، وهي كل الأمة الإسلامية، عدا الشام التي كان معاوية أميرًا عليها وتحت حكمه، ثم انشغل عليٌّ ﷺ بقتال «الخوارج» في معركة «النهروان» (٣٩هـ)، إلى أن قُتل شهيدًا بتدبير واحدٍ منهم .

أما الروايات الشائعة التي تفيد بأن الحَكَمَيْن – أبا موسى، وعَمرو بن العاص – اتفقا على عزل علي ومعاوية رضي الله عنهم، وطلب عمرو من أبي موسى أن يسبق هو بالكلام فتقدم فقال: إني نظرت فخلعتُ عليًا من الأمر، ولينظر المسلمون لأنفسهم، كما خلعتُ سيفي هذا من عاتقي (وأخرجه ووضعه على الأرض)، ثم قام عمرو فوضع سيفه في الأرض (أي قائمًا) وقال: إني نظرت، فأُثَبِّتُ معاوية في الأرض، كما أُثَبِّتُ سيفي هذا في عاتقي، وتقلَّده. فأنكر أبو موسى هذا الكلام، فقال عمرو: كذلك اتفقنا. وفي رواية أخرى أن أبا موسى صعد المنبر وقال: «إني أنزع عليًا من الخلافة كما أنزع خاتمي هذا»، ثم نزع خاتمه، وقام عَمرو وقال: «وأنا أنزع عليًا كما نزعه أبو موسى، كما أنزع خاتمي هذا، وأُثَبِّتُ معاوية كما أُثَبِّتُ خاتمي هذا».

نقول: إن هذه الروايات وأمثالها لا تصح، وعلَّق عليها ابن العربي المالكي

بقوله: «هذا كله كذب صُراح، ما جرى منه حرف قط، وإنما هو شيء اخترعه المبتدعة». والذي يؤكد عدم صحة هذه الروايات وبطلانها أن راويها هو «أبو مخنف لوط بن يحيى»، وهو من الرواة الشيعة المتهمين بالكذب، حتى وإن جاءت رواياته في تاريخ الطبري، فليس كل ما روي في هذا الكتاب صحيحًا كما يعتقد بعض الباحثين. بالإضافة إلي إن هذه الروايات المكذوبة تُظهر الصحابةَ بمظهرلا يليق بمنزلتهم ومكانتهم، وتقدح في عدالتهم ودينهم، فقد أظهرت عمرو ابن العاص بمظهر الخداع والمكر، وتنسب أبا موسى إلى البلاهة والغفلة وضعف الرأي. وهذا كله يتعارض تمامًا مع سيرة هذين الصحابيين الجليلين من وجوه كثيرة لا يتسع المقام لذكرها .

وخلاصة القول: إن التحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر من عمرو بن العاص، ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة من أبي موسى، كما تصورهما تلك الروايات المغلوطة. وغاية ما يمكن قوله: إن الحكَمين اتفقا على ترك الأمر لأعيان الصحابة وكبارهم لينظروا فيه بما يحقق مصلحة المسلمين، وبقي الحال على ما هو عليه، عليٌّ ﷺ خليفة المسلمين ويتصرف في البلاد التي تحت حكمه، ومعاوية أمير في الشام، ويدير شئونها. فلما استشهد عليٌّ بُويع ابنُه الحسنُ بالخلافة، ثم تنازل عنها لمعاوية ولُقب بأمير المؤمنين كما سيأتي.

ظهور الخوارج وقتال علي ﷺ لهم في معركة النهروان (٣٨هـ):

الخوارج هم طائفة كانوا من أنصار الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ﷺ، رفضوا قَبُولَ «التحكيم» في معركة «صفين»، وخطَّأوه في ذلك، معتقدين أن «التحكيم» ليس حلاً للخلاف بين الطرفين، وأن حكم الله واضح، لا يحتاج إلى هذا التحكيم، ورفعوا شعارًا أخذوا يرددونه قائلين: «لا حكم إلا لله»، يشيرون إلى قول الله تعالى: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله**﴾ [يوسف:٤٠]. وقالوا أيضًا: «الحكم لله، لا لك يا علي»، ثم أعلنوا براءتهم من عليّ ﷺ وكفّروه وطالبوه بأن يُعلنَ توبته، ويُسْلمَ من جديد، وأن يعود بهم إلى قتال معاوية وأهل الشام. وقد رفض علي ﷺ الرجوعَ عن الاتفاق الذي أقره بينه وبين معاوية بخصوص التحكيم، ولم يكن باستطاعته ذلك، ولذا كان يقول: « لقد كتبنا بيننا وبينهم كتابًا، وشرطنا شروطًا،

وأعطينا عليها عهودنَا ومواثيقَنا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل:٩١]».

ولما رأى هؤلاء تمسُّكَ علي ﷺ بالاتفاق انفصلوا عن جيشه أثناء عودته من «صفين» إلى الكوفة، وكان عددهم ثمانية آلاف. وقيل: اثنا عشر ألفًا. وقيل: أكثر من ذلك، وليس فيهم أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، والحمد لله، ثم انحازوا إلى مكان قريب من الكوفة يُسمى «حَرُوراء»، ولذلك سمُّوا «الحرورية» نسبة إلى المكان، وأُطلِق عليهم «الخوارج»؛ لأنهم خرجوا على الخليفة، وأعلنوا عصيانهم له، وناصبوه العداء والقتال، وانفصلوا عن جماعة المسلمين. وقد أُطلق عليهم كذلك اسم «المحكِّمة»، أي: الذين رفضوا قضية «التحكيم»، ورددوا شعار «لا حكم إلا لله»، وكانوا دائمًا – قبل أن ينفصلوا ويتركوا الكوفة – يصيحون بهذا النداء في وجه علي ﷺ إذا خطب على المنبر، فكان يقول لهم: «كلمةُ حقٍّ أُرِيدَ بها باطل»، علينا ثلاثٌ (أي سنلتزم معكم بثلاثة أمور): «لا نمنعُكم مساجدَ الله، ولا نمنعُكم الفيءَ مادامت أيديكم معنا (أي سنعطيكم حقكم من الغنائم إذا جاهدتم معنا في سبيل الله ولم تنفصلوا عن جماعة المسلمين)، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا».

ولما انفصلتْ هذه الطائفةُ عن جماعة المسلمين وإمامه، ونزلوا في «حروراء» أرسل إليهم علي بن أبي طالب ﷺ حبرَ الأمةِ وتَرْجُمَانَ القرآن ابنَ عباس رضي الله عنهما لمناظرتهم وتوضيح أخطائهم، وإزالة شبهاتهم، فناقشهم وحاورهم، فاقتنع كثير منهم بكلامه، ورجع ألفان منهم عن آرائهم وأفكارهم، وظهر لهم خطأ ما هم عليه . لكن بقيت منهم بقية تمسكوا بآرائهم ومعتقداتهم الفاسدة، وأصَرُّوا على بدعتهم. بل وبدأوا يسعون في الأرض فسادًا، واستباحوا دماء وأموال مخالفيهم وكَفَّروهم، وقتلوا عبدَ الله بن خَبَّاب بن الأَرَتّ، ذبحوه كما تُذبح الشاة، وبقَروا بطن أم ولد له كانت حُبْلى.

وبالرغم من فظاعة ما ارتكبه هؤلاء الخوارج من منكرات لم يبادر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ إلى قتالهم، بل أرسل إليهم أن يسلموا القتلة لإقامة الحد عليهم، فأجابوه بعناد واستكبار: «كُلُّنَا قتلنا إخوانَكم، ونحن مُستحلُّون

دماءَهم ودماءَكم». وهنا استحلَّ عليّ قتالهم، وبيَّن لجنده أجر مقاتلتهم معتمدًا على حديث النبي ﷺ في شأن الخوارج: « يخرج قوم من أمتي، يقرأون القرآن، ليس قراءتُكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتُكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامُكم إلى صيامهم بشيء، يقرأون القرآن ويحسبون أنه لهم، وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، (أي: لا تقبل صلاتهم، أو لا ترتفع إلى فوق رءوسهم) يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة». ثم قال عليٌّ معقبًا: « لو يعلم الجيشُ الذي يُصيبونهم مما قُضي لهم على لسان نبيهم ﷺ لاتَّكلوا عن العمل » (رواه مسلم في صحيحه) .

سار عليّ ﷺ بجيشه في المحرم من (عام ٣٨هـ)، وعسكر على الضفة الغربية لنهر النهروان، وعسكر الخوارج على الضفة الشرقية للنهر بحذاء مدينة النهروان، وكانوا قد اختاروا من بينهم أميرًا عليهم، وبايعوه بالخلافة، وبإمرة المؤمنين، وهو «عبد الله بن وهب الراسبي». وعندما رفض الخوارج كل المحاولات التي بذلها علي ﷺ لإرجاعهم إلى الحق، وانقطع أمله في ذلك، ووجدهم مُصرِّين على المواجهة والقتال قام بترتيب جيشه، وتهيئته للقتال. ولما اجتمع الجيشان زحف الخوارج إلى جيش عليّ، وحملوا عليه حملة واحدة وهم يرددون: «لا حكم إلا لله»، فاستقبلهم الرماة ورموهم بالنبال وهجم عليهم الخيالة من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الفُرسان بالرماح والسيوف، حتى حصدوهم وأفنوهم، وتركوهم صرعى تحت سنابك الخيل، وقتلوا أمراءهم: عبد الله بن وهب، وحُرقُوص بن زُهَيْر، وشُريح بن أَوْفى، ولم يبق من الخوارج إلا الجرحى، ومَنْ فَرَّ، وهم عدد يسير فرُّوا بعد الهزيمة، ولم يُقتل من جيش عليّ ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً أو ثلاثة عشر، وقيل: تسعة نفر فقط.

وقد عامل عليّ ﷺ الخوارج قبل الحرب وبعدها معاملة المسلمين «البُغَاة»، ولم يحكم عليهم بأنهم كفَّار، فلم يَسْبِ منهم أحدًا، ومنع جنده من أن يتعقَّبُوا الفارين، ولا يُجْهَز على جريح، ولا يُمثَّل بقتيل، ولم يُقسِّم بين جنده إلا السلاح والخيل والأنعام. وقد حاول إرجاعهم إلى الجماعة والائتلاف، ووعظهم وخوفهم القتال، وكان قصده من ذلك كفّهم ومَنْعهم من ضلالتهم وبدعتهم.

أين الحق فيما حدث بين الصحابة في معركتي الجمل وصِفين؟

لقد اختلفت مواقف أصحاب رسول الله ﷺ في القضايا والأحداث التي وقعت على إثر مقتل الخليفة الشهيد عثمان بن عفان ﷺ. وقد اجتهدوا جميعًا في الوصول إلى الحقِّ الذين يدينون الله تعالى به، فمنهم من أخطأ، ولكن كان متأولاً، ولم يكن خطؤه هذا عن عمدٍ. كما أن الجميع كانوا يريدون وجه الله، والدار الآخرة والالتزام بأحكام الشرع الحنيف، ولم يكن غرضهم الحصول على الرياسة، أو تحقيق حظٍّ من حظوظ النفس والهوى. والذي عليه أهل السُّنَّة والجماعة فيما حدث بينهم هو أن عليًا ﷺ ومن قاتل معه كانوا على الحق والصواب، أو أقرب إليه وأَوْلَى به، وأن مخالفيهم- في معركتي الجمل وصِفّين- مخطئون متأولون بغاة. ومن الأدلة على ذلك:

١- ما رواه الإمام البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: « كنا ننقل لَبِنَ المسجد لَبِنَةً لَبِنَةً، وكان عمَّار ينقل لَبِنَتَين، فمر به النبي ﷺ ومسح عن رأسه الغبار، وقال: «وَيْح عمَّار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار»، فقال عمَّار: «أعوذ بالله من الفتن». ومعلوم أن عمار بن ياسر كان في جيش عليّ بن أبي طالب يوم «صِفّين»، وقتله جند معاوية من أهل الشام، قتله رجل يدعى «أبو الغادية الجُهني».

قال ابن كثير معلقًا على هذا الحديث: « وهذا مقتل عمَّار بن ياسر ﷺ مع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ، قتله أهل الشام، وبان وظهر بذلك سر ما أخبر به الرسول ﷺ؛ من أنه تقتله الفئة الباغية، وبان بذلك أن عليًا محق، وأن معاوية باغٍ». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في (مجموع الفتاوى): «وهذا يدل على صحة إمامة عليّ ﷺ وجوب طاعته، وأن الداعي إلى طاعته داعٍ إلى الجنة، والداعي إلى مقاتلته داعٍ إلى النار وإن كان متأولاً، وهو دليل على أنه لم يكن يجوز قتال عليّ، وعلى هذا فمُقاتلُه مُخْطِئٌ وإن كان متأولاً، أو باغٍ بلا تأويل، وهو أصح القولين لأصحابنا (أي الحنابلة)، وهو الحكم بتخطئة من قاتل عليًا، وهو مذهب الأئمة الفقهاء الذين فرَّعوا على ذلك قتال البُغَاة المتأولين» .

٢- ومن الأدلة كذلك على صحة موقف علي بن أبي طالب ﷺ الحديث

الذي رواه الإمام مسلم في (صحيحه) عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تمرُقُ مارقةٌ عند فُرقة من المسلمين، يقتلها أَوْلَى الطائفتين بالحقِّ». وفي لفظ: « أقربُ الطائفتين إلى الحقِّ». والمارقة هم: الخوارج الذين انشقوا على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وانحازوا في «حروراء»، ونابذوه العداء، فقاتلهم في معركة «النهروان» (سنة ٣٨هـ) كما سبق بيانه.

ويعلق الحافظ ابن كثير على هذا الحديث فيقول: « وهذا الحديث من دلائل النبوة، إذ قد وقع الأمر طبق ما أخبر به ﷺ . وفيه: الحكم بإسلام الطائفتين– أهل الشام وأهل العراق– لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطَّغَام من تكفيرهم أهل الشام. وفيه أن أصحاب عليّ أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة: أن عليًا هو المصيب، وإن كان معاوية مجتهدًا، وهو مأجور إن شاء الله، ولكن عليًا هو الإمام فله أجران كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو ابن العاص، قال: إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر».

وقال القاضي ابن العربي المالكي في كتابه (العواصم من القواصم) – بعد أن ساق محل الخلاف بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما: « وأما الصواب فيه – أي: في هذا الخلاف – فمع عليّ؛ لأن الطالب للدم لا يصح أن يحكم، وتهمة الطالب للقاضي لا توجب عليه أن يخرج عليه، بل يطلب الحق عنده، فإن ظهر له قضاء، وإلا سكت وصبر. فكم من حق يحكم الله فيه».

ولا بد من التأكيد هنا على أن معاوية ﷺ لم يقاتل عليًا من أجل الخلافة، ولم يكن يرى نفسه أنه أفضل من عليٍّ، ولم ينكر إمامته وأحقَّيته بالخلافة. ومن الروايات الصحيحة الدالة على أن معاوية لم ينازع عليًا في الخلافة، ما يرويه ابن كثير في (تاريخه) عن قصة الوفد الذي أرسله علي بن أبي طالب إلى معاوية – قبل اندلاع الحرب بينهما– وفيهم أبو مسلم الخولاني (وهو تابعي ثقة)، فدخلوا عليه وقالوا له: أنت تنازع عليًا؟ أَوَ أنتَ مِثْلُه؟ فقال: واللهِ إني لأعلمُ أنه خيرٌ مني وأفضلُ، وأحقُّ بالأمر مني (أي الخلافة) ولكن ألستُم تعلمون أن عثمان قتل مظلومًا، وأنا ابنُ عمّه، وأنا أطلب بدمه، وأمرُه إليَّ؟ فقولوا له: فليُسلِّمْ إليَّ قَتَلَةَ عثمان، وأنا أُسلِّم له أَمْرَه» .

قال ابن تيمية في (مجموع الفتاوى): «ومعاوية لم يدَّعِ الخلافة، ولم يُبايعْ له بها حين قاتل عليًا، ولم يُقاتلْ على أنه خليفة، ولا أنه يستحق الخلافة». ويقول الجويني في كتابه (لُمع الأدلة في عقائد أهل السُّنَّة): « إن معاوية – وإن قاتل عليًا – فإنه لا ينكر إمامَته ولا يدَّعيها لنفسه، وإنما كان يطلب قتلة عثمان، ظنًا منه أنه مصيبٌ، وكان مخطئًا».

ومع أن عليًا ﷺ كان أَوْلَى بالحق فإن ترك القتال كان خيرًا للطائفتين؛ لأن هذا القتال كان قتال فتنة، ليس واجبًا، ولا مستحبًا. وهذا – كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله – هو قول الإمام أحمد، وأكثر أهل الحديث، وأكثر أئمة الفقهاء، وهو قول أكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهو قول عمران ابن حصين ﷺ الذي كان ينهى عن بيع السلاح في ذلك القتال، وهو قول أسامة ابن زيد، ومحمد بن مسلمة، وابن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وأكثر من بقي من السابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم.

أما قتال عليّ ﷺ للخوارج في معركة «النهروان» فقد كان في ذلك على الحق كله، ولم يخالفه في ذلك أحد من الصحابة، ولم يحزن أحد على قتلهم، بل فرح المسلمون؛ لأن عندهم إخبارًا من النبي ﷺ بوقوع ما وقع منهم.

ومُجْمل عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة فيما حدث بين الصحابة ﷺ من حروب في فترة الفتنة: الإمساك عما شَجَرَ بينهم، وعدم الخوض فيه إلا بما هو لائق بمقامهم، ولبيان وجه الحق والرد على شبهات الطاعنين، وأنه يجب على كل مسلم أن يحبهم جميعًا، ويترضى عنهم، ويترحم عليهم، ويحفظ لهم فضائلهم، ويعترف لهم بسوابقهم، وينشر مناقبهم. وأن الذي حصل بينهم من اختلاف وقتال إنما كان اجتهادًا منهم، وهم لإخلاصهم مثابون مأجورون عليه في حالتي الصواب والخطأ، غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطئ. ونردد هنا ما قاله الحسن البصر رحمه الله حين سُئِل عن قتال الصحابة فيما بينهم فقال:« قتالٌ شهده أصحاب محمد ﷺ وغِبْنا، وعلموا وجهِلنا، واجتمعوا فاتَّبعنا، واختلفوا فوقفنا».

مقتل علي بن أبي طالب ﷺ والبيعة لابنه الحسن ﷺ بالخلافة:

قضى علي ﷺ أربع سنوات وبضعة شهور في الخلافة، لم يذق فيها طعم الراحة، وحاصرته المشكلات والمتاعب. وقد تضافرت عوامل كثيرة حالت دون استقراره في الخلافة واستتباب الأمن والنظام فيها، من أهمها الخلاف والنزاع الذي وقع بينه وبين معاوية ﷺ، كما كان أنصاره من أهم متاعبه وآلامه بسبب تقاعسهم، وعصيانهم وعدم ثباتهم على رأي موحد يجمع كلمتهم. وقد عبَّر ابن كثير عن ذلك بقوله: « كان أمير المؤمنين ﷺ قد تنغصت عليه الأمور، واضطرب عليه جيشه، وخالفه أهل العراق، ونَكَلُوا عن القيام معه، واستفحل أمرُ الشام. هذا، وأميرُهم عليٌّ بن أبي طالب خيرُ أهلِ الأرض في ذلك الزمان، أعبدُهم وأزهدُهم، وأعلمُهم وأخشاهم لله عز وجل، ومع هذا كله خذلوه وتَخَلَّوْا عنه حتى كرِه الحياةَ وتمنى الموت، وذلك لكثرة الفتن وظهور المحن». وقال ابن كثير أيضًا: «واستقر أمر العراقيين على مخالفة علي ﷺ، فيما يأمرهم به وينهاهم عنه والخروج عليه، والبعد عن أحكامه وأقواله وأفعاله، لجهلهم وقلة عقلهم، وجفائهم وغلظتهم».

وقد أفاد معاوية من هذه الظروف التي أحاطت بعليّ ﷺ، فمد نفوذه إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص، فأضاف ذلك إليه قوة بشرية واقتصادية كبيرة. كما راسل معاويةُ وجوه القادة في العراق، محاولاً استمالتهم. وأمام هذا الوهن والشقاق، وضعف الطاعة في جيش علي ﷺ لم يتمكن من القيام بأية حملة عسكرية ضد القوات الشامية، واضطر إلى مهادنة معاوية على وضع الحرب بينهما، وبقي علي في العراق، ومعاوية في الشام، وأمسك كل واحد منهما عن قتال الآخر. وإذا قرأنا خطبة علي ﷺ الأخيرة فسوف ندرك مدى الملل والألم الذي عاناه، إذ يقول: «اللهم إني سَئِمتُهم وسئموني، ومللتهم وملُّوني، فارحمني منهم، وارحمهم مني فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم– ووضع يده على لحيته».

وتشير بعض أحاديث النبي ﷺ إلى أن عليًا ﷺ سيكون من الشهداء، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء، هو وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله: «اهدأ، فما عليك إلا نبي أو صِدّيق، أو شهيد». بل إن عليًا ﷺ أخبر– في أكثر من حديث روى عنه – بأن النبي ﷺ أخبره بأنه سيقتل، وأنه سيضرب على

هامته حتى يخضب الدم لحيته. وقد جمع الحافظ ابن كثير هذه الأحاديث في كتابه (البداية والنهاية)، وكذلك البيهقي في كتابه (دلائل النبوة) .

ويشاء الله عز وجل أن يكون مقتل عليّ بن أبي طالب ﷺ شهيدًا بيد رجلٍ من الخوارج، ثأرًا لمن قُتل منهم في معركة النهروان. وقد بلغ الغُلُو والتطرف بالخوارج إلى الحد الذي اعتبروا فيه عليًا ومعاوية وعمرو بن العاص أئمة ضلالة، وحمَّلوهم مسئولية كل ما حدث. وقرروا قتلهم جميعًا، واتفقوا على أن يتم التنفيذ في وقت واحد، وانتدبوا لتلك المهمة الخطيرة ثلاثة منهم، هم: عبد الرحمن بن مُلْجَم، وعليه أن يذهب إلى الكوفة لقتل عليّ، والبُرَك بن عبد الله، وعليه أن يذهب إلى دمشق لقتل معاوية، وعمرو بن بكر ليذهب إلى مصر لقتل عمرو بن العاص. وشاء الله تعالى أن ينجو معاوية وعمرو من القتل، وأن تكون الشهادة من نصيب عليّ ﷺ، حيث ضربه عبد الرحمن بن مُلجم بسيف مسموم في جبهته، فشقها، وكان ذلك حين خرج عليّ ﷺ لصلاة الفجر في مسجد الكوفة، صبيحة إحدى وعشرين من رمضان، فمات من أثر الضربة بعد وقت يسير، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كانت الضربة قاتلة، ولم يكن هناك أمل في نجاة الإمام عليّ وشفائه. وإن العجب ليبلغ مداه حينما يدَّعي هذا المجرم الأثيم الذي باء بغضب الله ومقته أنه قتل عليًا ليتقرب بذلك إلى الله تعالي، وهذه هي عقيدة الخوارج. ومع ذلك فلم تكن تلك الطعنة، ولا معاناة الموت بالشيء الذي يُغيِّر من عدالة الإمام علي شيئًا، فقد أمر بحبس ابن مُلْجَم، وقال لبنيه: «النفسُ بالنفس، إن هلكتُ فاقتلاه كما قتلني، وإن بقيتُ رأيتُ فيه رأيي، يابني عبد المطلب لا تتجمعوا من كل صوب تقولون: قُتل أمير المؤمنين، ألا لا يُقْتَلَنَّ بي إلا قاتلي». ثم نهاهم عن التمثيل بالرجل، وقال لهم: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمُثلة ولو بالكلب العَقُور». وفي رواية للإمام أحمد في (فضائل الصحابة)- بإسناد حسن - أن علياً أوصى بقاتله قائلاً : «إنه أسير، فأحسنوا نُزُلَه، وأكرموا مثواه، فإن بقيت قَتلتُ أو عَفَوتُ، وإن مُتُّ فَاقْتُلوه قِتْلَتي، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين». ولما احتضر عليّ جعل يكثر من قول: «لا إله إلا الله» لا يتلفظ بغيرها.

هذا، وقد بويع علي ﷺ بالخلافة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وكانت وفاته شهيدًا في اليوم الحادي والعشرين من رمضان عام أربعين للهجرة، فتكون مدة خلافته أربعة سنين، وتسعة أشهر، وثلاثة أيام. وقد توفى وهو في سن الثالثة والستين، وهذا ما رجحه ابن سعد في (الطبقات الكبرى)، وغسَّله ابناه الحسن والحسين، وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم، وصلى عليه الحسن ﷺ، ودفن بالكوفة مما يلي أبواب كِنْدة قبلي المسجد الجامع. وقيل: دفن بدار الإمارة بالكوفة خوفًا عليه من الخوارج أن ينبشوا قبره. ولا يصح القول بأنه دفن بالنجف كما تدَّعي الشيعة الروافض .

ولما قُتل عليٌّ ﷺ لم يَعْهَدْ بالخلافة إلى أحدٍ من بعده. « أما قولُ الرافضة: إنه عهد إلى الحسن فباطل، ما عهد إلى أحد» كما يقول القاضي ابن العربي المالكي. وروي الإمام البيهقي- بإسناد جيد – عن أبي وائل شقيق بن سلمة الأسدي (أحد سادة التابعين) أنه قيل لعلي: ألا تستخلف علينا؟ قال:« ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف، ولكن إن يُرِد اللَّهُ بالناس خيرًا فسيجمعهم بعدي على خيرهم، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم». ونقل الحافظ ابن كثير أيضًا عن ابن جرير الطبري وغيره في قصة مقتل عليّ ﷺ لما طعنه عبد الرحمن بن ملجم الكندي أن جندب بن عبد الله قال: « يا أمير المؤمنين، إن مُتَّ نبايع الحسن؟ قال: لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر».

وقول عليّ ﷺ هذا من أقوى البراهين على بطلان مزاعم الشيعة بأن النبي ﷺ قد أوصى بالخلافة لعلي ولبنيه من بعده، فلو كانت تلك الوصية المزعومة حقًا، لما كان هناك داعٍ لهذا السؤال أصلاً، ولَكَان الواجب على الإمام علي أن يوصي بها للحسن من تلقاء نفسه، بل إن الإمام أضاف ما يؤكد أنه لا وصية هناك، فقد قال: «ولكن أدعو الله تعالى أن يجمعكم على خيركم كما جمعنا بعد نبينا على خيرنا»، يقصد بذلك أبا بكر الصديق ﷺ. وهذا التصرف من الإمام هو التصرف السليم الذي يرسخ قاعدة الشورى التي اتبعت في بيعته هو والثلاثةِ الراشدين من قبله .

وبعد وفاة الإمام ﷺ انعقدت البيعة للحسن بن علي بعد موت أبيه، وكان

«أحق بها من معاوية ومن كثير من غيره»، كما يقول ابن العربي. وكان أول من تقدم إليه بالمبايعة – بعد الفراغ من دفن عليّ ﷺ والصلاة عليه – «قيس بن سعد ابن عبادة»، فقال له: «ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ»، فبايعه، ثم بايعه الناس بعده، وكان ذلك يوم مات علي ﷺ، وقيل: إنما مات بعد الطعنة بيومين. ومن يومئذ ولي الحسن الخلافة، فبقي في الكوفة إلى شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وأقام حدَّ القصاص على عبد الرحمن بن مُلجم، ثم عزم على الخروج « لمثل ما خرج إليه أبوه من دعاء الفئة الباغية – معاوية وأهل الشام – إلى الانقياد للحق والدخول في الطاعة ».

قال ابن كثير: « ولم يكن في نية الحسن أن يقاتل أحدًا، ولكن غلبوه (أي: جنده) على رأيه، فاجتمعوا اجتماعًا عظيمًا لم يسمع بمثله، فجعل الحسن بن علي ﷺ قيسَ بن سعد بن عبادة قائدًا على المقدمة في اثني عشر ألفًا بين يديه، وسار هو بالجيوش في أثره قاصدًا بلاد الشام، فلما اجتاز المدائن نزلها وقدَّم المقدمة، فبينما هو في المدائن معسكرًا بظاهرها إذ صرخ في الناس صارخ: ألا إن قيس بن سعد بن عبادة قد قُتِل، فثار الناس، فانتهبوا أمتعة بعضهم بعضًا حتى انتهبوا سرادق الحسن، ونازعوه بساطًا كان جالسًا عليه، وطعنه بعضهم (في فخذه) طعنة أثبتوه وأشْوَتْه (أي: نالت منه، ولم تصب مقتله)، فكرههم الحسن كراهية شديدة...». ثم قال ابن كثير: «ولما رأى الحسن تفرق جيشه عليه مقتهم، وكتب عند ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان– وكان حينئذ قد ركب في أهل الشام، فنزل (مسْكِن) – يراوضه على الصلح بينهما» .

ويروي ابن جرير الطبري بإسناده عن الزهري قال: « بايع أهل العراق الحسن بن علي بالخلافة، فطفق يشترط عليهم الحسن: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمتُ، وتحاربون من حاربت. فارتاب أهل العراق في أمرهم حين اشترط عليهم هذا الشرط، وقالوا: ما هذا لكم بصاحب، وما يريد هذا القتالَ. فلم يلبث الحسن بعدما بايعوه إلا قليلاً حتى طُعِن طعنة أشْوَتْه، فازداد لهم بغضًا، وازداد منهم ذعرًا...». فعند ذلك عرف تفرقهم واختلافهم عليه، وكتب إلى معاوية يسالمه ويراسله في الصلح على ما يختاران.

والذين طعنوا الحسن وغدروا به هم روافض الكوفة من «السبئية» الغُلاة من أتباع ابن سبأ الذي نفاه عليّ ﷺ من قَبلُ إلى «المدائن»، واستطاع أن ينشر بها أفكاره بعد موت علي. ورُوِىَ أن الذي طعن الحسن رجل من الخوارج من بني أسد، ثم قُتل هذا الرجل. وروى الشعبي وأبو إسحاق السبيعي: «أن الحسن توجع من تلك الضربة أشهرًا وعوفي منها».

تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية وقصة الصلح بينهما :

وقد روى البخاري في صحيحه قصة الصلح بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما – بإسناده – عن الحسن البصري قال: « استقبل– واللَّهِ – الحسنُ بن علي معاويةَ بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إني لأرى كتائب لا تُولِّي حتى تقتلَ أقرانَها (وفي لفظ لمعاوية: أرى كتيبة لا تُولِّي حتى تُدْبِرَ أخراها) [١]. فقال له معاوية – وكان والله خير الرجلين – أي عمرو، إن قَتَلَ هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء من لي بأمور الناس؟، مَن لي بنسائهم؟ مَن لي بضَيْعَتِهم؟ [٢]. فبعث إليه رجلين من قريش، من بني عبد شمس: عبد الرحمن سمرة، وعبد الله بن عامر ابن كريز [٣]. فقال: اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه، وقولا له، واطلبا إليه[٤]. فأتياه، فَدَخَلا عليه، فتكلما، وقالا له، وطلبا إليه، فقال لهما الحسن بن علي: إنا بنو عبدالمطلب قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها[٥].

---

(١) قوله: (لا تولّي)– بالتشديد– أي: لا تُدبر (حتى تدبر أخراها) أي: التي تقابلها.

(٢) يشير معاوية بهذا القول إلى أن رجال المعسكرين معظم مَن في الإقليمين– العراق والشام– وإن قتلوا ضاع أمر الناس، وفسد حال أهلهم بعده وذراريهم، والمراد بقوله: (ضيعتهم) الأطفال والضعفاء. وفي رواية الحميدي في هذه القصة: «من لي بدمائهم، من لي بنسائهم؟».

(٣) عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس، وعامر بن حبيب بن عبد شمس، هما من بني عم بني أمية بن عبد شمس ومعاوية هو ابن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس» .

(٤) قول معاوية: (اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه) أي: ما شاء من المال (وقولا له) أي: في حقن دماء المسلمين بالصلح (واطلبا إليه) أي: خلعه نفسه من الخلافة، وتسليم الأمر لمعاوية.

(١) عاثت في دمائها: قتل بعضها بعضًا فلا يَكفُّون عن ذلك إلا بالصفح عما مضى والتألف بالمال .

قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسألك. قال: فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك به[١]. فما سألهما شيئًا إلا قالا: نحن لك به، فصالِحْه. قال الحسن البصري: ولقد سمعت أبا بكرة يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر- والحسن بن عليّ جنبه وهو يُقبِلُ على الناس مرة وعليه أخرى- ويقول: «ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» .

والحديث فيه دلالة - كما يقول ابن بطال المالكي - على « أن معاوية ﷺ كان هو الراغب في الصلح وبدأ به، وأنه عرض على الحسن المال، ورغَّبه فيه، وحثَّه على رفع السيف ». ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن سعد في (الطبقات الكبرى) عن عمرو بن دينار قال:« كان معاوية يعلم أن الحسن أَكْرهُ الناس للفتنة، فراسله وأصلح الذي بينهما، وأعطاه عهدًا إن حدث حدث- والحسنُ حي- ليجعلن هذا الأمر إليه (أي يعهد بالخلافة من بعده إلى الحسن). قال: فقال عبد الله بن جعفر: قال لي الحسن: إني رأيت رأيًا أُحبُّ أن تتابعني عليه. قلت: ما هو؟ قال: رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها، وأُخلِّي الأمر لمعاوية، فقد طالت الفتنة، وسُفِكت الدماء، وقُطعت السبل. قال: فقلت له : جزاك الله خيرًا عن أمة محمد. فبعث إلى الحسين (أخيه) فذكر له ذلك، فقال: أعيذك بالله. فلم يزل به حتى رضي» .

وكان مقدار المال الذي اشترطه الحسن- ضمن أشياء اشترطها للصلح- أن يأخذ من بيت المال خمسة آلاف ألف (كما يروي الطبري) . وينقل ابن حجر رواية من طريق عوانة بن الحكم، وفيها: « وكان الحسن صالح معاوية على أن يجعل له ما في بيت مال الكوفة، وأن يكون له خراج (دَارَ بَجِرْد)».

وقد أراد الحسن بذلك كله تسكين الفتنة وتفرقة المال على من لا يرضيه إلا المال. ووافقه الرسولان على ما شرط من جميع ذلك، والتزما له من المال في كل عام من الثياب والأقوات ما يحتاج إليه لكل مَنْ ذُكِر.

ويروي محمد بن قدامة في (كتاب الخوارج)- بسند قوي كما يقول ابن حجر- عن أبي بصرة أنه سمع الحسن بن علي يقول في خطبته عند معاوية: «إني

---

(٢) وقول الحسن للرجلين: (من لي بهذا؟) أي: من يضمن لي الوفاء من معاوية؟

اشترطت على معاوية لنفسي الخلافة بعده ». وأخرج ابن أبي خيثمة من طريق عبدالله بن شوذب قال: « لما قتل عليّ سار الحسن بن علي في أهل العراق، ومعاوية في أهل الشام، فالتقوا، فكره الحسن القتال، وبايع معاويةَ على أن يجعل العهدَ للحسن من بعده، فكان أصحاب الحسن يقولون: ياعار المؤمنين، فيقول: العار خير من النار».

وكان تسليم الحسن الخلافة لمعاوية في الخامس من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين. وقيل: في ربيع الآخر، ويقال: في غرة جمادى الأولى. وقال ابن كثير: « المشهور أن مبايعة الحسن لمعاوية كانت في سنة أربعين، ولهذا يقال له: عام الجماعة لاجتماع الكلمة فيه على معاوية. وعند ابن جرير الطبري وغيره : أن ذلك كان في أوائل سنة إحدى وأربعين » .

مبايعة الصحابة معاوية ﷺ بالخلافة وبداية عصر الخلفاء الأمويين:

ولما تسلم معاوية ﷺ دخل الكوفة فبايعه الناس، وبايعه كل من كان معتزلاً للقتال، كعبد الله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة . ثم خطب في الناس، وأمر الحسن أن يخطب بمشورة من عمرو بن العاص، فقام فخطب، فقال – بعد أن حمد الله وأثنى عليه – : " أما بعد، فإن أكيس الكَيْس التُّقى، وإن أعجزَ العَجْز الفجور، ألا وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية حقٌّ لامرئ كان أحقَّ به مني، أو حقٌّ لي تركته لإرادة إصلاح المسلمين وحقن دمائهم ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء:١١١]. ثم استغفر ونزل». ثم لحق الحسن بالمدينة ومعه أخوه الحسين، وبقية أخوته وعشيرته.

ولقد استبشر المسلمون خيرًا بتلك المصالحة، وحمدوا الله تعالى على انتهاء فترة الفتن والحروب، وسموا ذلك العام (٤١هـ) عام الجماعة، وترك صنيع الحسن هذا صدى عند جمهور المسلمين وعلماء الأمة، فقد أثنى عليه الكثير من علماء أهل السُّنَّة، ورأوا فيما فعل تصديقًا لنبوءة جده ﷺ. ومما قاله ابن تيمية في ذلك:« وهذا الحديث يبين أن الإصلاح بين الطائفتين كان ممدوحًا يحبه الله ورسوله، وأن ما فعله الحسن من ذلك كان من أعظم فضائله ومناقبه التي أثنى

عليه النبي ﷺ، ولو كان القتال واجبًا أو مستحبًا لم يثن النبي ﷺ بترك واجب أو مستحب » .

وبتنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان يبدأ عصر جديد لتاريخ الإسلام، وهو عصر الخلافة الأُموية (٤١-١٣٢هـ).

ولا بد هنا من بيان أمر مهم أورده القاضي ابن العربي المالكي في (العواصم من القواصم)، وهو اعتراض من قال:« ألم يكن في الصحابة أقعد بالأمر (يعني أحق بالخلافة) من معاوية، ومنهم سعد بن أبي وقاص المجاهد الفاتح أحد العشرة المبشرين بالجنة، وعبد الله بن عمر بن الخطاب الفقيه الثابت على قدم المصطفى ﷺ في جليل الأمور ودقيقها، وغيرهما من هذه الطبقة وقريب منهم ممن ترك لهم الحكمان- أبو موسى وعمرو بن العاص رضي الله عنهما- أمر الإمامة بعد حرب «صفين» ليروا فيها رأيهم؟».

وأجاب ابن العربي على هذا الاعتراض بأن هناك من الصحابة الكثير ممن يتقدم علي معاوية في الفضائل والمناقب، «ولكن معاوية اجتمعت فيه خصال، وهي أن عمر جمع له الشامات كلَّها وأفرده بها، لِمَا رأى مِن حُسنِ سيرته وقيامه بحماية البيضة، وسدِّ الثغور، وإصلاح الجند، والظهور على العدو، وسياسة الخلق، وقد شهد له - في صحيح الحديث- بالفقه، ولو اقتضت الحال النظر في الأمور لكان والله أعلم رأي آخر للجمهور، ولكن انعقدت البيعة لمعاوية بالصفة التي شاءها الله على الوجه الذي وعد به رسول الله ﷺ مادحًا له، راضيًا عنه، راجيًا هدنة الحال فيه، لقول النبي ﷺ: « ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». وقد تكلم العلماء في إمامة المفضول مع وجود من هو أفضل منه، فليست المسألة في الحد الذي تجعله فيه العامة ».

ويعلق محب الدين الخطيب على هذا الكلام الأخير المتعلق بمسألة إمامة المفضول في وجود الفاضل بقوله: « وهذه المسألة من مسائل الفقه الإسلامي الممحَّصة المبينةُ أحكامها على النصوص والأسس الشرعية التي قام الدين على مثلها في باب جلب المصالح ودرء المفاسد، وتقدير الضرورات بأقدارها». ثم قال

محب الدين الخطيب: «وقال جمهور الفقهاء والمتكلمين: تجوز إمامة المفضول، وصحَّت بيعته، ولا يكون وجود الأفضل مانعًا من إمامة المفضول إذا لم يكن مُقصِّرًا عن شروط الإمامة، كما يجوز- في ولاية القضاء- تقليد المفضول مع وجود الأفضل؛ لأن زيادة الفضل مبالغة في الاختيار، وليست معتبرة في شروط الاستحقاق».

ملخص الوحدة الأولى

تتلخص الظروف التاريخية التي انتهت بقيام الدولة الأموية وتولية معاوية بن أبي سفيان الخلافة عامَ الجماعة (٤١هـ) في النزاع الذي وقع بين علي بن أبي طالب ﷺ – وقد بايعه الصحابة خليفة بإجماع بعد مقتل عثمان بن عفان ﷺ – وبين معاوية بن أبي سفيان ﷺ أمير الشام، بسبب قضية إقامة حد القصاص علي قتلة عثمان ﷺ، حيث كان عليٌّ يري تأجيل هذا الأمر ريثما تهدأ الأحوال، بينما يري معاوية تعجيله، وامتنع من الإذعان لعلي والبيعة له بالخلافة إلا بعد إقامة الحد، وهذا هو محل النزاع، ووقع القتال بين فئتين عظيمتين من المسلمين فيما يُعرف بمعركة صفين (٣٧هـ)، ومن قبلها حرب الجمل (٣٦هـ)، وبعد وقف القتال في صفين تحاكم الفريقان، ولم يسفر"التحكيم" عن نتيجة ملموسة. وعلي إثر ذلك ظهرت فرقة "الخوارج"، وهم الذين لم يرضوا بالتحكيم ونادوا بشعار "لا حكم إلا لله"، وكفّروا علياً وسائر الصحابة المشاركين في القتال، إلا إذا تاب وعاد إلي قتال فئة أهل الشام، ثم إنهم تركوا الكوفة وانحازوا إلي "حروراء"، وبدأوا يفسدون، ويسفكون الدماء بغير حق، فقاتلهم علي في معركة النهروان (٣٨هـ)، ثم تآمر بعضهم علي قتله، فقتلوه شهيداً (رمضان سنة ٤٠هـ)، ولم يُوص لأحد بالخلافة من بعده، فبايع المسلمون ابنه الحسن، وبدأ يستعد لقتال معاوية وأهل الشام، لكنه ﷺ مال إلي الصلح، فصالح معاوية وتنازل له عن الخلافة، وكان من شروط الصلح أن يتولي الحسن الخلافة بعد موت معاوية. ثم بايع الصحابة معاوية في وجود من هو أولي وأفضل منه، وذلك حقناً للدماء، وجمعاً للكلمة، ودرءًا للفتن. وقد حقق الحسن ﷺ نبوءة جده محمد ﷺ حيث قال عنه: " ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين". ولا بد من التأكيد علي أن ما وقع من الصحابة في أحداث الفتنة إنما صدر عن اجتهاد منهم، والجميع مثاب، إلا أن علياً ﷺ هو المصيب، وهو الأولي بالحق والأقرب إليه، وأن مخالفه مجتهد مخطئ، وينبغي السكوت عما وقع بينهم، إلا لضرورة تستلزم بيان وجه الحق فيما حدث .

أسئلة على الوحدة الأولى

س١: تحدث – بإيجاز – عن طبيعة النزاع الذي وقع بين الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ، ومعاوية بن أبي سفيان ﷺ، مع ذكر النتائج التي أسفر عنها هذا النزاع ، مبيناً رأيك .

س٢ : ما أسباب معركة صفين ؟ وما النتائج المترتبة عليها ؟

س٣: وضح الظروف التاريخية التي تفسر نشأة فرقة الخوارج، وموقف علي بن أبي طالب ﷺ منها ؟

س٤: وضح لماذا تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ عن الخلافة لمعاوية ابن أبي سفيان ﷺ ؟ وما الشروط التي اتفق عليها الطرفان ليتم الصلح بينهما؟ وهل كان الحسن مُوَفقا في ذلك ؟

س٥: هل توافق علي أن يتولي معاوية الخلافة في وجود الأفضل منه من الصحابة ؟ ولماذا ؟

نموذج إجابة

إجابة السؤال الرابع :

١- لما قُتل عليٌّ ﷺ بأيدي الخوارج لم يَعْهَدْ ولم يوص بالخلافة إلى أحدٍ من بعده. وهذا هو الصحيح. أما قولُ الشيعة الرافضة: إنه عهد إلى الحسن فباطل. وقد قيل له : ألا تستخلف علينا؟ قال: « ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف، ولكن إن يُرِد اللَّهُ بالناس خيرًا فسيجمعهم بعدي على خيرهم، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم ». ثم انعقدت البيعة للحسن بن علي بعد موت أبيه، وكان «أحق بها من معاوية ومن كثير من غيره». وكان أول من تقدم إليه بالمبايعة قيس بن سعد بن عبادة، ثم بايعه الناس بعده، فبقي في الكوفة إلى شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، ثم عزم على الخروج لمثل ما خرج إليه أبوه من دعاء الفئة الباغية - معاوية وأهل الشام - إلى الانقياد للحق والدخول في الطاعة. ولم يكن في نية الحسن أن يقاتل أحدًا، ولكن جنده غلبوه على رأيه، فاجتمعوا اجتماعًا عظيمًا لم يسمع بمثله، فجعل الحسن ﷺ قيسَ بن سعد قائدًا على المقدمة في اثني عشر ألفًا بين يديه، وسار هو بالجيوش في أثره قاصدًا بلاد الشام، فلما اجتاز المدائن نزلها وقدَّم المقدمة، لكنه لما رأى تفرق جيشه واختلافهم عليه وتعرُّضَه لمحاولة القتل كرههم، وكتب عند ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان- وكان حينئذ قد تحرك بجيشه في أهل الشام، فنزل "مسْكِن" - يسالمه ويراسله في الصلح. ويُروي أن معاوية ﷺ كان يعلم أن الحسن أَكْرَهُ الناس للفتنة، فرغب هو في الصلح وبدأ به، وأنه عرض على الحسن المال، ورغَّبه فيه، وحثَّه على رفع السيف.

٢- وقد اشترط الحسن للتنازل شرطين بحسب ما جاء في الروايات؛ الأول: أن يأخذ من بيت المال خمسة آلاف ألف. وقد أراد الحسن بذلك كله تسكين الفتنة وتفرقة المال على من لا يرضيه إلا المال. والثاني: أن يتولي الحسن الخلافة من بعد معاوية، لكن الحسن توفي سنة ٥١هـ قبل وفاة معاوية بعشر سنوات. وكان تسليم الحسن الخلافة لمعاوية في الخامس من ربيع الأول أو

الثاني سنة إحدى وأربعين. وهو العام الذي وُصف بعام الجماعة، لاجتماع الكلمة فيه على معاوية، وانتهاء فترة الفتن والحروب.

٣- ولما تسلم معاوية ﷺ الخلافة دخل الكوفة فبايعه الناس، وبايعه كل من كان معتزلاً للقتال، كعبد الله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة . ثم خطب في الناس، وخطب الحسن خطبة، ورد فيها قوله : " ألا وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية حقٌّ لامرئ كان أحقَّ به مني، أو حقٌّ لي تركته لإرادة إصلاح المسلمين وحقن دمائهم ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء:١١١]". ثم لحق الحسن بالمدينة ومعه أخوه الحسين، وبقية أخوته وعشيرته.

٤- ولا شك أن الحسن كان موفقا في تنازله عن الخلافة، وقد حقق بهذا نبوءة جده النبي محمد ﷺ، فقد روي البخاري عن أبي بكرة قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر- والحسن بن عليّ جنبه وهو يُقبِلُ على الناس مرة وعليه أخرى- ويقول: «ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». وهذا الحديث يبين أن الإصلاح بين الطائفتين كان ممدوحًا يحبه الله ورسوله، وأن ما فعله الحسن من ذلك كان من أعظم فضائله ومناقبه التي أثنى عليه النبي ﷺ، ولو كان القتال واجبًا أو مستحبًا لم يثن النبي ﷺ بترك واجب أو مستحب.

الوحدة الثانية
ولاية العهد ووراثة الخلافة

الأهداف :

في نهاية هذه الوحدة، ينبغي أن يكون الدارس ملمًّا بما يلي:

١- معرفة المساعي التي قام بها معاوية بن أبي سفيان لعقد ولاية العهد بالخلافة لابنه يزيد، والطرق التي سلكها للحصول على البيعة من أهل الحل والعقد، ومحاولاته لتحقيق مبدأ الشوري في عقدها ليزيد.

٢- التعرف على المسوغات والأسس الأربعة التي بني عليها معاوية تقديم ابنه يزيد علي غيره في ولاية العهد بالخلافة، ومعرفة فقه معاوية في هذه المسألة، وبيان موقف أهل السنة من البيعة ليزيد.

٣- معرفة موقف بعض الصحابة – كابن عمر، وابن عباس، والحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وغيرهم – من البيعة ليزيد قبل وبعد موت معاوية ﷺ والرد على الشبهات حول موقف بعض الصحابة.

٤- معرفة الرد علي بعض الشبهات والاتهامات المثارة حول يزيد بن معاوية، وبيان جانب من فضائله.

العناصر:

يمكن عرض موضوع الوحدة الثانية من خلال العناصر الآتية:

١- مساعي معاوية بن أبي سفيان لعقد ولاية العهد بالخلافة من بعده لابنه يزيد.

٢- موقف بعض الصحابة من البيعة ليزيد بن معاوية.

٣- الأسس التي بني عليها معاوية اختيار ابنه يزيد لولاية العهد.

٤- يزيد بن معاوية : سيرة موجزة.

ولاية العهد ووراثة الخلافة

مساعي معاوية لعقد ولاية العهد بالخلافة لابنه يزيد:

لما استقرتْ الخلافةُ لمعاوية بن أبى سفيان ﷺ – وبعد مرور عشر سنوات تقريبًا من حكمه – بدأ ينظر فى أمر ولاية العهد من بعده ٠ وتتفق أكثر الروايات على أن المغيرة بن شعبة ﷺ (المتوفى سنة ٥٠هـ) هو الذى أوحى إلى معاوية بفكرة ولاية العهد، وأنه هو الذى أشار عليه بأن يرشح ابنه "يزيد" لهذا المنصب الكبير. وتدل هذه الرواياتُ على أن معاوية قَبِل تلك الفكرة، وبدأ يعمل على تحقيقها. وليس ببعيد أنه فكَّر فى اختيار ابنه "يزيد" قبل أن ينبهه المغيرة إلى ذلك، ولكنه كتمه زمنًا، وجعل ينتظر الأسباب المناسبة ليبوح به ويسعى فى إنجازه.

وقد كان من شروط الصلح بين معاوية والحسن بن على (سنة ٤١هـ) أن يتولى الحسنُ الخلافة بعد معاوية، ولم يكن معاوية يستطيع أن يرشح أحدًا لولاية العهد ما دام الحسن بن على حيًا، فلما مات الحسن (سنة ٥١هـ) قوى أمر يزيد عند أبيه معاوية، ورأى أنه أهل لمنصب الخلافة ، وتوسم فيه النجابة، وظن أن أحدًا من أولاد الصحابة لا يستطيع أن يُدانيه فى معرفة أمور السياسة وفنون الحرب، وتدبير الملك.

ولما تعلَّق معاوية بفكرة ولاية العهد أمر عاملَه على الكوفة المغيرة بنَ شعبة أن يسعى فى تنفيذها، فعرض المغيرةُ الأمر على من يثق به من أشراف الكوفة، فوافقوه، فأوفد المغيرة وفدًا إلى معاوية، فحببوا إليه البيعة ليزيد، ودعوه إلى عهدها٠ ثم كتب معاوية – فى السنة نفسها ٥٠هـ – إلى عامله على البصرة زياد بن أبى سفيان ، يستشيره فى ذلك ، فلم ينكر زياد فكرة ولاية العهد، لكنه أشار عليه بالتمهُّل، وألاَّ يتعجّل فى هذا الأمر، ونصحه أن يُصلح من شأن يزيد حتى يكون نظيرًا لأبناء الصحابة فى الأخلاق والسيرة، فقبل معاوية ما أشاد به عليه.

ثم كتب إلى عامله على " المدينة النبوية" مروانَ بن الحكم، وطلب فيه أن يستشير الناس فى ولاية العهد من حيث هى فكرة مجرَّدة ولا يُسمّى أحدًا، وقال معاوية فى رسالته: " إنى قد كبرتْ سنى، ودق عظمى (يعنى ضعف)، وخشيتُ

الاختلافَ على الأُمةِ بعدى، فاعرض ذلك عليهم، وأَعْلمنى الذى يردُّون عليك" فاستشارهم مروانُ بن الحكم فى ذلك ، فرحبوا به، ولم يعترضوا عليه، وأثنوا على معاوية خيرًا، وفوَّضوا الأمر إليه أن يختار لهم. فكتب معاوية إلى مروان أن يُسمى لهم "يزيد"، وأن يأخذ له البيعة منهم، فامتنع زعماؤهم عن إعطاء البيعة. وسيأتى بيان ذلك بعد قليل.

وفى سنة (٥٠هـ) ولَّى معاوية ابنَه يزيد أميرًا على الحج، فأقام مناسك الحج، وأظهر سيرة حسنة، وفرَّق فى مكة والمدينة أموالاً كثيرة، ثم انصرف عائدًا والناسُ عنه راضون، وشاع الخبر بأن معاوية يريد أن يأخذ البيعة له. ويبدو أن معاوية قصد أن يرى أهلُ الحجاز ومَنْ حجَّ فى تلك السنة من أهل الأمصار الأخرى عِلْمَ يزيد وفقهه وتواضعَه وسماحته وفَضلَه على غيره، وأنه جديرٌ بما يرشّحه له من ولاية أمر المسلمين بعده. ومما يؤكّد ذلك أيضًا أن معاوية جعل ابنه يزيد أميرًا على الحملة العسكرية المتجّهة إلى حصار مدينة القسطنطينية (سنة ٥٠هـ)، ليقدمه إلى المسلمين على الصورة التى يفضلونها مجاهدًا فى سبيل الله. وسوف نتحدث عن هذه الحملة في سياق كلامنا عن الفتوحات الإسلامية فى عصر الدولة الأموية إن شاء الله.

وفى سنة (٥٦هـ) كتب معاوية إلى الأمصار بأن يَقْدُمُوا عليه دمشق فجاءتْه الوفود من البصرة والكوفة ومكة والمدينة، ومصر والجزيرة، ومن جميع البلاد، فاستشارهم معاوية فى البيعة لابنه يزيد، وحدث اجتماع أو ما يُشبه المؤتمر، وتكلم رؤساء الوفود والخطباء، وبدأ معاوية هذا الاجتماع بالكلام فعظَّم الإسلام وحُرمتَه، والخلافةَ وحقَّها، وذكر ما أمر الله به من طاعة أُولى الأمر، وزكّى ابنَه يزيد، وأشاد بفضله فى قريش، وعلمه بالسياسية وتدبير أمور المُلْك. وقد اتفق رؤساء القبائل الذين تحدثوا على ضرورة تعيين ولىٍ للعهد، وحاجة المسلمين إلى إحداث هذا المنصب، وبينوا محاسنَه وفوائده فى حياتهم، كما أن أكثرهم زكوا يزيد، ووافقوا على اختياره لولاية العهد، لفضله فى نفسه وقومه. وكان من المتحدثين فى هذا اللقاء : الأحنف بن قيس، فقال : " يا أمير المؤمنين، أنت أعلمُ بيزيد فى ليله ونهارِه، وسرّه وعلانيته، ومَدْخَلِه ومَخْرَجِه، فإن كنت

تعلمه لله رضًا، ولهذه الأمة، فلا تشاور الناسَ فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك، فلا تُزوِّدْه الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة ". وقد استحسن الحاضرون هذا الكلامَ، وتفرقوا وهم يُرِّددُونه.

وفى الأخبار التى رويت فى شأن سَعْى معاويةَ لأَخْذِ البيعة لابنه يزيد ما يدل على أنه لم يستبدّ بالرأى، ولم يحمل الناسَ على التسليم والإذعان لرغبته، بل إنه حرص على مشاورتهم ومناظرتهم، ورغب فى أن يحظى بموافقتهم عن رضًا منهم، كما أنه أظهر حلْمه وصبره على معارضيه، واجتهد فى إقناعهم واستمالتهم بطرق شتى، كالمكاشفة والمصارحة، والملاطفة والملاينة. وقد اعتَّد بطاعة أهل الشام، واعتمد على مساندتهم له، وظل معاوية سبع سنين يتابع هذا الأمر ويمهّد له، ويروّض الناسَ، ويشاور ويعطى الأقارب، ويقاربُ الأباعد، حتى استوثق من أكثر الناس، وأجابه معظم أهل الأمصار، ولم يرفض إلا زعماء أهل المدينة، وفى مقدمتهم أبناءُ الصحابة؛ الحسينُ بن على ابن أبى طالب، وعبدُ الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم جميعًا. ويروى الطبرى فى (تاريخه) ما يفيد أن هؤلاء الأربعة لم يوافقوا معاوية على ما يريد من البيعة بولاية العهد لابنه يزيد. وتذكر الرواية أن معاوية قدم المدينة لتأدية العمرة سنة ٥٦هـ ، وأنه التقى بأبناء الصحابة البارزين، وحاول إقناعهم بالبيعة ليزيد، وقابل كل واحدٍ منهم على حدة، لمحاولة إقناعه، غير أنهم ظلوا ممتنعين عن البيعة.

موقف بعض الصحابة من البيعة ليزيد بن معاوية :

ويذهبُ البعضُ إلى أن عبد الله بنَ عمر رضى الله عنهما وافق على البيعة ليزيد فى حياة أبيه معاوية، لكن الصحيح فى موقف ابن عمر أنه لم يبايع ليزيد فى حياة معاوية، وكان يقول له : " لا أبايع لأميرين". وقال له أيضًا: "هل لك فى أمرٍ يُذهِبُ الذمَّ، ويحقنُ الدَّمَ، وتدركُ به حاجَتَك ؟ ". قال معاوية : ودِدْتُ. قال ابن عمر: " تُبرز سَريرَك، ثم أجئ فأبايعك على أن أدخل بعدك فيما تجتمع عليه الأمة، فوالله لو أن الأمة اجتمعتْ بعدك على عبدٍ حبشى لدخلتُ فيما تدخل فيه الأمة ". قال معاوية : وتفعل؟ قال : " نعم".

ولما توفى معاوية بايع ابنُ عمر يزيد بالخلافة، بل وكان ينكر بشدة على من ينزع يده من طاعته، كما حدث أثناء ثورة أهل المدينة على يزيد سنة ٦٤هـ، فقد روى البخارى فى صحيحه بإسناده عن نافع مولى ابن عمر قال : لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حَشَمه وولَدَه فقال : إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : " يُنصَبُ لكل غادرٍ لواءً يوم القيامة، وإنا قد بايَعْنا هذا الرجلَ على بيعة الله ورسوله، وإنى لا أعلم غدرًا أعظمَ من أن يُبايَعَ رجلٌ على بيع الله ورسوله، ثم يُنصَبُ له القتالُ، وإنى لا أعلمُ أحدًا منكم خَلَعه ولا بايع فى هذا الأمر إلا كانت الفيصلُ بينى وبينه"؛ أى أَعتزله وأُقاطعه.

قال ابن حجر فى تعليقه على هذه الرواية – مؤكدا علي أصل من أصل اعتقاد أهل السنة والجماعة – : " فى الحديث وجوب طاعة الإمام – أى الحاكم – الذى انعقدت له البيعة، والمنع من الخروج عليه ولو جار وظلم فى حكمه، وأنه لا ينخلع بالفسق" .

أما عن الحسين بن على بن أبى طالب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن ابن أبى بكر فإنهم لم يبايعوا يزيد، لا فى حياة أبيه، ولا بعد موته. وقد توفى عبد الرحمن قبل وفاة معاوية . وخرج الحسين ﷺ بالثورة على يزيد سنة ٦١هـ، وانتهى أمره بمقتله فى كربلاء. وأعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة فى مكة بعد وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ، وسيأتى الكلام عن هذه الأحداث فيما بَعْدُ إن شاء الله تعالى .

ويروى بعض المؤرخين أن معاوية أجبر زعماءَ المدينة من أبناء الصحابة – الحسين، وابن الزبير، وابن عمر، وعبد الرحمن بن أبى بكر – أجبرهم على البيعة ليزيد تحت تهديد السلاح، وبخُدعة محكمة حتى حصل منهم على موافقتهم أمام جمهور المسلمين وهم واقفون فى المسجد الحرام. وهذه الرواية باطلة لا تصح، لأنها تتهم هؤلاء الرجالَ بالجبُن، وأنهم أعطوا البيعةَ خوفًا من الموت، كما تتهم معاوية نفسَه بالكذب، وهو الصحابى الجليل وأمير المؤمنين، ومن كُتَّاب الوحى المبين .

الأسس التى بنى عليها معاوية ﷺ اختيار ابنه يزيد لولاية العهد:

ومن المهم فى هذا المقام تحديد الأسس التى بنى عليها معاوية ﷺ من اختيار ابنه يزيد لولاية العهد من بعده، وتوضيح الحُجج التى أيَّد بها دعوتَه تلك: وهذه الأسس أربعة :

أولاً : كان معاوية يرى أنه ينبغي للخليفة أن يفكر فى ولاية أمر المسلمين من بعده، وأن يحرصَ على وَحْدة جماعتهم، وائتلاف كلمتهم، وانتظام حياتهم، وأن يُجنِّبهم الاختلاف والفُرقة، وأن العهدَ بالخلافة أفضلُ من ترك الأمر على غاربه. وقد عبَّر معاوية عن ذلك بقوله لعبد الله بن عمر ﷺ : " إنى خِفْتَ أن أذَرَ الرعيةَ من بعدى كالغنم المَطيرة، ليس لها راع " (أى الغنم التى أصابها المطر فتفرقت واضطربت، وليس لها راعٍ يجمعها وينظمها ويرعاها). وفى رواية أخرى للطبري: " إنى أرهَبُ أن أدعَ أمةَ محمدٍ بعْدى كالضأن لا راعى لها". وقد وضح معاوية ﷺ – فى كلمته التى ألقاها فى أهل المدينة حينما دعاهم للبيعة لابنه يزيد – أن من بين الدوافع التى جعلته يقبل على ذلك : ما وقع فيه المسلمون من خلاف بعد مقتل عثمان ﷺ .

ولا شك فى أن ذكريات الفتنة التى وقعت منذ مقتل الخليفة عثمان ﷺ وما تبعها من حروب بين المسلمين فى موقعتي الجمل وصفين، وما نتج عنهما من دماء – مع تعرض الدولة الإسلامية نفسها لأطماع الأعداء المتربصين بها – لا تزال حاضرة فى الأذهان وتثير القلقَ والخوف .

ثانيًا : نظر معاوية ﷺ فى أن تجربة المسلمين فى الخلافة لم تستقر على صورة واحدة ثابتة، بل تعددت صورها وتنوعت أشكالها، وأن من سبقه من أتقياء المسلمين والخلفاء الراشدين اجتهد كل منهم رأيه فى الخلافة، فأخذت به الأمة، وانقادت له، وإذا اجتهد هو – يعنى معاوية – مثلهم فإنه متبع وليس بمبتدع، وهو لا يبغى من اجتهاده إلا مصلحة الأمة. وقد عبر عن ذلك بقوله: " أيها الناس، قد علمتم أن رسول الله ﷺ قُبض ولم يستخلف أحداً، فرأى المسلمون أن يستخلف الناس أبا بكر، وكانت بيعته بيعة هُدى، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفرٍ، اختارهم من المسلمين،

فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر، كلٌّ ذلك يصنعوه نظراً للمسلمين، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد، لما وقع فيه الناس من الاختلاف، ونظراً لهم بعين الإنصاف".

ثالثًا : وإضافة إلى عاطفة الأبوة وُحبّ الوالد لولده : كان معاوية ﷺ يعتقد أن ابنه يزيد أهل للخلافة، وأنه جمع شروطها؛ من صفات الرئاسة، كشرف النسب، وكرم المنبت، وسماحة الخلق وحَصَافة الرأى، كما جمع صفات الإمامة، من معرفةٍ بالكتاب والسنة، وممارسة السياسة، والنهوض بأعباء الحكم، ودقة التدبير للأمور فى السلم الحرب، وحسن السيرة. وقد سجَّل ابن كثير هذا المعنى بقوله: " كان معاوية لما صالح الحسن بن على عهد للحسين بالأمر بعده، فلما مات الحسن قوى أمر يزيد عند معاوية، ورأى أنه لذلك أهل، وذاك من شدة حب الوالد لولده، ولما كان يتوسم فيه من النجاة الدنيوية، وسيَما أولاد الملوك ومعرفتهم بالحروب وترتيب الملك والقيام بأُبَّهته، وكان ظن أن لا يقوم أحد من أبناء الصحابة في هذا المعنى. وقال يوماً في خطبته: (اللهم إن كنت تعلم أني وليته لأنه – فيما أراه – أهل لذلك فأتم له ما ولَّيتُه، وإن كنت ولَّيتُه لأني أحبه فلا تتم له ما ولَّيتُه). وقال لأهل المدينة حين زارها سنة ٥٩هـ: مَنْ أحقُّ بالخلافة من ابني يزيد في فضله وهديه ومذهبه وموضعه من قريش؟".

رابعًا: كان معاوية يدرك أن أهل الشام لن يسمحوا بخروج الخلافة منهم بعد أن أحسُّوا بالمكانة العالية التى اكتسبوها طيلة عشرين عامًا منذ أن تولى معاوية الخلافة. وفى ذلك يقول بعض الباحثين: " وقد نظر إلى مقر الخلافة فوجد أن أهل الشام أكثر الأماكن صلاحًا، فيجب أن يبقى مركز الحكم فيها، إذْ إن أهلها كلهم على رأي واحد، وهى أقرب البقاع إلى منطقة الثغور، وفيها بطانته، ومنها قوته، ويستطيع الخليفة الجديد أن ينفذ أوامره بكل سهولة " . وهذا ما عبر عنه ابن خلدون " بقوة العصبية "، وبنى عليه رأيه في نظام "ولاية العهد"، وتعمق في تحليله وتعليله. وتعنى قوةُ العصبية عنده: " روابط التضامن والتناصر فى الأسرة أو القبيلة الواحدة، والأسرة أو العشيرة الأقوى هى صاحبةُ العصبية الأقوى، والشوكة والقوة، فتؤدى إلى الملك كأمر طبيعى".

يقول ابن خلدون: "ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية – وهي مقتضى العصبية – كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد، كما قد يتوهمه مُتوهِّم وينزع إليه ملحد، وإنما اختلف اجتهادهم في الحق، وسفهَّ كل واحد منهم صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه، وإن كان المصيب علياً، فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل، إنما قصد الحق وأخطأ. ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به، ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه، فهو أمر طبيعي ساقتْه العصبية بطبيعتها، واستشعرته بنو أمية، فاعصَوْصبَوُا عليه واستماتوا دونه، ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة لوقع في افتراق الكلمة التي كان جَمْعُها وتأليفُها أهمَّ عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة". ويواصل ابن خلدون كلامه قائلا: "والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم، باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية؛ إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش (أي أكثرهم قوة) وأهل الملة أجمع، وأهل الغَلَب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يُظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع".

ورأْىُ أهل السنةِ وموقفُهم من البيعة بالخلافة ليزيد بن معاوية أن بيعته صحيحة، لكن كان هناك مَنْ هو أوْلى من يزيد وأفضل، كابن عمر، وابن الزبير، والحسين بن على، رضى الله عنهم، أى أن معاوية عدل فى الاختيار عن الأفضل إلى المفضول، وقد فعل ذلك لما كان يخافه من الفتنة والشر إذا ترك المسلمين من غير استخلاف. ومن ناحية أخرى: رأى الطاعةَ والقوةَ والأمنَ والاستقرارَ فى الجانب الذى فيه ابنه يزيد، أى : فى بنى أمية .

وقد ثبت عن ابن عمر قولُه – حين استخلف يزيد وتمت له البيعة – : "تقولون: إن يزيدَ بنَ معاوية ليس بخيرِ أمةِ محمدٍ، لا أَفقَهُها فيها فِقْهًا، ولا أعظَمُها فيها شَرَفًا ؟ وأنا أقول ذلك، لكنى واللهِ لأَن تجتمعُ أمةُ مِحمدٍ ﷺ أحبُّ إلىَّ من أن تفترق". وفى ذلك دلالة على أن ابن عمر يُجيز إمامة المفضول فى

وجود الأفضل إذا تعيَّن ذلك؛ دفعًا للفتنة، وإغلاقًا لباب الخلاف والفرقة والشر. وهذا هو ما كان يراه معاوية نفسه. وأشار إلي ذلك الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) بقوله: " كان رأيه فى الخلافة تقديمَ الفاضل فى القوة والرأى والمعرفة (أى بأمور السياسة والحرب والإدارة) على الفاضل فى السبق إلى الإسلام والدين والعبادة. فلهذا رجَّح أن ابنه يزيد أحق من غيره، لِما كان يرى فيه من تلك الصفات التى جعلها مناط اختياره لولاية العهد ".

والخلاصة أن معاوية ﷺ كان يرى أن ابنه يزيد يصلح للخلافة. ولا شك أن إقدامه على ترشيح ابنه يدخل فى دائرة الاجتهاد، وكان من الأفضل أن يجعلها شورى، وألا يخص بها أحدًا من قرابته، لكنه فعل ذلك خشية وقوع الفتنة والفُرقة، فله أَجره عند ربه عز وجل. ولهذا قال الحافظ الذهبى فى (سير أعلام النبلاء) : " ليتَه – أى معاوية – لم يعهد بالأمر إلى ابنه يزيد، وترك الأمةَ من اختياره لهم".

يزيد بن معاوية : ولد يزيد بن معاوية سنة خمس وعشرين، أو سنة ستٍ وعشرين، فى عهد عثمان بن عفان ﷺ . وأمه هى "ميسون بنت بَحْدل الكلبية". وقد نشأ يزيد فى بيت أبيه معاوية حين كان أميرًا على الشام، وعُنى أبوه معاوية بتربيته تربية عربية إسلامية، فقد أرسله فى طفولته إلى البادية عند أخواله من بنى كلب، ليشب فى أحضان الفطرة، وخشونة البادية ورجولتها، وليتعلم اللغة العربية النقية السليمة. وقد أثمرت هذه التربية فى يزيد، فكان شاعرًا فصيحًا وأديبًا لبيبًا، حاضر البديهة، أَبيَّ النَّفسِ، عاليَ الهِمّة. وعندما شبَّ انصرف إلى شيءٍ من اللهو وممارسة الصيد، ولم يكن على صلة بالحياة الاجتماعية التى تجعله بين القادة والأمراء ورجال الحكم، فلما صار له من العمر أربع وعشرون سنة أحب أبوه أن يُعدّه لمعالى الأمور، فاختاره أميرًا على الجيش المتوجه لغزو مدينة القسطنطينية (عام ٤٩هـ)، ثم أميرًا على موسم الحج (سنة ٥٠هـ)، ثم سعى معاوية لعقد ولاية العهد من بعده وليزيد، ورآه أهلاً لهذا المنصب، وبنى ذلك على بعض الأسس التى ذكرناها من قبل، وكان يدرّبه على مسائل الحكم ويستشيره ويستعين به فى الأمور المشكلة المعْضِلة، وقد سأله مرةً : كيف تراك فاعلاً إن وُلِّيتَ ؟ فقال يزيد :" كنتُ – واللهِ يا أبةِ عاملاً فيهم عَمَلَ عمر بن الخطاب" .

فقال معاوية : "سبحان الله يا بُنىّ ، واللهِ لقد جَهِدتُ على سيرة عثمان بن عفان فما أطقتها، فكيف بك وسيرة عمر؟ ".

وبعد أن توفى معاوية ﷺ فى شهر رجب سنة ستين من الهجرة بويع بالخلافة ليزيد، واجتمعت الأمةُ على بيعته. ولم يشذ عن ذلك إلا الحسين بن على، وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما، وسيكون لكل منهما شأن مع يزيد. أما بقية الصحابة فقد بايعوه، جمعًا للكلمة، وحفظًا لوحدة الأمة، مثل عبد الله بن عمر، وابن عباس. وقد استمر يزيد خليفةً مدةَ ثلاث سنين وستة أشهر أو وثمانية أشهر، وتوفى فى قرية "حوَّارين" بمدينة حمص فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وستين من الهجرة .

وقد اتُّهم يزيد بأنه كان يشربُ الخمر، ويضيع الصلاة، ويلعب بالقرود، وغير ذلك. والحقُّ أن هذا كله غير صحيح ، وكلُّ الأحاديث المروية فى ذمه موضوعةٌ لا يصح منها شئ كما يقول المؤرخ ابن كثير فى (البداية والنهاية) . وقد دافع عنه الصحابىُّ الجليل محمد بن على بن أبى طالب المشهور بمحمد ابن الحنفية، فقد ردَّ على الاتهامات التى ذكرها زعماء أهل المدينة فى حق يزيد، وذلك حينما خلعوا يزيد، وخرجوا عليه بقوة السلاح سنة٦٤هـ، وذهبوا إلى محمد ابن الحنفية لإقناعه بمشاركتهم، وقالوا له: " إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة ويتحدّى حكم الكتاب. فقال لهم : ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرتُه وأقمتُ عنده فرأيته مواظبًا على الصلاة ، متحريًا للخير، يسأل عن الفقه، ملازمًا للسُّنَّة. قالوا : فإن ذلك كان منه تصنُّعاً لك. فقال: وما الذى خاف منى أو رجا حتى يظهر لى الخشوع ؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ؟ فلئن أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا... " .

وقد روى البخارى فى صحيحه عن أم حرام بنت مِلْحان رضى الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : " أول جيشٍ من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم" . ومدينة قيصر هى القسطنطينية، وأول جيش غزا هذه المدينة كان فى خلافة معاوية سنة ٤٩هـ، وأمير الجيش هو يزيد بن معاوية، فيدخل فى هذه الفضيلة الواردة فى الحديث النبوى، ويُعدُّ هذا من فضائله .

ومما يشير إلى فضل يزيد أن الإمام أحمد رحمه الله ذكره فى كتابه (الزهد)، وروى عنه. وهذا – كما يقول ابن العربي المالكي – يدل على منزلة يزيد عند الإمام أحمد حتى يدخله فى جملة الزهَّاد من الصحابة والتابعين الذين يُقتدى بقولهم. كما أن فقيه مصر الليثَ بنَ سعد وصف يزيد بأمير المؤمنين، ولو كان فيه ما يتهمه به خصومه لَمَا وصفه الليث بن سعد بذلك الوصف. وذكره أبو زُرعة الدمشقى فى الطبقة التى تلى طبقة الصحابة، وهى العليا . وليزيد أحاديث رواها، فقد روى عن أبيه معاوية أن رسول الله ﷺ قال :" مَنْ يُرد اللهُ به خيرًا يفقهه فى الدين" (رواه البخارى).

والأسباب التى جعلت خصومَ يزيد ومُبغضيه يتهمونه بالفسق والفجور، ويشوهون صورته وتاريخه وسيرته : ما وقع فى عهده من أحداث جسيمة، وما ترتب عليها من نتائج، كمقتل الحسين بن على ﷺ فى كربلاء (سنة ٦١هـ)، واتهام "يزيد" بأنه هو الذى أمر بقتله، وما حدث كذلك للمدينة النبوية من تخريب ونهب وسلب حينما دخلها جيش الدولة بعد هزيمة الذين خرجوا بالثورة من أهلها لخلع يزيد من منصب الخلافة، وذلك فى معركة الحرَّة (سنة ٦٤هـ) . وسيأتى شرح هذه الأحداث قريبًا إن شاء الله. ومع أننا لا نقلل من أهمية هذه الأحداث وآثارها إلا أننا نستطيع أن نقول : إن يزيد بن معاوية حافظ على هيبة الدولة، وسهر على حراستها، ولم تتوقف حملات الفتح والجهاد فى عهده. ولو دُرِس تاريخه دراسةً هدفُها البحثُ عن الحقيقة، وبعيدًا عن الهوى والميول والعواطف لتغيرت نظرةُ كثيرٍ من الناس إليه، ولأخذ مكانَه الصحيح بين الخلفاء فى التاريخ الإسلامى.

هذا، **ولا يجوز لعن يزيد بن معاوية ولا سبُّه**. وقد ذكر قاضي الحنابلة ابن مفلح الحنبلي في كتابه (المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد) في ترجمة عصمة بن أبي عصمة العكبري– وهو من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل – أنه سأله: أألعنُ يزيد بن معاوية ؟ فقال: " لا تتكلم في هذا، قال النبي ﷺ: (لَعْنُ المؤمن كقتله)، وقال: (خيرُ الناس قرني ثم الذين يلونهم)، وقد كان يزيد منهم، فأرى الإمساك أحبُّ إليَّ" .

وورد في (فتاوي) الشيخ تقي الدين بن الصلاح: أن رجلا يعتقد أن يزيد بن معاوية أمر بقتل الحسين، ورضي به طوعاً منه لا كرهاً، ويورد في ذلك أحاديث مروية، وهو مُصر عليه ويسبُهُ ويلعنه على ذلك، والمسئول خطوط العلماء ليكون رادعاً له أو حجة . فأجاب ابن الصلاح قائلاً: " لم يصح عندنا أنه أمر بقتل الحسين ﷺ، والمحفوظ أن الآمر بقتاله المفضي إلى قتله إنما هو عبيد الله ابن زياد الوالي على العراق إذ ذاك. وأما سبُّ يزيد ولعنه فليس ذلك من شأن المؤمنين، وإن صح أنه قتله أو أمر بقتله ،وقد ورد في الحديث المحفوظ: أن (لعن المؤمن كقتله)، وقاتل الحسين لا يكفر بذلك، وإنما ارتكب إثماً، إنما يكفر بالقتل قاتل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. والناس في يزيد ثلاث فرق؛ فرقة تحبه وتتولاه، وفرقة تسبه وتلعنه، وفرقة متوسطة في ذلك لا تتولاه ولا تلعنه وتسلك به في سبيل سائر ملوك الإسلام وخلفائهم غير الراشدين في ذلك وشبهه. وهذه الفرقة هي المصيبة، ومذهبها هو اللائق لمن يعرف سير الماضين، ويعلم قواعد الشريعة الظاهرة، جعلنا الله من خيار أهلها، آمين" .

ملخص الوحدة الثانية

بعد مُضي عشر سنوات من خلافة معاوية بن أبي سفيان بدأ في السعي إلى عقد ولاية العهد بالخلافة لابنه يزيد. ويقال إن المغيرة بن شعبة أمير الكوفة هو الذي أوعز إليه بهذه الفكرة، وقد حاول أن يحقق مبدأ الشوري في ذلك، فاستدعي وجوه الناس وأشرافهم من الأمصار، فجاءوا وفوداً إلي دمشق، وتشاور معهم في هذا الأمر، وتطلع أن يظفر برضاهم، وحاول أن يستميلهم بطرق شتي، مع ضمان حرية القول، وإبداء الرأي، وظل علي مدى سبع سنوات يروض الناس حتي استوثق ليزيد، غير أن كبار الصحابة رفضوا إعطاء البيعة، ولا تصح الروايات التي تشير إلي أن معاوية حصل علي بيعتهم تحت تهديد السيف، إلا أن ابن عمر ﷺ بايع ليزيد بعد موت معاوية وحذر أهل بيته من الغدر بهذه البيعة. وأما الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير فقد رفضا البيعة، وكان من أمرهما ما كان. وقد استند معاوية في تفضيل ابنه يزيد إلي عدد من المسوغات والأسباب سبق ذكرها، وكان من رأيه تقديم أهل المعرفة بالسياسة والحرب علي أهل الفضل في الدين. وقد عدل في الاختيار من الأفضل إلي المفضول، لما كان يتوجس من الفتنة والشر إذا جعلها شورى، وقد رأي الطاعة والقوة والاستقرار في الجانب الذي فيه ابنه يزيد، وكان حريصاً علي أن يتعهد ولده ويُعدّه للخلافة ويُدرِّبه علي مسائل الحكم وتحمُّل المسئولية. ونؤكد هنا علي أن الروايات التي تتهم يزيد بن معاوية بالفسوق والزندقة لا يصح منها شئ، ولا يجوز لعنه. وأما بيعته فهي صحيحة، وكان أهلاً للخلافة، وإن كان في الأمة من هو أفضل وأولي بالخلافة منه ومن أبيه، كابن عمر، وابن الزبير، والحسين ابن علي، وغيرهم. وقد حكم يزيد في فترة كان الصحابة فيها متوافرين، ووقعت في زمانه فتن وأحداث جسام، كمقتل الحسين، واستباحة المدينة عقب معركة الحرة، الأمر الذي أتاح الفرصة لتشويه صورته والطعن في سيرته.

أسئلة على الوحدة الثانية

س١: وضح كيف سعي معاوية ﷺ في الحصول على البيعة لابنه يزيد بولاية العهد .

س٢: ما مدى صحة القول بأن معاوية أجبر بعض الصحابة علي إعطاء البيعة لابنه يزيد ؟ وما موقف كبار أبناء الصحابة في ذلك الوقت من هذه البيعة؟

س٣: وضح الأسس التي اعتمد عليها معاوية بن أبي سفيان ﷺ في العهد بالخلافة لابنه يزيد . ولماذا ؟

س٤: هل كان يزيد بن معاوية رحمه الله أهلاً للخلافة ؟ وكيف ترد على بعض الطوائف التي تجيز لَعْن يزيد ؟

نموذج إجابة

إجابة السؤال الثالث :

بعد مُضي عشر سنوات من خلافة معاوية بن أبي سفيان بدأ – سنة ٤٩ أو ٥٠هـ – في السعي إلي عقد ولاية العهد بالخلافة لابنه يزيد. وقد حاول أن يحقق مبدأ الشوري في ذلك، فاستدعي وجوه الناس وأشرافهم من الأمصار، فجاءوا وفوداً إلي دمشق، وتشاور معهم في هذا الأمر، وتطلع أن يظفر برضاهم، وحاول أن يستميلهم بطرق شتي، مع ضمان حرية القول، وإبداء الرأي، وظل علي مدى سبع سنوات يروض الناس حتي استوثق ليزيد. وقد استند معاوية في تفضيل ابنه يزيد إلي عدد من المسوغات والأسباب:

السبب الأول : أن معاوية كان يرى أنه ينبغي للخليفة أن يفكر فى ولاية أمر المسلمين من بعده، وأن يحرصَ على وَحْدة جماعتهم، وائتلاف كلمتهم، وأن يُجنِّبهم الاختلاف والفُرقة، وأن العهدَ بالخلافة أفضلُ من ترك الأمر على غاربه. وقد عبَّر معاوية عن ذلك بقوله لابن عمر ﷺ : " إنى خِفْتَ أن أذرَ الرعيةَ من بعدى كالغنم المَطيرة، ليس لها راع ". ولا شك أن ذكريات الفتنة التى وقعت منذ مقتل الخليفة عثمان ﷺ، وما تبعها من حروب بين المسلمين وما نتج عنها من دماء لا تزال حاضرة فى الأذهان وتثير القلقَ والخوف.

والسبب الثاني: أن معاوية ﷺ نظر إلي تجربة المسلمين فى الخلافة، فوجد أنها لم تستقر على صورة واحدة ثابتة، بل تعددت صورها وتنوعت أشكالها، وأن من سبقه من الخلفاء الراشدين اجتهد كل منهم رأيه فى الخلافة، فأخذت به الأمة، وانقادت له، وإذا اجتهد هو يعنى معاوية مثلهم فإنه متبع وليس بمبتدع، وهو لا يبغى من اجتهاده إلا مصلحة الأمة.

والسبب الثالث: كان معاوية ﷺ – إضافة إلى عاطفة الأبوة وُحبّ الوالد لولده – يعتقد أن ابنه يزيد أهل للخلافة، وأنه جمع شروطها؛ من صفات الرئاسة، كشرف النسب، وسماحة الخُلُق، وحَصَافة الرأى، كما جمع صفات الإمامة، من معرفةٍ بالكتاب والسنة، وممارسة السياسة، والنهوض بأعباء الحكم،

ودقة التدبير للأمور فى السلم الحرب، وحسن السيرة. وكان يظن أن لا يقوم أحد من أبناء الصحابة في هذا المعنى. وقال يوماً في خطبته: "اللهم إن كنت تعلم أني وليته لأنه فيما أراه أهل لذلك فأتم له ما ولَّيتُه، وإن كنت ولَّيتُه لأني أحبه فلا تتم له ما ولَّيتُه". وكان من رأيه تقديم أهل المعرفة بالسياسة والحرب علي أهل الفضل في الدين. وكان حريصاً علي أن يتعهد ولده ويُعدّه للخلافة ويُدرِّبه على مسائل الحكم وتحمُّل المسئولية.

والسبب الرابع : أن معاوية نظر إلى مقر الخلافة فوجد أن الشام أكثر الأماكن صلاحًا، فيجب أن يبقى مركز الحكم فيها، إذْ إن أهلها كلهم على رأي واحد، ولن يسمحوا بخروج الخلافة منهم بعد أن أحسُّوا بالمكانة العالية التى اكتسبوها طيلة عشرين عامًا منذ أن تولى معاوية الخلافة. كما أن الشام أقرب البقاع إلى منطقة الثغور، وفيها بطانته، ومنها قوته، ويستطيع الخليفة الجديد أن ينفذ أوامره بكل سهولة. وهذا ما عبر عنه ابن خلدون " بقوة العصبية "، وتعني: روابط التضامن والتناصر في الأسرة أو القبيلة الواحدة، والأسرة أو العشيرة الأقوى هي صاحبةُ العصبية الأقوى والشوكة والقوة، فتؤّدى إلى الملك كأمر طبيعي.

الوحدة الثالثة
أهم الثورات والفتن في العصر الأموي

الأهداف :

في نهاية هذه الوحدة، ينبغي أن يكون الدارس ملماً بما يلي:

١- معرفة نشاط الخوارج في العصر الأموي، واتساع نفوذهم، وبيان جهود الخلفاء والقادة الأمويين في التصدي لثوراتهم ومحاربتهم، وإضعاف شوكتهم.

٢- التعرف علي ثورات العلويين، والوقوف علي أسباب هذه الثورات ونتائجها، وبيان حقيقة ثورة الحسين وموقف يزيد بن معاوية من مقتله.

٣- التعرف علي ثورة أهل المدينة: أسبابها ونتائجها، وكيف تعامل معها الخليفة يزيد بن معاوية، ومعرفة موقف بعض الصحابة من هذه الثورة.

٤- التعرف علي أحداث ثورة عبد الله بن الزبير بعد إعلان نفسه خليفة عقب موت يزيد بن معاوية (٦٤هـ) والصراع العسكري بين الزبيريين والأمويين، إلي أن قتل ابن الزبير (سنة ٧٣هـ) وانفراد عبد الملك بن مروان بالملك، مع بيان أسباب سقوط دولة الزبيريين، وحقيقة موقف ابن عمر وابن عباس من البيعة لابن الزبير.

٥- التعرف علي طبيعة ثورة ابن الأشعث (٨١-٨٣)، وفهم أسبابها ونتائجها، وعلاقة ذلك بسياسة الحجاج بن يوسف الثقفي الوالي على العراق.

العناصر:

يمكن عرض موضوعات هذه الوحدة من خلال العناصر الآتية:

أولاً: ثورات الخوارج .

ثانياً: ثورات الشيعة (مقتل حُجْر بن عدي الكندي- ثورة الحسين بن علي ابن أبي طالب - ثورة التوابين - ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي- ثورة زيد بن علي بن أبي طالب في الكوفة) .

ثالثاً: ثورة أهل المدينة ومعركة الحرَّة (سنة٦٤هـ) .

رابعاً: ثورة عبد الله بن الزبير (٦٤-٧٣هـ).

خامساً: ثورة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي في العراق (سنة٨١-٨٣هـ).

أولاً – ثورات الخورج :

١- لقد زاد نشاطُ الخوارج بعد أن تآمروا على قتل على بن أبى طالب ﷺ، وقويت شوكتهم منذ قيام الخلافة الأموية. وقد بدأوا ثوراتهم منذ عهد معاوية بن أبى سفيان ﷺ، حيث واجه منهم معارضة قوية، فى البصرة والكوفة (بالعراق)، فما كاد يبدأ بالرحيل إلى الشام بعد أن تنازل الحسن بن على ابن أبى طالب عن الخلافة حتى ثار الخوارج بقيادة "فروة بن نوفل الأشجعى"، وكانوا قد اعتزلوا فى خمسمائة رجل فى بلدة "شَهْرَزَوْر" وهاجموا الكوفة، فقاتلهم أهلُها حتى قُتلوا. ثم أعاد الخوارج هجومهم مرةً أخرى (سنة ٤٣هـ) بقيادة "المستورد بن عُلَّفة التيمى"، فجهز المغيرة بن شعبة أمير الكوفة جيشًا من ثلاثة آلاف، وأرسل عبد الله بن عامر (أمير البصرة) جيشًا آخر من أهل البصرة ممن يستحل قتال الخوارج، وبعد جولات طويلة انتهى الأمر بمقتل الخوارج عن آخرهم بالقرب من "المدائن".

٢- وفي (سنة ٤٨هـ) واصل خوارج الكوفة ثوراتهم بقيادة حيان بن ظبيان السلمي ، فظفر بهم المغيرة بن شعبة، وأودعهم السجن فلما توفي سنة ٥٠هـ، خرجوا ثم اجتمعوا بالكوفة وأرادوا الخروج بالثورة، غير أنهم خافوا أن يرجمهم النساء والأطفال بالحجارة من فوق سقوف المنازل، فساروا إلى "بانقيا" علي مسافة قريبة، ثم بُعث إليهم جيش فقُتلوا جميعا. وكانت تلك نهاية الخوارج بالكوفة إلى أن يعودوا إليها (سنة ٧٦هـ)، وأصبح للشيعة سلطان غير منازع فيها، مما دفع الخوارج إلى زيادة نشاطهم في البصرة، وأصبح معظم المؤيدين لحركتهم من أهلها.

٣- وقد ثار خوارج البصرة عدة مرات (سنة ٤١ ، ٤٥ ، ٥٠هـ) وعبثوا بالأمن والنظام، فاشتد زياد بن أبى سفيان (أمير العراق فى عهد معاوية) في ملاحقتهم، وجرَّد فيهم السيف وتعقَّبهم، وعاقب على الشبهة. ولما تولى ابنه عبيد الله بن زياد من بعده الإمارة على البصرة (سنة ٥٥هـ) لم يكن بأقل من

أبيه شدة على الخوارج، بل كان أكثر منه صرامةً، فحبس من اشتبه فيه منهم، وقتل جماعة كبيرة، وظل يتتبعهم. وكان من أبرز الخوارج الذين قتلهم الأمير عبيد الله بن زياد : "عروةُ بن أُديَّة التميمى"، وهو أول من دعا إلى "التحكيم" فى معركة صفين قبل ذلك بعشرين عامًا. وقتل أيضا " مِرْداس بن أُديَّة " – هو ومن معه من الخوارج – سنة ٦١هـ .

٤– كان نتيجة لاشتداد عبيد الله بن زياد في التعامل مع الخوارج أنهم تركوا البصرة وانضموا إلي عبد الله بن الزبير في مكة، ليساعدوه في قتاله ضد الأمويين. فلما مات الخليفة يزيد بن معاوية (٦٤هـ) وانتهي حصار ابن الزبير في مكة، وارتحل جيش الشام إلي دمشق قال الخوارج بعضهم لبعض: " ألا تسألونه عن عثمان ما قوله فيه؟ فأتوه فقالوا له: "ما قولك في عثمان؟ ". قال: "أتولاه حياً وميتاً "، فقالوا: " برئ الله منك"، ثم انصرفوا وتفرقوا، فسار منهم جماعة إلي البصرة وفيهم – من قادتهم – : نافع بن الأرزق، وعبد الله بن الصَّفار، وعبد الله بن أباض، وحنظلة بن بيهس. وذهب أبو طالوت، وأبو فديك، وابن الأسود إلي اليمامة، فاستولوا عليها.

وفي ظل التنازع والقتال الذي وقع بين القبائل في البصرة بعد موت الخليفة يزيد ابن معاوية، أُتيحت الفرصة للخوارج لجمع شملهم، فهجموا علي السجون وكسروا أبوابها، وأطلقوا سراح أتباعهم، ثم نظموا أنفسهم وتهيأوا للخروج والثورة مع نافع بن الأرزق في ثلاثمائة رجل، فخرجوا إلى "الأهواز"، وما لبث أهل البصرة أن أدركوا خطورة الأمر، فاصطلحت القبائل المتنازعة، وجرَّدوا أنفسهم للخوارج وأخافوهم حتي اضطروهم إلي الفرار واللحاق بنافع ابن الأرزق. ثم دب الخلاف بين الخوارج، ولم يلحق جماعة منهم بابن الأرزق، أشهرهم "عبد الله بن أباض" و"عبد الله بن الصفار"، ومن ثمَّ افترقت كلمتهم وصاروا أحزاباً وفرقاً متباينة، أبرزها: (الأزارقة): أتباع نافع بن الأرزق، وكانوا أكثر الخوارج عددا وأشدهم شوكة. و(الصُّفرية): أتباع عبد الله بن الصفَّار. و(الأباضية): أتباع عبد الله بن أباض. و(البهنسية): أتباع حنظلة بن بيهس، و(النجدات): أتباع نجدة بن عامر الحنفي في البحرين. ولا ريب أن هذا الانشقاق يمثل تطوراً لحركة الخوارج، وأدي إلى اتساعها.

وكانت المبادئ التي خرج نافع بن الأزرق – والتي من أجلها فارق بعض قادة الخوارج – أن مخالفيهم من هذه الأمة مشركون، ولا يجوز المقام بين أظهرهم، بل تجب الهجرة، وأن القَعَدة عن الهجرة إليهم مشركون، كما أنهم أوجبوا امتحان من قصدهم للانضمام إليهم، واستباحوا قتل نساء مخالفيهم وأطفالهم. وأما أصحاب الفرق الأخري فكانوا أقل تطرفاً علي درجات متفاوتة فيما بينهم، ولم يختلفوا كثيراً في المبادئ الأساسية. غير أن جميع فرق الخوارج متفقون علي وجوب الخروج بالسيف علي الأمراء والسلاطين، لعزلهم، وتنصيب إمام منهم، وإقامة الدولة التي تؤمن بمبادئهم وتعمل علي تطبيقها.

٥- اشتدت شوكة الخوارج "الأزارقة" واتسع نشاطهم، وهددوا البصرة عدة مرات، وتتابعت انتصاراتهم، إلي أن تولي القائد الكبير "المُهلَّب بن أبي صُفْرة " حربهم. وقد خاض هذا القائد – هو وبنوه – مع الأزارقة حروباً طويلة يطول استقصاؤها، علي مدي تسع عشرة سنة، فيما بين بلاد " فارس" و"الأهواز"، وقع بعضها في فترة عبد الله بن الزبير، وباقيها في زمان خلافة عبد الملك بن مروان وولاية الحجاج بن يوسف الثقفي علي العراق، واستطاع المُهلب أن يقضي عليهم قضاء تاماً، خصوصاً بعد أن وقع الخلاف بينهم، وانقسموا علي أنفسهم ونشبت الحرب بين صفوفهم، وكان آخر رؤوسهم " قَطْري بن الفُجاءة" الذي قُتل سنة ٧٨هـ، بعد أن ظل عشرين سنة يقاتل ويُسلَّم عليه بالخلافة. وبمقتله أُخمدت ثورة الخوارج " الأزارقة "، واضمحلت حركتهم بالبصرة ونواحيها.

٦- وبينما كان "الأزارقة " يهددون البصرة كان فريق آخر من الخوارج " الصُّفرية " – وعلي رأسهم "صالح بن مُسرِّح التميمي" و" شبيب بن يزيد الشيباني" – قدموا من نواحي الموصل والجزيرة الفراتية (سنة ٧٦هـ) – يهددون الكوفة، وتمكنوا من دخولها والسيطرة عليها مدة قصيرة، وانتصروا علي جيوش الخلافة في عدة معارك، ثم استطاع الحجاج الثقفي أن يزيل خطرهم عن الكوفة ثم البصرة، غير أن حركة الخوارج ظلت قوية في نواحي الموصل وديار بكر.

٧- وقد أدت الضربات المتتالية التي لحقت بالخوارج، إلى تفرقهم في البلدان، وتوزُّعِهم في الآفاق، مجموعات صغيرة، في فارس وكرمان، وأرمينية، وسجستان

وخراسان، بحيث ابتعدوا عن مركز الدولة الأموية في الشام والعراق، واستكانوا وهدأت ثوراتهم فترة طويلة تزيد علي العشرين عاماً (٧٨-١٠٠هـ)، ثم عادوا نشاطهم في عهد الخليفة الزاهد: عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ)، فاستعمل معهم أسلوب الحوار فاستجابوا له حينما أقنعهم بخطأ أفكارهم وانحراف منهجهم، ووعدوه بالهدوء، لكنهم هبُّوا من جديد بعد وفاته (١٠١هـ)، ولم تهدأ ثوراتهم التي استمرت حتي آخر أيام الدولة الأموية، وخصوصاً بعد أن بدأ الانشقاق يصيب الأسرة الحاكمة عقب موت هشام بن عبد الملك (١٢٥هـ). وكان مقتل الخليفة الوليد بن يزيد (١٢٥-١٢٦هـ) علي يد يزيد ابن الوليد (المعروف بيزيد الناقص) الشرارة الأولي لهذا الانقسام . كما أن العصبية القبلية اشتدت بين القبائل القيسية واليمنية في الشام والعراق، واضطرب حبل مروان بن محمد (آخر الخلفاء الأمويين)، وكان قد تمكَّن من توطيد الأمر لنفسه، ثم خاض معارك ضاربة ضد قوي كثيرة متربصة بالدولة. وفي وسط هذه الظروف العصيبة اشتد خطر الخوارج منذ أن تولي مروان بن محمد الخلافة (سنة ١٢٧هـ)، واتسعت حركاتهم واستطاعوا أن يسيطروا علي العراق كله، وامتد نفوذهم إلي الحجاز واليمن، وكان أشدها خطراً الثورات التي قادها " الضحاك بن قيس الشيباني" في العراق، و" أبو حمزة الخارجي " في جنوب الجزيرة العربية.

وقد شغلت هذه الثورات الخليفة مروان، واستغرقت طاقته، وكانت ستارا كثيفا حجبه عن مواجهة خطر العباسيين الزاحف عليه من "خراسان" حيث اشتعلت ثورتهم المسلحة ضده، وسيطرت جيوشهم علي العراق وخراسان، وانتهي به الأمر إلي قتله وزوال الدولة الأموية نهائياً (سنة١٣٢هـ). ولعل هذا يؤكد أن ثورات الخوارج كانت من أهم عوامل انهيار الدولة الأموية أمام الجيوش العباسية.

ثانياً – ثورات الشيعة :

(١) مقتل حُجْر بن عدى الكندى فى الكوفة (سنة ٥١هـ):

هو حُجْر بن عدى بن ربيعة الكندى، الكوفى، أبو عبد الرحمن. وهو من أوائل طبقة التابعين وقيل: إنه معدودٌ فى الصحابة، وفد مع أخيه "هُدْبة" إلى رسول الله ﷺ، ولا رواية له عنه. ويقال له "حُجْر الخير" . شهد معركة القادسية (سنة ١٥هـ) وغزا

بلاد الشام، وهو الذى فتح "مرج عذراء" (وهى من قرى غوطة دمشق تبعد عنها خمسة عشر ميلاً)، وكان من أنصار على ﷺ ومتشيعًا له. وقال عنه : " كان ثقة معروفًا ". وقال الذهبى : " كان شريفًا وأميرًا مطاعًا، أمَّارًا بالمعروف، مُقدمًا على الإنكار، من شيعة على ﷺ، وكان ذا صلاح وتعبُّد" . ووُصف أيضًا بأنه " كان من عبَّاد الناس وزهّادهم، بارًا بأُمّه، كثير الصلاة والصيام".

وقد أمر معاوية بقَتْل حُجْر بن عدى (سنة ٥١هـ)، وكان ذلك من المآخذ التى أُخِذتْ عليه، فأين الحقيقة، وأين الحقُّ فيما حدث ؟؟

كان المغيرةُ بن شعبة ﷺ – وهو من الصحابة – أميرًا على الكوفة فى خلافة معاوية ﷺ، وكان إذا خطب ذكر علىَّ بن أبى طالب فى خطبته ينال منه ويتنقّصُه، ويمدح عثمانَ بن عفان ﷺ وأنصاره، فإذا سمع حُجر بن عدى ذلك يغضب ويُظهر الإنكار على المغيرة، لكن المغيرة كان يقابل ذلك بالحلم والأناة والصفح، ويحذر حُجْرًا عاقبة ما يصنع، ويوضح له أن معارضة السلطان شديد وبالها. ولم يرجع حُجْر عن ذلك، واستمر فى إنكاره ومعارضته على ملأ من الناس. فلما كان فى آخر أيام المغيرة قام حُجْر يومًا فأنكر عليه أثناء الخطبة، وصاح به وذمَّه بتأخير العطاء، وقام معه جماعات من الناس يصدقونه ويؤيدونه، وبعد الصلاة دخل المغيرة دار الإمارة، ودخل معه جماعة من الأشراف والقادة، فأشاروا عليه بردع حُجْر وزجْره عما يفعل، ومعاقبته بسبب شق عصا الطاعة وإنكاره على الأمير وتحريض الناس عليه . لكنَّ المغيرة كان يقابل ذلك أيضًا بالعفو والصفح.

ولما مات المغيرة بن شعبة (سنة ٥٠هـ) جمع معاوية بن أبى سفيان ولاية الكوفة والبصرة لزياد بن أبى سفيان (الذى يقال له : زياد بن أبيه)، وظل واليا إلى أن توفى (سنة ٥٣هـ). وكان زياد من أنصار على بن أبى طالب، فلما قتل علىٌّ ﷺ توسط المغيرة بن شعبة بين زياد ومعاوية، واستجاب زياد لهذه الوساطة، وبايع معاوية بالخلافة، ثم ولاه أميرًا على البصرة (سنة ٤٥هـ) ثم ضم إليه إمارة الكوفة بعد وفاة المغيرة (سنة ٥٠هـ).

وكان حُجر بن عدى من أولياء زياد وأنصاره وأصحابه، ولم يكن ينكر عليه شيئًا، فلما بايع زيادٌ معاوية وتولى له إمارةَ البصرةِ والكوفة بدأ حُجر يُظهر معارضَتَه له، مدفوعًا بعاطفة التخرُّب والتشيع .

وكان حُجْر من المعارضين لصلح الحسن بن على مع معاوية، ويعلن ذلك فى حياة المغيرة بن شعبة أمير الكوفة قبل زياد، فكان المغيرة يحلُم عليه ويعفو عنه، ولما مات المغيرة (٥٠هـ)، ثم مات الحسنُ بن عليِ فجأة (سنة ٥١هـ) تحول حُجْر بن عديِ من المعارضة القولية إلى المعارضة الفعلية والقولية، وأخذ يُحرّض الناسَ على الخليفة، دون خشيةٍ أو خوف. ولمَّا قدم "زيادُ ابن أبيه" واليًا على الكوفة وجد جماعاتٍ من شيعة على بن أبى طالب ﷺ يلتفُّون حول حُجر بن عدى، ويُشدُّون على يده، ويُحرِّضُونه على المعارضة، ويُعلنون سبَّ معاويةَ والبراءَةَ منه.

وحينما خطب زياد أوَّلَ خُطبة بالكوفة فى آخرها فَضْلَ عثمان بن عفان ﷺ، وذمَّ قاتليه ومن أعان على قتْله، فقام حُجر كما كان يقوم فى أيام المغيرة ابن شعبة، وتكلم بنحو ما كان يتكلم، فلم يتعرض له زياد بشيء، وأراد أن يصطحبه معه إلى البصرة فقال حُجر : إنى مريض. فقال زياد :" إنك لمريض الدين والقلب والعقل، والله لئن أحدثتَ شيئًا لأسعين فى قتلك". ويروى ابن سعد فى (الطبقات الكبرى) أن "زياد بن أبيه" دعا بحُجْر بن عدى، ونصحه بأن يكف عما يصنع، وأن يمسك لسانه عما يقول، وقال له : " املك عليك لسانَك، وليسعْك منزلك، وهذا سريرى فهو مجلسك، وحوائجك مقضية لدىّ، فاكفنى نفسك، فإنى أعرف عَجَلتَك، فأنشدُك اللَّهَ فى نفسك". ثم حذره من هؤلاء الذين يلتفُّون حوله، ويُحرضونه على السلطان .

ثم إن زيادًا انصرف إلى البصرة – وكان يقيم فيها ستة أشهر، وفى الكوفة ستة أشهر – وترك "عمرو بن حُريث" نائبًا له على الكوفة، فعاد أصحاب حُجْر يترددون إليه ويسيرون معه فى طريقه إلى المسجد، ويُحِّرضونه، ويقولون له: "أنت شيخنا "، وبدأوا يثيرون الفتنة، وكانوا يجلسون معه وحوله فى المسجد وهم فى كامل سلاحهم، ورموا عمرو بن حريث بالحصى وهو يخطب على المنبر

يوم الجمعة. وقد وصلت هذه الأخبارُ إلى زياد، فانتقل إلى الكوفة، وخطب فى الناس فقال فى خطبته : " إن هؤلاء آمنون فاجترءوا علىَّ، وايمُ الله، لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم". ثم قال : "ما أنا بشئ إن لم أمنع ساحة الكوفة من حُجْر وأصحابه، وأَدَعْه نكالاً لمن بعده ". ويُروى : إن زيادًا لما خطب طوَّل الخطبة وأخَّر الصلاة ، فقال حُجْر: " الصلاة "، فمضى زياد فى خطبته، فلما خشى حُجْر فوتَ الصلاة عمد إلى كفٍ من حصباء ونادى : "الصلاة"، وثار الناس معه، فلما انصرف زياد من صلاته كتب إلى الخليفة فى أمر حُجر وأصحابه، وما يصدر منهم، فكتب إليه معاوية بأن يقبض عليه، ويشده فى الحديد ويرسله إليه فى دمشق .

وقبل أن ينفذ زيادُ ما أمره به الخليفة أرسل إلى حُجْر جماعة من أشراف الكوفة، فيهم الصحابىُّ جرير بن عبد الله البجلى ﷺ، وكلّموه فى أن يكف عما يفعل، وعن تحزيب الناس حوله، فلم يُبال بهم، ولم يستجب لنصائحهم، وحاول هؤلاء أن يرققوا قلب زياد، وسألوه الرفق بحُجْر بن عدى، فلم يفعل، وأرسل إليه جنوده، فلم يزالوا به حتى أحضروه إلى زياد بعد عدة محاولات، فقيّده وسجنه عشرة أيام، ثم وافق زياد على الشرط الذى اشترط حُجر عند استسلامه، وهو "إحالة القضية إلى معاوية ليحكم فيها "، فبعث به إلى معاوية، ومعه عشرون أو أربعة عشر من كبار أنصاره ومؤيديه، وبعث معهم جماعة يشهدون عليه أنه سبَّ الخليفة، وأنه حارب الأمير، وأنه يقول : " إن هذا الأمر – يعنى الخلافة – لا يصلح إلا فى آل على بن أبى طالب" .

ولما وصل حُجْر وأصحابه العشرون – أو الأربعة عشر – إلى "مَرْج عذراء" (على بُعْد خمسة عشر ميلاً من غوطة دمشق) أرسل معاويةُ مَنْ تلقّاهم بها، فقُتلوا هناك. وذكر محمد بن سعد فى (الطبقات الكبرى) أن معاوية استشار أمراءه ومستشاريه فى أمرهم، فِمن مشيرٍ بقتلهم، ومن مشير بتفريقهم فى البلاد، ثم أرسل إلى " زياد ابن أبيه" كتابًا آخر فى أمرهم، فأشار عليه بقتلهم إن كان له حاجة فى استقرار العراق، فعند ذلك أمر معاويةُ بقتلهم، فاستوهب منه الأمراءُ

واحدًا بعد واحد، حتى استوهبوا منه ستة، وقُتل منهم سبعةٌ، أولهم حُجْر بن عدى، وعفى عن واحد رجع عن آرائه وموقفه .

ويُذكر أن حُجْرًا لما أرادوا قَتْله قال:" دعونى حتى أتوضأ ". فقالوا له: توضأ. فقال : " دعونى حتى أصلى ركعتين"، فصلاهما، وخفف فيهما، ثم قال: " لولا أن يقولوا ما بى جزع من الموت لطولتهما". ثم قدموه للقتل.

وقال محمد بن سيرين لما أُتى بحُجْر قال : " ادفنونى فى ثيابى، فإنى أُبعث مُخاصمًا" . وروى ابن عون عن نافع قال : " كان ابن عمر فى السوق، فنُعى إليه حُجْر فأطلق حبوته، وقام وقد غلب عليه النَّحيب " .

وقد أُخذ على معاوية ﷺ قَتْلُه حُجْرَ بن عدى، ولامته على ذلك عائشةُ أمُّ المؤمنين رضى الله عنها . روى ابن عساكر فى (تاريخ دمشق) من طريق عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل قال : " لما قدم معاوية (أى إلى المدينة) دخل على عائشة رضى الله عنها ، فقالت : أقتلت حُجْراً ؟ قال : "يا أم المؤمنين، إنى وجدتُ قتل رجلٍ فى صلاح الناس، خير من استحيائه فى فسادهم ". وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن أبى مُليكة قال : " لما قدم معاويةُ المدينة دخل على عائشة (أى أستأذن فى الدخول إليها) فقالت: أقتلتَ حُجْراً . فقال : وجدتُ فى قتله صلاحَ الناس، وخِفْتُ من فسادهم" . وفى رواية ذكرها ابن كثير في(البداية والنهاية) من طريق سعيد بن المسيَّب، عن مروان بن محمد قال : دخلت مع معاوية على أم المؤمنين عائشة، فقالت :" يا معاويةُ، أقتلتَ حُجْراً وأصحابه، وفعلتَ الذى فعلتَ؟". فقال : "يا أمَّ المؤمنين، كيف أنا فيما سوى ذلك من حاجاتِك وأمرِكِ ؟ ". قالت : صالحٌ ، قال :" فدعينى وحُجْرًا حتى نلتقى عند ربنا عز وجل" .

إن حُجْر بن عدى وأنصاره – وكما يذكر الطبرى فى روايته – " كانوا ينالون من عثمان بن عفان ﷺ (أى ينتقصون من شأنه) ويطلقون فيه مقالة الجور، وينتقدون على الأمراء، ويسارعون فى الإنكار عليهم (أى معارضتهم وإثارة الناس عليهم) ويبالغون فى ذلك، ويتولون شيعة على (أى يفضلون علياً وأبناءه، وأنهم أحق بالخلافة)، ويتشددون فى الدين". ومع إصرار حُجْر وأتباعه على هذه المبادئ فقد اعتبره معاويةُ ساعيًا فى الأرض بالفساد، وأنه خشِى إن تركه أن يُثير الفتنة بين

الناس، ويعرض أمن المجتمع واستقراره للفوضى. ثم إن معاويةُ لم يُقْدم على ذلك إلا بعد أن استشار فى أمر حُجْ، ولم يجد أمير العراق زيادُ ابن أبيه حلاً سلميًا لمشكلته، فرفع شأنه إلى الخليفة، مع شهادة الشهود .

وقد يقول قائل : كان ينبغى لمعاوية أن لا يخرج عن سجيته من الحلم وسعة الصدر لمخالفيه. ونقول : إن معاوية يملك الحلم وسعة الصدر عند البغى عليه فى شخصه . فأما البغى على الجماعة فى شخص حاكمها – وهو على منبر المسجد – فهو ما لا يملك معاوية أن يتسامح فيه، وخاصة فى مدينة الكوفة التى بها أهل الفتنة والساعون فيها كما هو معروف عنها زمن الخلفاء الراشدين. وغاية ما يمكن أن يقال فى هذه القضية تلك العبارة التى نطق بها معاوية نفسه حين كلَّمْته أمُّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها، فقال لها: " **دعينى وحُجْرًا حتى نلتقى عند ربنا عز وجل**". ونحن نقول : دعوه وحُجْرًا حتى يلتقيا عند الله تعالى .

(٢) ثورة الحسين بن علي ﷺ (٦١سنة هـ) :

لقد مات رسول الله ﷺ وهو عن الحسين راضٍ . ثم كان أبو بكر الصديق ﷺ يكرمه ويعظمه، وكذلك عمر وعثمان رضي الله عنهما. وصحب الحسينُ أباه عليّاً ﷺ وروي عنه، وكان معه في حروبه كلها، وتولي قيادة الميسرة في معركة صفين (٣٧هـ)، فلما قُتل أبوه وآلت الخلافةُ إلي الحسن وأراد أن يصالحَ معاوية – كما مرَّ ذِكْره – شق ذلك على الحسين، ولم يوافق أخاه الحسن علي موقفه، بل حضَّ علي قتال معاوية وأهل الشام، فقال له أخوه الحسن : " واللهِ لقد هممتُ أن أسجنَك في بيتٍ وأُطبِقَ عليك بابَه حتي أفرغَ من هذا الشأن، ثم أخرجك" . فلما رأي الحسينُ ذلك سكت وسلَّم. قال الذهبي في (سير أعلام النبلاء): " بلغنا أن الحسين لم يعجبه ما عمِل أخوه الحسنُ من تسليم الخلافة إلي معاوية، بل كان رأيه القتالَ، ولكنه كَظَم– يعني سكت – وأطاع أخاه وبايع" .

ولما استقرت الخلافُة لمعاوية كان الحسينُ ﷺ يتردد إليه مع أخيه الحسن، فيكرمهما معاويةُ إكرامًا زائدًا، ويعطيهما عطاءً جزيلاً. وقد أعطاهما مرةً في يوم واحد مائتي ألف درهم، وقال : "خُذاها، واللهِ لا يُعطيكما أحدٌ قبلي ولا بعدي"، فقال

الحسين : "والله لن تُعطِي أنت ولا أحدٌ قبلك ولا بعدك رجلاً أفضلَ منا" .

وقد كان الحسنُ يُحذِّر أخاه الحسينَ من الخروج علي بني أمية وحذَّره كذلك من غَدْر أهل الكوفة . وبعد وفاة الحسن (٥١هـ) استمر الحسينُ يفِدُ إلي معاويةَ في دمشق، في كل عام، فيعطيه ويُكْرِمه، فيقبلُ الحسينُ جوائزَه، واشترك في الجيش الذي غزا القسطنطينية (سنة ٤٩-٥٠هـ)، وكان يزيد بن معاوية أميرًا عليه.

وكان أهل الكوفة من الشيعة يُحرِّضون الحسينَ (بعد موت أخيه الحسن) علي خلع معاوية، وكتبوا إليه يدعونه إلي الانضمام إليه وتأييده فيأبي عليهم، وجاءه أبو سعيد الخدري فقال : " يا أبا عبد الله، إني لك ناصحٌ ومشفق، وقد بلغني أنه قد كاتبك قومٌ من شيعتك، فلا تخرجْ إليهم، فإني سمعتُ أباك يقول بالكوفة: واللهِ لقد مللتُهم ومَلُّوني، وأبغضتُهم وأبغضوني، وما بَلَوْتُ منهم وفاءً، ولا لهم ثباتٌ ولا عزم ولا صبر علي السيف".

ويروي ابن سعد أن وفدًا من رؤساء الشيعة بالكوفة – وفدوا علي الحسين بالمدينة يحرضونه علي خلع معاوية من الخلافة والخروج عليه بالسيف، وقالوا له: "قد علمنا رأيك ورأي أخيك"، يريدون بذلك أن الحسين لم يكن موافقًا علي موقف الحسن لمَّا تنازل عن الخلافة لمعاوية . لكن الحسين ﷺ كان يرفض، لأن في عنقه بيعةً لمعاوية.

ويبدو أن مروان بن الحكم أمير المدينة – وهو أُموي – قد علم بهذا اللقاء، فكتب إلي معاوية : " إني لستُ آمنُ أن يكون الحسين مُرْصَدا للفتنة، وأظن يومكم منه طويلاً ". فكتب معاوية إلي الحسين : " إنَّ من أعطي الله صفقة يمينه وعهده لَجديرٌ أن يفي، وقد أُنبئتُ بأن قومًا من الكوفة دعوك إلي الشقاق، وهم مَنْ قد جرَّبْتَ، قد أفسدوا علي أبيك وأخيك، فاتق الله واذكر الميثاق، فإنك متي تكدْني أكدْك". فرد عليه الحسين وكتب إليه يطمئنه: " أتاني كتابك، وأنا بغير الذي بلغك عني جدير، وما أردتُ لك محاربةً ولا خلافًا ".

ولما بدأ معاويةُ يسعي في الحصول علي البيعة بولاية العهد لابنه يزيد تألم

الحسين لتلك الخطوة التي أقدم عليها معاوية، وامتنع هو وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وابن عباس، ثم مات عبد الرحمن ابن أبي بكر وهو مُصَمّمٌ علي رأيه، فلما توفي معاوية (سنة ٦٠هـ) وتسلَم يزيد الخلافة بايعه أكثر الناس وبايعه ابنُ عمر، وابنُ عباس ومحمد ابن الخنفية، وبقية الصحابة، وذلك جَمْعاً لكلمة المسلمين، وحفظًا لوحدتهم، وأصرَّ الحسينُ وعبدُ الله بن الزبير رضي الله عنهما علي المخالفة، وامتنعا عن البيعة . وكان الحسين بعد وفاة معاوية مقيما بالمدينة النبوية، فأرسل الخليفة يزيد إلي واليه علي المدينة " الوليد بن عتبة بن أبي سفيان " يخبره بموت معاوية، ويأمره بأخذ البيعة له من الحسين وابن الزبير، فأخبرهما بموت معاوية، وطلب منهما البيعة ليزيد، فاستمهلاه – أي طلبا منه أن يُمهلَهما. لكنهما لم يبايعا، وخرجا من ليلتهما إلى مكة، فأقاما بها، " ورام كلٌّ واحد منهما الأمر لنفسه".

ويروي الطبري في تاريخه أن ابنَ عمر وابنَ عباس رضي الله عنهما لقيا الحسينَ وابنَ الزبير في طريقهما إلي مكة، وكانا هما قادمين من المدينة، فسألاهما عما وراءهما، فقالا :" قد مات معاوية والبيعة ليزيد". فقال لهما ابن عمر : " اتقيا الله، ولا تفرقا جماعة المسلمين".

الحسين يرسل ابنَ عمه مسلمَ بن عقيل إلى الكوفة ليأخذَ له البيعة:

ولمَّا وصلتْ إلي أسماع أهل الكوفة أخبارُ وفاة معاوية، ولجوءُ الحسين وابن الزبير إلي مكة مُمتنِعَيْن عن البيعة ليزيد – حنُّوا إلي تمردهم القديم أيام خلافة علي وابنه الحسن ﷺ، فجاءت رسلُهم تتري إلي الحسين يحملون رسائلَ أهلها يدعونه إليهم، ويعِدُونه بالتأييد والنصر ويستحثونه علي الخروج إليهم ليبايعوه، ثم توالت عليه الرسائل بالبيعة، وتدور كلُّها على أنهم لا يجتمعون علي أميرهم النعمان بن بشير في صلاة جمعة، ويحثُّونه علي الإسراع إليهم، حيث ينتظره منهم "جند يأتمرون بأمره، ويقاتلون معه". ولَّما تواترت الرسائل وكثرت وجَّه الحسينُ ابنَ عمه مسلمَ بنَ عقيل بن أبي طالب إلي الكوفة ليستوثق له، ويكشفَ حقيقةَ الموقفِ هناك، ثم يُمهِّدُ له السبيلَ وقال له : "سِرْ إلي أهل الكوفة، فإن

كان حقًا ما كتبوا به عرَّفْتَني حتي أَلحقَ به". وكتب الحسينُ إلي أهل الكوفة وأعملهم أنه قادمٌ إليهم.

ويبدو أن مهمة "مسلم" كانت يسيرة، فإنه لَما وصل الكوفة تتابعتْ عليه وفودُ الشيعة تبايعه سرًا، واستجابت له جموعٌ ضخمة، وبايعه أكثر من اثني عشر ألفًا، ثم تكاثروا حتي بلغوا ثمانية عشر ألفًا، فكتب مسلمٌ إلي الحسين ليقدم عليه. ولما علم النعمانُ بن بشير أميرُ الكوفة بخبر القوم جعل لا يهتم بذلك، ولا يعبأ به، لكنه خطب الناسَ ونهاهم عن الاختلاف والفتنة، وأمرهم بالائتلاف والحرص علي الجماعة، وحذَّرهم من نقض بيعتهم للخليفة وخَلْعهِ، وقال في خطبته: " والله الذي لا إله إلا هو، لئن فارقتم إمامَكم ، ونكثتم بيعتَه لأقاتلنكم ما دام في يدي من سيفي قائمة " .

لم يوافق جماعة من أشراف أهل الكوفة (من الموالين لبني أمية) علي موقف النعمان بن بشير، واستضعفوه. ثم كتب هؤلاء إلى الخليفة يزيد بن معاوية يخبرونه بما يحدث، فعزل الخليفةُ النعمانَ بن بشير عن الكوفة، وضمَّها إلي "عبيد الله بن زياد" مع البصرة، وكتب إليه : " إذا قدمتَ الكوفَة فاطلب مسلمَ بن عقيل، فإن قدرتَ عليه فاقتله أو انْفه" .

ولما نزل مسلم بن عقيل الكوفة نزل في دار أحد زعمائها، وهو هانئ بن عروة المرادي"، وهي الدار التي كان مسلم يأخذ فيها البيعة، واستطاع أمير الكوفة عبيد الله بن زياد – عن طريق دسيسة له – أن يعرف هذه الدار، فاستدعى هانئ ابن عروة، وطلب منه أن يأتي بمسلم بن عقيل، فرفض، فسجنه في جانب قصر الإمارة. وحينئذ ظهر مسلم بن عقيل في الثامن من شهر ذي الحجة (عام ٦٠هـ)، ونادي بشعاره، واجتمع له أربعة آلاف من أهل الكوفة، وعبأهم للقتال، وسار بهم إلي قصر الإمارة، وحاصره، وليس فيه مع ابن زياد إلا ثلاثون رجلاً من الشرطة، وعشرون من أشراف الناس ورؤساء القبائل، فأغلقوا عليهم باب القصر، وطلب عبيد الله من بعض الأمراء أن يخرجوا إلي طرقات الكوفة ليفرقوا الناس عن نصرة مسلم بن عقيل، ويحذرهم من عقوبة السلطان، ففعلوا ذلك، وبدأ الناس

يتفرقون، ولا يزالون في التناقص حتي بقي مسلم في خمسمائة، ثم في ثلاثمائة، ثم في ثلاثين رجلاً، فلما جاء الليل ذهبوا جميعًا، وبقي وحده لا يدري أين يذهب؟ فاختبأ في بيت امرأة من قبيلة "كندة"، ثم اكتُشف وقُبض عليه، وانتهي أمره بمقتله، ومقتل هانئ بن عُروة المرادي . وكان مسلم حين أيقن أنه مقتول قد أوصي عمر بن سعد بن أبي وقاص – وكان موجودًا في قصر الإمارة – أن يبعث إلي الحسين بن علي بأن يرجع، وقال له "وابعث إلي الحسين – يعني بالرجوع – فإني كنت قد كتبتُ إليه أن الناس معه، ولا أراه إلا مقبلاً " .

خروج الحسين إلي الكوفة قبل علمه بمقتل ابن عمه ونُصْح الصحابة له بترك الخروج :

ولما تواترت الكتب إلي الحسين من جهة أهل العراق وتكررت الرسل بينهم وبينه وجاءه كتاب مسلم بن عقيل بالقدوم عليه بأهله عزم علي المسير إليهم والقدوم عليهم، فاتفق خروجه من مكة يوم التروية قبل مقتل مسلم بيوم واحد، ولم يكن الحسين قد علم بنبأ مقتله. وهنا بدأ المحيطون به من كبار الصحابة في مكة يشفقون عليه من هذه المخاطرة، وأرادوا أن يمنعوه من الخروج إلي الكوفة وحذَّروه من تقلّب الكوفيين، ونصحوه بلزوم الجماعة. وكانت هذه النصائح كثيرة، نذكر منها هنا: ما رواه الشَّعْبُي أن ابنَ عمر كان بمكة، فبلغه أن الحسينَ بن علي قد توجه إلي العراق، فلحقه على مسيرة ثلاثِ ليالٍ، فقال: أين تريد ؟ قال : العراق – وإذا معه طَوامير (أي صحف) وكتب – فقال:" هذه كُتُبهم وبيعتُهم ". فقال :" لا تأتهم "، فأبي، فقال ابن عمر: " إني محدثُك حديثًا، إن جبريَل أتي النبي ﷺ فخيَّره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرةَ ولم يُردْ الدنيا، وإنك بُضْعةٌ من رسول الله ﷺ، والله ما يليها أحدٌ منكم أبدًا – يعني الخلافة والإمارة – وما صرفها اللهُ عنكم إلا للذي هو خيرٌ لكم". فأبي الحسينُ أن يرجع. قال : فاعتنقه ابن عمر وبكي، وقال: " أستودعك الله من قتيل". وكان يقول:" غَلَبَنا الحسينُ بنُ علي بالخروج، ولَعَمري لقد رأي في أبيه وأخيه عبرة، فرأي من الفتنة وخذلان الناس لهما ما كان ينبغي له أن لا يتحرك ما عاش، وأن يدخل في صالح ما دخل فيه الناس، فإن الجماعة خير".

وكان ابن عباس رضي الله عنه ينهاه عن الخروج، وقال له : أين تريد ؟ فقال:

العراقَ وشيعتي. فقال : " إني لكاره لوجهك هذا (أي : كاره لوجهتك التي تتوجه إليها)، تخرج إلي قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك حتي تركهم سخْطةً وملالاً لهم ؟ أذكرك اللهَ أن تغرر بنفسك" .

وقال أبو سعيد الخدري: "غلبني الحسين علي الخروج، وقلت له : اتق الله في نفسك، والزم بيتك، ولا تخرج علي إمامك". وكلَّمه جابر بن عبد الله، وأبو واقد الليثي، فقال له جابر: " اتق الله، ولا تضرب الناس بعضهم ببعض، فوالله ما حمدتم ما صنتم. فعصاني". وقال أبو واقد الليثي : " بلغني خروج الحسين ابن علي فأدركته بـ " مَلَل "– علي مقربة من المدينة – فناشدته الله أن لا يخرج، فإنه يخرج في غير وجه خروج، إنما خرج يقتل نفسه، فقال : لا أرجع". وكتب إليه عبد الله بن جعفر يحذِّره أهلَ العراق ويناشده الله، فرد عليه الحسين: " إني رأيت رؤيا، رأيت رسول الله ﷺ، وأمرني بأمرٍ، وأنا ماضٍ له، ولستُ بمخبر بها أحدًا حتي ألاقي ربي".

معركة كربلاء ومقتل الحسين شهيداً :

هكذا لم يقبل الحسين بن علي ﷺ نصيحة أعلم أهل زمانه ابن عباس، وعدل عن رأي شيخ الصحابة ابن عم، ولم تُجْد معه كلُّ هذه المحاولات المبذولة من الأحبّاء والألبَّاء لمنعه من المسير إلي العراق. يقول ابن تيمية : " وقد اتفقت كلمتهم علي أن هذا (الذي يريده) لا مصلحة فيه، وأن هؤلاء (أهل الكوفة) يَكْذِبونه ويُخَذِّلُونه، إذْ هم أسرعُ الناس فتنة وأعجزُهم فيها، وأن أباه كان أفضلَ منه وأطوَع في الناس، وجمهورُ الناس معه، ومع هذا فكان فيهم من الخلاف عليه والخذلانِ له ما اللهُ به عليم، حتي صار إلي السِّلْمَ بعد أن كان يدعو إلي الحرب، وما مات إلا وقد كرهم كراهةً اللهُ بها عليم، وقد دعا عليهم وتبَرَّم منهم".

ولما صمم الحسين علي الخروج لم تتوقف مساعي بني أمية لتجنُّب الموقف العصيب، فقد كتب مروانُ بن الحكَم إلي عبيد الله بن زياد أمير الكوفة يحذّره من قَتْل الحسين، فقال : " أما بعد، فإن الحسين بن علي قد توجه إليك، وهو الحسين ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وتالله ما أحدٌ يُسلِّمه اللهُ أحبَّ إلينا من الحسين،

فإياك أن تهيّج علي نفسك ما لا يسدُّه شيء، ولا تنساه العامة، ولا تدع ذكره آخر الدهر – والسلام". وكتب عمرو بن سعيد ابن العاص (الوالي علي مكة) رسالة تحذير مماثلة إلي ابن زياد.

وفي الطريق إلي الكوفة علم الحسين بنبأ مصرع ابن عمه مسلم بن عقيل عن طريق الرسول الذي أرسله عمر بن سعد، فأراد أن يرجعَ من حيث أتي، غيرَ أن بني عقيل الذين كانوا معه وثبوا عند ذلك قائلين: " والله لا نرجعُ حتي نُدْرِكَ ثأرنا أو نذوقَ ما ذاق أخونا "، فنزل علي رأيهم ووافقهم.

وبعد أن علم عبيد الله بن زياد بخروج الحسين أمر الحُرَّ بن يزيد التميمي أن يخرج بألف رجل مُقدمةً ليلقي الحسين في الطريق، فلقيه قريبًا من القادسية، فقال له الحر: إلي أين يا ابن بنت رسول الله ؟ قال: إلي العراق. قال: " فإني آمرك أن ترجعَ، وأن لا يَبْتَليني اللّهُ بك. ارجعْ من حيث أتيتَ، أو اذهبْ إلي الشام حيث يزيدُ، لا تقدم إلي الكوفة ". فأبي الحسين ذلك، ثم جعل يسير جهة العراق، وصار الحرُّ بن يزيد يعاكسه ويمنعه، فقال له الحسين: "ابتعد عني ثكلتك أمك". فقال الحر بن يزيد عند ذلك : " والله لو قالها غيرك من العرب لاقتصصت منه ومن أمه، ولكن ماذا أقول وأمك سيدةُ نساء العالمين". عندئذٍ امتنع الحسين من المسير، ثم جاءت بقية جيش الشام، وكان عددهم أربعة آلاف بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص، وكان الحسين في مكان يقال له " كربلاء" بمنطقة يقال لها " الطفّ ". ولما وصل جيش عمر كلم الحسين وأمره أن يذهب معه إلي العراق حيث عبيد الله بن زياد، فأبي. ولما رأي أن الأمرَ جَدٌّ قال لعمر ابن سعد : " إني أخيِّرك بين ثلاثة أمور، فاختر منها ما شئتَ" . قال : وما هي؟ قال :" أن تَدَعَني أرجع، أو أذهبَ إلي ثغرٍ من ثغور المسلمين، أو أذهبَ إلي (يزيد) حتي أضعَ يدي في يده في الشام". فقال عمر بن سعد : " نعم، أَرْسِلْ أنتَ إلي يزيد، وأُرْسِلُ أنا إلي عُبيد الله بن زياد، وننظر ماذا يكون في الأمر". فلم يرسل الحسينُ إلي يزيد، وأرسل عمر بن سعد إلي عبيد الله بن زياد، فلما جاء الرسولُ إلي عبيد الله وأخبره الخبر، وأن الحسين يقول : أخيركم بين هذه الأمور الثلاثة، رضي عبيد الله بذلك. وكان عنده في مجلسه رجل من المقربين

إليه يقال له "شَمِر بن ذي الجَوْشَن"، اعترض علي موقف عُبيد الله، وقال له : "لا والله حتي يَنزلَ علي حكمك"، فاغتر عُبيد الله بقوله فقال :" نعم يَنزلَ علي حكمي" (يعني : يأتي إلي الكوفة ثم أحكم في أمره بالذي أراه). ثم أرسل عبيدُ الله بن زياد " شَمِرَ بنَ ذي الجوشَن"، وقال له : " اذهب حتي ينزلَ علي حكمي، فإن رضي عُمر بن سعد وإلا فأنت القائد مكانه" .

وكان عبيد الله قد جهَّز عَمَر بن سعد بهذه الأربعة آلاف يذهب بها إلى الري فقال له : " اقض أمر الحسين ثم اذهب إلي الري". وكان قد وعده بولاية الري، فخرج شمر بن ذي الجوشن إلي حيث الحسين بن علي وعمر بن سعد، فلما جاء الخبر إلي الحسين وأنه لابد أن ينزل علي حكم ابن زياد رفض، وقال: " لا والله، لا أنزل علي حكم عبيد الله بن زياد أبدًا " .

وكان عدد الذين مع الحسين اثنين وسبعين فارسًا، وعدد جيش الشام خمسة آلاف، ولما استعد الفريقان قال الحسين لجيش ابن زياد: " راجعوا أنفسكم وحاسبوها، هل يصح لكم قتال مثلي، وأنا ابن بنت نبيكم، وليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري، وقد قال رسول الله ﷺ لي ولأخي : "هذان سيدا شباب أهل الجنة ". وصار يحثُّهم علي ترك أمر عبيد الله بن زياد، بل إلى الانضمام إليه، فانضم للحسين منهم ثلاثون، فيهم الحُرُّ بن يزيد التميمي الذي كان قائدًا لمقدمة جيش عبيد الله .

بعد ذلك صلي الحسين الظهر والعصر من يوم الخميس، إماما بالفريقين، بجيش عبيد الله بن زياد وبالذين معه، وكان قال لهم : "منكم إمام ومنا إمام"، قالوا: " لا، بل نصلي خلفك "، فصلوا خلف الحسين الظهر والعصر، فلما قرب وقت المغرب تقدموا بخيولهم نحو الحسين، فلما رآهم (وكان قد نام قليلا) قال : ما هذا ؟ قالوا : إنهم تقدموا. فقال :" اذهبوا إليهم فكلموهم وقولوا لهم: ماذا يريدون؟"، فذهب عشرون فارسًا، منهم العباس بن علي بن أبي طالب (أخو الحسين) فكلموهم : ماذا تريدون ؟ قالوا :" إما أن ينزل علي حكم عبيد الله بن زياد، وإما أن يُقاتَل". قالوا: حتي نخبر أبا عبد الله. فرجعوا إلى الحسين ﷺ وأخبروه، فقال: "قولوا لهم أمهلونا هذه الليلة، وغداً نخبركم حتي أصلي لربي، فإني أحب أن أصلي

لربي تبارك وتعالي". فبات ليلته تلك يصلي – هو من معه – لله تبارك وتعالى ويستغفره. وفي صباح يوم الجمعة شب القتال بين الفريقين، وذلك أن الحسين رفض أن يستأسر لعبيد الله بن زياد، وكانت الكفتان غير متكافئتين، فرأي أصحاب الحسين أنهم لا طاقة لهم بمقاتلة هذا الجيش، فصار همُّهم الوحيد الدفاع عن الحسين بن علي رضي الله عنه، فأصبحوا يموتون بين يديه الواحد تلو الآخر حتى فنوا جميعاً، ولم يبق منهم أحد إلا الحسين ﷺ. وبقي بعد ذلك نهاراً طويلا لا يقدُم عليه أحدٌ حتي يرجع، لا يريد أن يبتلي بقتله ﷺ، واستمر هذا الأمر حتي جاء شَمِر بن ذي الجوشن فصاح بالناس: "ويحكم، ثكلتكم أمهاتكم، أحيطوا به واقتلوه"، فجاءوا وحاصروا الحسين، فصار يجول بينهم بالسيف حتي قتل منهم من قتل، وكان كالسَّبع، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة، وصاح بهم شمر بن ذي الجوشن: " ويحكُم ماذا تنتظرون؟ أقدموا". فتقدموا إلى الحسين فقتلوه رضي الله عنه. والذي باشر قتله هو "سنان بن أنس النخعي" وحزَّ رأسه، وقيل: إن الذي قتله "شمر بن ذي الجوشن" قبحه الله.

وقد قتل من أصحاب الحسين وأهل بيته اثنان وسبعون رجلاً، منهم سبعة عشر أو ستة عشر رجلاً من نسل فاطمة رضي الله عنها، فدفنهم أهل الغاضرية من بني أسد بعدما قُتلوا بيوم واحد. وقُتل من جند عمر بن سعد ثمانية وثمانون نفسًا، سوي الجرحي، فصلي عليهم ودفنهم .

وكان قتلُ الحسين ﷺ في العاشر من المحرم (سنة ٦١هـ/٦٨١م). وبعد انتهاء المعركة أمر عمر بن سعد قائد الجيش بألا يدخل أحدٌ علي نساء الحسين وصبيانه، وألا يتعرض لهم أحد بسوء، وأرسل برأس الحسين ونسائه، ومن كان معه من الصبيان إلي عُبيد الله بن زياد في الكوفة.

روي البخاري في صحيحه عن أنس قال : أُتِي عبيدُ الله بن زياد برأس الحسين، فجعله في طَسْت، فجعل يَنكْتُ عليه، وقال في حُسنه شيئًا، فقال أنس: "إنه كان أشبههم برسول الله، وكان مخضوبًا بالوسمة". وروي الطبراني في (المعجم الكبير) أن رأس الحسين لما وُضعت بين يدي عبيد الله بن زياد جعل ينكت به

ومعه قضيب يدخله في فم الحسين، ويقول : " إن كان لَحسَنَ الثغر". وكان أنس بن مالك ﷺ جالسًا فقام وقال : " لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يُقبِّلُ موضع قضيبك من فِيه".

وتزعمُ بعضُ الروايات أن الذي فعل ذلك هو يزيد بن معاوية، وهذا ليس صحيحًا. وقد نفي ابنُ تيميةَّ حدوثَ ذلك في مجلس الخليفة يزيد، فقال: " وقد رُوي بإسناد مجهول أن هذا كان قُدَّام يزيد، وأن الرأس حُمِل إليه، وأنه هو الذي نكت علي ثناياه، وهذا مع أنه لم يثبت، ففي الحديث ما يدل علي أنه كذب، فإن الذين حضروا نكته بالقضيب من الصحابة لم يكونوا بالشام (أي وقتها)، وإنما كانوا بالعراق.

وتزعم أيضًا بعض الروايات أن ابن زياد أساء معاملة نساء الحسين وآل بيته بعد قتله، أو في ترحيله لهنَّ إلي الشام. وهذا ليس صحيحًا، فالروايات الصحيحة تخبرنا أن أحسن شيء صنعه ابن زياد أنه أمر لهن بمنزل، وأجري عليهن رزقا، وأمر لهن بنفقة وكسوة .

ويقول ابن تيمية في كتابه (منهاج السنة النبوية) في رده علي بعض كذابي الشيعة : " وأما ما ذُكِر من سبي نساء الحسين والدوران بهن علي البلدان، وحَمْلِهن علي الجِمال بغير أقتاب، فهذا كذب وباطل، وما سَبي المسلمون – ولله الحمد – هاشميةً قط، ولا استحلت أمهُ محمدٍ هاشميةً قط، ولكنَّ أهلَ الهوي والجهل يكذبون كثيرًا " .

بعد ذلك كتب عبيد الله بن زياد إلي يزيد بن معاوية يخبره بما حدث، ويستشيره في شأن أبناء الحسين ونسائه، فلما بلغ الخبرُ يزيدَ بنَ معاوية بكي، وقال : " كنت أرضي من طاعتكم – أي أهل العراق – بدون قتل الحسين، كذلك عاقبة البغي والعقوق، لعن الله ابن مُرجانة، أَمَا واللهِ لو أني صاحبُه لعفوتُ عنه، فرحم الله الحسين". ثم أرسل يزيد إلي ابن زياد يأمره بإرسال آل الحسين إليه. فلما وصلوا إلي دمشق أمر بنساء الحسين وبناته أن يتجهزن، وأعطاهن كل ما طلبن، حتي لم يدع لهم حاجة بالمدينة إلا أمر بها، ثم أمر النعمان بن بشير أن يقوم بتجهيزهم، وقبل أن يغادروا قال يزيد لعلي بن الحسين: " إن أحببتَ أن تقيمَ

عندنا نصِل رحمَك، وتُعَرفُ لك حقُّك، فعلتَ ". ولكن علي بنَ الحسين اختار الرجوعَ إلي المدينة، وأكرم يزيُد أبناءَ الحسين وخيَّرهم بين المقام عنده في دمشق أو الذهاب إلي المدينة، فاختاروا الرجوع إلي المدينة. وعند مغادرتهم دمشق كرَّر يزيد الاعتذار لعلي بن الحسين وقال: " لعن اللهُ ابنَ مُرْجانه (يعني: عبيد الله)، أَمَا والله لو أني صاحبه (أي الحسين) ما سألني خصلة أبدًا إلا أعطيتها إياه، ولدفعت عنه الحتف – يعني الهلاك – بكل ما استطعتُ، ولو بهلاك بعضِ ولدي، ولكنَّ الله قضي ما رأيتَ، كاتِبْني بكل حاجةٍ تكون لك". وخرج آل الحسين من دمشق محفوفين بأسباب الاحترام والتقدير حتي وصلوا إلي المدينة. قال ابن كثير في يزيد :" وأكرم آل بيت الحسين ورد عليهم جميع ما فقد لهم وأضعفه، وردهم إلي المدينة في محامل وأبهة عظيمة ".

ثورة الحسين في الميزان : وإذا أردنا أن نحكم علي ثورة الحسين بن علي رضي الله عنهما، وأن نزنها بميزان العدل والشرع فإننا نردد ما قاله العلماء من أهل السنة والجماعة : قُتل الحسين ﷺ مظلومًا، ولم يكن متوليًا للأمر، أو إمامًا – كما تقول الشيعة – أي لم يكن خليفةً، ولا قُتل خارجيًا، أي لا يُعدُّ من الخوارج، بل قُتل مظلوما شهيدًا، وذلك لأنه أراد الرجوع، أو الذهاب إلي الخليفة يزيد في الشام، لكنهم منعوه حتي يستأسر لابن زياد، أي يسلم نفسه إليه أسيرًا ليري فيه حكمه، فرفض الحسين، وقاتل حتي قُتل ﷺ.

لكن لم يكن في خروج الحسين ﷺ إلي الكوفة مصلحة راجحة كما أكَّد على ذلك الأئمة العلماء، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، حيث قال في كتابه (منهاج السنة النبوية) – بعد ما ذكر كلام الصحابة الذين نصحوا الحسين بالبقاء وعدم الخروج علي الخليفة – قال : " إنه لم يكن في الخروج مصلحة، لا في دين ولا في دنيا، وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصُل لو قَعَدَ في بلده، فإن ما قصده من تحصيل الخيرِ ودَفْعِ الشّر لم يحصُلْ منه شيءٌ، بل زاد الشرُّ بخروجه وقتله، ونقص الخيرُ بذلك، وصَار سببًا لشر عظيم، وكان قتل الحسين مما أوجب الفتن" .

(٣) ثورة التوابين (٦٤ – ٦٥هـ):

التوابون : جماعة من الشيعة أحسُّوا بخطئهم الفادح حين دعوا الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ إلى الكوفة، ليبايعوه خليفةً وإمامًا، ثم تخلَّوْا عنه بعد قدومه عليهم وخذلوه، فلما قُتل في "كربلاء" قرر هؤلاء الثأر له من الذين سعوا في قتله، وسمُّوا أنفسهم "التوابين"، أي الذين تابوا من تقصيرهم في نُصرة الحسين. وتزعَّمهم رجل منهم يُسمَّى "سليمان بن صُرد الخزاعي"، وهو من الكوفة، ويُعدُّ من الصحابة، روى عن النبي ﷺ، وعن علي بن أبي طلب وأُبي بن كعب والحسين بن علي، وكان له منزلة عالية وشرف في قومه، وكان في جيش عليٍ بمعركة صفّين.

وقد بدأت هذه الحركة سرية إلى أن توفي الخليفة يزيد بن معاوية (سنة ٦٤هـ)، فأخذوا في إظهار دعوتهم بالكوفة، واجتمع لهم عدة آلاف من الناس، بلغوا ستة عشر ألفًا، وبايعوا "سليمانَ بن صُرد" على الموت، طلبًا لثأر الحسين، ورفعوا شعار " يا لثارات الحسين"، واتفقوا على الخروج من الكوفة لقتال المسؤول الأول عن قتل "الحسين"، وهو عُبيد الله بن زياد. لكنهم حين خرجوا بالثورة في الوقت المحدد تخلَّى أكثرهم عن "سليمان بن صُرَد" وانفضُّوا، كما انفضُّوا عن الحسين من قبل، ولم يبق معه إلا نحو ثلاثة آلاف، توجه بهم لقتال الأمويين .

وفي تلك الأثناء كان أهل الشام قد اجتمعوا على مروان بن الحكم ليكون خليفة للمسلمين بعد وفاة يزيد بن معاوية، وتمكن من الإمساك بزمام الأمور، وبعد أن استقرت له الأوضاع أرسل إلى العراق أميرها السابق عبيد الله بن زياد، الخبير بأهلها وكيفية مواجهتهم، فالتقى بالتوابين (سنة ٦٥هـ/٦٨٥م)، في منطقة تسمى "عين الوردة"، وتقع في المناطق الشمالية من العراق، بين "نصيبين" و"حرَّان". وفي هذا اللقاء أبلى الشيعةُ بلاء حسنًا، ولكنَّ الكثرةَ والعُدةَ جعلت النصرَ في كفة ابن زياد، وقُتل "سليمانُ بن صُرَد"، وكثيرٌ من أتباعه، وتفرق الباقون عائدين إلى ديارهم بالكوفة، وفي الطريق قابلوا إخوانَهم الشيعة من أهل البصرة والمدائن الذين لم يصلوا إلى ميدان القتال في الوقت المناسب، وظل

هؤلاء الناجون بالكوفة حتى ثاروا مرة أخرى مع المختار بن أبى عُبيد الثقفى في عهد عبد الملك بن مروان.

(٤) ثورة المختار بن أبي عُبيد الثقفي في الكوفة (٦٧هـ):

تُعدُّ هذه الثورة أيضًا إحدى النتائج التي ترتبت على مصرع الحسين بن علي. وزعيمُها هو "المختار بن أبي عُبيد بن مسعود الثقفي"، من قبيلة ثقيف التي كانت تسكن الطائف بالحجاز. وأبوه هو الصحابي الجليل أبو عُبيد ابن مسعود الثقفي الذي اختاره الخليفة عمر بن الخطاب ليقود الجيوش الإسلامية في حرب الفرس؛ نظرًا لشجاعته، وإليه تنسب وقعة "جسر أبي عبيد"، وهو جسر على نهر دجلة، وقد لقي الشهادة في الموقعة المعروفة باسم "موقعة الجسر" (سنة ١٣هـ/٦٣٥م).

و" المختار بن عُبيد الله" من الشخصيات التي كانت تسعى إلى السلطة بأي ثمن، وقد نشأ في أسرة تناصر العلويين، وكان ممن بايع "مسلم بنَ عقيل" الذي أرسله "الحسين بن على" إلى الكوفة ليأخذ له البيعةَ من أهلها، ولما قُتل مسلمٌ حبس "عُبيد الله بن زياد" المختار، ثم نفاه إلى الطائف، فخرج إلى الحجاز، واتصل بعبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفةً بعد موت الخليفة الأموي يزيد ابن معاوية (سنة ٦٤هـ)، ثم عزم المختار على الانتقال إلى الكوفة، وخاصةً أنه لم يجد تجاوبًا من ابن الزبير، وكانت الكوفة تموج بالفوضى بعد هزيمة "التوابين"، فادَّعى أنه جاء مندوبًا من عند "محمد بن على بن أبي طالب" المشهور بابن الحنفية، للمطالبة بدم الحسين والأخذ بثأره.

ولم يكن المختار صادقًا في دعواه، وإنما هداه تفكيره إلى استخدام مأساة الحسين ذريعةً للوصول إلى مطالبه. وكان الشيعة في تلك الفترة يفتقرون إلى الزعامة بعد مقتل "سليمان بن صُرَد الخزاعي"، فلما وجدوا المختار– وكان بارعًا في الحيل وخداع الناس– التفوا حوله وأسلموا له القيادة .

ازداد نفوذ المختار بعد أن حالفه التوفيق فانتصر على جيش أموي، وقتل قائده "عبيد الله بن زياد" في معركة عند نهر "الخازر" بالقرب من "الموصل"

سنة (٦٧هـ). ولما كان " ابنُ زياد" يُعُّد المسئولَ الأولَ عن قتل "الحسين" في "كربلاء"، فقد دعَّم مقتلُه المختارَ، وزاد من ثقة الشيعة به ووقوفِهم خلفه، فاستفحل أمره، وعظُم شأنُه، واتسع نفوذُه، وقامت له دولة في "الكوفة"، اتسعت رقعتُها لتشملَ معظمَ "العراق" .

لم ينعم المختار بدولته طويلاً، فقد أزعج صعودُ أمره " آل الزبير" في "مكة"، و"عبد الملك بن مروان" في "دمشق"، فأرسل "عبد الله بن الزبير" أخاه مصعباً بجيش ضخم، قضى به على المختار سنة (٦٧هـ). وانتهت بذلك حركة واحد من كبار المغامرين المتطلعين إلى السلطة في العصر الأموي، ولم تنفعه مزاعمُه وادعاءاتُه حبَّ آلِ البيت والثأرِ لقتلاهم، فقد انكشفت حيلُه، وتخلَّى عنه الشيعة وأسلموه إلى مصيره .

(٥) ثورة زيد بن علي بن الحسين في الكوفة (١٢١هـ) :

مضت فترة امتدت إلي أكثر من نصف قرن منذ مصرع "المختار الثقفي" سنة (٦٧هـ)، دون أن يقوم الشيعة العلويون بأية ثورة ضد الدولة الأموية، بسبب الضربات المتلاحقة التي حاقت بهم، وافتقارهم إلي الزعامة القوية التي تقودهم، إلي ظهر زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وحدَّثته نفسه بالخلافة، ورأي أنه أهل لها، وكان عالماً فاضلاً. وقد عرف أهل الكوفة منه ذلك، وقالوا له: " إنا لنرجوا أن تكون المنصور، وأن يكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية". وفي البدء تشكك زيد بن علي في صدق نيتهم وقوة عزيمتهم، وقال لهم: "إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلتكم بأبي وجدي"، لكنه استجاب لهم علي الرغم من تحذير أهله وأولاد عمومته من غدر أهل الكوفة.

أعلن "زيد بن علي" الثورة على "هشام بن عبد الملك" سنة (١٢١هـ)، فتكررت أحداث جده "الحسين"، ولم يتساهل الخليفة "هشام" مع ثورة تريد نقض ملكه والإطاحة بدولته، علي الرغم من كراهيته لسفك الدماء، فأمر واليه علي "الكوفة" يوسف بن عمر الثقفي، فتصدَّي لزيد بن علي الذي انفض عنه شيعته، وأسلموه إلي عدوه، كما أسلم أسلافهم جدَّه " الحسين"، ولم يبق معه في اللحظات الحرجة من بين خمسة عشر ألفاً بايعوه وعاهدوه علي النصرة إلا نحو

مائتي رجل، فاستطاع "يوسف بن عمر" أن يقضي في سهولة ويسر علي تلك الثورة، وقتل "زيد بن علي" في صفر سنة (١٢١هـ).

ثالثاً – ثورة أهل المدينة على يزيد بن معاوية (٦٣هـ):

تبدأ قصة هذه الثورة حينما عزل الخليفة يزيد بن معاوية ابن عمه الوليد ابن عتبة بن أبى سفيان عن ولاية المدينة بناء على رغبة نجدة بن عامر الحنفى – من رؤساء الخوارج – الذى اتهم الوليد فى رسالته إلى الخليفة بالحُمْق، وعدم الرشد فى تدبير الأمور، وطلب منه أن يعين واليًا سهل الخُلُق، لإصلاح الأحوال وجمع الكلمة.

وقد استجاب الخليفة يزيد بن معاوية لتلك الرغبة، وعزل الوليدّ بن عتبة وعين مكانه عثمان بن محمد بن أبى سفيان، وبدأ هذا الوالى الجديد عهده بالإحسان إلى أهل المدينة، وبعث منهم وفدًا إلى الخليفة بدمشق، فيهم: عبد الله ابن حنظلة الغسيل الأنصارى ومعه ثمانية أولاد له، والمنذر بن الزبير بن العوام، وعبد الله بن مطيع، وغيرهم من أشراف المدينة وذلك سنة (٦٢هـ)، فأكرم الخليفة وفادتهم، ومنحهم جوائز كبيرة، لكنهم قابلوا هذا الإحسان بالإساءة والعصيان، ولمَّا عادوا إلى المدينة أعلنوا الثورة على يزيد وخلعوا طاعته، وأظهروا شتمه، فلما سألهم الناس عن سبب ثورتهم – وقد أكرمهم الخليفة، وأعطاهم أموالاً كثيرة – قالوا : " قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، وتَعزف عنده القيانُ بالمعازف، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه"، ثم حضُّوا على المخالفة والخروج، فتجرأ جماعات من أهل المدينة على خلع الخليفة، وولوا على القرشيين: عبد الله بن مطيع، وعلى الأنصار:عبد الله بن حنظلة، واجتمعوا عند المنبر، فجعل الرجلُ منهم يقول: "خلعت يزيدَ كما خلعت عمامتى هذه "، ويلقيها عن رأسه. ويقول آخر: " قد خلعته كما خلعت نعلى هذه". ثم اتفقوا على إخراج أمير المدينة عثمان بن محمد بن أبى سفيان (ابن عم يزيد) وطرْد بنى أمية وإخراجهم منها .

وليس من الصحيح أن جميع أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية، أو أن جميع زعمائهم رضوا بذلك. فقد اعترض بعض علماء المدينة على خلع يزيد

والخروج عليه بالثورة، ولم يؤيدوا من قام بذلك، ونصحوا إخوانهم، واعتزلوا هذه الفتنة. وكان أغلب من يُمثل هذا الرأى جماعة من أكابر الصحابة وفقهاء التابعين، مثل عبد الله بن عمر، ومحمد ابن الحنفية، وعلى بن الحسين بن على ابن أبى طالب (زين العابدين)، وسعيد بن المسيب، وغيرهم. وبعضُ هؤلاء تصدى لمحاورة زعماء الثورة ومحاولة إقناعهم بالحفاظ على بيعة الخليفة، وبينوا لهم بطلان ادعائهم فسوق يزيد. كما أن جماعات كاملة من أهل المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار اعتزلوا هذه الثورة، واحتفظوا ببيعتهم ليزيد. كما أن بنى أمية ومواليهم فى المدينة كانوا يشكلون عددًا ضخمًا من أهلها بلغوا ألف رجل أو ثلاثة آلاف رجل، على خلاف فى الروايات. وهؤلاء ظلوا على ولائهم للخليفة ولم ينكثوا بيعته. وعلى ذلك فلا يصح القول بأن أهل المدينة جميعًا قد خلعوا الخليفة الأموى أو ثاروا عليه كلُّهم .

وقد نفى محمد ابن الحنفية تلك التهمَ التى أثارها زعماء الثورة وألصقوها بيزيد، وذلك حينما طلبوا منه خلع البيعة والخروجَ معهم وتأييدهم، فأبى عليهم وحاورهم، وفنّد دعاواهم. وكان مما دار بينه وبينهم من الحوار – كما ذكر ابن كثير – أن عبد الله بن مطيع قال له: " إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب. فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته، وأقمت عنده فرأيته مواظبًا على الصلاة، متحريًا للخير، يسأل عن الفقه ملازمًا للسنة. قالوا : فإن ذلك كان منه تصنعًا لك، فقال : وما الذى خاف منى أو رجا حتى يظهر لى الخشوع ؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن رأيناه. فقال لهم : أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال : ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ولست من أمركم فى شيء. قالوا : فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك ، فنحن نوليك أمرنا. قال : ما أستحل القتال على ما تريدوننى عليه تابعًا ولا متبوعًا. قالوا: فَمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا. قال: لو أمرتهما قاتلت. قالوا : فقم معنا مقاما تحض الناس فيه على القتال. قال: سبحانه الله، آمُرُ الناسَ بما لا أفعله ولا أرضاه، إذاً ما نصحت لله فى عباده. قالوا: إذاً نُكرِهك. قال: إذاً آمُرُ الناسَ بتقوى الله، ولا

يُرضون المخلوق بسخط الخالق". ولما رأى محمد ابن الحنفية الأمور تسير فى الاتجاه الذى لا يريده، وظهر له سوء عاقبة تصرفات المخالفين له من الثائرين، وبقدوم جيش الشام إلى المدينة : قرر ترك المدينة، وتوجه إلى مكة.

ولما وَضُحَتْ نيتُهم فى الثورة انزعج كبار الصحابة فى المدينة من نتائج ذلك على الأمة، فذهب عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مُطيع، وأنكر عليه خروجَه على يزيد ونقضَه بيعتَه، كما جاء فى رواية الإمام مسلم فى (صحيحه) بإسناده عن نافع قال: "جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية فقال: اطرحوا بى عبد الرحمن وسادة. فقال: إنى لم آتك لأجلس، أتيتك حدثك حديثًا، سمعت رسول الله ﷺ يقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ خلع يدًا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية ".

ولم يكتف ابن عمر بتحذير زعماء الثورة من الخروج على الخليفة الشرعى وتمزيق كلمة الأمة، وإنما جاهد فى منعها، وحثَّ الناسَ على عدم الاشتراك فيها، ومَنَعَ أهلَه وأولاده من ذلك، فيروى البخارى فى صحيحه بإسناده عن نافع قال: " لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده فقال: إنى سمعت النبى ﷺ يقول: ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة. وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإنى لا أعلم غدرًا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله، ثم ينصب له القتال، وإنى لا أعلم أحدًا منكم خلعه ولا بايع فى هذا الأمر إلا كانت الفيصل بينى وبينه" .

هذا هو موقف عبد الله بن عمر من ثورة أهل المدينة، فهو يرى أن يزيد خليفة شرعى، له فى أعناقهم بيعة، وهو موقف يشاركه فيه غيره من الصحابة وأشراف الناس فى المدينة، من بنى هاشمٍ ومن غيرهم. وهم يرون أن نقض البيعة لا يجوز، وأن فسوق الحاكم لا يوجب الخروج عليه بالسيف، إضافة إلى أنهم كانوا يخافون من انتهاك قدسية مدينة رسول الله ﷺ وقد حدث ذلك بالفعل بعد وقوع معركة الحرَّة كما سيأتى .

وقد استدل العلماء من الحديث – كما يقول ابن حجر– "وجوب طاعة الإمام الذى انعقدت له البيعة، والمنع من الخروج عليه ولو جار فى حكمه، وأنه لا ينخلع بالفسق".

كيف تعامل الخليفة مع ثورة أهل المدينة ؟

كانت الحكمة تقضى أن يعيد الثائرون النظر فى موقفهم على ضوء معارضة هؤلاء السادة لهم وعدم رضاهم عن ثورتهم، ولكنهم لم يفعلوا، وصمموا على المُضى قدما فيما عزموا عليه. وقد بلغت هذه الأخبار يزيد فى دمشق، فرأى أن يعالج الموقف بحكمه ولم يتعجل فى مواجهة الثورة، فأرسل الصحابىَّ النعمان بنَ بشير الأنصارىَّ يدعوهم إلى الطاعة ولزوم الجماعة، فسار إليهم، وخوَّفهم شرَّ الفتنة، وحذرهم من قدوم جيش الشام إليهم، وأنهم لا طاقة لهم به. ولكن لم يستجب الثائرون لنصيحة النعمان ﷺ، وكذلك لم تنفع وساطة عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب، وهو الذى وعده الخليفة يزيد بأن يعطى أهل المدينة ما شاءوا إن رجعوا عن ثورتهم وتمرُّدهم.

وكان الثائرون قد حاصروا بني أمية الموجودين فى المدينة، وحبسوهم فى دار مروان بن الحكم، وأرسل هؤلاء المحاصَرون إلى الخليفة يستغيثون به، ثم أفرجوا عنهم بعد أن أخذوا عليهم الوعود والمواثيق بألاَّ يعاونوا جيش الشام، ولا يُدلُّوه على شيء، " وكتبوا إليه بما هم فيه من الحصر والإهانة، والجوع والعطش، وإنه إن لم يبعث إليهم من ينقذهم مما هم فيه، وإلا استُؤصلوا عن آخرهم". وهنا أصبح الموقف خطيرًا، ولم يكن فى وسع الخليفة يزيد إلا أن يواجه الثائرين، فأرسل جيشًا كبيرًا من عشرة آلاف فارس – أو اثنى عشر ألفًا – بقيادة مسلم بن عُقبة المُرِّى، وأوصاه بقوله : "ادع القوم ثلاثًا، فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظهرتَ عليهم فأبح المدينة ثلاثًا، ثم اكفف عن الناس، وانظر إلى على بن الحسين (بن على بن أبى طالب) فكف عنه، واستوص به خيرًا، وأَدْنِ مجلسه، فإنه لم يدخل فى شيء مما دخلوا فيه ".

كان الثائرون على يقين من أن الخليفة لن يسكت عليهم، وأنه سيرسل إليهم

جيشًا لقتالهم، لذلك قاموا بتغوير المياه التى بينهم وبين جيش الشام، وصبُّوا فيها القطران لتفسد، ثم حفروا خندقًا حول المدينة ليمنعوا الجيش من اقتحامها . ولما وصل جيش الشام إلى المدينة نزل فى الحَرَّة الشرقية (وكانت المدينة تقع بين حَرَّتين، الحَرَّة الشرقية، والحَرَّة الغربية) ودعا مسلم بن عقبة الثائرين ثلاثة أيام كما أمره الخليفة، كل ذلك يأبون إلا المحاربة والمقاتلة، فلما مضت الثلاث قال لهم فى اليوم الرابع: " يا أهل المدينة، مضت الثلاث، وإن أمير المؤمنين قال لى: إنكم أصله وعشيرته، وإنه يكره إراقة دمائكم، وإنه أمرنى أن أؤجلكم ثلاثًا، فقد مضت، فماذا أنتم صانعون ؟ أتسالمون أم تحاربون ؟ "، فقالوا: بل نحارب". ولما لم يستجب الثائرون لنداءات مسلم بن عقبة تهيأ الفريقان للقتال، ووقعت المعركة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر ذى الحجة (سنة ٦٣هـ/٦٨٣م)، وحلَّت الهزيمةُ بأهل المدينة، وقتل من الفريقين خلق من السادات والأعيان، وقُتل من قادة الثورة: عبد الله بن حنظلة (وأبوه هو "حنظلة الغسيل" الذى استشهد فى غزوة بدر). أما عبد الله بن مُطيع – وهو من قادة الثورة – فقد استطاع أن يهرب وانضم إلى عبد الله بن الزبير فى مكة.

قال ابن كثير: " ثم أباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد، وقتل خلقًا من أشرافها وقرائها، وانتهب الجند أموالاً كثيرة، ووقع شر عظيم وفساد عريض". ويروى المدائنى عن الإمام الزهرى – وقد سأله شيخ من أهل المدينة – كم كان القتلى يوم الحرَّة؟ فقال الزهرى: "سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار". وعن مالك بن أنس قال: " قتل يوم الحرة من حملة القرآن سبعمائة". وقد حاولت بعض الروايات المبالغة فيما ارتكبه جند الشام فى المدينة، فزعموا أنهم هتكوا الأعراض، واستباحوا الحرمات، وقتلوا الآلاف. وهذه روايات استغل أصحابها هذا العمل الذى يُحزِنُ كلَّ مسلم، وأرادوا أن يزيدوا عليه ما يحقق لهم أغراضهم من تشويه صورة بنى أمية أمام المسلمين.

نعم، نحن لا ننكر أنه ربما وقعت بعض أحداث النهب من بعض الجنود المغتاظين، ولكنها كانت أحداثًا محدودة الوقوع والأثر، وربما ظنوا أن فى ذلك عقوبة ونكالاً للثائرين، ولكن لا يمكن أن نصدق أن يقوم المسلمون من جند

الشام بهتك أعراض نساء إخوانهم فى الدين فى ذلك الوقت المبكر من عمر الإسلام، كما أن النهب لم يصل إلى كل أهل المدينة، فلم نسمع أن ابن عمر قد نُهبت داره، أو على بن الحسين (زين العابدين)، أو غيره من الذين لم يقفوا إلى جانب المعارضين، وإنما كان النهب فى الأماكن التى يدور فيها القتال، أو الأماكن التى عرفت بالمعارضة للحكم الأموى. كذلك يبدو الإسراف واضحًا فى تقدير أعداد القتلى الذين قتلهم جيش مسلم بن عقبة من أهل المدينة حتى أوصلتهم بعض الروايات إلى عشرة آلاف رجل، وهذه مبالغة واضحة. وأصح الروايات فى أعداد القتلى فى تلك المعركة رواية الإمام مالك، حيث يقول:" إن قتلى الحرة سبعمائة رجل من حملة القرآن" .

وقد حزن يزيد بن معاوية حزنًا بليغًا لما حدث فى المدينة عندما بلغه خبرُ موقعة الحرة، حيث قال: "وا قوماه"، ثم دعا الضحاك بن قيس الفهرى فقال له: "ترى ما لقى أهلُ المدينة، فما الرأى الذى يجبرهم؟". قال: "الطعام والأعطية". فأمر يزيد بحمل الطعام إليهم، وأفاض عليهم أعطيته .

إننا لا نستطيع أن ننكر على يزيد تصدّيه لهذه الثورة وإخمادها وقتال الخارجين عليه، فهذا أمر مشروع للخليفة، خاصة بعد أن أنذرهم أكثر من مرة. لكنَّ إباحة مدينة الرسول ﷺ وهتك حرمتها أمر لا يقبله مسلم، ولم يكن له مبرر بعد أن انهزم أهل المدينة، وأخمدت الثورة، لذلك فإن (يزيد) يتحمل جزءًا كبيرًا من تبعة انتهاك حرمة المدينة النبوية . ويتحمل الثائرون أيضًا الجزء الأكبر من هذه التبعة، فقد قاموا بثورة لا مبرر لها، وفى هذا يقول الشيخ الخضرى فى كتابه (محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية): " وإن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب، والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة فى قيامهم وحدهم بخلع خليفة فى إمكانه أن يُجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا فى وجهه. ولا ندرى ما الذى كانوا يريدونه من خلع يزيد؟ أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية، لهم خليفةٌ منهم يلى أمرهم؟ أم حَمْلُ بقية الأمة على الدخول فى أمرهم ؟ وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار، ولم يكن معهم فى هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية ؟ إنهم فتقوا فتقًا، وارتكبوا جرما، فعليهم جزء

عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة ".

ويقول ابن تيمية – مبينا موقفه من هذه الثورة وهو موقف أهل السنة والجماعة – : " وقلَّ من خرج على إمام ذى سلطان إلا وكان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير، كالذين خرجوا على يزيد بالمدينة، فإنهم هزموا وهزم أصحابهم، فلا أقاموا دنيا، ولا أبقوا دينا، والله تعالى لا يأمر بأمر لا يحصل به صلاح الدين ولا صلاح الدنيا. وكان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال فى الفتنة، كما كان بن عمر، وسعيد بن المسيب، وعلى بن الحسين وغيرهم، ينهون عام الحَرَّة عن الخروج على يزيد " .

رابعاً – ثورة عبد الله بن الزبير ﷺ (٦٥-٧٣هـ):

لما ولى "معاوية بن أبي سفيان" الخلافة سنة (٤١هـ) أحسن إلى "عبد الله ابن الزبير"، كما أحسن إلى غيره من الصحابة وأبنائهم، فقابل ابن الزبير ذلك بحسن الطاعة، بل وشارك في الغزو تحت قيادة ابنه "يزيد" في أول حملة عسكرية توجهت لفتح مدينة "القسطنطينية" (سنة ٤٩هـ)، وظلت علاقته بمعاوية على أحسن حال إلى أن أخذ البيعة لابنه "يزيد"، فأظهر "عبد الله" معارضتَه الشديدة لذلك .

وبعد وفاة معاوية بن أبي سفيان رفض عبد الله بن الزبير أن يبايع يزيدَ ابن معاوية، وانتقل إلى مكة المكرمة، وسمَّى نفسه " العائذ بالبيت"، لكنه لم يعلن عن رغبته في الخلافة لوجود الحسين بن علي، فلما استُشهد في "كربلاء" (سنة ٦١هـ) وتُوفِّي يزيد بن معاوية بعد ذلك سنة (٦٤هـ) أعلن ابنُ الزبير نفسَه خليفةً في مكة .

وقد بُويع معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان – ويقال له "معاويةُ الثانى" – بالخلافة بعد أبيه "يزيد" فى النصف من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين (٦٤هـ)، ولم تطل مدتُه، فقد توفى فى السنة نفسها. وكانت مدة خلافته أربعين يومًا، وقيل : شهري. وقيل : أربعة أشه. وكان عُمر حين وفى إحدى وعشرين وسنة . وقيل : ثلاث وعشرون سنة. ودفن بجوار والده "يزيد" بمقابر

باب الصغير فى مدينة دمشق، وليس له عقب .

وقد وصف المؤرخون "معاوية الثانى" بأنه كان شابًا صالحًا، خيِّرًا، وكان مريضًا فى المدة القصيرة التى تولى فيها الخلافة، ولم يخرج إلى الناس، وكان الضحاك بن قيس هو الذى يُصلى بالناس، ويدبر شؤون الدولة. ولم يعهد "معاوية الثانى" بالخلافة لأحد من بعده، ولما ثقل عليه المرض قيل له : ألا تستخلف ؟ قال : "ما أصبت من حلاوتها، فلم أتحمل مرارتها ؟ ". وفى رواية " أنه قيل له : اعهد إلى أخيك خالد. فقال : والله ما ذقت حلاوة خلافتكم، ولا أتقلدُ وزرها إن شاء الله". ويروى ابن سعد فى (الطبقات الكبرى) قال : " كان معاوية بن يزيد مريضًا، فكان يأمر الضحاك بنَ قيس الفهرى يصلى بالناس فى دمشق، فلما ثقل قيل له : لو عهدت إلى رجل عهدًا، واستخلفت خليفة. فقال : والله ما نفعتنى حيًا فأتقلدها ميتًا، وإن كان خيرًا فقد استكثر منه آل أبى سفيان، لا تذهب بنو أمية بحلاوتها، وأتقلد مرارتها، والله لا يسألنى عن ذلك أبدًا، ولكن إذا مت فليصل علىَّ الوليد بن عقبة بن أبى سفيان، وليصل بالناس الضحاك بن قيس، حتى يختار الناس لأنفسهم، ويقوم بالخلافة قائم"٠

مروان بن الحكم يتولى الخلافة (٦٤-٦٥هـ) ويقاتل ابن الزبير :

اضطرب أمر " بنى أمية " بعد أن رفض معاوية بن يزيد أن يتولى الخلافة، أو يعهدَ بالأمر إلى أحد من أهل بيته، وفى هذه الأثناء أعلن عبد الله ابن الزبير نفسه خليفة للمسلمين سنة (٦٤هـ) فى "مكة"، فبايعتْه العراق ومصر، حتى الشامُ نفسُها مَعْقِلُ الأمويين، بايعه معظم أقاليمها، ولم يبق من الشام سوى الأردن ظل على ولائه لبني أمية. وبدا الأمرُ كما لو أن دولة الزبيرين قامت، ودولة الأمويين قد بادت.

وكان مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي وبنوه يعيشون في المدينة النبوية، فأخرجهم منها عبد الله بن الزبير، فرحلوا إلى الشام، حيث تجمَّع هناك كلُّ أنصار بنى أمية وولاتُهم، من أمثال عُبيد الله بن زياد، والحُصَيْن بن نُمي، فأخذوا يشجعون مروانَ على تحمل، قيادة البيت الأموي، ومَنْعِ دولتهم من السقوط. وبعد مداولات طويلة بين

زعماء القبائل استغرقت عدةَ شهور عقِد مؤتمرٌ فى " الجابية " بالقرب من دمشق، في شهر ذى القعدة سنة (٦٤هـ) بُويع فيه مروان بن الحكم بالخلافة، باعتباره أكبرَ أبناء البيت الأموي سِنّاً، وأكثرِهم تجربة .

كان على "مروان" بعد بيعته أن يُثبتَ جَدَارتَه بهذا المنصب وأهليتَه له، بأن يستردَّ نفوذَ " بنى أمية " وسلطانَهم فى الشام ، معقِلهم الرئيسى، الذى خضع معظمه لعبد الله بن الزبير، ومن ثَمَّ خاض مروان مع أنصار ابن الزبير معركة كبيرةً فى "مرج راهط"، شرقى " دمشق" فى نهاية سنة (٦٤هـ) ، كان النصرُ فيها حليفَ مروان، وبدايةَ لطريق لاستعادة الأموين لدولتهم التى كانت قاب قوسين أو أدنى من الزوال .

ولم يُضيِّعْ مروانُ وقتًا بعد هذا الانتصار، فعاد إلى "دمشق"، حيث تلقى وفود المهنئين والمبايعين. وبعد فترة قصيرة اطمأن فيها على استقرار الأوضاع فى الشام ترك ابنَه عبد الملك فى "دمشق" نائبًا عنه فى حكمها، وتوجه إلى مصر التى كانت تحت حكم "عبد الله بن لزبير"، فاستردَّها بسهولة، وأقام بها نحو شهرين، رتَّب فيها أوضاعها، وعيَّن ابنَه عبد العزيز واليًا عليها (وهو والد عمر بن عبد العزيز) وعاد هو إلى "دمشق"، ليستأنف صراعَه مع ابن الزبير، لكن الموتَ عاجله سنة (٦٥هـ) بعد حكم دام عشرة شهور. وكان قد عهد بالخلافة من بعده لابنه عبد الملك، وهو الذى واصل محاربة عبد الله ابن الزبير على أن قضى على ثورته (سنة ٧٣هـ) .

ابن الزبير وعبد الملك بن مروان واستمرار القتال :

كانت الشام ومصر تحت سلطان عبد الملك بن مروان، على حين بقيت الحجازُ والعراق تحت سيطرة عبد الله بن الزبير، وفي أثناء ذلك ظهرت دعوة المختار بن أبي عبيد الثقفي التي اجتذبت الشيعة، وانضموا تحت لوائها وازداد نفوذه في العراق بعد أن هزم جيش أرسله عبد الملك بن مروان بقيادة عبيد الله ابن زياد في معركة "الخازر" (سنة ٧٧هـ/٦٨٦م) وبعد تلك الهزيمة توقف عبد الملك بن مروان عن فكرة استعادة العراق، لعلمه أن عبد الله بن الزبير لم يترك

المختارَ الثقفي يستبد بالعراق، وأن الصدام بينهما آتٍ لا مفرَّ منه، فآثر الانتظارَ حتى يفرغَ أحدُ الطرفين من الآخر، فيقابِلَه وهو منهوكُ القُوى، فيضمن لنفسه الظفرَ والفوزَ، وهذا ما كان، فاصطدم مصعبُ بن الزبير بالمختار الثقفي وقضى على حركته (سنة ٧٧هـ/٦٨٦م) واستعادة نفوذ أخيه في العراق .

عزم عبدُ الملك بن مروان على استعادة العراق التابعةِ لدولة ابن الزبير، فخرج إليها بنفسه (٧١هـ/٦٩٠م) بعد أن اطمأن إلى تثبيت أركان دولته وتوطيد حكمه، وأعد جيشًا عظيمًا لهذا اللقاء الفاصل، وحين علم مصعبُ بن الزبير والي العراق بهذه التحركات استعدَّ لمواجهة عبد الملك بن مروان ، وقبلَ اللقاءِ الفاصل أخذ عبدُ الملك يكاتب زعماءَ أهلِ العراق، ويعِدُهُم ويُمنِّيهم بالمال، فاستجابوا له وانضموا إليه، وتخلَّوا عن مصعب في أدق المواقف وأصعبها، فانهزم في المعركة التي دارت بين الفريقين عند " دير الجاثْليق" (في جمادى الآخرة سنة ٧٢هـ/ نوفمبر سنة ٦٩١م) وقُتل في هذا اللقاء بعد أن بذل ما يمكنه من الشجاعة والبسالة، وبعد انتهاء المعركة دخل عبدُ الملك الكوفةَ وبايعه أهلُها، ودخلت العراقُ تحت سيطرته وعين أخاه بشر ابن مروان واليًا عليها .

سقوط دولة عبد الله بن الزبير :

كان ضياعُ العراق من يدِ عبد الله بن الزبير أكبرَ كارثةٍ حلَّتْ به، في الوقت الذي قوِيَ فيه خَصْمُه بانضمام العراق تحت مُلْكِه وسلطانه الذي أصبح يضم معظمَ أقطارِ العالم الإسلامي، وانحصرت دولةُ ابن الزبير في الحجاز فقط. ولم يضيِّعْ عبدُ الملك بن مروان الوقتَ في الانتظار بعد انتصاره على مصعب بن الزبير، فأعدَّ حملةً عسكرية ضمَّتْ عشرين ألف جندي بقيادة "الحجاج بن يوسف الثقفي"، ووجَّهها إلى الحجاز للقضاء على ابن الزبير المعتصم بمكة، والذي لم يكن بمقدوره الصمودُ بعد أن فقد معظمَ دولته ، ولم يبق له سوى الحجاز، ولم تكن بطبيعة الحال غنيةً بالمال والرجال، لكنه لم يُسلِّم الرايةَ، ولم يستسلم مهما كلَّفه الأمر، فطبيعتُه وخُلُقه يأبيانِ ذلك .

توجَّه الحجاجُ الثقفي إلى الحجاز، ونزل الطائف، وأخذ يرسل بعضَ جنوده

لقتال ابن الزبير، فدارت بينهما عدة اشتباكات كانت نتيجتُها في صالح "الحجَّاج" ثم تقدم إلى محاصرة عبد الله بن الزبير، ونصبَ المنجيقَ على جبل أبي قُبيس، فلما أهلّ شهرُ ذو الحجة لم يستطع ابن الزبير أن يحجَّ ، وحجَّ بالناس عبدُ الله ابن عمر، وطلب من الحجاج أن يكفَّ عن ضرب الكعبة بالمنجيق؛ لأن الناسَ قد امتنعوا عن الطواف ، فامتثل "الحجَّاجُ"، وبعد الفراغ من طواف الفريضة، عاود "الحجّاج" الضرب، وتشدد في حصار ابن الزبير حتى تحرَّج موقِفه، وانصرف عنه رجالُه، ومنهم ابناه حمزةُ وخبَيب اللذان ذهبا إلى الحجاج، وأخذا منه الأمان لنفسيهما .

فلما رأى عبدُ الله بن الزبير ذلك دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر حزينًا يشكو إليها ما هو فيه من هم وحزن، فشدَّتْ من أزره، وأوصته بالصبر والثبات وعدم التراجع مادام على الحق، فخرج من عندها، وذهب إلى القتال، فقتل رضي الله عنه في المعركة في (١٧من جمادى الأولى سنة ٧٣هـ/٤ من أكتوبر ٦٩٢م). وبوفاته انتهت دولته التي استمرت نحو تسع سنين .

موقف كبار الصحابة والتابعين من البيعة لابن الزبير :

كان عبد الله بن عباس، ومحمد بن علي بن أبي طالب (المعروف بابن الحنفية) مقيمين بمكة منذ قُتل الحسين، فدعاهما ابن الزبير إلى البيعة فامتنعا، وقالا: لا نبايع حتى يجتمع الناس على خليفة، وتبعهما جماعة على ذلك، فشدَّد عليهم ابن الزبير وحصرهم، فبلغ ذلك المختار بن أبي عبيد الثقفي، فجهز إليهم جيشًا فأخرجوهما، واستأذنوهما في قتال ابن الزبير فامتنعا، وخرجا إلى الطائف فأقاما بها، حتى مات ابن عباس (سنة ٦٨هـ) أي قبل أن يغلب عبد الملك على العراق والحجاز، وتجتمع عليه الأمة، وأوصى ابنه علي بن عبد الله بن العباس أن يأتي الشام وينتحي عن سلطان ابن الزبير إلى سلك عبد الملك بن مروان .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يتوقف في بيعة ابن الزبير بعد موت يزيد بن معاوية، وكان يكُفُّه عن مخالفة الأمة وإثارة الفرقة، وأخذ يخذّل الناس عن الانضمام إليه والقتال معه، ويدعوهم إلى الطاعة والابتعاد عن الفتنة. يروي الواقدي عن

ابن عمر أنه كان يقول : " لا أقاتل في الفتنة، وأصلي وراء من غلب". وروي الواقدي أيضًا : " أن ابن عمر كان في زمان الفتنة لا يأتي أمير إلا صلى خلفه، وأدى إليه زكاة ماله ". وأخرج البخاري بإسناده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : " أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس قد ضيعوا وأنت ابن عمر، وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : يمنعني أن الله حرم دم أخي. فقالا : ألم يقل الله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة: ١٩٣] ؟ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدينُ لغير الله". وقد ساق الذهبي رواية الزهري: أخبرني حمزة بن عبد الله بن عمر قال: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩] فقلت لأبي : من هُمْ ؟ قال: ابنُ الزبير بغى على أهل الشام". وفي لفظ : " بغى على هؤلاء، ونكث عهدهم " .

ولمَّا بسط عبد الملك بن مروان سلطانه على جميع الأمصار واتفقت عليه الأمة بايع له ابن عمر وكتب إليه : " بلغني أن المسلمين اجتمعوا على البيعة لك وقد دخلتُ فيما دخل فيه المسلمون" .

أسباب سقوط دولة ابن الزبير:

عندما أعلن عبد الله بن الزبير دولته وبايعه الناس في رجب سنة ٦٤هـ كانت كل عوامل النجاح متوفرة له. فبيعته جاءت في وقت لم يكن للمسلمين فيه خليفة، فهو – والحالة هذه – خليفة شرعي، وليس خارجًا على خليفة، وكانت هذه دعامةً قوية. ثم بايعتْه معظم أقطار الأمة الإسلامية، عدا إقليم الأردن. وعلى الرغم من ذلك فإن "عبد الله بن الزبير" أخفق في الحفاظ على دولته لأسباب كثيرة، ومن أهمها :

١– بقاؤه في "مكة"، وهي على قداستها لم تكن تصلح عاصمة سياسية لدولة امتدت حدودها، فكان عليه أن ينتقل إلى قطر غنى يتوسط الدولة كالعراق أو الشام، ولو فعل ذلك لكان أفضل له ولَشدَّ من عزيمة أنصاره، لأن كفته كانت ترجح كفة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك عند كثير من الناس، حتى في الشام نفسها، فقد بايعه معظم أهلها.

٢- امتناع " بنى هاشم" عن بيعته، فقد رفض أن يبايعه زعماؤهم، مثل "عبد الله بن عباس" و "محمد بن على بن أبي طالب"، وكان قاسيًا معهم، فلم يعاملهم بما يليق بهم من التقدير والاحترام، مثلما كان يفعل معهم "بنو أمية"، بل تهددهم وسجنهم فلم يرضخوا له، وبايعوا "عبد الملك بن مروان"، كما امتنع عن بيعته "ابن عمر"، فأضعف ذلك كله موقفه .

٣- عدم إخلاص أهل العراق له، فقد تخلى معظمهم عن أخيه مصعب عندما التقت جيوشه بجيوش عبد الملك بن مروان، وانضموا إليها.

٤- إسراف أخيه مصعب في سفك الدماء، حتى لَيُروَى أنه قتل ستة آلاف من أهل الكوفة دفعة واحدة، بعد مقتل " المختار بن عبيد الله الثقفي" سنة (٦٧هـ)؛ مما أوغر صدور قبائلهم على "آل الزبير"، فليس ببعيد أن يكون موقفهم في معركته الفاصلة مع عبد الملك انتقامًا منه لما صنع بأهلهم.

خامسًا - ثورة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي (سنة ٨١-٨٣هـ):

تولى الحجاج بن يوسف الثقفي علي العراق سنة ٧٥هـ، وظل واليًا عليها إلى أن توفي سنة ٩٥هـ ، وكانت سياسته التي انتهجها في حكمه للعراق تقوم على الحزم والقوة والبطش، بل واستعمال السيف وعلى حد تعبير رواه الطبري: "توعَّد لهم لِمَا كان منهم من شَقِّ عصا الطاعة على بني أمية". وقد قال في خطبته التي ألقاها عندما تولى إمرة العراق : " والله لتستقيمُنَّ على سُبل الحق أو لأَدَعنَّ لكل رجل منكم شُغُلاً في جسده "، وأخذ الناس بالحزم وحذّر من التجمّع والتجمهر وإذاعة الشائعات، ومضى يصدر أوامره الصارمة ولا يعفو عمن يخالفها، فهَابُه الناس، وهدأت الفتن".

لقد كان الحجاج في سياسته أن ينال بالعقوبة كل من يحاول المخالفة أو العبث بالأمن، خاصة من الشخصيات الكبيرة، وكان يرى أن بموقفه الحازم من هؤلاء الكبار سيجعل عامة أهل العراق يخشون بأسه، ولكنه كان يهدف في سياسته هذه إلى القضاء على الفتن والثورات التي جُوبه بها. وقد ولَّدت هذه السياسة القاسية لأهل البصرة والكوفة ثورة من أقوى الثورات وأعنفها ضد الحجاج

خاصة، وضد بني أمية عامة، وهي ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي (٨١ –٨٣ هـ) .

وكان السبب المباشر لهذه الثورة أن الحجاج أرسلَ عبد الرحمن بن الأشعث في عشرين ألفًا من أهل الكوفة إلي "سجِستان" لحرب "رُتْبيل" ملك الترك ، وكان هذا الجيش يُدعي جيش "الطواويس" لكثرة ما فيه من الشباب. ونجح ابن الأشعث في جولته الأولى، وفتح كثيرًا من البلاد والقرى من أرض العدو، ورفض أن يتفاوض أو يتهاون مع "رُتْبيل"، ثم توقف عن التوغل في أرض العدو، واكتفى بما ناله من أراضٍ وغنائم، ورأى أن الخير ألا يتعمق في تلك البلاد مرة واحدة، بل مرحلة مرحلة، وعامًا بعد عام حتى يتسنى لجنوده أن يألفوا هذه البلاد ويتعرفوا على طرقها، وكتب عبد الرحمن بذلك إلى الحجاج، فرد عليه الحجَّاج مُسفِّهًا رأيه، وعدَّ ذلك تسويفًا وضعفًا وجبنًا، وكتب إليه يلومه ويعنفه ويأمره بالإسراع في الفتح. ورغم أن ابن الأشعث لم يكن ينوى المخالفة أو العصيان فقد ساءه ذلك، فعرض الأمر على جنوده وذوى الرأى والحرب فيهم واستشارهم، وذلك "بعد أن تأكد لديه أنهم يبغضون الحجاج بقدر ما يبغضون التوغل في تلك البلاد الموحشة"، وزاد من هذه الحالة ورود كتاب من الحجاج يأمر فيه المسلمين أن يقيموا في الأرض ويزرعوها، فإنها دراهم حتى يفتحها الله عليهم، ومن ثم أتيحت الفرصة لأهل البصرة والكوفة للثورة على الحجاج وخلعه، فأظهروا رغبتهم في مبايعة ابن الأشعث، على أن يعود بهم إلى أوطانهم لقتال الحجاج.

استطاع ابن الأشعث أن يدخل البصرة بجيشه (سنة ٨١هـ) " فبايعه جميع قرائها وكُهُولها على حرب الحجاج وخلع عبد الملك بن مروان"، ولكن الحجاج نجح بجنود أهل الشام أن يرد الثوار عن البصرة، فخرج ابن الأشعث يريد الكوفة لأن بها من عشائره ومواليه أنصارًا كثيرة. وقد قعد عنه عامة من كان معه من أهل البصرة، فلما دخل الكوفة استقبله أهلها استقبالاً حاسمًا، "ومالوا إليه كلُّهم، ولم يبق من وجوه أهل الكوفة وقُرَّائهم أحد له نباهة إلا خرج مع ابن الأشعث". ووقف الكوفيون معه إلى النهاية فلم يتخلَّفوا حين بعثهم لملاقاة الحجاج الذي أقبل بجيشه من البصرة، فاستطاعوا أن يمنعوه من النزول في القادسية، ثم قاموا

بدور كبير في تلك السلسلة الضخمة من المعارك التي دارت في "دير الجماجم" والتي يقال: إنها بلغت نحو أربع وثمانين وقعة في مائة يوم، كانت كلها لصالح ابن الأشعث، والأخيرة عليه.

وكان أبرز هؤلاء الذين قاتلوا بإخلاص شديد وحماس بالغ : القراء والعُباد والفقهاء، وكان لذلك أثره البالغ في ثورة ابن الأشعث. وقد كانوا في كتيبة مستقلة تُدعي "كتيبة القراء"، وعددهم خمسمائة كلُّهم يرون القتال، ومنهم من كبار علماء الكوفة : سعيد بن جبير وعامر الشعبي، وعبد الرحمن ابن أبي ليلى وأبو البّختري الطائي، وأبو الجوزاء الربعي. وكان ابن الأشعث حريصًا على أن يكون هؤلاء العلماء والعُباد في جيشه. وقد خرج هؤلاء يُقاتلون الأمويين "على جورهم في الحكم وتجبُّرهم في الدين واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة "(كما يقول أحدهم وهو سعيد بن جبير).

وبعد قتال طويل في " دير الجماجم" استمر مائة يوم – انتهي بهزيمة ابن الأشعث – سيطر الحجاج على الكوفة، ثم التقى الجمعان عند مكان يُسمى "مَسْكن" بالقرب من الأهواز، واستُؤنف القتال فانتصر جيش الشام، وفرَّ ابن الأشعث في جماعة من أصحابه إلى أرض "سجستان"، ولجأ إلى الملِك "رُتْبيل" فآواه، ثم طلب الحجَّاج من "رُتْبيل" أن يسلمه "ابن الأشعث"، فعزم على تسليمه، فلما أحس ابن الأشعث بنيّه " رتبيل" علي تسليمه ألقي بنفسه من فوق القصر الذي كان يقيم فيه، فمات (سنة ٨٥هـ) – وقيل : بل غدر به " رُتبيل " وأسلمه إلي الحجَّاج فقتله . ثم تتبَّع الحجاج أصحاب ابن الأشعث من القادة والسادات والعلماء الذين ناصروه وأيدوه ، فقَتَلَ منهم من قَتَل، وعفا عن البعض. ومن العلماء الذين شاركوا في ثورة ابن الأشعث : سعيد بن جُبير، قتله الحجَّاج صبرًا (سنه ٩٥هـ) بعد أن ظل عشر سنين مختفيًا. ومنهم الإمام عامر الشعبي، اعتذر للحجاج فعفا عنه .

وقد امتنع عدد من العلماء من الانضمام لثورة ابن الأشعث، ويأتي الإمام الحسن البصري في مقدمة هؤلاء، فقد امتنع من خلع الحجَّاج بن يوسف الثقفي

والخليفة عبد الملك بن مروان، ونصح الفقهاء الذين شاركوا في هذه الثورة بالكف عن ذلك، ولزوم جماعة المسلمين، وحكم عليهم بأنهم أهل فتنة ، ولمَّا سأله الناس عن رأيه في الانضمام لابن الأشعث ومناصرته قال لهم : " إني أرى أنها فتنة، فرحم الله عبدًا اتقى ربه، ونظر ليوم معاده". ولما كثر تّذَمَّر أهل العراق من الحجاج بن يوسف وأرادوا الوثوبَ به والثورة عليه بالسيف أشار عليهم الحسن البصري أن يُوطّنوا أنفسهم على احتمال الشدة وأن يركنوا إلى الهدوء، ويبتهلوا إلى الله، ووكان يقول عن الحجَّاج: " إنما هو نقمة، فلا نقاتل نقمة الله بالسيف، وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع" .

وإن كان لنا من تعليق علي ثورة ابن الأشعث فإننا نردد ما قاله الحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية): " والعجيب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة (يعني : الخلافة) وليس (هو) من قريش، وإنما هو كِنْدي من اليمن. وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة (أي بعد موت رسول الله ﷺ) على أن الإمارة في قريش، واحتج عليهم أبو بكر الصدِّيق بالحديث في ذلك، حتى إن الأنصار سألوا أن يكون منهم أمير مع أمير المهاجرين، فأبي أبو بكر عليهم ذلك، ثم مع هذا كله ضُرب سعد بن عبادة الذي دعا إلى ذلك أولاً ثم رجع عن ذلك، فكيف يعمِدون إلى خليفة قد بُويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه (يعني عبد الملك)، وهو من صُلْبية قريش، ويبايعون لرجل كِندي بيعةً لم يتفق عليها أهلُ الحلّ والعقد ؟ ولهذا لما كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شرٌّ كبير، هلك فيه خلقٌ كثير، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون" .

ملخص الوحدة الثالثة

كانت الثورات التي قامت ضد الحكم الأموي كثيرة ومتنوعة، فبعضها للخوارج، وبعضها للشيعة العلويين، بالإضافة إلي ثورة أهل المدينة، وثورة عبد الله بن الزبير، وثورة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي، وغيرها. وكانت هذه الثورات من القوة والانتشار بحيث عدَّها بعض الباحثين في عداد الأسباب القوية التي تفسر سقوط الدولة الأموية. أما **ثورات الخوارج** فقد كانت واسعة النطاق، ولم تتوقف طيلة العصر الأموي كله، باستثناء فترات قليلة. وعلي الرغم من أن الدولة استطاعت أن تضعف من شوكتهم، وتحجم نفوذهم فإنهم قد تمكنوا من فرض سيطرتهم علي بعض البلدان والمناطق، كالكوفة والبحرين، واليمن. وبسبب كثرة الضربات المتتابعة التي وُجِّهت إليهم فإنهم ابتعدوا عن مركز الدولة في الشام والعراق إلي مناطق أخري نائية، كأذربيجان وسجستان وخراسان، وغيرها. وأما **ثورات العلويين** فقد وقعت جميعها في الكوفة، وأبرزها ثورة الحسين ين علي بن أبي طالب (٦١هـ) الذي لم يوافق علي عقد البيعة بالخلافة ليزيد بن معاوية، فخرج عليه لعزله، وتوجه إلي الكوفة لمبايعة أهلها، علي الرغم من نصح كبار الصحابة له بترك الخروج، وتحذيرهم له من غدر أهل الكوفة، لكنه لم يتمكن من دخول الكوفة، وأحاطت به جيوش الأمويين، وقُتل في كربلاء شهيداً مظلوماً. ثم خرج جماعة من أهل الكوفة عُرفوا بالتوابين بقيادة سليمان بن صُرد، للثأر من قتلة الحسين، لكنهم هُزموا أمام جيوش الأمويين في معركة "عين الوردة" (سنة٦٥هـ). ثم قام المختار بن أبي عبيد الثقفي بثورته، واستولي علي الكوفة (سنة ٦٧هـ) وبدأ يوسع في دولته، لكن سرعان ما زالت هذه الدولة بعد هزيمة المختار ومقتله هو وعدد كبير من جنده في حروبه مع الزبيريين. وبعد فترة توقفت فيها ثورات العلويين (٦٧ -١٢١ هـ) قام زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب بثورة في الكوفة ضد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك سنة١٢١هـ، وانتهت بمقتله بعد أن خذله كثير من أتباعه. وكانت ثورة عبد الله بن الزبير شبيهة بثورة الحسين، فإنه رفض البيعة بالخلافة ليزيد، وأعلن نفسه . بعد موت يزيد . خليفة، واعتصم بمكة،

وقامت له دولة في الحجاز والعراق ومصر، ثم سقطت بمقتله ﷺ سنة ٧٣هـ محاصراً في مكة ومقتل أخيه مصعب بن الزبير في العراق، وانفراد عبد الملك بن مروان الأموي بالخلافة. وقام أهل المدينة بثورة كبري لخلع يزيد ابن معاوية سنة ٦٣هـ، انتهت بهزيمة القائمين بها، ومقتل كثير من قادتها، ودخول جيوش الأمويين المدينة، واستباحتها ثلاثة أيام، وكانت محنة كبيرة علي أهلها. وبسبب سياسة الحجاج بن يوسف الثقفي القاسية في معاملة أهل العراق خرج عبد الرحمن ابن الأشعث الكندي يقودهم في ثورة كبرى، استغرقت ثلاث سنوات (٨١ ـ٨٣هـ)، ودارت بين جيوشه وجيوش الخلافة معارك كثيرة، قُتل فيها أعداد هائلة من الفريقين، وانتهى أمره بهروبه إلى سجستان، ثم بالقبض عليه وقتله.

أسئلة على الوحدة الثالثة

س١: من هو حجر بن عدي ؟ ولماذا قتل ؟ وهل كان محقاً فيما صدر منه وأقدم عليه ؟ وما مدى مسئولية معاوية رضي الله عنه فيما انتهي إليه أمره ؟ دعم إجاباتك بالأدلة المناسبة .

س٢: اعرض بإيجاز المراحل التي مرت بها ثورة الحسين بن علي رضي الله عنه، ثم وضح : هل كان الحسين رضي الله عنه محقاً في خروجه على الخليفة يزيد بن معاوية ؟ وما موقف كبار الصحابة من خروجه ؟ وهل قتل ظلماً ؟ ومن المسئول عن مقتله ؟ وما تقييمك لثورته ؟

س٣: لماذا خرج (التوابون) على السلطة الأموية ؟ ومتى كان ذلك ؟ وما النتائج التي انتهت إليها حركتهم ؟

س٤: من هو المختار بن أبي عبيد الثقفي ؟ وما الأسباب التي أخرجته بالثورة على السلطة الأموية ؟ وماذا حدث ؟ وما النتائج التي أسفرت عنها الثورة ؟

س٥: لماذا خرج أهل المدينة على الخليقة يزيد بن معاوية ؟ وهل توافق على الدوافع التي ذكرها قادتهم للخروج بالثورة ؟ وما موقف كبار الصحابة من تلك الفتنة ؟ وما النتائج التي أسفرت عنها ؟ وما تقييمك لهذه الثورة ؟

س٦: تتبع بإيجاز المراحل التي مرت بها ثورة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، مبيناً أسبابها والنتائج التي أسفرت عنها .

س٧: ما الأسباب التي أدت إلى فشل حركة عبد الله بن الزبير وسقوط دولته ؟ وما موقف الصحابة في عصره من دعوته ؟

س٨: لماذا خرج عبد الرحمن بن الأشعث بالثورة على السلطة الأموية ؟ ومتي؟ وما النتائج التي أسفرت عنها ثورته ؟ وما موقف علماء عصره منها ؟ وما تقييمك لها ؟

نموذج إجابة

إجابة السؤال الخامس:

– تعود أسباب هذه الثورة إلي أن جماعة من أشراف المدينة وفدوا علي الخليفة يزيد بن معاوية في دمشق، منهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصارى، والمنذر بن الزبير بن العوام، وعبد الله بن مطيع، وغيرهم، وذلك سنة (٦٢هـ)، فأكرم الخليفة وفادتهم، ومنحهم جوائز كبيرة، لكنهم لمَّا عادوا إلى المدينة أعلنوا الثورة على يزيد وخلعوا طاعته، واتهموه بأنه رجل ليس له دين؛ يشرب الخمر، وتَعزف عنده القيان بالمعازف، يترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب. ثم حثُّوا الناس على المخالفة والخروج، فتجرأ جماعات على خلع الخليفة، واختاروا عبد الله بن مطيع وعبد الله بن حنظلة قائدين، ثم اتفقوا على إخراج أمير المدينة عثمان بن محمد بن أبى سفيان (ابن عم يزيد) وطرْد بنى أمية وإخراجهم منها .

– وليس من الصحيح أن جميع أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية، فقد اعترض الكثير من أكابر الصحابة وفقهاء التابعين على خلع الخليفة والخروج عليه بالثورة، ولم يؤيدوا من قام بذلك، واعتزلوا هذه الفتنة، مثل عبد الله بن عمر، ومحمد ابن الحنفية، وعلى بن الحسين بن على بن أبى طالب (زين العابدين)، وسعيد بن المسيب، وغيرهم. وبعضُ هؤلاء تصدى لمحاورة زعماء الثورة ومحاولة إقناعهم بالحفاظ على بيعة الخليفة، وبينوا لهم بطلان ادعائهم فسوق يزيد. كما أن جماعات كاملة من أهل المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار اعتزلوا هذه الثورة، واحتفظوا ببيعتهم ليزيد. وظل بنو أمية ومواليهم على ولائهم للخليفة ولم ينكثوا بيعته، وكانوا يشكلون عددًا ضخمًا من أهل المدينة. وقد نفى محمد ابن الحنفية تلك التهمَ التى أثارها زعماء الثورة وألصقوها بيزيد، وذلك حينما طلبوا منه خلع البيعة والخروجَ معهم وتأييدهم، فأبى عليهم وحاورهم، وفنّد دعاواهم، وشهد ليزيد بالخير وملازمة السُّنة. وذهب ابن عمر إلى قائد الثورة عبد الله بن مُطيع، وأنكر عليه نقضه بيعته ليزيد، وحذره عاقبة هذا الأمر وخطورته علي الأمة، وحثَّ الناسَ على عدم الاشتراك في الثورة، ومَنَعَ

أهلَه وأولاده من ذلك، وشاركه في ذلك غيره من الصحابة وأشراف الناس فى المدينة، من بنى هاشمٍ ومن غيرهم. وهم يرون أن نقض البيعة لا يجوز، وأن فسوق الحاكم لا يوجب الخروج عليه بالسيف.

– وكانت الحكمة تقضى أن يعيد الثائرون النظر فى موقفهم على ضوء معارضة هؤلاء السادة لهم وعدم رضاهم عن ثورتهم، ولكنهم لم يفعلوا، وصمموا على المُضى فيما عزموا عليه. ولما بلغت هذه الأخبار يزيد فى دمشق، رأى أن يعالج الموقف بحكمه ولم يتعجل فى مواجهة الثورة، فأرسل الصحابىَّ النعمان بنَ بشير الأنصارىَّ ﷺ يدعوهم إلى الطاعة ولزوم الجماعة، فخوَّفهم النعمان شرَّ الفتنة، وحذرهم من قدوم جيش الشام إليهم، لكن الثائرين لم يستجيبوا لنُصحه. وكذلك لم تنفع وساطة عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، وهو الذى وعده الخليفة يزيد بأن يعطى أهل المدينة ما شاءوا إن رجعوا عن موقفهم. وحينما حاصر الثائرون بني أمية الموجودين فى المدينة وحبسوهم، وأرسل هؤلاء المحاصَرون إلى الخليفة يستغيثون به، أصبح الموقف خطيرًا، ولم يكن فى وسع الخليفة يزيد إلا أن يواجه الثائرين، فأرسل جيشًا كبيرًا من عشرة آلاف فارس بقيادة مسلم بن عُقبة المُرِّى، وأوصاه بأن يدعو القوم ثلاثًا، فإن رجعوا إلى الطاعة فعليه أن يقبل منهم ، فإن أبوا إلا القتال فعليه أن يقاتلهم، وأمره إذا ظهر عليهم أن يبيح المدينة ثلاثًا. ولما وصل جيش الشام إلى المدينة نزل فى الحَرَّة الشرقية، ودعا قائده الثائرين ثلاثة أيام كما أمره الخليفة، كل ذلك يأبون إلا المحاربة والمقاتلة، ولم يستجيبوا للنداء، فوقعت المعركة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر ذى الحجة (سنة ٦٣هـ)، وحلَّت الهزيمةُ بأهل المدينة، وقتل من الفريقين خلق من السادات والأعيان، وقُتل من قادة الثورة عبد الله بن حنظلة. واستطاع عبد الله ابن مُطيع أن يهرب، وانضم إلى عبد الله بن الزبير فى مكة. وقد أباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام، وقتل خلقًا من أشرافها وقرائها، وانتهب الجند أموالاً كثيرة منها، ووقع شر عظيم وفساد عريض. وقد بالغت بعض الروايات فيما ارتكبه جند الشام، فزعمت أنهم هتكوا الأعراض، واستباحوا الحرمات، وقتلوا الآلاف. ونحن لا ننكر أنه وقعت بعض أحداث النهب من بعض الجنود المغتاظين،

ولكنها كانت أحداثًا محدودة الوقوع والأثر، وربما ظنوا أن فى ذلك عقوبة ونكالاً للثائرين، ولكن لا يمكن أن نصدق أن يقوم المسلمون من جند الشام بهتك أعراض نساء إخوانهم فى الدين فى ذلك الوقت المبكر من عمر الإسلام، كما أن النهب لم يصل إلى كل أهل المدينة، فلم نسمع أن ابن عمر قد نهبت داره، أو على بن الحسين، أو غيره من الذين لم يقفوا إلى جانب المعارضين، وإنما كان النهب فى الأماكن التى يدور فيها القتال، أو الأماكن التى عرفت بالمعارضة للحكم الأموى. كذلك يبدو الإسراف واضحًا فى تقدير أعداد القتلى الذين قتلهم جيش مسلم بن عقبة من أهل المدينة حتى أوصلتهم بعض الروايات إلى عشرة آلاف رجل، وهذه مبالغة واضحة. وأصح الأقوال فى أعداد القتلى فى تلك المعركة قول الإمام مالك : " إن قتلى الحَرَّة سبعمائة رجل من حملة القرآن".

– إننا لا نستطيع أن ننكر على يزيد تصدّيه لهذه الثورة وقتال الخارجين عليه، فهذا أمر مشروع للخليفة، خاصة بعد أن أنذرهم أكثر من مرة. لكنَّ إباحة مدينة الرسول ﷺ وهتك حرمتها أمر لا يقبله مسلم، ولم يكن له مبرر بعد أن انهزم أهل المدينة، لذلك فإن يزيد – وقائده مسلم بن عقبة – يتحملان جزءًا كبيرًا من تبعة انتهاك حرمة المدينة النبوية. ويتحمل الثائرون أيضًا الجزء الأكبر من هذه التبعة، فقد قاموا بثورة لا مبرر لها، وتولد على فعلهم هذا من الشر أعظم مما أرادوا تحقيقه من الخير.

الوحدة الرابعة
الفتوحات الإسلامية فى عصر الدولة الأموية

الأهداف :

في نهاية هذه الوحدة، ينبغي أن يكون الدارس ملمًا بما يلي:

١- معرفة أن الدولة الأموية دولة الفتوحات والإنجازات العسكرية الكبري.

٢- فهم سياسة الأمويين الحربية – وخصوصاً معاوية بن أبي سفيان – في مواجهة خطر الدولة البيزنطية في الحوض الشرقي من البحر المتوسط .

٣- التعرف على المحاولات الثلاثة لفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وبيان أسباب فشلها .

٤- معرفة الخطوات التي قام بها القادة الأمويون في فتح وسط آسيا (بلاد ما وراء النهر)، ومنطقة السند، والمراحل التي مرت بها هذه الفتوحات كلها.

٥- التعرف على فتوحات الأمويين في الجبهة الغربية، والتي تشمل الشمال الأفريقي (بلاد المغرب)، والأندلس (أسبانيا والبرتغال)، وبلاد غالة (وهي منطقة جنوب فرنسا). مع الإلمام بالمراحل التي مرت بها هذه الفتوحات، وأبرز النتائج المترتبة عليها، والإنجازات الحضارية التي قام بها القادة الفاتحون، وأشهر المعارك التي خاضوها، وأهم الصعوبات التي واجهتهم.

العناصر:

يمكن عرض موضوع الوحدة من خلال العناصر الآتية:

١- الفتوحات الإسلامية في أراضي الدولة البيزنطية، ومحاولات فتح مدينة القسطنطينية (سنوات٤٩هـ ، ٥٤-٦٠هـ ، ٩٧هـ).

٢- الفتوحات في الجبهة الشرقية: فتح قتيبة بن مسلم الباهلي لإقليم بلاد ما وراء النهر، وفتوحات محمد بن القاسم الثقفي لإقليم السند.

٣- الفتوحات في الجبهة الغربية :

أ- فتح الشمال الإفريقي (بلاد المغرب) والحملات العسكرية التسع .

ب- فتح شبه الجزيرة الإيبيرية: الأندلس (وهي أسبانيا والبرتغال الآن).

ج- فتح بلاد غالة /غاليسيا (وهي منطقة جنوب فرنسا) .

انطلقت حركةُ الفتوحات الإسلامية منذُ زمنِ النبى ﷺ، وتابعتْ مسيرتَها فى عنصر الخلفاء الراشدين، ولم تتوقف هذه الفتوحاتُ فى زمن الراشدين إلا فى فترة أحداثِ الفتنةِ التى شهدتْها المراحلُ الأخيرةُ من خلافة عثمان بن عفان ﷺ، وما تلاها من نزاع بين الخليفة الراشدِ علىّ بن أبى طالب ﷺ، ومعاوية بن أبى سفيان ﷺ الوالى على الشام حينئذ. ولقد أدت هذه الفتنةُ إلى انشغالِ المسلمين بأنفسِهم عن مواصلة الفتح وتثبيت أقدامهم فى البلاد التى فتحوها، وعن نشر الدعوة الإسلامية. وبعد خمس سنوات من الفتنة (٣٥-٤٠هـ) تعثرت خلالها حركة الفتوحات الإسلامية – اجتمع المسلمون على معاوية بن أبى سفيان ﷺ سنة (٤١هـ) وهو العام المعروف بعام الجماعة – واستعادت الأمة قوتَها من جديد، منتشرة – كالعادة – فى جميع الجهات، ومكتسحةً العالمِ القديم شَرْقِه وغَرْبِه.

وفى ظل الدولة الأموية استأنف المسلمون فُتُوحاتهم لقارات العالم القديم (آسيا – أفريقيا – أوروبا)، فأَحيُوا حركةَ الفتوحاتِ الكبرى، متوغلين فى أقطار الدولة البيزنطية حتى مياه مضيق " البوسفور" واستولَوْا على معظم الجزر الواقعةِ شرقى البحر المتوسط وغربيِّه وجنوبيِّه، وواصلوا ضغطَهم على مدينة " القسطنطينية " عاصمةِ الدولة البيزنطية، وحاصروها أكثر من مرة . كما أنهم فتحوا شرقَ العالَم حتى اقتربوا من حدود الصين، واستكملوا فتحَ الشمال الأفريقى كلِّه، من حدود مصرَ الغربيةِ إلى المحيطِ الأطلسي، ثم عبروا المضيقَ الذى عُرفَ بـ "مضيق جبل طارق" إلى القارة الأوروبية ففتحوا إسبانيا، ثم وصلوا إلى نهر " اللورين" جنوبى فرنسا .

ويُعتبر النشاطُ الحربىُّ خلالَ العصر الأموى من الصفحات المشرقة فى تاريخ الأمويين، وعملاً من أعمال البطولة يُحسب لدولتهم، وتُعْطِى لها أهمية

بالغة، ومكانةً مرموقة فى التاريخ الإسلامى.

وقد شملت حركة الجهاد والفتوحات فى العصر الأموى ثلاث جبهات رئيسية، وهى :

١- **الجبهة البيزنطية** فى آسيا الصغرى ومدينة القسطنطينية .

٢- **الجبهة الشرقية:** وتضم "بلاد ما وراء النهر" وبلاد السند وشمال الهند.

٣- **الجبهة الغربية:** وتضم الشمال الأفريقى، إلى ساحل المحيط الأطلنطى، بالإضافة إلى أسبانيا وجنوب فرنسا .

وفيما يأتى حديثٌ موجز عن الفتوحات الإسلامية فى الجبهات الثلاث .

أولاً - جبهة الدولة البيزنطية ومحاولات فتح القسطنطينية:

كانت الدولة الرومانية البيزنطية دولةً عظمى، تمتد مساحتها فى القارات الثلاث: أوروبا، وآسيا، وأفريقيا. وتضم إقليم البلقان (جنوب شرق أوروبا)، وإقليم الأناضول (ويطلق عليه آسيا الصغرى) وبلاد الشام، ومصر، والشمال الأفريقى كلَّه إلى شواطئ المحيط الأطلنطى. وكانت هذه الدولة تسيطر على مياه البحر المتوسط من جميع الجهات. وتقع عاصمتها مدينة " القسطنطينية " على مضيق " البوسفور" الذى يربط البحر الأسود ببحر آخر صغير يسمى " مَرمرة".

وكان الروم البيزنطيون أشد أعداء المسلمين، وأقواهم شكيمة. وقد أدرك معاوية بن أبى سفيان ﷺ هذه الحقيقة حيث قضى أربعين عامًا فى قتالهم، منذ أن كان واليًا على الشام فى عهد عمر بن الخطاب ﷺ وبعد أن تولى الخلافة (سنة ٤١هـ) وإلى وفاته (سنة ٦٠هـ). ولذلك نراه يوصى مَنْ بعده بقوله : "شُدُّوا خناق الروم ، فإنكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم".

وفى إقليم الشام جاورتْ حدودُ الدولة الإسلامية حدود الإمبراطورية البيزنطية، كما جاورت ممتلكات تلك الإمبراطورية سواحل الشام فى حوض البحر المتوسط، ومن ثمَّ هدد الخطر البيزنطى إقليم الشام برًا وبحرًا.

ويُعتبر الانتصار الحاسم الذى أحرزه المسلمون على الجيوش البيزنطية فى

موقعة " اليرموك" (١٣هـ/٦٤٣م) – فى عصر الخلفاء الراشدين – نقطة تحول هامة فى حركة الفتوح الإسلامية، أدت إلى انهيار قوى الروم، وانفصال الشام عن جسم الإمبراطورية البيزنطية . ونتيجة لهذه المعركة أخذت مَدُنُ الشامِ الكبرى فى الشمال والجنوب تتساقط سريعًا، الواحدة بعد الأخرى. ثم وجَّه المسلمون جهودهم لفتح المدن الساحلية الشامية والجزر الواقعة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، مثل: موانئ "غزة " و"عَسْقَلان" و "عكا " و"صَيْدا " و" صُوَر" و"بيروت" و" جُبيل" (سنة ١٧هـ/٦٣٨م). ومثل "اللاذقية" و" طَرَسُوس" علي السواحل الشمالية .

وعندما تولى معاوية بن أبى سفيان إمارة الشام – فى عهد الخليفة عمر ابن الخطاب ﷺ – بدأ النشاط البحرى الكبير فى شرق البحر المتوسط، وأظهر فى فتح المنطقة الساحلية عبقرية فذة، وبذل فيها جهودًا ذات " بلاء حسن وأثر جميل" كما شهد له بذلك قادة المسلمين، فاستولى على " قيسارية " (سنة١٩هـ/٦٤٠م)، وهى من أهم المدن الساحلية بالشام، ثم على مدينة "طرابلس" التى كانت ميناء " دمشق" ومفتاح حياتها الاقتصادية ، وتتفوق على سائر مدن الشام فى حصونها وبهائها.

ومن الخطوات الكبرى التى أقدم عليها معاوية ﷺ لتنفيذ سياسته الحربية ومواجهة خطر الدولة البيزنطية : بناءُ الأسطول الإسلامى. فقد أدرك أثناء فترة ولايته الطويلة على الشام – والتى احتك فيها عن قرب بالروم البيزنطيين – أن قوتَهم البحرية هى العاملُ ذو الأثر القوى فى بقائهم كدولة، ثم إنه أدرك – أثناء اشتراكه فى فتح مدن الشام الساحلية – مدى خطر المحاولات الهجومية البحرية التى تقوم بها الأساطيل البيزنطيةُ لاسترداد تلك المدن المفتوحة، والتى كانت تنطلق من قواعد الروم البحرية. ومن هنا رأى معاويةُ أنه من الضرورى أن يمتلك المسلمون قوةً بحْرية تُمكّنهم من الدفاع عن الشواطئ التى امتلكوها، ورأى عدمَ الاكتفاء بالسياسة الدفاعية التى تمثَّلُ فى وضع حامياتٍ على الشواطئ لصد الهجمات البحرية البيزنطية، وإنما لا بد من استبدالها بسياسة هجومية تعتمد على أسطول إسلامى قوى يقف من الأسطول البيزنطى موقف الندِّ وتكون

مهمتُه – ليس لانتظار هجمات البيزنطيين لصدها – وإنما المبادرةُ بالاستيلاء على جزر البحر المتوسط التابعة للبيزنطيين .

وبعد عدة محاولات بذلها معاوية مع الخليفة عمر بن الخطاب ثم عثمان ابن عفان رضي الله عنهما بدأ فى تحقيق سياسته ومشروعه، فشرع فى بناء الأسطول، مستغلاً كل الإمكانات الموجودة فى مصر والشام لصناعة السفن. ولم تمض أربع سنوات حتى ظهر إلى الوجود أسطولٌ إسلامى كبير نجح معاويةُ به فى فتح جزيرة " قُبرص" (٢٨هـ) و (٣٣هـ)، وجزيرة " أرواد" الواقعة بالقرب من ساحل الشام بين "جبلة" و " طرابلس" (سنة ٢٨–٢٩هـ)، وجزيرة "رودس" (سنة ٣٣هـ)، وهى أهم جزر " بحر إيجة ". ثم توَّج حملاته البحرية بغلق بحر إيجه وسدَّ منافذة الرئيسيةَ فى وَجْه السفن البيزنطية، ومَنَعها من الوصول إلى بلاد المسلمين، وذلك بالاستيلاء على جزيرة إقريطش (كريت).

وهكذا وجَّه معاويةُ أنظارَ المسلمين شَطْرَ البحر المتوسط، وأوقَفَهم على أهميةُ جُزُرِه، فاستولى على ما استطاعت أساطيلهُ أن تفتَحَه منها، وطَرَقَ بابَ غيرِها، مُمهِّدًا الطريقَ لمن يأتى بعده من الخلفاء الأمويين، وكفَّل للمسلمين قوةً بحريةً نافست البيزنطيين سيادتَهم القديمةَ على البحر المتوسط، ثم أخذُ يُعبّئهُا لأهم عمل فى تاريخها، وهو ضربُ القسطنطينية العاصمة المنيعة للدولة البيزنطية أنفسهم، ومحاولة الاستيلاء عليها، وذلك بعد أن نجح في تحصين منطقة الثغور في أطراف الشام الشمالية المتاخمة لآسيا الصغري.

محاولات فتح القسطنطينية فى عصر بنى أمية :

كانت "القسطنطينية" الرأسَ المدبَر والمحرِّكَ الذى أدار شئونَ الدفاع البحرى عن الدولة البيزنطية وجُزُرِها فى حوض البحر المتوسط الشرقى، ولاسيما السواحلَ الواقعةَ حول بحر " إيجة " الغنىَ بجُزُرِه الممتدةِ إلى مياه "القسطنطينية" المحلية. وقد أدرك المسلمون أنه لا استقرار لفتوحاتهم إلا بإدخال هذه العاصمة فى قائمة الفتوحات ، كما تمَّ لهم من قبل الاستيلاءُ على "المدائن" عاصمة دولة الفرس.

وبعد تمهيد طويل بواسطة حملات برية على آسيا الصغرى وصل بعضُها

إلى "القسطنطينية" – ومحاولات أخرى بحرية خرجت من القواعد الإسلامية البحرية على سواحل الشام ومصر – أحسَّ المسلمون أنهم وصلوا إلى درجة جيدة من الخبرة بالطريق إلى "القسطنطينية" برًا وبحرًا، وأنهم يستطيعون غَزْوَها والاستيلاءَ عليها، والقضاءَ على دولة الروم. ولو قُدِّر للمسلمين القضاءُ على الدولة البيزنطية فى عصر بنى أمية لتغير وجه التاريخ تمامًا، ولكنَّ فَشَلَ محاولاتِهم فى العصر الأموى أتاح لهذه الدولة حياةً امتدت قرابة تسعةَ قرون إلى أن جاء الأتراك العثمانيون وأسسوا دولة فى آسيا الصغرى وفى إقليم البلقان جنوب شرقى أوروبا، واستطاعوا إسقاط الدولة البيزنطية والقضاء عليها تمامًا بفتح عاصمتها القسطنطينية، وذلك سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) فى عصر السلطان الشاب محمد الملقَّب بالفاتح، وأطلق على المدينة اسم "اسطنبول"، ومعناها "مدينة السلام"، وتقع فى دولة تركيا.

والآن سنوجز فيما يلى الكلامَ على محاولات المسلمين لفتح القسطنطينية فى العصر الأموى، وهى ثلاث محاولات :

المحاولة الأولى – حملة سفيان بن عوف (سنة ٤٩هـ) :

أرسلها معاوية بن أبى سفيان برًا، فاخترقت آسيا الصغرى وافتتحت حصونًا كثيرة فى الأناضول حتى وصلت إلى سواحل "بحر مَرْمرة"، ثم بعث معاويةُ ابنَه "يزيد" مددًا لسفيان بن عوف وجعله أميرًا شرفيًا على الحملة، ومعه نفرٌ من أبناء الصحابة ، مثل عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأبو أيوب الأنصارى ﷺ .

وقد اشتبك المسلمون مع الروم فى القتال، واستُشْهِد الصحابىُّ أبو أيوب الأنصارى ودفن بالقرب من "بُروسّة". وقد حال الشتاء القارس، وصعوبةُ الإمداداتِ البشريةِ والتموينية – لبعد المسافة وضَعْفِ وسائل النقل فى ذلك الوقت – ثم نقصُ الأطعمة والأغذية ، تَفَشِّى الأمراض بين الجند، ومناعةُ "القسطنطينية" – حال ذلك كلّه دون فتح المدينة. ولقد حاول المسلمون عبثًا اختراق أسوارها بعد حصارها، إلا أنهم فشلوا فى ذلك، فعادوا دون خسائر كبيرة (عام ٥٠هـ) .

وقد تنبأ النبى ﷺ بهذه الغزوة، ووعد أهلَها المغفرة، فقال ﷺ – فيما رواه البخارى عن أم حَرام بنت ملحان: " أولُ جيشٍ من أمتى يركبون البحر قد أوجبوا، وأول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفورٌ لهم" .

وكان الدرس الهام الذى خرج به معاويةُ من هذه الحملة هو ضرورة تدعيم القوات البرية التى تغزو "القسطنطينية" بقوات بحرية ضخمة؛ حيث تحيط المياه بالمدينة من ثلاث جهات، وعكف على تجهيز هذا الأسطول مدة أربع سنواتٍ استطاع خلالها تدريبه عمليًا باسترداد جزيرة "رودس" (عام٥٢هـ/٦٧٢م) وكان الروم قد استردوها أثناء فترة خلافة عثمان ﷺ – ثم جزيرة "كزيكوس" (أرواد) (عام ٥٤هـ/٦٧٤م) والتى سيجعل منها المسلمون مقرًا لإدارة الحصار الثانى للقسطنطينية، والذى بدأ(عام ٥٤هـ).

المحاولة الثانية – حِصار السبع سنوات (٥٤–٦٠هـ) :

خرج الأسطولُ الإسلامى من جزيرة " أرواد" بقيادة "جُنادة بن أبى أمية الأزدى"، وأحكم المسلمون حِصارَ "القسطنطينية" برًا وبحرًا، ثم ارتدوا عنها مع قدوم الشتاء إلى جزيرة " أرواد" (كزيكوس)، ثم عادوا إلى الحصار فى الصيف التالى، ليرتدوا فى الشتاء مرة أخرى، واستمر الأمر على هذا الحال، يحاصرون صيفًا، ويرتدون شتاءً، حتى (عام ٦٠هـ/٦٧٩م) عندما قرر معاوية بصفة نهائية الانسحاب، وعقد معاهدةً صلح مع إمبراطور الروم : قسطنطين الرابع، مدتها ثلاثون عامًا .

وقد فَقَد المسلمون فى هذا الحِصارِ العديدَ من القادة، وثلاثين ألف مقاتل ، ومعظمَ سفن الأسطول، وكان من أسباب الفشل : الإنهاك الذى تعرض له الجيش الأموى طوال سنوات الحصا. كما أنهم فوجئوا بسلاح لم يكن لهم به عهد ولا طاقة لهم بمكافحته ودفع خطره، وهذا السلاح عرف باسم " النارُ الإغريقية " استخدمه البيزنطيون كوسيلةٍ دفاعيةٍ تسببت فى حرق عدد كبير من قِطع الأسطول الإسلامى، وفى بَثّ الذعْرِ فى نفوس المحاصِرين للمدينة . وكانت هذه النار تتركب من النفط والكبريت والغاز، وتزداد اشتعالاً عند ملامستها للماء،

ولا يُخْمَدُ نارُها إلا باستخدام الرمل والخل. وقد كان لهذه النار أثرٌ حاسمٌ فى صد المسلمين عن "القسطنطينية"، فاضطروا إلى رفع الحِصارِ، وعَقْدِ معاهدة الصلح مع البيزنطيين.

المحاولة الثالثة – بقيادة مَسْلَمة بن عبد الملك (٩٧–٩٨هـ) :

وبعد انسحاب الأسطول الإسلامى من أمام أسوار القسطنطينية عام (٦٠هـ) توفى معاوية بن أبى سفيان فى العام نفسه، وانشغلت الدولة الأموية بالأحداث والفتن الداخلية التى استمرت اثنى عشر عامًا دون انقطاع، أى من (سنة ٦٠هـ) إلى (سنة ٧٢هـ). وفى هذه الفترة توقفت فيها حركة الغزو والفتح على جميع الجبهات، وخاصة مع الروم البيزنطيين. ولمَّا استقرت الأوضاع الداخلية، واستطاع الخليفة عبد الملك بن مروان أن يوحّد الدولة الأموية بدأ الأمويون يعاودون الهجوم، ويحققون الانتصارات والفتوحات، واستعادوا بعض ما ضاع من الدولة الإسلامية، مثل مدينة "المصيصة" فى منطقة الثغور، استردها عبد الملك بن مروان (سنة ٨٤هـ) بعد أربعة عشر عامًا من وقوعها فى يد البيزنطيين.

وفى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦–٩٦هـ) تم فتح "عَمُّورية" و"هِرقْلِية" (عام ٨٩هـ) في آسيا الصغري (الأناضول)، حتى إذا جاءت (سنة ٩٤هـ) بدأ فى الاستعداد لغزو العاصمة البيزنطية، وجهز حملةً بَحْريةً بريةً بقيادة أخيه مَسْلمة بن عبد الملك. ولما وصلت أخبارُ هذه الاستعداداتِ إلى السُّلْطات البيزنطية بدأت تهتم بتدعيم وسائِل الدفاع عن أسوار "القسطنطينية"، كما عُنيت بتقوية الدفاع البحرى، تمهيدًا لِحصارٍ قد يطول أمدُه كما حدث فى الحصار الثانى. ولكن وفاةَ الخليفة الوليد بن عبدِ الملك أدت إلى تأجيل إنفاذ الحملة إلى مقصدها، فلما تولى سليمانُ بن عبد الملك الخلافَة أخذ يجهز الجيوشَ للسير إلى "القسطنطينية"، وخرجت الحملةُ بالفعل بقيادة مَسْلَمة بن عبد الملك فى أسطول كبير يُقدَّر عدده ثمانيةَ عَشَر ألف سفينة، وقيل: ألفٌ وثمانمائةُ سفينة، ومعه مائةٌ وعشرون ألفِ مقاتل، وتَوجَّه نحو المدينة العتيقة (سنة ٩٨هـ/٧١٦م) ليبدأ الحصارُ الثالث.

ولقد انتهى هذا الحصار الذى استمر عامين بالفشل فى اقتحام "القسطنطينية" كما حدث فى الحصار السابق . ويرجع فشل هذا الحصار الثالث إلى العديد من الأسباب بعضها كان عاملاً هامًا فى فشل حصار السبع سنوات السابق، وبعضها ظهر جديدًا فى الحصار الأخير. فمن الأسباب المتكررة : قسوة الظروف الطبيعية (المناخ)، ومهارة المقاتلين البيزنطيين فى استخدام "النار الإغريقية"، وعزم أهل المدينة واستماتتهم فى الدفاع عنها، يساعدهم فى ذلك منعة أسوارها وموقعه.

أما أهم الأسباب المستُجَدَّة والتى أدت إلى فشل الحصار فهو محالفة المسلمين لأحد قادة الروم البيزنطيين، وهو القائد العسكرى " ليو الأيسورى" (الأرمنى)، وكان طامعًا فى عرش بيزنطة ، ففاوض "مَسْلمةَ بنَ عبد الملك" قائدَ الحملة على أن يعاونه فيما يريد، ويتركه يدخل القسطنطينية، فإذا نجح " ليو" فى عزل الإمبراطور البيزنطى " ثيودوسيوس" الثالث، ونَصَّب نفسه إمبراطورًا، مَهَّد للمسلمين دخول المدينة.وقد عاونه مَسلمة وأجابه إلى طلبه، فلما تمكَّن "ليو" من الحكم نقض عهدَه مع المسلمين، وانقلب عليهم، وانضم إلى إخوانه البيزنطيين، واجتهد فى تحصين البلد، ونجح فى صد الحملة الإسلامية عن أسوارها المنيعة . وهذا يؤكد أن معاهدة المسلمين لأطراف غير إسلامية بغرض التناصر والاستعانة ضد طرفٍ غير إسلامي إنما هو سلاح ذو حدّين، وأن عواقبَ استخدامه بغير حرصٍ وحذرٍ تكون وخيمة وخطيرة .

وبالرغم من أن المسلمين قد لاقوا فى هذا الحصار صعوباتٍ كثيرةً، وقدموا تضحيات هائلة، وقُتل منهم عدد كبير، وحَطِّمْت الريحُ العاتيةُ عددًا من السفن، وسبَّبت خللاً فى الأسطول، وانتهز البيزنطيون هذه الفرصةَ وسلَّطوا نيرانَهم اليونانيةَ على السفن الإسلامية وأحرقوا عددًا كبيرًا منها – بالرغم من ذلك كله فإن المسلمين استمروا فى إحكام الحصار إلى أن توفى سليمان بن عبد الملك (فى صفر سنة ٩٩هـ)، وحل الشتاء ببرده وثلجه، فهلك عددٌ كبير من العسكر من شدة البرد، ونفقت معظمُ الخيول والدواب، وعُدِمت الأقوات، وحل الضيقُ بمعسكر المسلمين حتى أكل الجندُ الدوابَّ والجلودَ وأصولَ الشجر والورق، وكلَّ شىء غير

التراب، وظل الأمرُ كذلك إلى أن كَتب الخليفةُ الجديد عمرُ بنُ عبد العزيز ﷺ إلى مَسْلمة – وهو بأرض الروم – يأمره بالعودة بمن معه من المسلمين، ووجه إليه خيلاً وعلفًا كثيرًا، وحث الناسَ على معونتهم.

ثانيًا– الجبهة الشرقية (بلاد ما وراء النهر– والسند):

الجبهة الشرقية للدولة الإسلامية هي المناطقُ الواقعةُ شرقَ العراق، وقد كانت الأمم التي تسكن تلك المناطقِ متعددة الأجناس والحضارة، وإن اتفقت جميعُها في الوثنية .

وكان المسلمون في عهد الخلفاء الراشدين قد أتموا فتح المناطق والبلدان التي تقع بين العراق وإقليم "بلاد ما وراء النهر"(وسط آسيا)، أي أنهم فتحوا كل أقاليم دولة إيران وتضم منطقة الجبال و "الري"، و "جُرجان" و"طَبَرِستان" و"قُوهَسْتان" و"خُراسان" و" فارس" و" كِرْمان" و"مَكْران" و"سِجِسْتان". فلما استشهد الخليفة عثمان ﷺ ووقعت الفتنة توقفت الفتوح، وخرج أهل هذه البلاد عن الطاعة، حتى إذا التأمتْ جماعة المسلمين أخذت الدولة الأموية تبذل جهودًا بالغة لإعادة هذه البلاد إلى الطاعة مرة أخرى، وكانت مهمة معاوية بن أبي سفيان ﷺ العاجلة في الشرق بعد أن تولَّى الخلافة هي تدعيمُ القوة الإسلامية، وإعادةُ توطيد أقدام المسلمين هناك . وقد نجحت الدولة الإسلامية في عهده في فتح معظم "خراسان" على يد أميرها عُبيد الله بن زياد، وكان معاوية قد ولاه على البصرة والكوفة (٥٣–٥٩هـ)، وعمل هذا الأمير على مّدِّ حركة الفتح إلى " بلاد ما وراء النهر"(لآسيا الوسطي)، وغزا "بيكندا" و" بخارى"، واضطرهما إلى دفع الجزية، ثم قفل راجعًا إلى البصرة .

وقد كانت الفتوحات الإسلامية في المنطقة الشرقية فى عهد الدولة الأموية تسير في خطين؛ **أحدهما:** شمالي إلى بلاد ما وراء النهر. **والآخر :** جنوبي إلى بلاد السند والهند .

(أ) بلاد ما وراء النهر(آسيا الوسطى) :

أطلق المسلمون اسم "بلاد ما وراء النهر" على البلاد التي يفصلها نهر

"جيحون" عن "خراسان" وهي التي تقع وراءه من جهة الشرق والشمال. وتعرف الآن باسم " آسيا الوسطى" الإسلامية ، وتضم خمس جمهوريات إسلامية كانت خاضعة للاتحاد السوفيتي ، ثم منَّ الله عليهم فاستقلوا بعد انهياره. وهذه الجمهوريات هي الآن " أوزبكستان" و "طاجيكستان" و"قازاخستان" و"تركمانستان" و" قرغيزيا " .

ونهر جيحون يُسمى الآن " نهر أَموداريا "، ويقع على الحدود بين "تركمانستان" و " أوزبكستان". ويوجد نهر آخر هو "سيحون"، ويُسَّمى – الآن – نهر "سرداريا"، ويقع في دولة كازاخستان. وتقع "بلاد ما وراء النهر" بين هذين النهرين، "جيحون" و" سيحون" أو " أَموداريا" و " سرداريا". ويُطلق على هذه البلاد أحيانًا بلاد " الهياطلة"، وكان أهلها وثنيين، ومن أصول تركية وتتميز بوفرة المياه، لوجود نهري "جيحون" و"سيحون" وما يتفرع عنهما من روافد، مما ساعد على خصوبة المنطقة، وكثرة الزراعة والعمارة فيها، واجتذاب السكان إليها. وتنقسم بلاد ما وراء النهر قبل الفتح الإسلامي إلى عدة أقاليم أو ممالك مستقلة هي:

١- إقليم " طخارستان"، ويقع على ضفتي نهر "جيحون". وعاصمته "بلخ".

٢- إقليم " الصُّغْد". ومن أشهر مدنه : "بخارى" و "سمرقند" .

٣- إقليم " خُوارزم"، وعاصمته : مدينة "الجرجانية" .

٤- إقليم " الخُتَّل" في أعالي نهر "جيحون". وكانت هذه الممالك الأربعة تُسمى بالممالك "الجيحونية" .

٥- إقليم " فرغانة"، على نهر "سيحون" . وتعرف اليوم باسم "خُوقَنْد" .

٦- إقليم " الشَّاش" على نهر سيحون أيضًا، وتعرف اليوم باسم "طَشْقَنْد" (عاصمة كازاخستان الآن) .

ولقد غزا المسلمون هذه البلاد عدة مرات منذ عهد عثمان بن عفان ﷺ (٢٣-٣٥هـ)، وغزاها عدد من القادة المسلمين في عهد الدولة الأموية إلى سنة (٨٦هـ)، منهم : عُبيد الله بن زياد، وسعيد بن عثمان بن عفان، والمهلَّب ابن أبى صُفْرة، وولداه "يزيد" و "الفضل" . واستطاع المهَّلبُ وأبناؤه فتح عددٍ من المدن،

مثل " كش" في مملكة "الصُّغْد"، وقلعة "نيزك" وغَزْو مدينة "خوارزم". لكن هذه الغزوات والفتوحات لم تأخذ صفة الفتح الدائم المستقر، وإنما كانت لإضعاف معنويات الخصم، ودراسة المنطقة للمستقبل .

فتوحات قُتيبة بن مسلم في بلاد ما وراء النهر :

أما المرحلة الحاسمة في الفتح والاستقرار فقد بدأت مع تسلُّم "قتيبة بن مسلم الباهلي" قيادة جيوش الفتح وولاية إقليم "خراسان" وبلاد الشرق (سنة ٨٥هـ)، وظل واليًا عليها إلى سنة (٩٩هـ). وقد كانت الظروف مناسبة له تمامًا، فالدولة الأموية كانت عندئذٍ في أحسن حالاتها استقرارًا وهدوءًا وثراءً عريضًا، فاجتمع لقتيبة مهارةُ القائد، وعَزْمُ الوالِي "الحجاج بن يوسف الثقفي" وتشجيعه، وقوةُ الدولة وهيبتها، فتمت فتوحاتهُ العظيمة في بلاد "ما وراء النهر". ولقد مرت خطواتُ "قتيبة" في فتح تلك البلاد على مدى عشر سنوات (٨٦ – ٩٦هـ) عبر مراحل أربع، حقق في كل منها فتح ناحية واسعة فتحًا نهائيًا، وثبت أقدام المسلمين والإسلام فيها. وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولى (٨٦ – ٨٧هـ): وفيها أخضع قتيبة بن مسلم إقليم " طخارستان" الواقع على ضفتي نهر "جيحون". وكانت تلك بداية ناجحة من "قتيبة"؛ فبدون توطيد أقدامه في "طخارستان"لم يكن ممكنًا أن يمضى لفتح "ما وراء النهر" وقد أصبح يتمتع بهيبة كبيرة في تلك البلاد، فما إن يسمع الملوك بمسيره إليهم حتى يسرعوا إلى لقائه وطلب الصلح .

المرحلة الثانية (٨٧ – ٩٠هـ) : وفيها فتح " قتيبة " إقليم "بخاري" كله بعد حروب طاحنة وانتظام حملاته عليها .

المرحلة الثالثة (٩١ – ٩٣هـ) : وفيها أكمل فتح حوض "جيحون" كله وأتم فتح "سجستان" (٩٢هـ)، وإقليم "خوارزم" (٩٣هـ). وتَوَّج عمله بالاستيلاء على "سمرقند" أعظم مدن ما وراء النهر كلها. ومن جميل ما يروى في فتح سمرقند أن المسلمين حينما دخلوها أخرجوا ما فيها من الأصنام وأحرقوها، وكان أهل سمرقند يعتقدون أن من استخف بها هلك، فلما أحرقها المسلمون ولم يُصابوا بأذى أسلم من أهلها خلقُ كثير.

المرحلة الرابعة (٤٩-٩٦هـ) : وفيها عبر قتيبة " نهر سيحون"، وفتح الممالك السيحونية الثلاث : " الشاش" و" أشروسنة" و" فرغانة"، ثم دخل أرض الصين، وأوغل في مقاطعة "سنكيانج"، ووصل إلى إقليم " كاشَغَر" وجعلها قاعدة إسلامية، وتهيأ لفتح الصين لولا أن وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي (٩٥هـ)، والخليفة الوليد بن عبد الملك (٩٦هـ) جعلته يتوقف عند هذا الحد، لكنه أجبر ملك الصين على دفع الجزية.

(ب) فتح بلاد السند (حملات محمد بن القاسم) :

انقسمت شبه القارة الهندية في القديم إلى قسمين جغرافيين كبيرين، هما : "بلاد السند والبُنْجاب" و "بلاد الهند". وبلاد السند هي البلاد المحيطة بنهر السند (Indus)، الذي كان يُسمى من قبل بـ " نهر مهران"، وينبع من عيون أعالي السند وجبالها من أرض (كشمير)، ويصُبُّ في بحر السند (المحيط الهندي) . وتمتد بلاد السند غربًا من إيران، إلى جبال " الهمالايا" في الشمال الشرقي، وتقع شبه القارةُ الهندية في جنوبها. وتكوِّن السند جزءًا كبيرًا من دولة باكستان الحالية.

ومن مدن السند: مدينة " الدَّيْبُل" (مكان كراتشي الحالية) و" قَنْدابيل" و"قَيْقَان" و" لاهور" و" الميد" و" المُلتان" المجاورة للهند، وتقع على أعلى رافد من روافد نهر مهران . وكان العرب يطلقون على "السند" من الأسماء : "ثغر الهند"، لأنه كان في ذلك الوقت المَعْبَرُ إلى بلاد الهند.

وقد سبق الفتح المنظَّم لبلاد "السند" سلسلةٌ من الحملات والغزوات قام بها المسلمون، لمعرفة طبيعة البلاد وجمع المعلومات عنها، كما حدث لبلاد ما وراء النهر. وكانت البداية مبكرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، وتتابعت الغزوات بعده في خلافة كل من عثمان وعلي ومعاوية ﷺ، وحقق المسلمون فيها انتصاراتٍ عديدةً، وغنموا مغانم كثيرة، إلى أن جاء عهدُ الوليد ابن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ)، فجاء عهد الفتح المنظَّم لهذه البلاد، وأسند الحجاج بن يوسف الثقفي (أمير العراق والمشرق) فتح السند إلي ابن أخته وصهره محمد بن القاسم الثقفي، وكان واليًا على فارس، وفي سن السابعةِ والعشرين من عُمُره، وجهزه بمَا يُكفِّل له النجاحَ ؛ من جند وعَتَاد، وأمدّه بستة آلاف جندي من أهل الشام، إضافةً إلى ما

كان معه من الجنود، فاجتمع تحت قيادته نحو عشرين ألفًا، وأنفق الحجاج على إعداد هذه الجيش ستين ألف ألف (٦٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم . **ويمكن تلخيص مراحل الفتح التي قام بها محمد بن القاسم في الخطوات الآتية:**

١- سار محمد بن القاسم بجنده من "شيراز" إلى "مكران"، وأقام بها أيامًا واتخذ منها قاعدة للفتح ونقطة انطلاق، ثم فتح "قنزابور"، ثم "أرمائيل".

٢- تقدم لفتح "الدَّيْبُل"، وتقع – الآن- قريبة من كراتشي في باكستان، فحاصرها، ونصب عليها المنجيق، وفتحها بعد قتال عنيف دام ثلاثة أيام وهدم " البدّ " الكبير بها، وكلَّ "بدٍ" آخر (والبدُّ : كل تمثال أو معبد لبوذا) ثم حولها إلى مدينة إسلامية، وأزال منها كل آثار البوذية، وبنى بها المساجد وأسكنها أربعة آلاف مسلم .

٣- كان لفتح المسلمين مدينة " الديبُل" أثر كبير على أهل "السند" فسارعوا يطلبون الصلح، فصالحهم محمد بن القاسم ورفق بهم، ثم سار إلى مدينة "البيرون" (حيدر أباد السند) فصالح أهلها، وجعل لا يمر بَعْدُ بمدينة إلا فتحها صلحًا أو عنوة، حتى بلغ نهر "مهران"، فعبر النهر، وفاجأ " داهر" ملك السند، والتقى معه في معركة حامية (٩٣هـ) قُتِلَ فيها الملك، وانفض جمعه. وبمقتله استسلمت بقية بلاد السند، وأصبحت جزءًا من بلاد الإسلام .

٤- مضى محمد بن القاسم يستكمل فتحه، فاستولى على مدن وحصون كثيرة إلى أن اجتز نهر "بياس" واقتحم مدينة "الملتان" في إقليم البنجاب في جيش عداده خمسون ألفًا من الجنود والفرسان (عُشْرهم فقط من الجيش الأصلي الفاتح، ومعظمهم ممن انضم إلى المسلمين بعد نجاحهم في المعارك السابقة)، فاستولى على المدينة بعد قتال عنيف، وقضى على كل التماثيل والمعابد البوذية هناك، وغنم مغانم كثيرة من الذهب والفضة، ولهذا سميت "المُلتان" بيت (أو ثغر) الذهب. وقد اتبع ابن القاسم في هذه المدينة ما اتبعه في المدن الأخرى التي فتحها ، من

حيث التنظيمات المالية والإدارية والعسكرية، فعيَّن الحكام على كُورها المختلفة، وترك بها حامية من الجنود، وأخذ العهود والمواثيق على أعيان المدينة بأن يعملوا على استقرار الأمن .

٥- انتهت أعمال ابن القاسم الحربية بإخضاع إقليم " الكَيْرج" على الحدود السندية الهندية وهزيمة ملكه " دوهر" ومقتله، ودخول أهله في طاعة المسلمين.

وكان محمد بن القاسم يتطلع إلى فتح إمارة "كنوج" (قُنوج) أعظم إمارات الهند، والتي كانت تمتد من السند إلى البنغال ، فاستأذن "الحجَّاج" فأذن له، وبينما هو على أتم الاستعداد لذلك كخطوةٍ أولى نحو الوصول إلى " كشمير" وإتمام فتح كل السند والهند إذْ وصله موت الحجاج (٩٥هـ)، ومن بعده بستة أشهر الخليفة الوليد بن عبد الملك (٩٦هـ)، وتولى أخوه سليمان الخلافة، فعزل محمدَ بنَ القاسم عن القيادة، واستدعاه إلى دمشق عاصمة الدولة الأموية.

ثالثًا – الفتوحات في الجبهة الغربية :

تشمل الفتوحاتُ الإسلاميةُ في الجبهة الغربية خلال العصر الأُموي ثلاثة أقاليم: الشمال الأفريقي (بلاد المغرب العربي). وشبه الجزيرة الإيبرية (الاندلس / إسبانيا والبرتغال الآن) . وبلاد غالة (غاليسيا)، أو بلاد الإفرنجة، وهي المنطقة الجنوبية من دولة فرنسا الحالية . وإليكم الحديث عن هذه الفتوحات كلّها بهذا الترتيب .

الإقليم الأول – الشمال الأفريقي (بلاد المغرب) :

بلاد المغرب : هي المناطق التي تقع في شمال القارة الأفريقية، وتطل على السواحل الجنوبية للبحر المتوسط، وتمتد من حدود مصر الغربية عند "برقة"، وتنتهي عند سواحل المحيط الأطلنطي . وتضم – الآن في عصرنا – عددًا من البلدان العربية، يُطلق عليها "بلاد المغرب العربي"، وهي : ليبيا ، وتونس، والجزائر، والمملكة المغربية، وموريتانيا. وقد قسَّم الجغرافيون المسلمون بلاد المغرب قديمًا إلى ثلاثة أقسام رئيسية، وهي:

١- المغرب الأدنى. ويدخل فيه الآن دولةُ ليبيا وتونس .

٢- المغرب الأوسط. وهو دولة الجزائر حاليًا.

٣- المغرب الأقصى. ويضم حاليًا المملكة المغربية وموريتانيا .

وكان المؤرخون المسلمون يُطلقون مصطلح " إفريقيَّة "، ويريدون به "المغرب الأدنى"، وربما أطلقوه على بلاد المغرب كلها .

أما عن سكانِ هذا الإقليم فكانوا من " البربر"، وهو السكان الأصليون، وينقسمون إلى قسمين رئيسيين؛ الأول: **البربر البُتَّر**، وتغلب عليهم البداوة، ويعيش أغلبهم في المناطق الصحراوية والواحات، ويمارسون الرعى. والقسم الثاني: **البربر البَرانس**، وهم الحضَر الذين يسكنون المدن ومناطق السهول الساحلية والسفوح الجبلية الخصبة، ويشتغلون بالزراعة . وبالإضافة إلى البربر وهم السكان الأصليون عاش في بلاد المغرب الرومُ، وهم البيزنطيون الذين احتلوا هذه البلاد واستعمروها قبل مائة عام من دخول المسلمين إليها، وكانوا يتمركزون في السواحل الشمالية، واتخذوا مدينة " قرطاجنة" عاصمة لهم. وهذه المدينة تقع الآن في شمال دولة " تونس" وتطل على ساحل البحر المتوسط .

كانت الجبهة المغربية من أعنف جبهات القتال وأصعبها في مسلسل حركة الفتوحات العربية الإسلامية، فقد استغرقت عمليات فتح هذه بلاد حوالي سبعين سنة متوالية (٢١-٩٠هـ /٦٤٢- ٧٠٨ م) لقي فيها المسلمون من الجهد والخسائر ما لم يلقوا مثله في فتح بلاد الشام والعراق ومصر وبلاد فارس، والتي لم تزد - مجتمعةً - عن عشر سنوات فقط، على الرغم من اتساع هذه البلاد وكثرة مدنها وسكانها، ووقوع معارك قاسية وكبيرة واجهها المسلمون هناك، مثل " نهاوند" و " القادسية" و " اليرموك" وغيرها. فما هي الأسباب؟ **يمكن تلخيص أهم الأسباب في النقاط التالية :**

١- طبيعة بلاد المغرب الجبلية، ووعورة مسالكها، وبُعْدُ المسافات بين المراكز العمرانية المختلفة، لامتداد سلاسل جبال أطلس بفروعها المختلفة عبر البلاد. وقد كان لذلك أثرعميق في حياة السكان البربر، حيث طبعتهم بطابع الخشونة والشجاعة، وأكسبتهم حِدَّة المقاومة،

والصبر على القتال والمواجهة، فتميزوا عن العرب، وأوقعوا الهزيمة بهم في أكثر من معركة.

٢- ما طرأ على المسلمين من مشكلات وفتن شغلتهم عن مواصلة الفتح، أو حالت بينهم وبين أن يتعهدوه بما ينبغي من العناية والاهتمام . وأهم هذه المشكلات فتنة مقتل الخليفة الشهيد عثمان بن عفان ﷺ (سنة ٣٥هـ) التي صدَّعت الجبهة الداخلية، وأعقبها وقوع معركتى " الجمل" و" صفين"، والنزاع الذي نشأ بين على بن أبي طالب ﷺ ومعاوية بن أبي سفيان ﷺ، ثم مقتل عليّ ﷺ وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية، ثم ما قابله خلفاؤه – من بعده حتى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) من مشاكل المطالبين بالخلافة، مثل الحسين بن على، وعبد الله ابن الزبير، وثورات الخوارج. كل ذلك كان له أثره الواضح في انصراف الحكومة المركزية عن متابعة وتنظيم الفتح الإسلامي للمغرب، مما كان سببًا في إطالة مدة الفتح على هذه الصورة.

٣- عدم وجود قواعد ثابتة للفتح في "إفريقيَّة- المغرب". ولقد كان الفتح الإسلامي للمنطقة وحتى تأسيس مدينة القيروان (سنة ٥٠- ٥٥هـ) مجرد محاولات استكشافية، دون أن تهدف إلى الاستقرار في المنطقة. وربما لم يكن المسلمون قد كونَّوا فكرةً واضحة عن طبيعة هذه البلاد وسكانها. وكانوا يعودون بعد كل عملية حربية إلى " الفسطاط" القاعدة الحربية في مصر، دون تَرْك قواتٍ كافيةٍ للحفاظ على ما أمكن الاستيلاء عليه من أرضٍ أو مدن، مما كان يعطي الفرصة للروم والبربر – وبمجرد أن تنتهي المعارك، ويعود المسلمون من حيث أتوا – أن يستعيدوا ما سبق لهم أن فقدوه، ولم تتحول سياسات الفتوحات الإسلامية في المغرب إلا بعد التفكير في اتخاذ قاعدة ثابتة للمسلمين في المنطقة وبناء مدينة "القيروان" .

٤- كانت الدولة البيزنطية شديدة التمسك بهذه البلاد، حيث أدرك الأباطرة البيزنطيون أن سياسة التوسع العربي الإسلامي التي قام بها الأمويون في شمال إفريقيا كانت تهدف في أساسها إلى غزو " صقلية " وجنوب إيطاليا وسواحل البحر الإدرياتيكي، كي يتمَّ للمسلمين بذلك حصار "القسطنطينية" والاستيلاءُ عليها. ولذا بدأ الأباطرة البيزنطيون في اتخاذ عدة خطوات لحماية الأجزاء الغربية، وكان من أهمها أن الإمبراطور "قُسْطَنطين الثاني" انتهز فرصة انشغال معاوية بالفتنة الكبرى، فنقل عاصمته من " القسطنطينية " إلى جزيرة " صقلِّية". كما أنه أعطى اهتمامًا كبيرًا بالأسطول، تمهيدًا لطرد المسلمين من الشمال الإفريقي، وتعزيزًا لأقدام البيزنطيين هناك.

أما عن الحملات العسكرية التي توجهت لفتح الشمال الأفريقي (بلاد المغرب) فكانت تسعَ حملات عسكرية، اثنتان منها في عهد الخلفاء الراشدين، وبقيتها في عصر الدولة الأموية :

الحملة الأولى - حملة عمرو بن العاص (سنة ٢١-٢٣هـ) :

بعد أن انتهى عمرو بن العاص من فتح مصر بدأ يفكر في تأمين حدودها الغربية، فواصل السير من الإسكندرية حتى وصل إلى "برقة" في أواخر (سنة٢١هـ)، ودخلها صلحًا، وصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف جزيَة يؤدونها في كل عام. وفي برقة قسَّم عمرو بن العاص جيشه إلى فرقتين : **إحداهما** : بقيادته ليتجه إلى فتح مدينة "طرابلس" التي تقع على ساحل البحر، فافتتحها عنوةً بعد حصار دام شهرًا كاملاً. **والفرقة الثانية** : توجهت بقيادة عقبة ابن نافع الفهري- أو بقيادة أبيه نافع- لفتح المناطق الداخلية في صحراء "زويلة" و" فزَّان" و" ودَّان". وبهذا يكون عَمرو بن العاص قد نجح في تأمين الحدود الغربية لمصر الإسلامية، وفتح البلاد الليبية الحالية دون عقبات كبيرة. وبعد أن تم له ذلك أخَذَ يستعد لفتح " إفريقية" (البلاد التونسية)، ولكنه قبل أن يفعلَ رأى استئذان الخليفةِ عمر بن الخطاب ﷺ، وكتب إليه يقول: " إن الله فتح علينا إطرابلس، وليس بينها وبين إفريقيَّة إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين

أن يغزُوَها، ويفتحها الله على يديه فَعَل". فرد الخليفة – رافضًا فكرة الغزو، ومُعبِّرا عن خشيته على جيوش المسلمين من أن تنساب وتتبعثر في هذه المناطق الشاسعة – فقال: " لا، إنها ليست بإفريقيَّة، ولكنها المفرِّقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت".

الحملة الثانية – حملة عبد الله بن أبي السَرْح (سنة ٢٧–٢٩هـ) :

ولما تولى الخليفةُ الجديدُ عثمانُ بن عفانﷺ عزل عَمْرو بن العاص عن إمارة مصر، وأسندها إلى "عبد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح" (سنة ٢٥هـ)، وهو أخو عثمان في الرضاعة. وعلي الفور بدأ ابن أبي سَرْح يعد للقيام بحملة حقيقية لفتح "إفريقيَّة"، واستشار الخليفة عثمان. وكان عثمان متوقفًا في غزوها؛ خوفا على المسلمين من التوغل في تلك المناطق البعيدة المترامية، ثم إنه وافق على الغزو بعد أن استشار كبار الصحابة وأصحاب الرأي، وأخذ يدعو الناس إلى الجهاد، ويحثهم على التطوع، فصار لابن أبي سرح جيش عدته عشرون ألفًا، فاستخلف على مصر الصحابي عُقْبَة بن عامر الجهني، ومضي هو إلى إفريقيَّة.

وفي هذه الأثناء كان حاكم المغرب – واسمه "جريجوريوس" الأرمني (ويسميه العرب جُرجير) – قد انفصل عن الإمبراطورية البيزنطية، واستقل بحكم بلاد المغرب كلها (سنة ٦٤٦م)، وكان سلطانه ما بين "طرابلس" إلى "طنجة". ولما كان مُقامه بقرطاجنَّة – وهي المدينة البحرية الهامة – يُعرضه لخطر الأسطول البيزنطي الذي كانت له السيطرة حتى ذلك الوقت على البحر فإنه فضل أن يكون بمأمنٍ في الداخل، واختار المقام في "سُبَيْطلة"، وهي مدينة كبيرة وحصينة، ولها أهمية خاصة في ذلك الوقت، وتقع على مقربة من جبال "الأوراس"، وبينها وبين " قرطاجنَّة " مائة وخمسون ميلاً .

ولما وصل عبد الله بن أبي سرح بجيشه إلى "برقة" دخلها، ثم تحرك إلى "طرابلس" فحاصرها، ثم أمر بالرحيل عنها كسبًا للوقت، ولئلا ينشغل بها عند هدفه الأساسي، وهو فتح "إفريقية" والقضاء على القوة البيزنطية في "سُبيطلة"، فواصل المسير حتى نزل بالجيش في منطقة تُسمَّى "قمُّونية"، وهي قريبة من

"سُبيْطلة"، وأخذ يستعدُّ للمعركة الفاصلة. وقد فضل "جريجريوس" أن ينتظر بجيشه في سهل متسع يُسمَّى "عقوبة" على مسافة أميال من "سُبيطلة"، وعنده دارت المعركة بين المسلمين والبيزنطيين. وقبل أن يبدأ القتال دارت المفاوضات بين الطرفين، وعرض المسلمون شروطهم، وهي: الإسلام، أو دفع الجزية والخضوع للمسلمين، أو القتال، فامتنع "جريجوريوس" من قبول أيٍّ من هذه الشروط، وفشلت المفاوضات، وفشل معها الحل السلمي، ولم يعد أمام الفريقين إلا القتال.

أما عن تفاصيل معركة سبيطلة فالحديث عنها يطول. والخلاصة أن المسلمين انتصروا في هذه المعركة انتصارًا حاسمًا، وقتلوا من الروم أعدادًا كبيرة، وقُتل ملكهم "جريجريوس"، وسقطت مدينة "سبيطلة" بسهولة، وفاز المسلمون بمغانم كثيرة وثروة طائلة. وأقام ابن أبي سرح في المنطقة يرسل السرايا إلى جميع الأرجاء، تجتاح البلاد بهمة كبيرة حتى ذلَّ الروم، ورُعبوا رعبًا شديدًا، وطلب رؤساؤهم من ابن أبي سرح أن يأخذ منهم أموالاً كثيرة – تقدر بألف ألف وخمسمائة ألف دينار – على أن يخرج من بلادهم، فقبل منهم ذلك، ورجع بجيشه إلى مصر في أوائل (سنة ٢٩هـ) بعد خمس عشرة شهرًا قضاها في هذه الغزوة، ولم يتخذ أيَّ إجراء يكفّل الاحتفاظ بهذا النصر الكبير. وبدلاً من أن يسير إلى "قرطاجنة" (القاعدة الكبرى للروم في بلاد المغرب) ويستولي عليها نجده يكتفي بالغنائم الوفيرة، ويقبل بشروط الصلح، ويعجل بالعودة، فكان على من أتي بعده من القادة أن يبدأ الفتح من جديد .

مواصلة الفتوحات الإسلامية للشمال الأفريقي في عصر الدولة الأموية:

الحملة الثالثة: حملة معاوية بن حُدَيْج (سنة ٤٥هـ):

وبمقتل الخليفة عثمان ﷺ في أواخر (سنة ٣٥هـ/٦٥٦م) اختلفت كلمة المسلمين، وانفتحت أبواب الفتنة. وكان لابد أن تؤثر هذه الأحداثُ التي استمرت خمس سنوات (٣٥-٤٠هـ) على حركة الفتوح في "إفريقيَّة" وغيرها، فبسببها تعطلت حركةُ الجهاد، وكان باستطاعة الروم أن يستعيدوا "إفريقيَّة" خلال تلك الفترة التي

انشغل فيها المسلمون بخلافاتهم، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك بصورة فعَّالة. ولمَّا استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيانﷺ عام الجماعة (٤١هـ/٦٦١م) عادت الفتوحات قويةً من جديد في المشرق وفي المغرب على السواء. وبدأت الحملات العسكرية تتوجه إلى الغرب لفتح الشمال الأفريقي.

قرر معاوية فصلَ ولاية " إفريقيَّة" عن ولاية "مصر"، وجَعْلَها ولايةً تابعة للخلافة مباشرة، وعيَّن (معاوية بن حُديَجَ السكوني) واليًا عليها، وأمره بالمسير إليها ومواصلة الجهاد، وزوده بجيش مكون من عشرة آلاف مقاتل، من بينهم عدد من أصحاب النبي وأبنائهم، أمثالَ عبدِ الله بن الزبير، وعبد اللهِ بن عمر، وعبدِ الملك بن مروان وغيرهم.

خرج معاوية بن حُدَيج من الإسكندارية، وسار برًا بإزاء الساحل حتى وصل إلى "قَمُّونية"، وهو المكان الذي عسكر فيه من قبل ابنُ أبي سرح قائدُ المسلمين في معركة سُبيطلة (٢٨هـ). ويمكن تلخيص الأعمال الحربية التي حققها قائد الحملة معاويةُ بنَ حُدَيج في أنه حقق الانتصارعلى أسطول بحري بيزنطي يتكون من ثلاثين ألف مقاتل أرسله الإمبراطور البيزنطي بقيادة " نقفور"، ونزل على الساحل بين "سوسة" و"سفاقس" (في تونس الآن)، واضطرهم المسلمون للتقهقر والعودة إلى جزيرة "صقلية" منهزمين. كما أنه فَتح مدينتي "جلولاء"(وهي حصن بيزنطي قديم) و"بنزرت"، وتقع على الساحل الشمالي، قريبة من مدينة "قرطاجنة".

ولا نستطيع أن نعتبر الأعمال الحربية التي قام بها معاوية بن حُديج فتحًا حقيقيًا، لأنه لم يتوجه إلى عاصمة الإقليم " قرطاجنة " لفتحها. وتتلخص أهمية هذه الحملة – ومن قبلها حملة ابن أبي سرح – في أنهما من الحملات الاستطلاعية الاستكشافية التي أتاحت للمسلمين التعرف على بلاد "إفريقيَّة". كما أنها إحدى المقدمات المهمة التي سبقت الفتح الحقيقي، الذي ستبدأ أُولى حلقاته على يد رجلٍ طالت خبرته بهذه البلاد وطبيعة أهلها، وعرف الطريق الصحيح لتثبيت أقدام المسلمين فيها، وهو "عقبة بن نافع الفهري" .

الحملة الرابعة– حملة عقبة بن نافع الفهري الأولى(سنة ٥٠–٥٥هـ):

عزل الخليفة معاوية بن أبي سفيان أميرَ الجهاد في الشمال الأفريقي

معاوية بنَ حديج، وعيَّن بدلاً منه القائد المجاهد عقبة بن نافع الفهرى (عام ٥٠هـ/ ٦٦٨م). ويتفق المؤرخون على أن بداية ولاية عُقْبَة بن نافع الفهري تمثل مرحلة جديدة من مراحل الجهاد الإسلامي في منطقة المغرب، وكان اختيارهُ موفقًا إلى حد بعيد، ونابعًا من قناعة تامة بأنه هو القائدُ الجديد رجلُ المستقبل في مرحلة انتهت بها حربُ الاستكشاف والسرايا العادية، لتبدأ مرحلةُ الفتح الثابت المستقر .

ولقد توفَّر في عُقْبَة من الكفاءات الحربية والخِلال الدينية ما يجعله جديرًا بحمل هذا العبءِ الثقيلِ، حيث مكَّنه طولُ عهده بإفريقيَّة، وكثرة اشتغاله بحروبها من تنمية مواهبه الحربية، وتكوينِ فكرةٍ واضحة عن هذه البلاد التي جال في ربوعها، والتعرفِ على الكثير من أخلاق وعادات أهلها، ومعرفة أفضل السبل لفتحها وإخضاعها. وكان رجلاً قوي الإيمان، ورعًا تقيًا، تميل نفسه إلى الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام والدعوة إليه. وقد تأكد لعُقْبَة بن نافع أن فتح "إفريقيَّة" وبقية المغرب لا يثبت إلا بأمرين :

أولهما : " إنشاء مركز للمسلمين تعسكر فيه جيوشهم، ويأمنون فيه على أموالهم ونسائهم وذراريهم، ومنه يخرجون للغزو، بدلاً من العودة في كل مرة إلى "فسطاط" مصر.

وثانيهما : غَزْوُ البربر أنفسهم، والتوغُّلُ في قلب بلادهم، وإدراكُهم في منازلهم، في الهضاب والجبال والصحراء، بدلاً من الاكتفاء بغزو مدائن الساحل، ثم العودة إلى "الفسطاط"؛ لأن المسلمين لا يكادون ينصرفون عن هذه البلاد حتى تعودَ الأمورُ إلى ما كانت عليه، لاتصال هذه المناطق عن طريق البحر بالبيزنطيين، تتلقي منهم الإمدادات، وكان كما وصفهم عُقْبَة نفسه – "إذا دخل أميرٌ أطاعوا، وأظهر بعضُهم الإسلام، فإذا عاد الأميرُ عنهم نكثوا، وارتد مَنْ أسلم".

تأسيس القيروان :

توجه عقبة بجيشه في عشرة آلاف مقاتل إلى "إفريقيَّة"، وابتعد عن الساحل لأنه ملىءٌ بالحصون والمسالح البيزنطية، وأخضع – في طريقه – المناطق الداخلية، مثل "ودَّان" و "فزَّان"، وسار إلى "بلاد الجريد" (تقع جنوب دولة تونس الحالية)، وأخضع

كلَّ واحاتها، وافتتح " قَفْصة" و" قَسْطيلية"، ثم نزل بالجيش في موضع "قمَّونية"، وهو الموضع الذي عسكر فيه من قبل معاويةُ بن حُديج. وفي هذه المنطقة بدأ عقبة بن نافع يؤسس المدينة التي عزم على بنائها، وسماها "القيروان" .

وبشهادة جميع المؤرخين أن عقبة أحسن اختيار موقع المدينة، إذْ راعى أن تكون المدينةُ في موقع متوسط بين الساحل والجبل، بحيث تكونُ بعيدًة عن كلٍّ من ساحل البحر والجبل (جبل أَوْراس) بمسيرة يوم، وهي مدة كافية للابتعاد عن خطر المفاجأة من غزو بيزنطي بحري، أو من هجوم بربري يأتي من الجبل. كما أنه حرص على أن تكون في موقع يتمتع بوفرة المياه والمرعى والأرض الصالحة للزراعة.

وقد عُمِّرت "القيروان" بمختلف الأبنية، وقامت فيها الأسواق، وأمَّها الناس من جميع الجهات، وعَظُم قدرها جدًا، وقُدِّر لها أن تصبح من أكثر المراكز الإسلامية بركة على الإسلام وأهله، وتحولت بسرعة إلى قاعدة سياسية ودينية وفكرية للإسلام في إفريقيَّة. ولعل دعوة عُقْبَة بن نافع قد استجيبت حينما دعا لهذه المدينة بعد اكتمالها بأن تكون عزًا للإسلام وموئلاً للعلم والعلماء فقال: "**اللهم املأهَا فقهًا، وأَعْمِرها بالطيعين والعابدين، واجعلها عزًا لدينك، وذلاً على من كفر بك، وأَعِزَّ بها الإسلام، وامنعها من جبابرة الأرض**". وقد أنفق عُقْبَة في تخطيط المدينة وبنائها أربعَ سنوات كاملة، دون أن ينصرف إلى عمل آخر من أعمال الفتوح، باستثناء بعض السرايا التي كان يرسلها إلى المناطق المجاورة .

ونسجل هنا ملاحظة على قدر كبير من الأهمية فيما يتعلق بتأسيس "القيروان"، وهي: أن هذه المدينة كما أفادت حركة الفتوح إفادة كبرى من الناحية العسكرية فقد أفادت أيضًا في العمل على نشر الإسلام والعروبة في المغرب. وهذا هو الغرض الأساسي من الفتوح، وذلك حينما سنحت الفرصة للاتصال السلمي بين البربر والعرب المقيمين بالمدينة في الفترات التي تتوقف فيها الحروب؛ الأمر الذي ساعد على تَقَبُّل بعض البربر للدين الجديد باقتناع دون أي شبهة اضطرار أو إكراه.

الحملة الخامسة- حملة أبى المهاجر دينار(٥٥-٦٢هـ/٦٧٤-٦٨١م):

وبعد تأسيس القيروان بدأ عقبةُ بن نافع يستعد للخروج بجيوشه للغزو والفتح الواسع، لكنه فوجئ بعزله عن القيادة، عزله والي مصر "مَسْلَمه بن مُخَلّد"، وولَّى مكانه " أبا المهاجر دينار" وهو مولى "مسلمة"، ومن أهل مصر. وكان من خيرة الولاة، وعلى قدر كبير من الحكمة، ولم يكن أقل كفاءة من عُقْبَة بن نافع . وقد قام بدور عظيم في فتح المغرب، وتمهيده لقبول الإسلام دينًا ونظام حياة، واستطاع أن يخرج من سهل تونس بالمغرب الأدنى، ويتعمق في هضاب المغرب الأوسط، ويهاجم القبائل البربرية في مواطنها الحصينة، ووصلت جيوشه إلى مدينة " تِلِمْسان"، وهي أكبر المدن في القسم الشرقي من المغرب الأوسط. وفي هذه النواحي كانت تقع منازل قبيلة "أَوْرَبة"، وهي من قبائل البربر "البَرانِس" في ذلك الحين، ويدينُ أفرادُها بدين النصرانية، ويتزعمها رجلٌ بربري قويٌ يُسمَّى "كَسِيلة بن لمْرَم"، وكان متحالفًا مع الروم البيزنطيين ضد العرب . وقد استطاع أبو المهاجر أن يغزو مواقع " أَوْربة" في جبال "الأوراس"، وأن يكتسب رئيسها "كَسيلة" إلى الإسلام، فأسلم، وتبعه نفر كبير من قومه.

وبعد أن قضى أبو المهاجر في هذا الغزو نحوًا من سنتين (٥٩-٦١هـ) عاد إلى معسكره، وأقام به عامًا واحدًا حتى عُزل. وكانت الظروف السياسية في عاصمة الدولة الإسلامية " دمشق" قد تغيرت، فمات الخليفة معاوية (سنة ٦٠هـ/٦٧٩م)، وتولى من بعده ابنه يزيد. وكان يزيد مقتنعًا بعُقْبَة بن نافع والدور الذي قام به في فتح " إفريقيَّة"، فأعاده مرةً أخرى إليها بعد أن استجاب لشكواه، وعزل أبا المهاجر (سنة ٦٢هـ/٦٨١م) .

الحملة السادسة- حملة عقبة بن نافع الثانية (٦٢-٦٤هـ) :

عاد عُقْبَة إلى "القيروان"، فجدَّد عمارتها، فعُمِّرت وعظم شأنها. ثم بدأ منها حملة كبرى تختلف عن كل الحملات السابقة؛ إذْ إنه ساح في كل صحروات المغربين الأوسط والأقصى، حتى وصل إلى سواحل "السوس الأقصى" على البحر المحيط الأطلنطي . وقبل الخروج من القيروان قرر عُقْبَة أن يترك فيها حامية عسكرية قُدِّرت بستة آلاف رجل، للدفاع عن المدينة، وحماية ما بها من

الذراري والأموال، واختار "زهير بن قيس البلوي" حاكمًا عليها، ثم بدأ حملته الكبرى بهمة عالية، وعزيمة لا تضعف حبًا في الجهاد، ورغبة في الاستشهاد، وأملاً في الانتهاء من فتوحات المغرب التي طال أمدها. ويمكن تلخيص الإنجازات التي حققها عقبة في حملته العسكرية الجديدة في الخطوات الآتية :

١- اتجه عُقْبَة نحو مدينة "باغاية" عند أقدام جبل الأوْراس، ولقي جمعًا كبيرًا من الروم، فهزمهم . ثم زحف إلى "بلاد الزاب" الفسيحة (في المغرب الأوسط) فاكتسحها بعد عدة معارك انتهت كلها بهزيمة الروم. ووصل إلى "تَاهَرْت"، ووجد نفسه أمام تحالفٍ كبير من الروم والبربر لم يعهد المسلمون له مثيلاً من قبل، فالتقى بهم في معركة حامية، فأباد فرسانهم وفرَّق جمعهم، وقطع آثارهم .

٢- استمر في طريقه غيرَ عابئٍ بالمقاومة مهما اشتدت حتى وصل إلى ولاية "طنجة" في شمال المغرب الأقصى، ووصل إلى مدينة "وَليلى"، واستمر عقبة في تحركاته وتقدُّمه حتى انتهى بجيوشه إلى ساحل المحيط الأطلنطي عند المدينة التي تعرف حاليًا باسم "أغادير"، وتقع على مصب نهر السُّوس الذي يصب في المحيط، وفي هذا المكان وقع المشهد التاريخي الشهير الذي حدثتنا عنه كتب التاريخ، وهو مشهد عُقْبَة يدخل بفرسه في مياه المحيط الأطلسي حتى وصل الماء إلى تلابيبه، ويُشْهد اللهَ على أنه وصل براية الإسلام إلى آخر المعمورة، قائلا:" **يارب لولا أن البحر منعني لمضيتُ في البلاد إلى مسلك ذي القرنين، مدافعًا عن دينك، مقاتلاً من كفر بك**".

وبهذا يكون عُقْبَة بن نافع قد أتم فتح بلاد المغرب، ونجح في التغلب على كل الجموع التي تصدت له، وهذه هي المرة الأولى التي يتم فيها الفتح بصورة كاملة تقريبًا. وفي غمرة هذا النصر المبين يهرب " كَسِيلة بن لَمْرَم" القائد البربري الذي أسلم على يد " أبي المهاجر دينار"، وأسلمت معه قبيلته "أوْربة". وكان عُقْبَة قد اصطحبه – وأبا المهاجر – في غزوته تلك، وأشرك معه جموعًا من

البربر المسلمين. وتذكر الروايات أن عُقْبَة عامل " كَسِيلة " بما لا يليق به كقائد، وبما لا يتناسب معه كحديث عهد بالإسلام.

بدأ عُقْبَة رحلة العودة إلى القيروان، فاتخذ طريقه نحو "طنجة" لكي يعود إلى " المغرب الأوسط" وعندما وصل إلى "بلاد الزاب" في (بلاد الجزائر) – وعند بلدة "طُبنْة" (وعلى مسيرة أيام من القيروان) بعث بمعظم جنده إلى القيروان على عجل، ولم يبق معه إلا جزء صغير من الجيش يُقدَّر بخمسة آلاف؛ لينهي به فَتْح بعض القلاع والمناطق التي أجّلها في أول الحملة. ولعل السبب الذي جعل عُقْبَة يرسل معظمَ الجيش إلى القيروان يعود إلى أنه اطمأن إلى ما أنجزه من فتوحات في المغرب الأقصى، ولم يَعُدْ هناك خطر من الروم والبربر. وقد فضَّل عُقْبَة أن يتحرك – بمن بقي معه من الجنود – في اتجاه مدينة " تَهْوذة " التي تقع بالقرب من الزاب، للاستيلاء عليها، وإقامة حامية من فرسانه دائمة فيها. وهنا يظهر على مسرح الأحداث الزعيمُ البربري "كَسِيلة"، وكان قد استطاع الفرار من جيش عُقْبَة، وأخذ ينتظر الفرصةَ المناسبة للقضاء عليه. وكانت عيون الروم وجواسيسهم في هذه المنطقة قد بعثوا إلى "كسيلة" وأخبروه بقلة مَن مع عُقْبَة، فجمع كَسيلة جمعًا كبيرًا من الروم والبربر (قُدر بخمسين ألف مقاتل) وزحف إلى عقبة ليلاً حتى نزل بالقرب منه" .

ولم تكن إساءة عُقْبَة إلى "كَسِيلة" – رغم ما نراه من بعض المبالغة فيما أوردته المصادر بشأنها – هي السببَ الوحيدَ في تجمع هذا الحشد الهائل من البربر والروم، ولكن السبب الأهمَّ هو أن عُقْبَة استطاع أن يُفرِّق جَمْعَهم، ويُشتِّت شَمْلَهم، وينتصرَ عليهم في كل المواقع التي خاضها ضدهم، وهذا هو الذي أزعجهم، وأوجد نوعًا من التوافق أو التعاطف بينهم، فما زالوا يتربصون به حتى ظهرت الفرصة عندما انفرد بعيدًا عن جيشه فتمكنوا من القضاء عليه.

ويروي المؤرخون قصة المعركة التي وقعت (سنة ٦٤هـ/٦٨٢م) بين تحالف الروم والبربر وبين من تبقَّى من المسلمين مع عقبة. ويطول الحديث بذكر

التفاصيل، وقد انتهت هذه الكارثة بمقتل عقبة بن نافع، وأبي المهاجر دينار، وجميع من كان معهما من المسلمين، ولم يفلت أحدٌ منهم، إلا بعضَ وجوههم، وقعوا في الأَسْر، وزحف كسيلةُ بجيشه إلى القيروان.

وكان لاستشهاد عقبة وقع أليم على المسلمين في القيروان وأصابتهم حالةُ من الهلع والفزع، فمع أن معظم الجيش كان قد سار متقدمًا ونجا من المعركة، وكان من الممكن أن يتماسك هذا الجيشُ ويقاوم، حتى يحتفظ بوجوده في القيروان، إلا أن الحالة النفسية للجنود لم تسمح بذلك، وقد حاول زهير بن قيس البلوي (خليفةُ عقبة على القيروان) أن ينفخ في الجنود رُوحَ المقاومة والتصدي لكسيلة عندما زحف على القيروان، لكنهم فضلوا العودة إلي المشرق، ولم يبق مع زهير إلا أهلُ بيته، فنهض في أثرهم، ولحق بقصره ببرقة، وأقام بها مرابطا إلى دولة عبد الملك بن مروان .

أما كسيلة فاجتمع إليه جميع أهل إفريقية من الروم والبربر، وقصد القيروان، واحتلها (في شهر المحرم٦٤هـ)، وأمَّن مَن بقي فيها من الشيوخ والنساء والأطفال وأصحاب الأثقال، واستولى على إفريقية وأقام بها.

ضاعت إذن كل الجهود التي بذلها المسلمون في فتح هذه البلاد منذ حملات عمرو بن العاص الأولى وحتى حملة عقبة الثانية . وعلى الرغم من الانتقادات التي وُجِّهت للحملة الجهادية التي قادها عُقْبَة بن نافع لفتح البلاد المغربية، فإنها تعتبر من كبريات الحملات العسكرية في تاريخ هذا الإقليم؛ شملت المغارب الثلاثة، وأدخلت المسلمين إلى مناطق لم يدخلوها من قبل، وحققت عدة انتصارات عسكرية مهمة، وعرَّفت البربر في مناطق نائية بالإسلام، وتكفي هذه النتائج التي حققتها هذه الحملة ردًا على من قلَّل من أهميتها، وأضعف من قيمتها .

الحملة السابعة – حملة زهير البلوي (٦٩-٧١هـ) :

لم تستطع الخلافة الأموية أن تهتم بأمور " إفريقيَّة " إثر مقتل عُقْبَة بن نافع واحتلال " كَسِيلة " البربري للقيروان إلا بعد وقت طويل؛ لأن ظروف الخلافة لم

تسمح بذلك. لقد توفي يزيد بن معاوية (٦٤هـ/٦٨٢م)، وخلفه ابنه معاوية (الثاني)، ولم يكمل عامًا واحدًا حتى توفي دون أن يُعَيِّن من يخلفه، وانتهى الأمر في العام نفسه إلى مبايعة الأمويين مروان بن الحكم بالخلافة. وكان عبد الله بن الزبير قد ثار على الأمويين بعد موت يزيد، واستولى على الحجاز والعراق ودخلت مصر في طاعته، واتسع سلطانه، وأعلن نفسه خليفة. وقد انشغل مروان بن الحَكَم ثم ابنه عبد الملك بمحاربة الزبيريين واستعادة البلاد إلى الأسرة الأموية. وبعد أن هدأت الأحوال شيئًا فشيئًا وثبتت الخلافة الأموية لعبد الملك اتسع أمامه الوقت ليقوم بعمل عسكري لاستعادة القيروان، واستكمال الفتوحات في المغرب .

وكان زهير بن قيس – الذي انسحب بالمسلمين من " القيروان" بعد مقتل عُقْبة – لا يزال منتظرًا في "بَرْقَة" إلى أن تأتيه الإمدادات لكي يتحرك إلى "إفريقيَّة" من جديد. وقد وقع الاختيار عليه ليقود الحملة العسكرية الجديدة، وأمده الخليفة عبد الملك بالخيل والرجال والعتاد والمال .

سار زهير بجيشه إلى "القيروان" (سنة٦٩هـ/٦٨٨م)، وكان" كَسِيلة" قد تركها هو ومن معه من البربر والروم، واحتمى بالجبل على مقربة منها، فلما وصل زهير لم يدخل المدينة، وإنما أقام قريبًا منها ثلاثة أيام، إلى أن استراح الجيش استعدادا للمعركة الكبرى. وفي اليوم الرابع التقي الجمعان في "مَمْس" بالقرب من القيروان على مسيرة يوم منها، في معركة هائلة؛ إذْ فشى القتل في الفريقين، "حتى يئس الناس من الحياة" كما يقول الرواة، وما كاد اليوم يشرف على الانتهاء حتى تحقق للمسلمين النصر، وتتبعوا فلول المنهزمين إلى مسافات بعيدة . ثم رجع زهير إلى "القيروان" ليرتب أمورها ويصلح من أحوال المسلمين بها. وبعد أن تم له ذلك، واطمأن إلى أنه لم يعد هناك خطورة أعلن أنه عائد إلى المشرق ومن أراد من أصحابه. ويفسر الرواة ذلك بأن زهيرًا " كان من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين وكبراء الزاهدين، وأنه رأى بإفريقيَّة ملكًا عظيمًا، فأبى أن يقيم وقال: "إنما قدمت للجهاد، فأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك" .

وكان الروم بالقسطنطينية قد بلغهم مسير زهير ومعه الجيش كله من "بَرْقَة" إلى "القيروان" لقتال كَسِيلة، فاغتنموا الفرصة وخرجوا من جزيرة "صقلية" في

مراكب كثيرة وقوة عظيمة فأغاروا على "بَرْقَة"، وأصابوا فيها سبيًا كثيرًا وقتلوا ونهبوا، وأقاموا بها مدة أربعين يومًا. وقد وافق ذلك رجوع زهير إلى المشرق فأُخبر بخبرهم، فأمر العساكر بالإسراع والجِد في قتالهم، وعجَّل هو بالمسير ومعه سبعون من أصحابه أكثرهم من التابعين وأشراف العرب المجاهدين. وفي الوقت الذي وصل "زهير" فيه إلى برقة كان الروم يُدْخِلُون سباياهم من نساء المسلمين وذراريهم إلى المراكب للرحيل، " فلما رآه المسلمون استغاثوا به فلم يمكنه الرجوع، وباشر القتالَ، واشتد الأمرُ، وتكاثر الرومُ عليهم، فقتلوا زهيرًا وأصحابه، ولم ينج منهم أحد، وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية". وهكذا أصيب المسلمون بكارثة ثانية في " إفريقيَّة "، وتوقف الفتح مرة أخرى عدة سنوات.

الحملة الثامنة – حملة حسان بن النعمان والقضاء على مقاومة الروم والبربر(٧٣-٨٥هـ) :

كان لا بد للخليفة عبد الملك بن مروان من القيام بعمل كبير، يمحو به عن المسلمين ما خلَّفته تلك السنواتُ الطوالُ من الجهاد في الجناح الغربي للدولة الإسلامية. وبعد أن انتهت مشكلة عبد الله بن الزبير بمقتله (سنة ٧٣هـ) انصب تفكير عبد الملك واهتمامه على الإعداد لملحمة جديدة؛ فعهد بولاية المغرب وقيادة الجيوش إلى أحد مشاهير قادة الشام، وهو حسَّان بن النعمان الغسَّاني– الملقب بالشيخ الأمين – (سنة ٧٣هـ/٦٩٢م)، وأمده بجيش بلغت عدته أربعين ألف مقاتل، وأمره بالمقام في مصر، وفوَّضه في أموال خراجها للإنفاق منه على الفتح .

أما أحوال "إفريقية" عقب استشهاد زهير بن قيس في الفترة من (٦٩هـ/٦٨٨م) إلى (٧٣هـ/٦٩٢م) فقد عادت بعض السيطرة البيزنطية على أجزاء من الساحل الإفريقي، وخاصة في "قرطاجنة". كما أن قبيلة "أَوْربة" البربرية – التي كان كَسِيلة الأَوْربي يتزعمها – بدأت في التقهقر عن مركز الصدارة في جبال "الأوراس"، تاركة المجال لقبيلة أخرى شديدة المراس تدعي"جَرَّاوة" – من قبائل البربر البُتَّر – وتقودها امرأة لقَّبها العرب بالكاهنة، واسمها " داهيا بنت ماتية"، وكانت على جانب كبير من المهارة والقدرة، وتمكنت من تجميع قبائل جبال " الأوراس" تحت إمرتها، حتى أصبح

"جميع مَن بإفريقيَّة من الرومِ منها خائفون، وجميعُ البربر لها مطيعون"، حسب تعبير المؤرخين .

خرج حسَّان بن النعمان من مصر أوائل (سنة ٧٤هـ/٦٩٣م) على رأس جيشه، ووصل به إلى " طرابلس"، فانضم إليه من كان هناك من المسلمين ثم سار إلى "إفريقيَّة" ودخل " القيروان" حيث أعد نفسه للغزو، واتبع حسان خطة عسكرية جديدة، أساسُها مقابلةُ أعدائه من الروم والبربر، كلٌّ على حِدَة، حتى يسهل القضاءُ عليهم.

بدأ بفتح " قرطاجنة "، وهي عاصمة "إفريقيَّة" القديمة، ومصدر المقاومة الثابت، ولم يكن أحد من القادة السابقين قد تمكَّن من فتحها. ثم انتصرعلي تحالف (بيزنطى بربرى) فى موضع يسمى "صَطفُورة".

تصدى حسَّان للتجمع البربرى الضخم والشرس فى منطقة جبال الأوراس فى الداخل، بقيادة "الكاهنة" التى تمكّنت من تجميع قوى البربر ورئاستها لهم بعد مقتل "كَسيلة الأوْربى". وكان حسَّانُ قد أدرك أن هذا التجمعَ له خطورة قصوى، ولا بد من التصدى له، وأنه إن تَمكَّن من التغلب عليه فقد دان له المغربُ كلُّه، وسقطت فيه آخر قاعدة ضخمة للمقاومة. ولذلك توجه حسَّان بجيوشه والتقى مع العدو فى معركة كبرى انتهت بهزيمة حسان هزيمة منكرة أدت إلى ضياع كل "إفريقيَّة"، وانسحاب المسلمين إلى حدود مدينة " قابس" التي تقع على بُعْد (٢٥٠ كم) من "طرابلس". وكان من نتائج هذه الهزيمة أن الروم استردوا عاصمتهم " قَرطاجَنَّة". وقد كتب حسَّان إلى الخليفة بخبر هذه الهزيمة وما ترتب عليها، فعاد الجواب يأمره أن يقيم فى "برقة" فأقام بها، وبنى هناك قصورًا عُرفت بقصور حسَّان.

وهكذا اضطر المسلمون إلى التخلى عن فتوحهم فى المغرب للمرة الثالثة خلال عشر سنوات فقط (من ٦٥ – إلى ٧٤هـ)، واحتاج الأمر إلى خمس سنوات طوال لاسترجاع البلاد التى سادتها تلك المرأة الكاهن .

تأخر وصول المدد من الخليفة لمدة تصل إلى ثلاث سنوات، وهى مدة

طويلة جعلت الكاهنةَ صاحبةَ الشأن فى تصريف شئون "إفريقيَّة". وفي هذه المدة كان حسَّان يستعد لخوض المعركة الفاصلة، واستطاع – من خلال التخابر والاستطلاع – أن يعرف مواطن القوة والضعف فى صفوف العدو. وعندما أتم حالة الاستعداد ووصلته الأمداد من جنود العرب وفرسانهم وممن انضم إليهم من مسلمى البربر سار إلى الكاهنة، والتقى بجيشها، وتمكَّن من هزيمتها وقتلها، "واقتحم جبال الأَوراس عَنْوة واستلحهم فيه زهاء مائة ألف" . وكان من ثمرات هذا النصر المبين أن سارع كثير من البربر يطلبون الأمان ويعلنون الإسلام والطاعة، لكن – لما يعرفه حسَّان من كثرة ارتداد البربر، "لم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من جميع قبائلهم اثنى عشر ألفًا يكونون مع العرب مجاهدين ، فأجابوه ، وأسلموا على يديه".

هكذا قضى العرب المسلمون على آخر حركة للمقاومة قام بها أهالى البلاد، إذْ كانت الكاهنة هى الحصن الأخير الذى احتمى وراءه البربر والروم، فلما سقطت انتهت كل مقاومة، ولم يبق بعد ذلك إلا اليسير .

أما عن " قرطاجنة " التى استعادها الروم (سنة ٧٨هـ) فقد سار إليها حسَّان واستولى عليها مرة ثانية عَنْوةً، وقام بتخريبها، ولم يعد لها بعد ذلك أثر يذكر، غير أن الفرنسيين عندما احتلوا إقليم تونس (فى العصر الحديث) أحيوها من جديد فى صورة ضاحية لمدينة تونس الحالية، وعرفت باسمها الفرنسى، وهو " قرطاج" .

وبهذا يكون حسَّان بن النعمان قد أتم فتح "إفريقيَّة" و"المغرب الأوسط"، ورأى أنَّ عليه – قبل أن يكمل الأعمال العسكرية – أن ينظم هذه البلاد الواسعة التى خضعت للمسلمين بعد ما يقرب من ستين عامًا منذ بدأ عمرو بن العاص فتحها (سنة ٢١هـ/٦٤٢م)؛ **فقام ببعض الأعمال الإنشائية والإدارية المهمة ، كان لها الأثر الطيب فى تثبيت الإسلام فى بلاد المغرب إلى آخر الدهر إن شاء الله . ومن أهم هذه الأعمال:**

١- اهتم بعمران مدينة "القيروان" على نحو تتسع معه لجموع العرب والمسلمين التى سكنتها، حتى أصبحت المدينة جديرة بمركزها كعاصمة

للبلاد بدلاً من "قرطاجنة"، كما أنه جدد مسجدها وأحسن بناءه، وأقام فى المدينة يوجه منها شئون البلاد ويدير أحوالها. وقد عمرها المسلمون حتى انتشر فيها العمران، واتسعت رقعتها.

٢- أنشأ ميناءً إسلاميًا جديدًا على مقربة من "قرطاجنة" وبديلا عنها ليشرف على البحر، ويمنع الروم من الاقتراب. ومن هنا بدأ فى بناء مدينة "تونس" (سنة ٨٤هـ/٧٠٣م)، وأسس فيها دارًا لصناعة السفن. وقد اتسعت هذه المدينة بعد ذلك، وهى الآن عاصمة دولة تونس.

٣- أدخل حسَّان بن النعمان البربرَ بشكل منظم فى الجيش العربى الإسلامى الإفريقى، وحرص على أن يُشرك معه نفرًا من أهل القبائل فى حروبه، وجعل اشتراكهم معه فى الحرب شرطًا لتأمينهم، وكانت تلك خطوةً موفَّقةً استطاع بها حسَّان أن يضمنَ ولاءَ البربر، وأن يُحببَ إليهم الإسلام. وكان انضمام البربر إلى الجيش العربى يعنى دخولَهم فى الإسلام. ولم يكتف حسَّان بأن يشركَ هؤلاء البربرَ فى حروبه، ويجعلَ لهم نصيبًا من الغنائم، وإنما خصص لهم أعطيات تُصرفُ لهم من بيت المال، وساوى بينهم وبين العرب فى هذا العطاء وفى المعاملة، فأحبه البربر وأخلصوا للدولة، حتى صاروا – فيما بعد – نواةً لفتح إسبانيا.

٤- اهتم حسانُ بتعليم البربر القرآنَ وأصولَ الإسلام، وعهد بهذه المهمة إلى ثلاثةَ عَشَرَ فقيها من أفاضل التابعين. وبطبيعة الحال كان تعليم القرآن لهؤلاء البربر وغيرهم يعنى تعليمهم اللغة العربية ونشر الأخلاق الإسلامية، واكتسابهم إلى العروبة بصفة نهائية. وبذلك سار التعريب جنبًا إلى جنب مع الإسلام منذ البداية.

٥- دوَّن الدواوين، أى نظَّم شئون الحكومة، وعيَّن الموظفين على نواحى الإدارة؛ من خَراج، وزكاة، وجُند، وما إلى ذلك، واختارهم من ذوى الحزم والدين والإخلاص. كما أنه عيَّن القضاةَ فى النواحى المختلفة للحكم بين الناس فى الخصومات بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

وبهذه التنظيمات الإدارية والمالية التى وضعها حسَّان بن النعمان دخل تاريخ "إفريقيَّة" الإسلامية فى دور جديد، وتحولت إلى قاعدة إسلامية ينطلق منها المسلمون إلى ما جاورها غربًا.

الحملة التاسعة- حملة موسى بن نُصَيْر واستقرار الفتح (٨٥-٩٥هـ):

وبعد سنة واحدة من إنشاء ميناء تونس جاء قرارُ عزل حسَّان بن النعمان عن ولاية المغرب فى أواخر (سنة ٨٥هـ/٧٠٥م)، وعُين موسى بن نُصَير مكانه أميرا على البلاد، وهو الذى أتمَّ فتحها نهائيًا. وكان من كبار القادة العسكريين، ذا رأيٍ سديد، محبًا للجهاد. ولا شك أنه أفاد من تجارب الفاتحين السابقين فى بلاد المغرب. وتتلخيص حملته العسكرية وفتوحاته في أنه قضى على بقايا المقاومة فى منطقة "إفريقية"، وقام بإرسال مجموعات من الجند لإخضاع المناطق المجاورة لمدينة القيروان. ثم سيطر موسى على المغرب الأوسط بعد أن استطاع أن يقضى على قوة التجمعات البربرية من قبائل "زناتة" و"هُوَّارة" و"كُتّامة" بقيادة رجل يدعى "كامون". وقد ظهرت آثار هذا النصر سريعًا، فبدأت القبائل – وعلى رأسها "كُتامة" – فى طلب الأمان، وإرسال الرهائن، دليلاً على الدخول فى الطاعة وصدق النوايا.

انطلق موسى إلى "المغرب الأقصى"، لقتال القبائل التى ما زالت خارج سيطرة المسلمين، فهربوا أمامه، وسَهُلَ عليه فتحُ الإقليم بسرعة واضحة، فمال إلى المدن الكبرى ومواطن التجمعات البربرية، مثل " درْعة " و"سجلماسَّة"، وسيطر على قبائل " صنُهاجة" و" مصمودة " وأخضعها كلَّها للإسلام، فدخلوا فيه طوعًا، وولى عليهم واليًا.

وقد أخضع موسى بن نُصير إقليم "طنجة" فى الساحل الشمالى الغربى من المغرب الأقصى، وترك فيه حامية عسكرية للرباط تتكون من (١٧٠٠) جندى من العرب، واثنى عشر ألفًا من البربر المسلمين، واختار طارق بن زياد قائدًا عليهم وهو من البربر. وسوف يتجه بهم طارق إلى فتح إسبانيا، وسيأتى الحديث عن ذلك بعد قليل.

وبذلك تم فتح " المغرب الأقصى" كله، عدا مدينة "سَبْتة " الساحلية القريبة من "طنجة" استعصت على المسلمين لمناعتها، وبقيت فى يد حاكمها " يُليان" وكان تابعًا للقوط حُكَّام إسبانيا.

ولم يكتف موسى بالنواحى العسكرية، وإنما بدأ بمهمة أخرى لا تقل أهمية عن جهاده الحربى، وهى تثبيتُ الإسلام، وتعليمُ اللغة العربية؛ فقد عهد إلى الدعاة بتعليم البربر القرآن الكريم، وتفقيهِهِم فى الدين. كما أنه حرص على حسن معاملتهم، وأشركهم فى حكم البلاد.

وبهذا يكون المسلمون قد أتموا فتح إقليم المغرب كلِّه بعد سبعين سنةً تقريبًا قضوها فى عمليات الفتح والجهاد، وبدءوا يستعدون لفتح إقليم أسبانيا. ولا شك فى أن الفتح العربي الإسلامى لبلاد المغرب قد أحدث فيها تغييرًا دينيًا وسياسيًا واجتماعيًا. ولم يكن فتحًا عسكريًا، وإنما كان فى المقام الأول فتحًا حضاريًا، أثر فى الحياة العامة المغربية تأثيرًا كبيرًا، وحقَّق لها وَحْدَتَها فى الدين واللغة.

ثانيًا – فتح إسبانيا وبلاد غالة (جنوب فرنسا):

(١) فتح إسبانيا :

كان " القُوطُ" – وهم قبائل جرمانية – آخر الشعوب التي حكمت "إسبانيا" في الفترة ما بين أوائل القرن الخامس الميلادي إلى أن فتحها المسلمون (سنة ٧١١م / ٩٢هـ)، أي حكموها قرابة قرنين من الزمان. وقد اتخذوا من مدينة "طُلَيْطلة" في شمال البلاد عاصمة لهم. وفي السنوات الثلاثين الأخيرة من حكم القوط كانت إسبانيا تعيش حالة من الفوضي والفشل السياسي، والتأخر الاقتصادي، والتفكك الاجتماعي، والظلم الطبقي . وقبل الفتح بسنة واحدة أو تزيد قام أحدُ رجال الجيش – ويُدعى " رُودريك "– ويُعربِّه العرب إلى " لُذْريق" – بالاستيلاء على السلطة، وعَزْلِ الملك "غِيطشة"، وأصبح الحاكمَ الفعلي للبلاد، واتبع سياسةً ظالمة، فتغيرت قلوبُ الناس عليه، واشتعلت ضده نيران الثورات في العاصمة "طُلَيْطلة" وغيرها، يقودها أتباعُ الملك السابق وأفرادُ أسرته.

مقدمات الفتح ومراحله :

كان موسى بن نصير – بعد إتمام فتح بلاد المغرب – متلهفًا على افتتاح الأندلس، لكنه لم يُرِدْ أن يُقحم المسلمين في مغامرة لا يعلم نتائجها إلا الله . ثم إنه لا يستطيع أن يُقْبل على هذا العمل العسكري الكبير من غير أن يستأذنَ الخليفةَ أو يستشيره فيما هو مقبل عليه . وهذا ما حدث بالفعل؛ فكتب إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، يستأذنه في اقتحام الأندلس، فطلب منه الخليفة أن يختبرها بإرسال حملات عسكرية استطلاعية، وذلك خوفًا على المسلمين أن يقتحموا بلادًا مجهولة لهم، ولا يعرفونها.

عمل موسى بن نصير بهذه النصيحة، وأرسل في رمضان (سنة ٩١هـ/ ٧١١هـ) سرية استكشافية مكونة من خمسمائة جندى فيهم مائة فارس بقيادة " طَرِيف بن مالك"، وهو مسلم بربري، ويقال إنه من أصل عربي ينتسب إلى قبيلة " معافر" أو " نخع" اليمنية. وقد عبر هذا الجيش المضيق الذي عُرفَ بعد ذلك باسم (مضيق جبل طارق) ونزل في جزيرة تعرف باسم "بالُوما"(عُرفت فيما بعد باسم "جزيرة طريف"). وعادت هذه الحملة بالغنائم الوفيرة، وبالأخبار المشجعة على الاستمرار في عملية الفتح .

المرحلة الأولى – عبور طارق بن زياد بقواته إلى إسبانيا :

اطمأن موسى بن نُصَيْر إلى النتائج التي حققتها الحملة الاستطلاعية بقيادة طريف بن مالك، وزادت رغبته في الفتح، واشتد عزمه على السير في هذه المغامرة، فأعد حملة عسكرية مكونة من سبعةِ آلاف جندى، وأكثرهم من المسلمين البربر، وأمَّرعليهم قائدًا من قواده المشهورين بحسن القيادة والكفاءة وقوة الإخلاص، هو "طارق بن زياد" وهو بربري من قبيلة " نَفزة " .

عبر طارق بجيشه على السفن من "سبْتة" إلى الطرف الآخر من المضيق المائي في شهر رجب (عام ٩٢هـ/٧١١م)، وتجمع الجيش الإسلامي بعد العبورعند جبل " كالبي " (عُرف فيما بعد باسم جبل طارق)، وأقام بتلك المنطقة عدة أيام، بنى خلالها سورًا أحاط بجيوشه سماه "سور العرب"، وأقام قاعدة حربية بجوار الجبل

على الساحل، لحماية الجيش من الخلف في حالة الانسحاب. ولم يمض وقت طويل حتى اشتبك الجيش الإسلامي مع قوات القوط التي أرسلها الملك " لذريق"، في عدة معارك بالقرب من "الجزيرة الخضراء"، انتصر فيها المسلمون، وسيطروا على المنطقة التي عرفت فيما بعد بـ" جبل طارق".

المرحلة الثانية – معركة وادى بَرْباط الفاصلة في إقليم شذونة :

وبينما كان " لُذريق" مشغولاً بإخماد بعض الثورات في شمال البلاد وصله الخبر بمجيء الجيوش الإسلامية وانتصارهم على قواته في عدد من المعارك، وأصيب بهلع ورُعب شديدين، وكَرَّ راجعًا إلى "طُلَيْطلة" وبدأ يُعبّأ جيشه للقاء المسلمين. ويذكر المؤرخون أنه جمع مائة ألف مقاتل، وقيل سبعين ألفًا. وقد وصلت أنباء تلك الحشود إلى طارق بن زياد، فكتب إلى موسى بن نصير يطلب منه أن يمدّه بالجنود والسلاح، فأمده بخمسة آلاف جندى، على رأسهم "طريف بن مالك" وأغلبهم من الفرسان، وبهم كملت عدة الجيش الإسلامي اثني عشر ألفًا .

وقد واصل طارق بن زياد السير بجيوشه ومشى في محاذاة الساحل، وأقام معسكره في منطقة سهلية واسعة في منطقة " شَذُونة" جنوب غرب إسبانيا، بالقرب من نهر " بَربْاط" ووادي " لَكُهْ " الذي يصب في المحيط الأطلنطي عند مدينة " قادس" الساحلية . وفي هذه المنطقة تم اللقاء بين الجيش الإسلامي والجيش القوطى، ودارت معركة هائلة استمرت ثمانية أيام (من الأحد ٢٨ رمضان – إلى الأحد الخامس من شوال/١٩–٢٦ يوليو ٧١١م)، وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة، بعد أن اقتتل الطرفان اقتتالاً شديدًا حتى ظنوا أنه الفناء، وتبع المسلمون فلول القوط بالقتل والأسر، ولم يرفعوا عنهم السيف ثلاثة أيام . وقُتل الملك " لذريق" غريقًا في " وادي لَكْه"، وهذا هو الصحيح. وقيل : إنه فر من الميدان والتقى بالمسلمين في معركة أخرى شمال إسبانيا في ولاية " شَلَمنقَة " وقتل فيه .

وتُعدُّ معركة " وادى لكه "(وتسمي أيضا معركة برباط أو شذونة) معركة فاصلة، توقَّفت عليها مصير إسبانيا في يد المسلمين، بحيث يمكن القول: " إن جميع المعارك التي حدثت بعد ذلك في بقية أنحاء شبه الجزيرة كانت بمثابة

مناوشات بسيطة – وإن كان بعضها مهمًا وقويًا – إذا قورنت بهذه المعركة الفاصلة، ولم يستغرق استيلاء المسلمين على إسبانيا بعد ذلك – رغم وعورة مسالكها وقسوة مناخها – أكثر من ثلاث سنوات. وهذا يدل على أن المقاومة كانت قد ضعفت تقريبًا" .

المرحلة الثالثة – الاتجاه نحو الشمال وفَتْح طُلَيْطلة عاصمة إسبانيا:

وبعد هذا النصر العظيم الذي حققه طارقُ بن زياد وجنده كان لا بد أن يجنى ثماره قبل أن تتجمع فلولُ القوطِ مرةً أخرى، فزحف إلى الشمال نحو مدينة "طُلَيْطلة " قبل أن يتدارك القوطُ الأمر ويُحكموا الدفاع عنها. وفي طريقه إليها فتح عدة مدن، مثل " مَوْرور" و" إسْتِجَّة" و" قرطبة" و" إلبيرة" و"غرناطة"، ثم توجه إلى " طُلَيْطلة" ودخلها سنة (٩٣هـ) دون مقاومة، فوجدها خاليةً " ليس فيها إلا اليهود في قوم قلة "، وقد فر منها حاكمها مع أصحابه من كبار القوط والقساوسة في اتجاه شمال شرقي، حاملين معهم ذخائر الكنيسة، فترك طارق فرقةً من جنوده في "طُلَيْطلة" ومضى يطارد الفارين في الطريق الذي يسميه العرب "وادى الحجارة". وعند بلدة صغيرة تسمى "الكالا دى هنارس" (ويسميها العرب " قلعة عبد السلام"، وتبعد عن مدينة "مدريد" الحالية ٣٤ كم شمالاً) أدرك المسلمون فيها الهاربين من طُلَيْطلة، وغنموا ما كانوا معهم من ذخائر بالغة القيمة . ولم يتجاوز طارق بن زياد المنطقة التي وصل إليها، فلربما خشى أن يقطع عليه العدو الطريق في هذه البلاد الجبلية الوعرة، لاسيما وأن فصل الشتاء كان قد اقترب، وتعب المسلمون من الجهد الذي بذلوه، فعاد إلى " طُلَيْطلة " في أوائل (سنة ٩٣هـ/ ٧١١م) .

المرحلة الرابعة – عبور موسى بن نصير واستكمال الفتح :

كتب طارق بن زياد إلى موسى بن نُصير يحيطه بأنباء الفتح وما أحرزه من نجاح ويطلب منه المدد. وعلى الفور قرر موسى التوجه إلى الأندلس، وأصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح حتى يلحق به. وكان طبيعيًا أن يهرع موسى للحاق بقائده، فأخذ معه قوة قدرها ثمانية عشر ألف (١٨٠٠٠) مقاتل، معظمهم من العرب هذه المرة، وعبر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس، فأقام بها أيامًا للراحة والتأهب لخوض المعركة القادمة، ثم أجمع على المسير نحو "طُلَيْطلة" في

طريق غير الطريق الذي سار فيه طارق، ليفتح هو الآخر فتوحًا جديدة، فمرَّ بمدينة "إشبيلية" وفتحها بعد حصار شديد، وكانت من أعظم مدائن الاندلس، وأعجبها بنيانًا وآثارًا . ثم مضى موسى بعد ذلك إلى مدينة "ماردة " التي تقع على " نهر آنُهْ "– وكانت من المدن الحصينة ، ذات الأسوار المنيعة والأبراج العالية – فحاصرها طويلاً، إلى أن استسلمت له، ودخلها صلحًا (في مطلع شوال ٩٤هـ). وبعد شهر من الإقامة فيها تحرك موسى بن نصير نحو العاصمة " طُلَيْطلة"، فلما وصل إلى "طَلَبِيرة" – على نهر التاجُهْ – خرج طارق بن زياد للقائه هناك، وسلَّمه قيادة الفتح، وعادا معًا بالجيش إلى " طُلَيْطلة"، فأقاما بها طوال فصل الشتاء، ثم نهضا لاستكمال فتح شمال الأندلس .

اتجه طارق بن زياد بقواته إلى الشمال الشرقي، واحتل مدينة "سَرَقُسْطة" الواقعة على نهر " إبْرُو"، وصعد إلى قرب جبال " ألبُرتات " (التي تفصل إسبانيا عن جنوب فرنسا)، ثم عاد واتجه غربًا محاذيًا نهر " إبْرو". وعند مدينة "أَشْتُرقة" التقى بموسى بن نصير وجيشه، وسار الاثنان لفتح شمال غرب الأندلس. فأما موسى فقد عبر جبال " كَنْتَبرية"، ووصل إلى ساحل خليج " بَسْكاى" عند بلدة "خيخْون" في أقصي الشمال. وأما طارق فقد بلغ مداخل إقليم "جِلِّيقيَّة " في أقصى الشمال الغربي .

وهنا أحس موسى أنه أتم فتح الأندلس، فعاد إلى "طُلَيْطلة" ليواصل عمله كأول وال من ولاة الأندلس، ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك كان قد استدعاه مع طارق بن زياد إلى دمشق، فترك ابنه "عبد العزيز بن موسى" واليًا على الأندلس في (المحرم ٩٥هـ/ سبتمبر ٧١٣م) ليقوم بما تقتضيه أحوال البلاد من التنظيم والإصلاح. وبه يبدأ "عصر الولاة "، أولُ عصر في تاريخ الأندلس.

(٢) فتوح المسلمين في بلاد غالة (جنوب فرنسا):

لم يكن فتح الأندلس آخر أعمال المسلمين العسكرية في الجناح الغربي لدولة الإسلام خلال العصر الأموي، فقد بلغ من نشاط الجيش الإسلامي وحماسه للفتح أن تخطَّى بقواته جبال البُرْتَات (البرانس) لفتح بلاد غالة، ويُراد

بها فرنسا. وكانت هذه البلاد تنقسم إلى عدة ولايات، وهي : ولاية (سَبْتَمانية)، وعاصمتها مدينة "أُرْبُونة". وولاية (أكِيتَانْية)، وعاصمتها مدينة "بَرِدِيل". وإقليم (بُرُوفانْس) وعاصمته مدينة "أَبِنْيُون"، وتقع على (نهر الرُّون). وإقليم (بَرغِنْدِية) غربي (نهر لارون)، وعاصمته مدينة "لوذون". وأخيرا المنطقة الواقعة شمال (نهر اللُّوار) حتى دولة ألمانيا الحاضرة، وكانت خاضعة للدولة "الميرُوفِنْجِية". **وقد توجَّهت ثلاثُ حَملات عسكرية من الأندلس، وعبرت جبال البُرتات لغزو وفتح بلاد غالة**، وهي :

الحملة الأولى – حملة السمح بن مالك الخولاني (سنة ١٠٢هـ) :

أول من غزا (بلاد غالة) من ولاة الأندلس هو السمح بن مالك الخولاني (١٠٠-١٠٢هـ) . فقد عبر بقواته جبال البرتات (البرانس)، وبدأ بالاستيلاء على مدينة " أُرْبُونة "، ثم مضى في تقدمه حتى فتح "طُولُوشة" (تولوز)، واستولى على ولاية " سَبْتَمانية " كلها، وأقام بها حكومة مسلمة في هذا الوقت المبكر. وقد اتخذ من " أُرْبُونة" قاعدة للجهاد وراء جبال البُرتات، وتوغل في إقليم " أكِيتَانْية"، غير أنه استشهد في موقعة بالقرب من " طُولُوشة " انهزم فيها المسلمون، وقتل منهم عدد كبير، وذلك في يوم عرفة (سنة ١٠٢هـ) .

الحملة الثانية – حملة عَنْبسة بن سُحَيم الكلبي (سنة ١٠٧هـ) :

تولى عَنْبَسة بن سُحَيْم الكلبي حكم الأندلس (سنة ١٠٣هـ)، وكان كالسمح ابن مالك صالحًا قويًا، فقضى أربع سنوات من ولايته في تنظيم أمور الدولة وإصلاح الجيش وإعداده لمواصلة غزو بلاد الفرنجة. وقد عبر "عَنْبَسة" بجيوشه جبال البرتات، وتابع حركة الفتوح لإقليم "سَبْتَمانِية" بمُدنه السبع، وافتتح إقليم " بُرُوفانس"، واتجه شرقًا حتى بلغ نهر " الرُّون" ثم صعد مع النهر شمالاً حتى بلغ مدينة " ليون"، وتوغل بعدها حتى كان على بُعْد سبعين كليو مترًا جنوبي مدينة " باريس " الحالية، وهي أبعد نقطة وصل إليها المسلمون شمالاً، وتبعد نحو ثمانمائة كليو متر شمال جبال البرتات. وفي طريق عودته تصدت له جموع كبيرة من الفرنجة، فاستشهد في إحدى المعارك (سنة ١٠٧هـ).

وقد أثارت حملة عَنْبَسة مخاوف أوربا كلها، حيث أوغل بجيشه في داخل بلادها دون أن يستطيع أحد مقاومته، الأمر الذي جعل القائم بمملكة الفرنجة إذ ذاك – وهو " شارل مارتل" أو" كارل"، وتسميه مصادرنا العربية " قارْلُه " – يستعد للقاء المسلمين إذا عادوا مرة أخرى. ، فأخذ يجمع القوات والسلاح والأزواد، وصالح أمراء إقليم " برغندية"، واتفق مع رجال "سَبْتَمانية "، ومع حاكم " أكِيتَانْية" ليقوموا معًا بعمل حاسم ضد المسلمين.

الحملة الثالثة– حملة عبد الرحمن الغافقي ومعركة بلاط الشهداء (١١٤هـ):

تولي عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي حكم الأندلس (في صفر ١١٢هـ)، وكان من أعظم قادة المسلمين عدلاً وصلاحًا وقدرة وكفاءة. وقد قضى ما يقرب من عام نظَّم خلالها شؤون البلاد، ثم أعلن الجهادَ ضد الفرنجة، وكوَّن جيشًا هائلاً يتراوح عدده ما بين سبعين ألفًا ومائة ألف، وأكثرهم من البربر. وفي أوائل (سنة ١١٤هـ/٧٣٢م) سار الغافقي بجيوشه نحو الشمال، وعبر جبال" أَلْبرتات" من طريق " بَنْبلُونة " متجهًا إلى دُوقية " أكِيتَانْية " أعظم ولايات غالة في ذلك الوقت، ففتحها وسيطر عليها، ودخل عاصمتها " بَرْدِيل" عنوةً، ثم واصل زحفه حتى أشرف بجيشه على " نهر اللُّوار" واستولى على مدينتي" بُواتييه " و" تُور" وما كاد يخرج الجيش الإسلامي من " بواتييه " في طريقه نحو " باريس" حتى فوجئ الغافقي بوصول جيش هائل من الفرنج والمرتزقة يقوده " شارل مارتل".

وعلى بُعْد عشرين كليو متر شمال " بُواتييه" في الطريق إلى " تُور" جنوبي مجرى نهر اللُّوار – وفي موضع قريب من طريق رومانى قديم هو المسمى "بالبلاط" – حدثت المعركة الكبرى بين الجيشين في (أواخر شعبان ١١٤هـ/ أكتوبر ٧٣٢م). وهي التي عُرفت في المصادر العربية بـ" معركة بلاط الشهداء"، وعرفت في المصادر الأوربية بـ" تور" و" بُواتييه ". وقد استمرت المعركة ثمانية أيام، مما يدل على أنها كانت معركة حامية. والحق أن كلاً من الجانبين بذل أقصى وسعه في القتال، وصبر المسلمون صبرًا طويلاً، حتى تجمعت عليهم قوات نصرانية من كل ناحية، ولم يقتصر الأمر على الفرنجة، بل انضم إليهم كثيرون من أجناس أخرى (ألمان، وسُواف، وسكسون). وآخر مراحل المعركة

كان هجومًا عنيفًا على مؤخرة الجيش الإسلامي، فتزعزع نظام الجيش. وبينما يحاول عبد الرحمن الغافقي إعادة النظام إلى جيشه أصابه سهم فقتله، فعم الاضطراب بين المسلمين وكثر القتل فيهم، واشتد الفرنج عليهم، لكنهم صبروا حتى جَنَّ الليلُ وتحاجز الفريقان، ثم انسحب المسلمون نحو مراكزهم في "سِبْتَمانية" تاركين غنائمهم، وأصبح الفرنجة فلم يجدوا لهم أثرًا سوى الجرحى ومن لم يتمكنوا من مرافقة الجيش المنسحب، فأجهزوا عليهم، وانتهبوا ذخائر عظيمة، ولم يفكروا في تتبع المسلمين .

وأهم الأسباب التي تفسر خسارة المسلمين وهزيمتهم في معركة "بلاط الشهداء": ماقيل عن وجود خلاف في الجيش الإسلامي بين العرب والبربر. بالإضافة إلي ابتعاد الجيش عن بلاد الإسلام (الأندلس) بحيث أصبح على بعد (٤٠٠ كم) شمال جبال " البرتات " التي تبعد عن قرطبة مسافة (٩٠٠كم)، مما جعل موالاته بالمُؤنِ والإمداد أمرًا عسيرًا، بينما كانت خطوط إمداد الفرنجة سهلة ومتصلة . كما أن المناخ لم يكن مناسبًا لخوض الجنود والخيول العربية تلك المعركة القاسية. وأن المسلمين ساروا مثقلين بغنائم المعارك السابقة، ما دفع العدو إلى ضرب مؤخرة الجيش الإسلامي، فارتبكت صفوفه . يضاف إلي ذلك كله سبب قوي؛ وهو اتحاد إمارات بلاد"غالة" جميعها لمواجهة جيوش الإسلام، وصدِّها عن الجنوب.

ملخص الوحدة الرابعة

شهد العصر الأموي فتوحات واسعة. ويُعتبر النشاط الحربي في هذا العصر من الصفحات المشرقة في تاريخ الإسلام. وتُعد الأعمال الحربية التي خاضها القادة العظام – أمثال عقبة بن نافع، وحسان بن النعمان، وموسي بن نُصير، وطارق بن زياد، وقُتيبة بن مسلم، ومحمد بن مسلمة، ومسلمة بن عبد الملك، وغيرهم – علامة بارزة في الفن العسكري العالمي. ولقد حقق هؤلاء القادة المجاهدون ما يشبه الخوارق، إذْ تمكنوا في زمن وجيز من الانتشار في أرجاء العالم المعرف آنذاك. وقد توزعت فتوحات الأمويين علي ثلاث جبهات كبري في وقت واحد؛ أولها: الأراضي البيزنطية في آسيا الصغري (الأناضول) ومحاولات فتح القشسطنطينية مرات ثلاث (في السنوات ٤٩، ٥٤ - ٦٠ ، ٩٧هـ)، ولم تنجح في اقتحام أسوار هذه المدينة العتيقة. والجبهة الثانية: في اتجاه الشمال الإفريقي، وهو ميدان بيزنطي أيضاً، وقد استغرق المسلمون حوالي سبعين سنة (٢٢ – ٩٠هـ) حتي أتموا فتح هذه البلاد لأسباب كثيرة سبق عرضها، وتوجهت إلي هذا الإقليم تسع حملات عسكرية، اثنتان منها في العهد الراشدي، وبقيتها في العصر الأموي. وانطلاقاً من هذا الميدان امتدت جهود الفاتحين إلي شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا) وبلاد غالة (جنوب فرنسا) حتي وصلوا الي قريب من باريس، ثم توقف المد الإسلامي عن أوروبا منذ هزيمة المسلمين في معركة بلاد الشهداء (١١٤هـ) قريبل من بلدة " بُواتييه ". أما الميدان الثالث: فكان في اتجاه الشرق، حيث فتح المسلمون بلاد ما وراء النهر (وسط آسيا) حتي وصلوا الي إقليم (سينكيانج) المتاخم لحدود الصين، بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي ، فتحوا بلاد السند بقيادة محمد مسلمة الثقفي .

أسئلة على الوحدة الرابعة

س١: حاول المسلمون في عصر بني أمية فتْحَ مدينة القسطنطينية ثلاث مرات، انتهت جميعها بالفشل – اعرِضْها باختصار، مبيناً أسباب فشلها، مع العناية بذكر التواريخ .

س٢: من هو الفاتح الحقيقي لبلاد ما وراء النهر؟ تحدث عن المراحل التي مر بها الفتح الإسلامي لهذه البلاد، مع العناية بذكر التواريخ .

س٣: وضح الجهود التي قام بها محمد بن القاسم الثقفي لإتمام فتح بلاد السند؟ مع الاهتمام بذكر التواريخ .

س٤: فسِّر لماذا طالت مدة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ؟ ثم تحدّث بإيجاز عن جهود كل من عبد الله بن سَعْد بن أبي السَّرح، ومعاوية بن حُديج في فتح بلاد المغرب، مبيناً رأيك في مدى نجاح هذه الجهود في تحقيق أغراض الفتح، مع العناية بذكر التواريخ .

س٥: من الأعمال المجيدة التي تنسب إلي عقبة بن نافع تأسيس مدينة القيروان – وضح ذلك مبيناً أهمية هذه المدينة للفتح الإسلامي لبلاد المغرب. ثم وضح الجهود التي قام بها عقبة (في حملته الثانية) لفتح بلاد المغرب، مبيناً النتائج التي أسفرت عنها، مع العناية بذكر التواريخ.

س٦: كان للجهود الحربية والإصلاحات الإدارية التي قام بها حسان بن النعمان في "إفريقية" الأثر الكبير في تثبيت الفتح الإسلامي لبلاد المغرب – وضح ذلك بإيجاز، مع العناية بذكر التواريخ.

س٧ : كان للأعمال الحربية والإدارية التي قام بها موسي بن نصير الأثر الكبير في إتمام الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وضح ذلك مع ذكر التواريخ.

س٨: اشرح بإيجاز الدور الذي قام به كل من طارق بن زياد وموسي بن نصير لفتح الأندلس، مع العناية بذكر التواريخ .

نموذج إجابة

إجابة السؤال الأول :

شملت حركة الجهاد والفتوحات الإسلامية في العصر الأموي ثلاث جبهات رئيسية، أحدها الدولة البيزنطية وعاصمتها مدينة القسطنطينية. وكانت هذه المدينة الرأسَ المدبَر والمحرِّكَ الذي أدار شئونَ الدفاع البحري عن الدولة البيزنطية وجُزُرِها في حوض البحر المتوسط الشرقي، ولاسيما السواحلَ الواقعةَ حول بحر "إيجة" الغنى بجُزُرِهِ الممتدةِ إلى مياه "القسطنطينية" المحلية. وقد أدرك المسلمون أنه لا استقرار لفتوحاتهم إلا بإدخال هذه العاصمة في قائمة الفتوحات. وبعد تمهيد طويل بواسطة حملات برية على آسيا الصغرى – ومحاولات أخرى بحرية خرجت من القواعد الإسلامية البحرية على سواحل الشام ومصر – أحسَّ المسلمون أنهم وصلوا إلى درجة جيدة من الخبرة بالطريق إلى "القسطنطينية" برًا وبحرًا، وأنهم يستطيعون غَزْوَها والاستيلاءَ عليها، والقضاءَ على دولة الروم. وقد قام المسلمون في العصر الأموي بمحاولات ثلاث لفتح القسطنطينية:

المحاولة الأولى : أرسلها معاوية بن أبى سفيان برًا، بقيادة سفيان بن عوف (سنة ٤٩هـ) فاخترقت آسيا الصغرى وافتتحت حصونًا كثيرة فى الأناضول حتى وصلت إلى سواحل "بحر مَرْمرة"، ثم بعث معاويةُ ابنَه "يزيد" مددًا لسفيان ابن عوف وجعله أميرًا شرفيًا على الحملة، ومعه نفرٌ من أبناء الصحابة. وقد اشتبك المسلمون مع الروم في القتال، واستُشْهِد الصحابىُّ أبو أيوب الأنصاري، وحال الشتاء القارس، وصعوبةُ الإمداداتِ البشريةِ والتموينية – ثم نقصُ الأطعمة والأغذية، ومناعةُ أسوار القسطنطينية – حال ذلك كلّه دون فتح المدينة. وكان الدرس الهام الذي خرج به معاويةُ من هذه الحملة هو ضرورة تدعيم القوة البرية التي تغزو "القسطنطينية" بقوات بحرية ضخمة، حيث تحيط المياه بالمدينة من ثلاث جهات، وعكف على تجهيز هذا الأسطول مدة أربع سنواتٍ.

المحاولة الثانية: حِصار السبع سنوات (٥٤-٦٠هـ): خرج الأسطولُ الإسلامى من جزيرة " أرواد" بقيادة "جُنادة بن أبى أمية الأزدى"، وأحكم

المسلمون حِصارَ "القسطنطينية" برًا وبحرًا، ثم ارتدوا عنها مع قدوم الشتاء إلى جزيرة " أرواد"، ثم عادوا إلى الحصار فى الصيف التالى، ليرتدوا فى الشتاء مرة أخرى، واستمر الأمر على هذا الحال، يحاصرون صيفًا، ويرتدون شتاءً، حتى (عام ٦٠هـ) عندما قرر معاوية بصفة نهائية الانسحاب، وعقد معاهدةً صلح مع إمبراطور الروم : قسطنطين الرابع، مدتها ثلاثون عامًا. وقد فَقَد المسلمون فى هذا الحِصارِ العديدَ من القادة، وثلاثين ألف مقاتل، ومعظمَ سفن الأسطول، وكان من أسباب الفشل: الإنهاك الذى تعرض له الجيش الأموى طوال سنوات الحصا. كما أنهم فوجئوا بسلاح لم يكن لهم به عهد ولا طاقة لهم بدفع خطره، عرف باسم " النارُ الإغريقية " استخدمه البيزنطيون كوسيلةٍ دفاعيةٍ تسببت فى حرق عدد كبير من قِطع الأسطول الإسلامي، وفى بَثّ الذعْرِ فى نفوس المحاصِرين للمدينة. وكانت هذه النار تتركب من النفط والكبريت والغاز، وتزداد اشتعالاً عند ملامستها للماء، ولا يُخْمَدُ نارُها إلا باستخدام الرمل والخل. فكان لها أثرٌ حاسمٌ في صد المسلمين عن "القسطنطينية"، فاضطروا إلى رفع الحِصارِ.

المحاولة الثالثة: بقيادة مَسْلَمة بن عبد الملك (٩٧-٩٨هـ): جهز الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ) حملةً بَحْريةً بريةً بقيادة أخيه مَسْلمة ابن عبد الملك، لغزو العاصمة البيزنطية، ولكن وفاةَ الخليفة الوليد أدت إلى تأجيل إنفاذ الحملة إلى مقصدها، فلما تولى سليمانُ بن عبد الملك الخلافَة أخذ يجهز الجيوشَ للسير إلى "القسطنطينية"، وخرجت الحملةُ بالفعل بقيادة مَسْلَمة ابن عبد الملك فى أسطول كبير يُقدَّر عدده بألف وثمانمائة سفينة، ومعه مائةٌ وعشرون ألفِ مقاتل، وتَوجَّه نحو المدينة العتيقة (سنة ٩٨هـ) ليبدأ الحصارُ الثالث. ولقد انتهى هذا الحصار الذي استمر عامين بالفشل في اقتحام "القسطنطينية"، لأسباب عديدة، بعضها كان عاملاً هامًا في فشل حصار السبع سنوات السابق. أما أهم الأسباب المستُجَدَّة فهو محالفة المسلمين لأحد قادة الروم البيزنطيين، وهو القائد العسكري " ليو الأيسوري"، وكان طامعًا في عرش بيزنطة، ففاوض مَسْلمةَ بنَ عبد الملك قائدَ الحملة على أن يعاونه فيما يريد، ويتركه يدخل القسطنطينية، فإذا نجح " ليو" في عزل الإمبراطور البيزنطي" ثيودوسيوس

الثالث"، ونصَّب نفسه إمبراطورًا، مَهَّد للمسلمين دخول المدينة. وقد عاونه مَسلمة وأجابه إلى طلبه، فلما تمكَّن "ليو" من الحكم نقض عهدَه مع المسلمين، وانقلب عليهم، وانضم إلى إخوانه البيزنطيين، واجتهد في تحصين البلد، ونجح فى صد الحملة الإسلامية عن أسوارها المنيعة .

وبالرغم من أن المسلمين قد لاقوا في هذا الحصار صعوباتٍ كثيرةً، وقدموا تضحيات هائلة، وقُتل منهم عدد كبير، وحَطِّمْت الريحُ العاتيةُ عددًا من السفن، وسبَّبت خللاً في الأسطول، وانتهز البيزنطيون هذه الفرصةَ وسلَّطوا نيرانَهم اليونانيةَ على السفن الإسلامية وأحرقوا عددًا كبيرًا منها – بالرغم من ذلك كله فإن المسلمين استمروا في إحكام الحصار إلى أن توفى سليمان بن عبد الملك (فى صفر سنة ٩٩هـ)، وحل الشتاء ببرده وثلجه، فهلك عددٌ كبير من العسكر من شدة البرد، ونفقت معظمُ الخيول والدواب، وعُدِمت الأقوات، وحل الضيقُ بمعسكر المسلمين حتى أكل الجندُ الدوابَّ والجلودَ وأصولَ الشجر والورق، وظل الأمرُ كذلك إلى أن كَتب الخليفةُ الجديد عمرُ بنُ عبد العزيز ﷺ إلى مَسْلمة – وهو بأرض الروم – يأمره بالعودة بمن معه من المسلمين.

الوحدة الخامسة
من مظاهر الحضارة الإسلامية في عصر الخلافة الأموية

الأهداف :

في نهاية هذه الوحدة ، ينبغي أن يكون الدارس ملماً بما يلي :

١- معرفة كيف نشأت الدواوين، وكيف تم تطويرها في العصر الأموي وتعريبها، والتعرف علي مسمياتها ومهامها واختصاصاتها.

٢- التعرف علي إصدار العملة الإسلامية الجديدة (الدينار الإسلامي) والأسباب الاقتصادية والسياسية الداعية غلي ذلك.

٣- التعرف علي بعض جوانب النشاط الاقتصادي للدولة الأموية في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة، وبعض الإصلاحات التي قام بها الخلفاء الأمويون وأمراؤهم في هذه المجالات كلها.

٤- التعرف علي جوانب العمارة الإسلامية في عصر الأمويين، كتأسيس المدن وتعميرها، والعناية بالطرق وتعبيدها، وتشييد المساجد الكبرى، والاهتمام بالحرمين الشريفين وتوسيعهما.

٥- في ختام الوحدة: يتعرف الدارس علي الأسباب الحقيقية التي تفسر سقوط الدولة الأموية بعد مدة قصيرة من نشأتها، لا تزيد على اثنين وسبعين عاماً.

العناصر :

يمكن عرض بعض مظاهر الحضارة في عصر الدولة الأموية من خلال العناصر الآتية:

١- إنشاء الدواوين وتطويرها – تعريب الدواوين.

٢- سك العملة الإسلامية وتعريبها (إصدار الدينار الإسلامي).

٣- بعض جوانب النشاط التجاري (الزراعة - الصناعة - التجارة).

٤- تأسيس المدن الجديدة - العناية بالطرق وتعمير البلدان.

٥- بناء المساجد الكبرى والعناية بالحرمين الشريفين.

المراد بالحضارة هنا - كما في رأى بعض الباحثين - " كلُّ نشاط إنسانيّ في الحياة"، سواء أكان هذا النشاط فكريًا، يتمثل في العلوم والآداب، وما ينتج عنها من نظمٍ سياسية واقتصادية وإدارية، ومالية، وعادات وأخلاق اجتماعية . أم كان ماديًا ملموسًا، يتمثل في البناء والعُمران، كبناء المدن والقرى وتخطيطها، والتأنُّق في بناء المساكن والمساجد ودُور التعليم، والقلاع، والحصون، والأسوار . كما تتمثل في العناية بالأوضاع الاقتصادية للبلاد، كبناء السدود والخزانات، لتخزين المياه واستخدامها في الزراعة، والصناعة، أو في تعبيد الطرق وإقامة المصانع . وقد عرفت الحضارة الإسلامية في العصر الأموي كل هذه الأنشطة، وسوف نتناول جانبا يسيرا منها في النقاط الآتية :

(١) إنشاء الدواوين وتطويرها : كان من الطبيعي عندما قامت الدولة الأموية أن يتوسع الأمويون في إنشاء الأجهزة الإدارية والدواوين لملائمةِ تطورِ الحياةِ واتساعِ مساحةِ الدولةِ الإسلاميةِ المتزايدة. وهذه الدواوين تقوم بالأعمال والاختصاصات التي تقوم بها الوزاراتُ المختلفةُ في الدول المعاصرة. وقد عُرِف عن كبار خلفاء بني أمية - مثل معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وعبد الملك بن مروان رحمه الله - حِرصهم على حُسْن إدارة الدولة الإسلامية، والسَّهَرِ على مصالح الرعية، فلم يدَّخِروا وسْعًا في اقتباس الأساليب الإداريةِ النافعةِ لتطبيقها، وإنشاء الدواوين والأجهزةِ بإدارةِ الدولة.

والديوانُ كلمةُ فارسيةُ معناها "السِّجِل" أو "الدَّفْتر" الذي يُدوَّن فيه الأسماءُ وتقاريرُ الأموال . وأُطلِقتْ الكلمةُ مجازًا على المكان الذي يجتمع فيه الكُتَّاب والموظَّفون المختصون بالعمل في هذه السجلات. ويُعرِّف الماوردي الديوانَ بقوله: "موضع لحفظ ما يتعلق بحقوقِ السلطنة من الأعمال والأموال ومَن يقوم بها من الجيوش والعمال" .

وأولُ من أنشأ الدواوين في الدولة الإسلامية هو الفاروقُ عمرُ بن الخطاب ﷺ بسبب كثرة الأموال التي أخذت تتدفق على الدولة الإسلامية، من غنائمِ الفتوحات، ومن موارد أخرى، كالصدقات وغيرها. ومن الدواوين التي أنشأها عمر ﷺ : " ديوانُ القضاء" لتنظيم توزيع الأموال على الناس، بحسب السابقة في الإسلام ، والمفاضلةِ بينهم. ومن هذه الدواوين أيضًا : "ديوانُ الجند"، ويطلق عليه أيضًا "ديوان الجيش" لتسجيل أسماء المقاتلين بحسب القبائل، وتنظيم عطاءاتِهم ورواتِبِهم العسكرية. وأنشأ عمر ﷺ كذلك "ديوان الخَراج"، وهو يشبه وزارةَ الماليةِ في عصرنا الحاضر، ومهمته هي : جَمْعُ الموارد المالية للدولة، مثل غنائم الفتوحات، وخراج الأراضي المزروعة، وأموالِ الزكاة وعُشُورِ التجارة. وقد تطور "ديوانُ الخراجَ" واتسع نطاق عمله باتساع الدولة في العصر الأموي .

ولما قامت الدولةُ الأمويةُ واتسعت دَعَتْ الضرورة إلى إنشاء دواوينَ أخرى رئيسيةٍ، مثلَ "ديوان البريد" و "ديوان الخاتم" و "ديوان الرسائل" و"ديوان العمال"، ودواوينَ أخري كديوان "الطّراز"، وديوان "الصدقات" .

أما "**ديوانُ البريد**" فكان معاويةُ بنُ أبي سفيانَ ﷺ أولَ مَنِ اتخذه في الدولةِ الإسلامية، وإن كان أصلُه في الواقع موجودًا منذ عهد الرسول ﷺ، حيث كان يبعث بكثير من الرسائل إلى الملوك والأمراء المعاصرين له، ولكن معاويةَ أنشأ لهذا النوع من العمل ديوانًا خاصًا، وجعل له موظفينَ معينين .

وهذا الديوان يقوم بمهمتين، الأولى : نَقْلُ الرسائلِ من دار الخلافة وإليها، وكان بعضها داخلية، وهي المتبادلة بين الخليفة وولاةِ الأقاليمِ وكبارِ الموظفين. وبعضُها الآخر رسائلُ خارجية، وهي التي يتبادلها الخليفةُ مع ملوك الدول الأجنبية . والمهمة الثانية : مراقبةُ أعمالِ الولاةِ وكبارِ الموظفين، ومتابعةُ سلوكِهم وأسلوبِهم في إدارة الدولة، ليكونَ الخليفةَ على علم تام بما جرى في الولايات . وكانت تلكَ المهمةُ جليلةَ الشأنِ تُطلع الخليفةَ على أي خلل أو قُصُورٍ في الإدارة فيسارعَ إلى تداركه وعلاجه. وهذا يوضح حِرْصَ الأمويين على انضباط الأمور في أرجاء الدولة الإسلامية، كما يؤكد حِرْصَهم على أن تكونَ علاقَتُهم بعمال الأقاليم علاقةً وثيقة.

وقد استحدث معاويةُ كذلك "**ديوانَ الخاتمَ**" لمنع التزوير والتلاعب في مراسلات الدولة، وولَّى عليه عبدَ الله بنَ مِحْضَنٍ الحِمْيَري، وتذكر المصادر السببَ في نشأة الديوان، وهو أن معاويةَ أمر لعمرو بن الزبير في القضاء دَيْته بمائةِ ألف دينار، وكتب بذلك إلى زياد بن أبي سفيان (الوالى على العراق) ففضَّ عَمْرو الكتابَ، وصيَّر المائةَ مائتين، فلما رفع زيادُ حسابَه أنكرها معاويةُ،وطلبها من عمرو وحبسه، فأداها عنه أخوه عبد الله بن الزبير،وعند ذلك أحدث معاوية "ديوان الخاتم" وحَزْمَ الكتبِ، ولم تكن تُحْزَم.

ويختص هذا الديوانُ بحفظ نسخةٍ من المراسلات التي كانت تدور بين الخليفةِ وولاتهِ وكبارِ رجالِ الولاة في الداخل، أو بينه وبين غيره من الحكام الأجانب بعد خَتْمها بخاتَمٍ خاص، وهو بذلك أشبهُ ما يكون بإدارة الأرشيف في النظم الإدارية الحديثة. وكانت النسخةُ المرسلة تُطْوَى وتُغْلَقُ بالشمع وتُحْزَمُ بالخيط، حتى لا يمكنَ فَتْحُها والاطلاعُ على محتوياتها إلا عند الضرورة. وكان خَتْمُ الرسائلِ بخاتَمٍ خاصٍ معروفًا في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ الراشدين، لكنَّ معاويةَ ﷺ طوَّر تلك البدياتِ طبقًا لمقتضيات العصر، واتساع رقعةِ الدولة، وكثرةِ المراسلات المتبادلة.

ديوانُ الرسائل: كان مختصًا بصياغة الكتب والرسائل والعهود التي كانت تَصْدُرُ عن الخلافة إلى الولاةِ والعمالِ في داخل الدولة، وتُتَلَقَّى المكاتباتُ التي تصل منهم، ويقومُ موَظَّفوه بعرضها على الخليفة.

وكان كُتَّابُ هذا الديوانِ يُختارون بعناية من بين المشهورين بالبلاغة والفصاحةِ والعلم بالشريعة وأحكامها، واللغةِ العربية وآدابها، ومن أصحاب المروءةِ والأخلاقِ الفاضلة. كما يُراعَي فيهم أن يكونوا من أرفع الناس حَسَبًا ونَسَبًا. ومن أشهر الكُتَّاب في العصر الأموي عبدُ الحميد بن يَحْيى الكاتب، وأصلهُ من الموالي، والموالى ليسوا من العرب، وإنما هم من الأعاجم الذين أسلموا، وأسلم آباؤهم. وكان بنو أمية كثيرًا ما يعتمدون على الموالي في كتاباتهم ودواوينهم، فلم تمنعهم أصولُهم من أن يتولوا أهمَّ مناصب الدولة . وكان عبد

الحميد كاتبًا لمروان بن محمد آخرِ الخلفاء الأمويين (١٢٧-١٣٢هـ)، وهو الذي صاغ الشروطَ والمواصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى هذه المهمةَ الجليلةَ بين يدي الخلفاءِ والأمراءِ في رسالة وجهها إلى الكُتَّاب، يعتبرها المؤرخون أحسن ما كُتب في هذا الباب.

واخْتُصَّ **ديوانُ الرسائل** – بالإضافة إلى ما سبق – بقيامه بالعلاقات الخارجية مع الدول الأجنبية، وإشرافه على الوفود التي كانت تأتي من الخارج، لعقد معاهدةٍ أو تبادل منافع، كما كان يشرف على الوفود التي كانت تُرسِلُها الدولةُ الأمويةُ إلى الخارج، وإعدادِها الإعدادَ الكافي. وهذا يعني أن هذا الديوانَ كان أشْبَهَ بديوان رئاسة الدولة والديوان الملكي، وإدارةِ المراسمِ والعلاقاتِ العامةِ في الدول المعاصرة.

ديوان العمال: ويختص بتسجيل أسماء الموظفين المدنيين في الدولة، وترتيب أعمالهم ووظائِفهم، وتحديدِ رواتبهم. وهو بذلك أشبه بديوان الموظفين في النظم المعاصرة. وقد جاءت الإشارةُ في الخطبة التي خطبها عُبيد الله بن زياد في أهل البصرة (وكان واليًا عليها ٥٥-٦٤هـ) إلى أن سجلات ديوان العمال في البصرة كانت تضم مائة وأربعين ألفًا من مختلف الموظفين والعمال المدنيين .

(٢) تعريب الدواوين: لقد شهدت النظم الإدارية تطورًا كبيرًا في عهدِ الخليفةِ الأُموي عبدِ الملك بنَ مروان (٦٥-٨٥هـ)، فقد قام بإصلاحاتٍ مهمةٍ، كان لها أفضل النتائج، من حيث صيانة أحد المقومات الكبرى للأمة، وحفْظُ كِيانها، وهو خاصٌّ باللغة، واللغةُ – بلا جدال – من أكبر مُقَوِّماتِ وأهمِّ أركان الأمة العربية والإسلامية .

فقد بقيت أهمُّ الدواوين في الدولة الإسلامية (وهي دواوينُ الخَراج التي تشرف على الشئون المالية، وكانت موجودة في عواصم الدولة العربية الإسلامية ولها فروعها في مدن كثيرة) بقيت تستعمل اللغاتِ الأجنبيةَ كما كان حالُها في عهود الدول السابقة قبل ظهور الإسلام، فكانت لغةُ الدواوين في العراق هي اللغةَ الفارسية، ولغتُها في الشام الرومية، أي اليونانية، وفي مصر اليونانية والقبطية.

وقد استمر الحالُ على ذلك منذ بَدْء الإسلام حتى عهد عبد الملك بن مروان، فكان من نتائج ذلك احتفاظُ الدولة بطوائفَ من الموظفين الذين يُعتبرون أجانب، أي من غير العرب والمسلمين. ومن نتائجه بقاءُ تلك اللغاتِ الأجنبيةِ حيَّةً، وكأنها مُعْتَرفُ بها لغاتٍ رسمية، ويُقبِل الناسُ على تعُّلمها وإتقانِها لحاجةِ الدولة إليها، وكونِها طريقًا لتولّي الوظائفِ العالية، ولو استمر الحال كذلك لبقيتْ هذه اللغاتُ منافسةً للغة العربية، ولمَا أمكَن للغة العربية أن تتغلبَ عليها، بل لأدى ذلك إلى انتشار هذه اللغات الأجنبية، وكان هذا يُضْعِفُ من شأن اللغة العربية وخطرًا يهددها، وبالتالي كان يُضْعِفُ من تكوين الدولة الإسلامية .

وقد شَعَر عبدُ الملك بتعارضِ هذا الوضع مع شخصية الدولة العربية الإسلامية، التي كان يرأسها ويرعاها، وكان هو مهتمًا بالإشراف على جميع شئون الدولة، وحريصًا على أن تبلغ الإدارةُ درجةً عالية من الكفاءة والدقة، ووجد من الناحية العملية أن هذا لا يمكن أن يتمَّ مادامَ هؤلاءِ الموظفون غريبين عن الدولة، وما دامت اللغاتُ التي يستعملونها في الأعمال والمكاتبات الرسمية هي لغات أجنبية، فقرر عبدُ الملك إزالةَ هذا الوضع الشاذ، وأصدر أوامره بتحويل الدواوين إلى اللغة العربية، فتكونَ هي اللغةَ الرسميةَ الوحيدةَ في جميع الدواوين، وفي الدولة كلِّها. وهذه الحركةُ تسمى في كتب التاريخ بحركة " تعريب الدواوين"، وكان لها نتائجُ عظيمة بعيدةُ المدى.

وكان تعريب الدواوين سبيلاً إلى تعريب الجاليات والأقاليم، فكان هذا من أكبر العوامل في انتشارِ اللغةِ العربية. ولما كانت هي اللغةَ التي تؤدي إلى الوظائف والمناصب العالية فقد أصبحت لها المكانةُ الممتازة، وأقبل الموالي وغيرُهم على تعلُّمِها وإتقانِها، فتكونت في الدواوين طبقاتٌ من الموظفين المثقفين الذين حَصَلوا على قدرٍ من الثقافة العربية، ونَبَغُوا في الكتابة والآداب العربية. ومن أظهر الأمثلة في ذلك : عبد الحميدُ الكاتب في عهد بني أمية، ثم كبار الكُتَّاب في عهد بني العباس.

ولم يقتصر جهدُ عبد الملك بن مروان على تعريب هذه الدواوين فحسب، بل أراد أيضًا أن يُتِمَّ تعديلَ هذه الدواوين، لتناسبَ تطورَ الدولةِ الإسلامية، "ذلك أن

الدفاتر والسجلات التي تكتب فيها مقادير الجزية كانت تحدد أهل الذمة في الأماكن القديمة التي كانوا يسكنونها في الماضي، وقد غير قسم منهم مكان إقامته، فاضطرب الديوان، فينبغي أن تُغيَّر أماكنُهم في السجلات، وهكذا أحدث عبد الملك ما سُمّي بالتعديل، أي أنه أمر أن يُسجَّلَ أهلُ الذمة بأسمائهم وأولادهم وما يملكون في مكان ولادتهم، وكانت نتيجةَ ذلك أن جُدِّد السجلُّ تجديدًا يلائم العصر من الناحية اللغوية ومن الناحية الفعلية الواقعية معًا، وكأنَّ سِجلَّ الجزيةِ أصبح في الوقت نفسه سِجِلَّ الأحوالِ المدنيةِ لأهل الذمة.

(٣) سك العملة الإسلامية وتعريبها (إصدار الدينار الإسلامي):

يُعرِّف العلماءُ السَّكّة بأنها :" آلة من حديد تُطبع عليها الدارهم". ولذلك سُميت الدراهم المضروبة "سكَّة ". ولفظ "السَّكَّة" كان اسمًا للطابع، وهي الحديدة المتخذة لذلك، ثم نُقل إلى أثرها، وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم، ثم أُطلق هذا اللفظ على وظيفة القيام بعملية سكّ العملة، والنظر في استيفاء حاجاتها وشروطها، فصار هذا اللفظ اسمًا للوظيفة في عرف الدول، وهي وظيفة ضرورية للمُلك، إذ بها يتميز الخالص من الغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات، ويتَّقون في سلامتها الغشَّ بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة.

وقد تجمعت أسبابٌ وعواملُ عديدة تشير كلُّها إلى وجوب حدوثِ تطورٍ كبيرٍ في نظامِ العُملةِ المتعارفِ عليه في العالم الإسلامي، بعد أن اتسعت رقعتُه ذلك الاتساعَ الكبيرِ، واستقرت أحوالهُ الداخليةُ بعد مُضِيّ فترةٍ من خلافة عبد الملك بن مروان. وأهم هذه الأسباب : أن العالَمَ الإسلاميَّ كان يتعامل حتى ذلك الوقت بالعُملة المالية الفارسية والرومية، من دراهمَ ودنانير. وهذه العُمْلاتُ الماليةُ قد تناقصت كِمياتُها المتداوَلُة بشكلٍ يثير القلقَ بعد انهيار الإمبراطورية الفارسيةِ واضطرابِ الأحوالِ في إمبراطورية الروم، فلم يَعُدْ حَجْمُ هذه العُمْلاتِ المتوافرِ يكفي لتغطيةِ النشاط التجاري والاقتصادي والحاجةِ الماليةِ للدولة الإسلامية الواسعةِ والنشيطة، وكان الغِشُّ والتزييفُ قد انتشر في الدراهم منذ أواخرِ عهدِ الدولة الفارسية، وكذلك كان حالُ الدنانيرِ الرومانيةِ إثْرَ اضطرابِ أمور الدولة منذ زمنٍ بعيد، وفسادِ ذممِ بعض المتعاملين بها من العرب أنفسِهم، وممن دخل في

دولتهم، فأدى ذلك إلى أضرار وخيمة منها : "هبوطُ قيمةِ العملةَ وارتفاعُ أسعار الحاجيات، وزوالُ الثقة المالية، ومن أهمها الغَبْنُ الذي يقع على الدولة في استيفاء حقوقها من الموارد، فيؤدي ذلك إلى نقص كمية الخَراج" .

كما أن الاختلاف في الأنظمة المالية السائدة في الدولة الإسلامية من نظم مالية فارسية وبيزنطية كان سببًا في الاختلاف الواضح بين أحكام الجزية والخراج وعشور الأرض وعشور التجارة في العراق وفارس عنها في الشام ومصر، مما قد يُسبب بعضَ الصعوبات الاقتصادية، وكانت هذه العملاتُ مختلفةَ الأوزانِ والقيمة، دون أن يكون هناك مقياس ثابت موحَّد في جميع أنحاء الدولةِ يمكنُ به أن تُحدَّد النِّسبُ بينها، مما كان يسبب عائقًا للنشاط التجاري، ويشكل حَرجًا وصعوبةً للمسلمين حين يريدون دفع الزكاة .

وكان بعضَ الخارجين على الدولة يسارعون بسك عُمْلاتٍ خاصةٍ بهم، ومن هؤلاء " قَطري بن الفُجاءة " – وهو من قادة الخوارج – و"عبد الله بن الزبير"، وأخوه "مصعب" وغيرهم؛ كمظهر من مظاهر السيادة وتكريس الوجود والسيطرة السياسية .

كل هذه العوامل كانت تتجمع لتشكل حافزًا إلى ضرب سَكَّة إسلاميةٍ خاصةٍ، يتعال بها المسلمون جميعهم، وتكونُ أساسَ نظامهم المالي، غيرَ معتمدين في ذلك على غيرهِم من الدول والشعوب، وكان الذي فعل ذلك على الوجه الشامل هو الخليفة عبد الملك بن مروان في الشام سنة (٧٤هـ)، ثم أمر بتعميمها في جميع النواحي سنة (٧٦هـ) .

أما **السبب المباشر** والقريب والذي احتفى به بعض المؤرخين والرواة فجعلوه سببَ تعريب العملة وسكَّها في دار الإسلام فهو أنه في نطاق المبادلات التجارية بين الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، كانت القراطيس تدخل بلادَ الروم من أرض مصر وفي مقابل ذلك الدنانير تأتي إلى العرب من قِبَل الروم، فكان عبدُ الله أولَ من أحدث الكتابَ الذي يُكتب في رءوس الطوامير (الصحائف) مثل ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ وغيرها مِن ذِكرْ الله، فكتب إليه ملِكُ الروم: "إنكم أحدثتم في

قراطيسكم كتابًا نكرهه ، فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذِكْر نبيكم ما تكرهونه"، فكَبُر ذلك في صدر عبد الملك أن يدع سُنَّة حسنةً سنَّها، فاستدعى خالدَ بن يزيد ابن معاوية وقص عليه الخبر، فقال خالد : "يا أمير المؤمنين، حرِّمْ دنانيرهم فلا يُتعامل بها، واضربْ للناس سكَكًا، ولا تُعفِ هؤلاء الكفرةَ مما كرِهوا في الطوامير". فقال عبد الملك : " فرَّجْتَها عني فَرَّج الله عنك"، فقام بسكِّ الدنانير. قال عوانة بن الحكم : "وكانت الأقباط تذكر المسيح في رءوس الطوامير وتنسبه إلى الربوبية، تعالى الله علوًا كبيرًا، وتجعل الصليب مكان "بسم الله الرحمن الرحيم" فلذلك كرِه ملِكُ الروم ما كرِه، واشتد عليه تغييرُ عبد الملك ما غيَّره".

وبذلك أرضى عبدُ الملك غيرته الإسلامية وحميته الدينية، فضرب الدينار والدراهمَ، وجعلهما "على شكلين مُدَوَّرين، والكتابةُ عليهما في دوائر متوازية، يُكتب فيها من أحد الوجهين أسماءُ الله تهليلاً وتحميدًا وصلاةً على النبي وآله، وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة". ويُروي أن عبدُ الملك كتب على الدنانير﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وفي الوجه الآخر﴿ لا إله إلا الله ﴾، وطوَّقه بطوق فضة، وكتب فيه "ضُرب بمدينة كذا"، وكتب خارجَ الطوق "محمدٌ رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق". ولم يكتف عبدُ الملك بتعريب العملة؛ بل وَحَّد عِيارها ووزْنها، وجعل وزن الدرهم العربى أربعةَ عَشرَ قيراطًا من قراريط الدينار العزيز، فصار وزنُ كل عشرة دراهم دينارًا" .

ولما صدرت العملةُ الإسلاميةُ وكثُرت أمر عبدُ الملك بمنع التعامل بالنقود الأجنبية الرومية والفارسية التي كان أكثرُها مغشوشًة، وجمُعتْ من الأسواق، وأُعيد سَبْكُها وطَبْعُها على النسبة الجديدة، وهكذا انتهي التعاملُ نهائيًا بالنقود الأجنبية، وصارت العملةُ الرسميةُ المعتَرفُ بها منذ ذلك الحين هي العملةُ العربيةُ الإسلاميةُ الصحيحةُ : الدينارُ العربيُّ الذهبُّي الخالص، والدِّرْهمُ الإسلاميُّ الفِضِّيُّ الخالص، والوَحْدَاتُ اللائي ينقسمن إليها، وأصبحت منزلة هذه العملةُ أشرفَ منزلة؛ لأنها كانت تمثل أعلى درجة في الجودة والنقاء.

هذا، وقد تشدد الخليفة عبدُ الملك وخلفاؤه من بعده والولاةُ في تَعَقُّب أيةِ محاولةٍ لغشِّ النقود وتزييفها، ومعاقبةِ مَن يثبتُ عليه ذلك .

(٤) تأسيس المدن الجديدة : كانت المدنُ العربيةُ الإسلامية من ثمراتِ النهضة الشاملة التي أرسي دعائِمَها الإسلامُ، ودليلاً علي السَّبْقِ في ميدان العمارة، وبرهانًا علي ما بلغه المسلمون من تقدمٍ علمي وحضاري. وقد ظهرت في الدولة الإسلامية مدن وحواضرُ تمتعت بأهمية كبيرة، إداريةٍ ودينيةٍ واقتصاديةٍ وسياسيةٍ، وكانت هذه المدن مراكزُ إشعاعٍ حضاريةً وعلميةً تَشِعُّ نورَ العلمِ والمعرفةِ إلي مختلِف جهات العالم، وبمثابةِ القلبِ النابضِ الذي يمدُّ البشريةَ بمادةِ الحياةِ والبقاء. وفي هذه المدن برز علماءُ ومفكرون ذاعَ صِيتُهم عبر الزمان والمكان، بفضل مساهماتهم في مسيرةِ العلم والإيمان . وإليها كانِ يفِدُ طلابُ العلمِ والعلماء، والرَّحَّالةُ والتجار، يحملون في عودتهم إلي بلادهم حضارةَ الإسلام، ومشاعلَ العلم، وإنجازاتِ المسلمين .

ومن الحقائق المسلَّم بها في تاريخ العمارة الإسلامية أن تشييدَ المدنِ العربيةِ الإسلاميةِ كان يسير وَفْقَ نظامٍ مدروسٍ وخِططٍ مُحكمة، وتصميمٍ دقيق، وشروطٍ مُحدَّدة، ليتسني لها النموُّ والبقاءُ، كاختيار الموقع المناسب للمدينة، وتوفيرِ الحماية الطبيعية لها، ووسائلِ الدفاع عنها وتحصينِها إلي خِطط وأحياءَ، وطرقاتٍ وميادين، والعنايةِ بمرافقها العامة كالمساجدِ والأسواقِ والحماماتِ والخانات، وتوصيلِ مياه الشربِ والرعايةِ الصحيةِ والاجتماعيةِ، وغير ذلك من أسسِ الإنشاء والعمارة.

وقد ساهم الأمويون في تأسيس وإنشاء عدد من المدن الإسلامية في الشرق والغرب، لا يزال معظمها قائمًا ومعروفًا حتي اليوم، ومن أهمها :

١- **مدينة القيروان :** (وتقع في الجمهورية التونسية) أسسها عقبة بن نافع الفهري في "أفريقية" (سنة ٥٠-٥٥هـ)، وهو أحد القادة الفاتحين لبلاد المغرب. وقد أصبحت هذه المدينةُ عاصمةَ الشمال الإفريقي كلِّه في عهد الأمويين، ومركزًا من أعظم المراكز الحضارية الإسلامية.

٢- **مدينة تونس:** (في الجمهورية التونسية) أسسها حسان بن النعمان سنة ٨٤هـ)، وهو أحد القادة الكبار الذين شاركوا في فتح بلاد المغرب، ويُعدُّ

الفاتحَ الحقيقي لهذه البلاد؛ لأنه قام ببعض الأعمال الإنشائية والإدارية المهمة كان لها الأثر البعيد في تثبيت الفتح الإسلامي في بلاد المغرب .

٤- **مدينة واسط:** في العراق أسسها الحجاج الثقفي (سنة ٨٣هـ)، وتقع بين البصرة والكوفة. وبني وسطها قصرًا فخمًا بجوار المسجد الجامع، وجعل للقصر قبة خضراء كبيرة وعالية وكان الاهتمام بتحصين المدينة واضحًا في الرؤية التخطيطية لها، فأنشئت الأسوار والخندق. ويكشف التوزيع الداخلي لخطط المدينة علي الرؤية الهادفة لإنشاء مركز حضاري متكامل، يصلح ليكون مركزًا إداريًا يمكِّن الحَجَّاج من فرض السلطة الأموية علي العراق، ويقضي علي الفتن والثورات التي كانت تهدد الأمويين في هذه البلاد.

ومن المدن التي أنشأها الأمويون – بالإضافة إلي ما ذكرنا – مدينة "الرُّصافة" بالقرب من "الرَّقّة" في العراق، أنشأها الخليفة "هشام بن عبد الملك" (١٠٥- ١٢٥هـ). وأنشأ "الحكم بن عُوانة الكلبي" – وهو من المجاهدين الفاتحين – مدينة "المحفوظة" في السند . وأنشأ عُمر بن محمد بن القاسم الثقفي "مدينة المنصورة" في السند أيضًا . وأبوه "محمد بن القاسم" هو الذي أتم فتح هذه البلاد كما مر سابقًا .

(٥) العناية بالطرق وتعمير البلدان : اهتمت الدولة الأمويةُ اهتمامًا كبيرًا بإنشاء الطرق لربط أجزائها التي امتدت في الصين شرقًا إلي الأندلس غربًا، ولتحقيقِ كثيرٍ من الأغراض، منها ما هو عسكري لتيسير حركة الجيوش، ومنها ما هو اقتصادي لتيسير حركة التجارة، ومنها ما هو إداري لتسهيل وصول الأخبار عن طريق البريد، ومنها ما هو ديني لتسهيل وصولِ حُجَّاجِ بيت الله الحرام من كل أنحاء الدولة إلي مكةَ المكرمةِ، لأداءِ فريضة الحج، وإلي المدينة المنورة لزيارةِ مسجد النبي ﷺ. وقد عُمِّرت هذه الطرق بالخانات والاستراحات ليستريح الناس من وعثاء السفر، فوق ما كانت تتمتع به من أمن وأمان.

ومن بين الخلفاء الأمويين الذين أعطوا اهتمامًا كبيرًا للتعمير والبناء : الوليد بن عبد الملك (٨٥-٩٦هـ)، فقد أنشأ عددًا من الطرق ومهَّدها، وبخاصة الطرقِ المؤدية

للحجاز، كما حفر الآبارَ علي طول هذه الطرق، ووظَّف لها مَن يهمُّ بها ويمدُّ الناسَ بمائها، واتجه بهمةٍ إلي بناء المساجد، وحَشَدَ لأعمالِ العمران آلافَ العمالِ الذين استقدمهم من مصر، ومن مناطقِ الشام المختلفة، ومن الهند وبلاد فارس.

وقد أولي الخلفاءُ وولاتُهم رعايةً كبيرةً لمشاريعِ الري وتطويرِها، كحفرِ الأنهار، وشِقّ القنواتِ والجداول، وتوسيع شبكات الري، وإقامةِ السدود والقناطر، ومَسْحِ الأراضي الزراعية وإحيائها .

ففي خلافة معاوية (٤١-٦٠هـ) قام زيادُ بن أبي سفيان – الوالي علي البصرة – بحفر العديد من الأنهار فيها، منها : نهرُ مَعْقِل، ونهرُ أم حبيب، ونهرُ مُسْلم. وقد انتعشت الحياة الزراعية في البصرة بسبب ذلك، ووصلت وارداتها في ولاية زياد إلي ستين مليون درهم. كما قام زياد بإنشاء قنطرة في الكوفة. وبذل الحجَّاج بن يوسف الثقفي (٧٥-٩٥هـ) جهودًا كبيرة في هذا الميدان، فقد أتم حفر نهر الأنبار، وقام بحفر أنهارٍ عديدة في المنطقةِ الواقعة بين الكوفة وواسط والبصرة، مِثْلَ نهرِ الصين (نسبة إلي بليدة تقع جنوب واسط يقال لها الصينية) ونهرِ الزابي، وغيره من الأنهار .

ولما تولي خالدُ بن عبد الله القَسْري العراقَ (١٠٥-١٢٠هـ) أظهر مواهَبه في استصلاح الأراضي، وشقّ الأنهارِ والتعميرِ والبناء، فحفر بالعراق أنهارًا عديدة، ومن أشهرها : نهرُ المبارك، ونهرُ خالد، ونهر الجامع وغيرها. كما قام ببناء أسواقٍ جديدة، وجعل لكل أهل حِرْفةٍ مكانًا خاصًا بهم. وقد بلغت نفقات حفر نهر "المبارك" اثني عشر مليون درهم، وكان هذا النهرُ يَسْقي مساحاتٍ واسعةً من أراضي السواد، وهي المناطق الواقعة بين واسط والبصرة.

وكان أعظمَ إنجاز قام به مَسْلمة بن عبد الملك في منطقة الجزيرة الفراتية (شمال العراق) بناءُ أكبرِ مشروع إروائي علي نهر "البُليخ" وهو الذي عُرِف بسدّ مَسْلمة، ويقع بين مدينتي "رأس العين" و"الرَّقَّة"، وكان الماءُ الذي يتجمع في هذا السدّ في كل سنة مرةً حتي يملأَه يكفي أهلَه بقيةَ عامهم.

وفي مصر تولى عبدُ العزيز بن مروان أمرَها نحو عشرين عامًا (٦٤-٨٥هـ)

فكانت له فيها إنجازاتُ واضحة، وأدخل ضروبًا من الإصلاح، وبني مقياسًا للنيل؛ وزاد في جامع عمرو بن العاص من ناحية الغرب، وأدخل في شماله رَحْبةً فسيحةً، وأقام علي خليجٍ أمير المؤمنين قنطرةً بطرف الفسطاط سنة ٩٦هـ. وبني مدينة حلوان واتخذها عاصمةً لولايته سنة ٧٣هـ بعد أن تفشي وباء الجذام بالفسطاط، ونقل إليها بيتَ المال، وأنشأ بها بِركةً كبيرةً ساق إليها الماءَ من العيون القريبة من جبل المقطم علي قناطِرَ معلقةٍ مُشَيَّدةٍ علي أعمدةٍ تصِل عيونَ الماء بالبركة، وغَرَسَ عبدُ العزيز في حلوان الأشجارَ والنخيل، وبني بها المساجدَ والبنايات الفخمة، حتي قيل: إنه بذل في سبيل ذلك مليونَ دينار.

ومن آثار الأمويين الخالدة في دمشق مجاري مياهها، فقد بلغ نظامُ مجاري الماء من الدقة بحيث أصبح لكل دار في دمشق نافورة خاصةٌ بها، وذلك بفضل القنوات السبع الرئيسية التي شقها الأمويون لتوصيل الماء إلي أنحاء المدينة، والقناطرِ الكثيرة المقامة علي الأعمدة التي شيدوها لتوصيل ماء الشرب إلى البيوت.

(٦) العناية ببناء المساجد الكبرى والحرمين الشريفين : وقد ازدهرت حركة بناء المساجد الكبري في عهد الأمويين ازدهارًا كبيرًا، فوسَّعوا المساجد التي كانت موجودة من قبل، كالمسجد الحرام في مكة، والمسجد النبوي في المدينة النبوية، وجامع عمرو بن العاص في الفسطاط، والمسجد الكبير في صنعاء باليمن، كما أقاموا العديدَ من المساجد الجديدة، من أشهرها: مسجدُ قُبة الصخرة الذي أنشأه عبدُ الملك بن مروان (٦٥-٨٥هـ) في القدس، و"المسجد الأقصي" الذي أنشأه ابنه الوليد (٨٥-٩٦هـ)، و"المسجدُ الأموي" في "دمشق" الذي أنشأ الوليد أيضًا. وإليك الحديث عن عناية الوليد ابن عبد الملك بالمساجد الثلاثة، وبناء المسجد الجامع بدمشق :

١- **فأما المسجد الحرام** : فقد اشتري الوليدُ كثيرًا من الدُّور التي كانت تقع حول الكعبة وهدمها وضمَّها إلي المسجد، وأرسل إلي خالد بن عبد الله القَسْري عاملِه علي مكة ثلاثين ألف مثقال ذهبًا فصفَّح باب الكعبة والميزاب والأساطين، وذلك لمزيد من التحسين والتجميل، وبني سور المسجد على أعمدة من الرخام.

٢- **وأما المسجد النبوي:** فقد أمر الوليدُ ابن عمه عمرَ بن عبد العزيز (وكان واليًا علي المدينة النبوية، من ٨٧ إلى ٩٣هـ) أن يهدَم المسجدَ النبوي، ويعيدَ بناءَه وتوسعتَه، وأرسل إليه أموالاً كثيرةً لهذا الغرض، وثمانين عاملاً من عمال البناء، من الشام وقِبْط مصر، وكمياتٍ كبيرةً من الفُسيفساء، وقد عَهِد عُمَرُ بالإشراف علي البناء إلى واحد من كبار الفقهاء النابعين، وهو "صالح بن كيسان" (المتوفي في حدود ١٤٠هـ) وكان مؤدبًا لعمر بن عبد العزيز ثم لأولاده، وكان ثقةً، صالحًا، فقيهًا، مُحدثًا.

روي ابن جرير الطبري في أحداث (سنة ٨٧هـ) أنه في شهر ربيع الأول من هذه السنة قدم كتاب الوليد بن عبد الملك علي عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم المسجد النبوي، وإضافة حُجَر أزواج رسول الله إليه، وأن يوسَعه من قبلته وسائر نواحيه، حتي يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع، وقال له: " فمن باعك ملكه فاشتره منه، وإلاَ فقومه له قيمة عَدْل ثم اهدمه، وادفع إليهم أثمان بيوتهم، فإن لك في ذلك سَلَفَ صدق . عُمر وعثمان" . ويروى أن سعيد بن المسيب رحمه الله أنكر إدخال حجرة عائشة في المسجد، " كأنه خشي أن يُتخذ القبرُ مسجدًا " كما يقول الحافظ ابن كثير.

وقد استمر العملُ في البناء نحو ثلاث سنوات. وفي سنة ٩١هـ حج الخليفة الوليد بن عبد الملك، وزار المسجد النبوي، فلما قرب من المدينة أمر عمرُ بن عبد العزيز أشراف المدينة أن يتلقوه، فرحب بهم وأحسن إليهم، فلما دخل المدينة أخلي له المسجد النبوي ليتجول فيه. وفي يوم الجمعة خطب الوليد على منبر رسول الله ﷺ، فلما انصرف من صلاته فرَّق علي الناس من أهل المدينة ذهبًا كبيرًا، وفضةً كثيرة – أي دنانير ودراهم – ثم كسا المسجد النبوي من كسوة الكعبة التي معه، وكانت من ديباج غليظ.

٣- **وأما المسجد الأقصى :** فقد بناه الوليدُ بالقرب من مسجد قُبة الصخرة، وهو المسجدُ الذي بناه أبوه عبد المالك (سنة ٧٢هـ) فوق الصخرة التي عُرج بالرسول ﷺ من فوقه ليلة الإسراء والمعراج. وقد زين الوليد المسجدَ الأقصي بالفُسَيْفُساء والرخام، واحتفل ببنائه كاحتفاله بالمسجد الحرام والمسجد النبوي.

٤- **بناء الجامع الأموي بدمشق** : ومن أعظم المساجد التي أنشأها الوليدُ ابن عبد الملك هو "المسجد الأموي" في دمشق. وقد شرع في بنائه في ذي الحجة من سنة (٨٦هـ)، واستمر في بنائه وتحسينه مدة خلافته (٨٦-٩٦هـ) وهي عشر سنين، فلما أنهاه انتهت أيام خلافته.

كان موضعُ هذا المسجد كنيسةً يقال لها : كَنيسة يوحنا، فلما فتح الصحابةُ دمشق (١٣هـ) جعلوها مناصفةً، فأخذوا منها الجانبَ الشرقي، فحوَّلوه مسجدًا، وبقي الجانب الغربُّي كنيسةٌ بحاله، منذ سنة أربع عشرة إلي سنة ٨٦هـ، فعزم الوليدُ علي أَخْذ بقية الكنيسة منهم، وعوَّضهم عنها كنيسةَ مريم. وقيل: عوَّضهم عنها كنيسة تُوما، وهدم بقية هذه الكنيسة، وأُضيفت إلي مسجد الصحابة، وجعل الجميعَ مسجدًا واحدًا علي هيئة بديعة.

وقد بُني المسجدُ الأموي مستطيلَ الشكل، له ثلاثةُ مداخل، وأربعُ مآذن، وفي وسطه صحنٌ مكشوف، تُحيطُ به أربعةُ أَرْوِقة، أكبرُها رُوَاقُ القبلة، وغُطِّيتْ أرضيتُه بالرُّخام والمرمر، وكذلك جدرانهُ وأعمدُته إلي قامة الإنسان، وفوق الرخام زخارفُ من الفُسَيْفُساء المذهَّبة، وجُعِل سَقْفُه من الرُّصاص، وبه ستمائةُ سلسلة من الذهب تتدلي منها قناديلُ للإنارة. وقد أُنفِقَ علي بناء الجامع (خمسةُ ملايين وستمائة ألف دينار)، وقيل: (أحد عشر مليون ومائتا ألف دينار)، وقيل: أكثر من ذلك بكثير.

ويُعدُّ المسجد الجامع بدمشق من مفاخر بني أمية، ولما دخله الخليفة العباسي "المهدي" (١٥٦-١٦٩هـ) قال لكاتبه أبي عبيد الله الأشعري: "سبقنا بنو أمية بثلاث : بهذا المسجد الذي لا أعلم علي وجه الأرض مثله. وبنُبْل الموالي، وبعمر بن عبد العزيز، لا يكون – والله – فينا مثله أبدًا". فلما زار المهدي بيت المقدس ونظر إلي قبة الصخرة – وكان عبد الملك بن مروان هو الذي أمر ببنائها – قال: "وهذه رابعة ". ولما دخل الخليفة المأمون العباسي (المتوفي ٢١٨هـ) دمشق ونظر إلي جامعها – وكان معه أخوه المعتصم وقاضيه يحيي ابن أكثم – قال: ما أعجبُ ما فيه ؟ فقال أخوه : هذه الأذهاب. وقال يحيي:

الرخام وهذه العُقد. فقال المأمون : "إني إنما أعجب من حسن بنيانه علي غير مثال متقدم" .

والحاصل – كما يقول ابن كثير – " أن الجامع الأموي لما كمُل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسنَ منه، ولا أبهي ولا أجملَ منه، بحيث إنه إذا نظر الناظرُ إليه أو إلي جهةٍ منه، أو إلي بقعة أو مكانٍ منه تحيَّر فيها نظرهُ لحسنه وجماله، ولا يملُّ ناظره، بل كلما أدمن النظرَ بانت له أعجوبة ليست كالأخرى" .

الخاتمة

أسباب سقوط الدولة الأموية

من يقرأ تاريخ الدولة الأموية، ويَدْرُسُ فتوحِاتها العظيمةَ، ونُظُمَها الإداريةَ الراقيةَ، ومساهمتَها الحضاريةَ المشْرفةَ، وكفاءة خُلفائِها وولاتِها العالية، ربما لا يتوقع نهايتَها المفجعةَ، وسقوطَها السريع. وبالفعل يُعدُّ سقوطها وانهيارُ بنياتها الشامخِ من الأمور العجيبة في التاريخ الإسلامي، بل في التاريخ البشري كله. وإذا أردنا مقارنةً تاريخية بين شخصيات الدولة الأموية وأعمالها، وشخصيات عدد من الدول التي طال عمرها وأعمالها فسوف تكشف لنا هذه المقارنة أن الأمويين لم يكونوا أقلَّ من غيرهم إن لم يكونوا أفضلَ منهم، سواءٌ في نوعية الشخصيات الحاكمة وإمكاناتها الخُلُقية والنفسية والفكرية، والتزامها بالإسلام، أم في الأعمال والإنجازات العامة السلمية والحربية التي قامت بها كل دولة من هذه الدول . ومن هنا نرى : أنه لا تطابق بالضرورة بين أعمار الدولة وبين عظمتها، وإن سقوط بني أمية السريع ليس دليلاً علي عدم جدارتهم، كما أن امتداد أعمارِ بعض الدول ليس دليلاً – بالضرورة – علي أهليتها للبقاء. ولربما يري كثيرٌ من دارسي التاريخ أن ميزان الأمويين – علي قصَر عمرهم – لا يقل عن ميزان العباسيين مع طول عمرهم (١٣٢-٦٥٦هـ).

والسؤال الذي كان ولا يزال يُلح كثيرًا علي مؤرخي الإسلام – والذي يُعَدُّ دليلاً علي نوع من الاندهاش والحيرة إزاء هذا العمر القصير والسقوط السريع لدولة الفتوحات العظيمة – هو: عَلاَمَ سقطت هذه الدولة الفتيَّة إذن ؟

لقد اختلفت آراء المؤرخين قديمًا وحديثًا حول تفسير عوامل سقوط الدولة الأموية، مع اختلاف في إبراز هذا العامل أو ذاك. والواقع أنه لم يكن هناك عاملاً واحدًا أو اثنتين هما اللذان قوَّدا هذا البنيان الشامخ، وإنما تضافرت عدة أسباب، وتفاعلت لتكون معاول هدم في جسم الدولة الأموية لينهار ذلك الصرح الكبير. ويمكن تلخيص هذه الأسباب في النقاط الآتية :

أولاً – الثورات التي قامت ضد بني أمية علي امتداد تاريخهم ، وكانت كثيرة

ومتنوعة، فبعضها قام بها الشيعة العلويون، وأخرى قام بها الخوارج، إضافة إلى ثورات بعض كبار القادة، كعبد الله بن الزبير (٦٤-٧٣هـ)، وعبد الرحمن بن الأشعث (٨١-٨٣هـ)، والمهلب بن أبي صُفرة (١٠٣-١٠٥هـ). وقد سبق عرض أحداث هذه الثورات، ورصد أسبابها ونتائجها . ونؤكد هنا على أن ثورات الخوارج بوجه خاص كانت من القوة والعنف والاتساع بحيث أسهمت إسهامًا واضحًا في إضعاف الدولة الأموية أمام أعدائها، فلم تتركها تستريح وظلت تنفجر في أماكن كثيرة، وبخاصة في العراق وجنوبي الجزيرة العربية حتى آخر لحظة في حياة الدولة. ويمكن القول : إن الخوارج كانوا سِتَارًا كثيفًا حجب عن الولاة الأمويين بالعراق ما يجري في الكوفة وخراسان من الدعوة للعباسيين.

وربما لا تكون هذه الثورات كلها في وقتها ذات أثر عسكري كبير علي الدولة الأموية لكن أثرها كان بعيد المدى في نفوس الناس. وهذا ما استفاده دُعاةُ العباسيين في مرحلة التحضير لثورتهم .

ثانيًا – العصبيات القبلية :

كانت العصبية القبلية إحدى العوامل المحركة للخروج علي الخليفة عثمان ﷺ واستشهاده. ثم وجدت هذه العصبية فرصتها في أجواء الفتنة التي أعقبت مقتله ﷺ، أثناء النزاع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما والذي انتهي بقيام الدولة الأموية بتنازل الحسن بن علي عن الخلافة (سنة ٤١هـ) .

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها بعض الخلفاء الأمويين وولاتهم للحد من هذه العصبية والتعامل معها بتوازن شديد، مدركين خطورتها على وحدة دولتهم وسلامة بنيانها الاجتماعي، فإننا نري هذه العصبية تبرز بشكل خطير في بعض مراحل هذه الدولة، حتى تكون هي السمة الأكثر بروزًا، كما حدث في الفترة التي تَلَتْ موت يزيد بن معاوية (٦٤هـ)، وتنازل ابنه معاوية عن الخلافة بالشام، وكما حدث بعد مقتل الوليد بن يزيد (١٢٥-١٢٦هـ) وانقسام البيت الأموي علي نفسه في الفترة الأخيرة من حكمهم.

في هذه الفترة الأخيرة (١٢٥-١٣٢هـ) انفجرت العصبيات القبلية، وفتحت

فاها كألسنة النيران، دون أن يستطيع أحد أن يوقفها أو يسدَّ فاها؛ لأن بعض الخلفاء الأواخر لم يكونوا أهلاً للقيادة، فعجزوا عن التصدي لها، بل كانوا هم سببًا في اشتعالها. وقد زاد الأمر خطرًا أن تلك العصبيات انفجرت في الشام الحصن الحصين للدولة الأموية، فانقلبت عليهم القبائل "اليمنية" الحليف التقليدي لهم، بسبب تَقَلُّب سياسة الخلفاء وتذبذبها في الاعتماد علي "اليمنيين" تارة، وعلي "القيسيين" تارة أخري، فإذا تقدم اليمنية احتلوا مراتب الدولة، ونكَّلوا بالقيسية، وإذا قدم أحد الخلفاء "القيسية" وعادوا إلى بعض مناصب الحكم نكَّلُوا بخصومهم "اليمنيين" .

والأخطر من ذلك أن العرب حملوا خلافاتهم وعصبياتهم في كل أرض يَحلُّون بها، وبخاصة "خراسان" في مشرق العالم الإسلامي، حيث أسهم بعض ولاتها في تفاقم نار العصبية، والعمل علي إشعالها، بسوء سياستهم وضيق أفقهم، فكان إذا جاء وال ينتسب إلي "اليمنية" تعصَّب لقومه، وخصهم بالوظائف والمزايا، واضطهد "القيسيين". وإذا جاء وال من "القيسية" فعل عكس ذلك. والنتيجة أن "خراسان" لم تنعم بالاستقرار في أخريات حكم الأمويين، وكانت الأحوال تنتقل من سيء إلي أسوأ، مما ساعد الدعاة العباسيين – الذين اتخذوا من خراسان تربةً خصبةً لدعوتهم – علي استثمار هذه الأوضاع لصالحهم، وأن يستغلوا الخلاف المتفاقم بين الفصائل العربية المتنازعة، ويحققوا نصرًا كبيرًا على الجيوش الأموية، ويقضوا علي الوجود الأموي.

ثالثًا – موقف الموالي من الدولة الأموية :

المقصود بالموالي هنا: سكان البلاد المفتوحة الذين أسلموا، من غير العرب، وجاز عليهم الرق والعبودية ثم أعتقهم أسيادهم، فصاروا موالي بالعتاقة، وقيل للمعتَقين "الموالي". فمنهم طائفة أسلمت إسلامًا حقيقيًا، وارتفع الإسلام بها فوق العصبية القومية، ولم تر بأسًا في أن يحكمها العربُ، ونظرت إليهم نظرة تقدير واحترام؛ لأنهم سبب هدايتها. وطائفة أسلمت إسلامًا رقيقًا، ولم تتخلص تمامًا من الماضي، وظلت تفخر بالأمجاد الفارسية القديمة. وهذه الطائفة لم ترفض الإسلام دينًا، ولكنها رفضت السيادة والحكم العربيين، وظلت تسعي

للقضاء عليهما، وكانت نواة " الشعوبية " التي نادت بتفضيل الفرس علي العرب. وطائفة ثالثة أسلمت نفاقًا؛ لأنها رأت أن السبيل إلي المال والجاه لا يكون إلا بالدخول في الإسلام، فأعلنت اعتناقه، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم تدع فرصةً للكيد للمسلمين إلا كادتها، كما دعت إلي "الشعوبية" وإلي المذاهب الدينية الهدَّامة. وهذه الطائفة كانت أساسًا لحركة "الزندقة" التي ظهرت في مطالع العصر العباسي.

وقد كان لبعض الموالي من الفرس مواقف عدائية من الدولة الأموية، على الرغم من تسامح الحكومة معهم وإشراكهم في الإدارة، بل تفضيلهم أحيانًا على العرب أنفسهم ، فلم يتركوا فرصة للخروج عليها إلا انتهزوها، ولا دعوة لثائر إلا انضموا إليها ، فقاتلوا مع "المختار بن عبيد الله الثقفي" بالكوفة (٦٦-٦٧هـ)، وعبد الرحمن بن الأشعث (٨١-٨٣هـ)، ويزيد بن المهلَّب (١٠١-١٠٢هـ)، وغيرهم من الثائرين، كما أنهم ناصروا الخوارج، وتحالفوا مع الشيعة دائمًا . ويُذكر أن عدد الموالي الذين انضموا إلي ثورة ابن الأشعث كان مساويًا لعدد العرب المشاركين في هذه الثورة .

إن هذه المواقف العدائية من الموالي تجاه الدولة الأموية جعلت الباحثين يظنون أنهم فعلوا ذلك لظلمٍ وقع عليهم من الدولة، وراحوا يكيلون التُّهم جزافًا للأمويين، بأنهم متعصبون ضد الموالي الفرس. وهذا اتهام لم يقم عليه أي سند تاريخي، وبعيد عن واقع الأمر. والحق أن الدولة الأموية قد عُرفت بتسامحها مع غير المسلمين من أهل الذمة، فكيف تضيق بالمسلمين من الموالي وتضطهدهم؟

ولعل السبب الرئيسي في عداء الموالي للدولة يكمن في أن طوائف منهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا تمامًا من ماضيهم، حيث كانوا أصحاب السيادة علي العرب قبل الإسلام، فلما فتح المسلمون بلادهم عزَّ عليهم أن يحكمهم العرب، فعملوا علي تقويض الدولة. ومع ذلك – وفي الوقت الذي ننفي فيه القول باضطهاد الدولة الأموية للموالي – فإننا لا ننكر أن يكون بعض الولاة العرب قد نظروا إلي الموالي الفرس نظرة تعالٍ وتكبر، وأوقعوا بهم صورًا من الحيف والظلم،

مثل فَرْض الجزية علي من أسلم من أهل الذمة، لكنَّ ذلك لم يكن سياسة دولة، وإنما نتج عن تجاوز وسوء فهم لأحكام الإسلام من بعض الولاة، أو " لأسباب سياسية واقتصادية عمقت الشكوك في حقيقة إسلام هؤلاء الموالي".

رابعًا – التآكل والانشقاق الداخلي للبيت الأموي الحاكم، وعدم الموائمة بين اتساع حركة الفتوحات والعمل على تثبيت الإسلام:

ومع أن الثورات والفتن الكثيرة التي قامت ضد بني أمية علي امتداد تاريخهم كانت من أسباب ضعفهم، وكبَّدت الدولة الكثير من الجهد والمال والرجال، فإن ذلك لا يُعَدُّ من الأسباب الأساسية في سقوط بني أمية، فهذه الخلافات تكاد تكون من سنن الله في المجتمعات، ولا توجد دولة بلا خصوم من داخلها ومن خارجها. ومع أننا لا نستطيع أن ننكر تأثير العصبيات العربية علي مسيرة الدولة، وخصوصًا في الفترة الأخيرة من تاريخها، فإن ذلك أيضًا لا يُعَدُّ من الأسباب الجوهرية لسقوط بني أمية، فإنهم استطاعوا في معظم تاريخهم تحقيق التوازن والعدل بين القوي المتنافسة علي الرئاسة والشرف. وليس صحيحًا أن الدولة الأموية كانت دولة عربية متعصبة ضد الموالي.

إن ذلك كله لا يكفي لتفسير سقوط هؤلاء العظماء، وهي أسباب تكاد توجد في معظم الدول والحضارات، وكثير من الدول عاشت أضعاف ما عاشوا وهي تحمل جراثيم الفناء أكثر مما كانوا يحملون. وإذا كان الأمر كذلك كما قررنا فما الأسباب الحقيقية إذن ؟ ليس هناك إلا حقيقتان :

الأولى : حقيقة أن بني أمية انهاروا من الداخل، وأنهم انتحروا عندما تفرغوا لمحاربة بعضهم بعضًا، وتبادلوا مواقع الموت، وتركوا الدولة في السنوات السبع الأخيرة (١٢٥-١٣٢هـ) تتعرض لأشد المخاطر حتى جاء من قضي عليهم جميعًا، وهم العباسيون .

والثانية : أن بني أمية وقعوا في خطأ حضاري كبير، وهو أنهم لم ينبعثوا بتيار حضاري يتمِّم تيارات الفتوحات الكبرى ويكمله، ويمتص كلَّ حركات الخروج والفتن. لقد كان بإمكانهم تحويل كل المناوئين لهم إلى عاملين معهم في مجال نشر الإسلام

والعربية، والقضاء علي الفرَق والطوائف والشيع بالحوار والفكر، ونشر الإسلام الصحيح، وترجمته إلي لغات البلاد المفتوحة، وتحقيق إسلام وتعريب كاملين لهذه الأراضي الشاسعة التي فتحها الله عليهم، أي – وبإيجاز – تحقيق التوازن بين (الدولة والدعوة) أو (الأرض والعقيدة)، وكانت هذه رسالة عظمي لم يتقدم فيها الأمويون بصورة كافية، كما تقتضي طبيعة الظروف والتحديات، وكما تقتضي الاستجابة الملائمة للتحدي. وهذا هو الخطأ الحضاري الكبير.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز رحمه الله (٩٩-١٠١هـ) أدرك هذه الحقيقة، فأوقف حركة الامتداد في الأرض حتى يواكبه امتداد في الدعوة، بحيث لا تطغي الأرض علي الحضارة، ولا الدولة على الدعوة، ولا تصبح اعتبارات السياسة أهم من الدين، ولذا فقد اهتم بعملية تعريب البلاد المفتوحة وتعليم أهلها مبادئ الإسلام، وانتهج سياسة إصلاحية للأحوال المالية والاقتصادية والاجتماعية في أرجاء الدولة الإسلامية كلها، لكن خلافته لم تطل، ولم تكتمل مسيرة الإصلاح من بعده كما أراد .

ملخص الوحدة الخامسة

قدَّمَ الأمويون وقادتُهم إنجازاتٍ هائلة في ميادين الحضارة ومجالاتها، الإدارية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية. وكان من أهم ما قاموا به من إنجازات: إنشاء دواوين جديدة وتطويرها وتعريبها، كديوان الخراج، والرسائل، والعمال، والخاتم، وغيرها، وإصدار العملة الإسلامية (الدينار الإسلامي). وكانت المدن العربية الإسلامية الجديدة التي أسست في عصر الامويين من ثمرات النهضة الشاملة التي شهدها هذا العهد، وبرهانا علي ما بلغه المسلمون من تقدم علمي وحضاري. وقد عُني الأمويون بإنشاء الطرق وتمهيدها وإقامة مشارع الري وإحياء الأراضي، كما أعطوا اهتماماً خاصاً ببناء المساجد الكبري، وتوسيع الحرمين الشريفين والمسجد الأقصي. ويُعدُّ الجامع الأموي في دمشق من مفاخر الأمويين، وهو المسجد الذي " لا يُعرف في الآفاق أحسن بناء منه " كما وصفه ابن كثير. و في العصر الأموي ازدهر النشاط الاقتصادي في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة .

وفي ختام دراستنا الموجزة لتاريخ الدولة الأموية وقفنا عند أسباب سقوطها بعد عمر قصير لا يزيد عن اثنين وسبعين عاماً منذ نشأتها. وعلي الرغم من كثرة هذه الأسباب فإن سببين اثنين كان لهما أعمق الأثر في تفسير السقوط؛ **أولهما** : انهيار الأسرة الأموية الحاكمة من الداخل، حيث دب الصراع فيما بينها علي السلطة في السنوات السبع الأخيرة (١٢٥- ١٣٢هـ). **وثانيهما**: عدم مواكبة الفتح الحضاري الدعوي مع الفتح العسكري الواسع، أو عدم تحقيق التوازن بين الدولة والدعوة، أو بين الأرض والعقيدة.

أسئلة على الوحدة الخامسة

س١ : كان للخلفاء الأمويين عناية كبيرة بإنشاء الأجهزة الإدارية والدواوين، وذلك لملائمة تطور الحياة، واتساع مساحة الدولة الإسلامية . وضح ذلك .

س٢ : قام الخليفة عبد الملك بن مروان بإصلاحات إدارية مهمة، كان من أبرزها: تعريب الدواوين، وسكّ العملة الإسلامية الموحدة – اشرح ذلك بإيجاز.

س٣ : اذكر الأسباب والضرورات التي جعلت عبد الملك بن مروان يسارع في ضرب العملة الإسلامية وتعريبها .

س٤ : ازدهرت حركة البناء والتعمير في العصر الأموي ، كإنشاء المدن، وبناء المساجد، وتمهيد الطرق، وحفر الأنهار، وإقامة مشاريع الري، وغيرها – اكتب تقريرا موجزا حول هذا الموضوع .

س٥ : من الأعمال الجليلة التي تنسب إلي الخليفة الوليد بن عبد الملك : توسيع المسجد النبوي، وتشييد المسجد الجامع الأموي بدمشق – وضح ذلك.

س٦ : وضح بإيجاز الأسباب التي تفسر سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ، مع العناية بذكر الشواهد التاريخية والتواريخ .

نموذج إجابة

إجابة السؤال الثالث:

لقد تجمعت أسبابٌ وعواملُ عديدة تشير كلُّها إلى وجوب حدوثِ تطورٍ كبيرٍ في نظامِ العُملةِ المتعارفِ عليه في العالم الإسلامي، بعد أن اتسعت رقعتُه ذلك الاتساعَ الكبيرِ، واستقرت أحوالهُ الداخليةُ بعد مُضِيّ فترةٍ من خلافة عبد الملك بن مروان. وأهم هذه الأسباب : أن العالَمَ الإسلاميَّ كان يتعامل حتى ذلك الوقت بالعُملة المالية الفارسية والرومية، من دراهمَ ودنانير. وهذه العُمْلاتُ الماليةُ قد تناقصت كِمياتُها المتداوَلُة بشكلٍ يثير القلقَ بعد انهيار الإمبراطورية الفارسيةِ واضطرابِ الأحوالِ في إمبراطورية الروم، فلم يَعُدْ حَجْمُ هذه العُمْلاتِ المتوافرِ يكفي لتغطيةِ النشاط التجاري والاقتصادي والحاجةِ الماليةِ للدولة الإسلامية الواسعةِ والنشيطة، وكان الغِشُّ والتزييفُ قد انتشر في الدراهم منذ أواخرِ عهدِ الدولة الفارسية، وكذلك كان حالُ الدنانيرِ الرومانيةِ إثْرَ اضطرابِ أمور الدولة منذ زمنٍ بعيد، وفسادِ ذممِ بعض المتعاملين بها من العرب أنفسِهم، وممن دخل في دولتهم، فأدى ذلك إلى أضرار وخيمة، منها : هبوطُ قيمةِ العملةَ وارتفاعُ أسعار الحاجيات، وزوالُ الثقة المالية، ومن أهمها الغَبْنُ الذي يقع على الدولة في استيفاء حقوقها من الموارد، فيؤدي ذلك إلى نقص كمية الخَراج . كما أن الاختلاف في الأنظمة المالية السائدة في الدولة الإسلامية من نظم مالية فارسية وبيزنطية كان سببًا في الاختلاف الواضح بين أحكام الجزية والخراج وعشور الأرض وعشور التجارة في العراق وفارس عنها في الشام ومصر، مما قد يُسبب بعضَ الصعوبات الاقتصادية. وكان بعضَ الخارجين على الدولة يسارعون بسك عُمْلاتٍ خاصةٍ بهم، ومن هؤلاء " قَطري بن الفُجاءة " – وهو من قادة الخوارج – و"عبد الله بن الزبير"، وأخوه "مصعب" وغيرهم؛ كمظهر من مظاهر السيادة وتكريس الوجود والسيطرة السياسية .

كل هذه العوامل كانت تتجمع لتشكل حافزًا إلى ضرب سَكَّة إسلاميةٍ خاصةٍ، يتعال بها المسلمون جميعهم، وتكونُ أساسَ نظامهم المالي، غيرَ معتمدين في ذلك على غيرهِم من الدول والشعوب، وكان الذي فعل ذلك على

الوجه الشامل هو الخليفة عبد الملك بن مروان في الشام سنة (٧٤هـ)، ثم أمر بتعميمها في جميع النواحي سنة (٧٦هـ) .

أما **السبب المباشر** والقريب والذي احتفى به بعض المؤرخين والرواة فجعلوه سببَ تعريب العملة وسكَّها في دار الإسلام فهو أنه في نطاق المبادلات التجارية بين الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، كانت القراطيس تدخل بلادَ الروم من أرض مصر وفي مقابل ذلك الدنانير تأتي إلى العرب من قِبَل الروم، فكان عبدُ الله أولَ من أحدث الكتابَ الذي يُكتب في رءوس الطوامير (الصحائف) مثل ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وغيرها مِن ذِكرْ الله، فكتب إليه ملِكُ الروم: "إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتابًا نكرهه ، فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذِكْر نبيكم ما تكرهونه"، فكَبُر ذلك في صدر عبد الملك أن يدع سُنَّة حسنةً سنَّها، فاستدعى خالدَ بن يزيد بن معاوية وقص عليه الخبر، فقال خالد : "يا أمير المؤمنين، حرِّمْ دنانيرهم فلا يُتعامل بها، واضربْ للناس سكَكًا، ولا تُعفِ هؤلاء الكفرةَ مما كرِهوا في الطوامير". فقال عبد الملك : " فرَّجْتَها عني فَرَّج الله عنك"، فقام بسكِّ الدنانير والدراهمَ، وجعلهما "على شكلين مُدَوَّرين، والكتابةُ عليهما في دوائر متوازية، يُكتب فيها من أحد الوجهين أسماءُ الله تهليلاً وتحميدًا وصلاةً على النبي وآله، وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة". ويُروي أن عبدُ الملك كتب على الدنانير﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وفي الوجه الآخر" لا إله إلا الله "، وطوَّقه بطوق فضة، وكتب فيه "ضُرب بمدينة كذا"، وكتب خارجَ الطوق "محمدٌ رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق". ولم يكتف عبدُ الملك بتعريب العملة؛ بل وَحَّد عِيارها ووزْنها، وجعل وزن الدرهم العربى أربعةَ عَشرَ قيراطًا من قراريط الدينار العزيز، فصار وزنُ كل عشرة دراهم دينارًا" .

ولما صدرت العملةُ الإسلاميةُ وكثُرت أمر عبدُ الملك بمنع التعامل بالنقود الأجنبية الرومية والفارسية التي كان أكثرُها مغشوشًة، وجمُعتْ من الأسواق، وأُعيد سَبْكُها وطَبْعُها على النسبة الجديدة، وهكذا انتهي التعاملُ نهائيًا بالنقود الأجنبية، وصارت العملةُ الرسميةُ المعترَفُ بها منذ ذلك الحين هي العملةُ العربيةُ الإسلاميةُ الصحيحةُ: الدينارُ العربيُّ الذهبُّي الخالص، والدِّرْهمُ الإسلاميُّ الفِضِّيُّ الخالص، والوَحْدَاتُ اللائي ينقسمن إليها، وأصبحت منزلة هذه العملةُ أشرفَ منزلة؛ لأنها كانت تمثل أعلى درجة في الجودة والنقاء.

القسـم الثانـي

تاريخ الدولة العباسية

أ.د. يسري أحمد عبد الله زيدان

الوحدة السادسة
خلفاء العصر العباسي الأول
(١٣٢- ٢٣٢م/٧٤٩- ٨٤٦م)

الأهداف :

في نهاية هذه الوحدة، ينبغي أن يكون الدارس ملمًّا بما يأتي:

١- التعرف على صفات خلفاء العصر العباسي الأول ودحض الشبهات المتصلة بهم.

٢- معرفة فتوحات العباسيين الأوائل وأعمالهم الحربية.

٣- الوقوف على مواجهة العباسيين للفتن والثورات والأخطار المهددة لدولتهم.

٤- الإلمام ببعض الجوانب الحضارية لخلفاء العصر العباسي الأول.

العناصر :

١- إثبات صفات الحزم والقوة والعلم والفصاحة والكفاءة لخلفاء العصر العباسي الأول، ونفي صفات اللهو والعبث والرخاوة والجهل والبخل.

٢- إبراز دور العباسيين الأوائل في زيادة رقعة الدولة الإسلامية من خلال فتح طبرستان وكشمير وعمورية والمحافظة على الفتوحات الإسلامية في البلاد المفتوحة، واستكمال نشر الإسلام فيها بالحسنى والدعوة الإسلامية الطيبة والإقناع الهادي.

٣- إثبات دور العباسيين الأوائل في التصدي للحركات المنحرفة والثورات المعوجة والأفكار الهدامة التي ظهرت في إيران بصفة خاصة وما جاورها من بلاد.

٤- نهض العباسيون الأوائل بالمسلمين نهضة حضارية عملاقة في جميع مظاهر الحيوات المختلفة، فساد الرخاء، وبنيت المدن ورخصت الأسعار، وازدهرت الحياة الفكرية، ونعم المجتمع بالاستقرار والأمان.

خلفاء العصر العباسي الأول

(١٣٢- ٢٣٢م/٧٤٩- ٨٤٦م)

تمهيد:

حكم في العصر العباسي الأول تسعة من الخلفاء هم: أبو العباس السفاح عبد الله بن محمد بن علي (١٣٢- ١٣٦هـ/ ٧٤٩- ٧٥٣م) وأبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣- ٧٧٤) ومحمد المهدي (١٥٨- ١٦٩هـ/٧٧٤- ٧٨٥م) وموسى الهادي بن المهدي (١٦٩- ١٧٠هـ/٧٨٥- ٧٨٦م) وهارون الرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ/٧٨٦- ٨٠٨م) ومحمد الأمين (١٩٣- ١٩٨هـ/٨٠٨- ٨١٣م) وعبد الله المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ/٨١٣- ٨٣٣م)، ومحمد بن المعتصم (٢١٨- ٢٢٧هـ/٨٣٣- ٨٤١م) وهارون الواثق بالله (٢٢٧- ٢٣٢هـ/ ٨٤١- ٨٤٦م). وكان لكل خليفة من هؤلاء الخلفاء شخصيته المميزة له، وأعماله التي قام بها، وكانت هناك مآخذ على كل خليفة منهم، وشبهات وتهم التصقت ببعضهم. وقبل تناول أحوال المسلمين السياسية والحضارية في عهودهم، لا بد من عرض الملامح والصفات الشخصية لهؤلاء الخلفاء في العصر العباسي الأول.

١- أول خلفاء العباسيين أبو العباس السفاح (١٣٢- ١٣٦هـ/٧٤٩- ٧٥٣م) وبويع له بالكوفة وخطب بجامعها خطبة قال فيها: «...فأملى الله لبني أمية حينا فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقوقنا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير». وعبارته هذه كانت سببًا من أسباب اتهامه بالبطش وسفك الدماء. غير أن رواية الطبري الكاملة لخطبته تبين المراد من قوله حيث ورد فيها: «وقد زدتكم في أعطيتاكم مائة درهم، فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح والثائر المبير»، وهو أن أبا العباس السفاح جواد كريم، كثير سفك دماء الإبل والنعم. والملاحظ أن اليعقوبي الذي يميل إلى التشيع لم يورد عبارة أبي العباس السفاح في كتابه ضمن خطبته، وإن كان قد قرن اسمه بلقب السفاح فقال: «أيام أبي العباس السفاح». أما الطبري وغيره من مؤرخين سابقين عليه مثل خليفة بن خياط وابن قتيبة وأبي حنيفة الدينوري وكلها مصادر قريبة من الأحداث والتاريخ العباسي في عصره الأول فقد خلت مصادرهم من وصف الخليفة أبي العباس بـ «السفاح» وكذلك لم يأت هذا اللقب عند الجهشياري في كتابه «الوزراء والكتاب».

ويذهب بعض الباحثين إلى أن المسعودي (ت٣٤٦هـ) هو أول من أطلق لقب «السفاح» علي أبي العباس ثم تبعه المؤرخون المتأخرون. وبهذا الرأي أخذ د. عبد الحميد العبادي وأضاف المزيد من القرائن التي تنفي أن يكون أبو العباس قد تلقب بلقب (السفاح) بسبب سفكه للدماء، فهو عفيف حسن المعاشرة لأهل بيته، لم يتزوج أو يتسرى على امرأته أرملة سليمان بن هشام بن عبد الملك، ولم تخرجه أبهة الملك وعظمة السلطان عن بساطته التي عرف بها قبل الخلافة. ولفظ (السفاح) وصف عربي قديم جرى مجرى العلم، فثم السفاح التغلبي الذي كان رئيس تغلب يوم الكلاب الأول. وهناك السفاح بن عبد مناة الشاعر. والعرب أطلقت هذا الوصف اصطلاحًا ليس على من يسفك الدماء كما يتبادر إلى الذهن. والرواية التاريخية القديمة والمعاصرة لا تذكر لفظ (السفاح) مطلقًا عندما تتكلم على أول الخلفاء العباسيين، فأبو حنيفة الدينوري في (الأخبار الطوال) والطبري في تاريخه يصفان أبا العباس بأمير المؤمنين ورواية هذين المؤرخين من حيث الإسناد تكاد تصعد إلى عصر أبي العباس نفسه ولا تذكر له من حوادث القتل والمثلة شيئًا، وتشير إلى أن من تولى كبر ذلك رجال غير أبي العباس أبرزهما عبد الله بن علي، وداود بن علي عمَّا الخليفة أبي العباس. وقد أكد د. عبد المنعم ماجد على تبرئة السفاح من صفة سفك الدماء وألحق هذه الصفة بعمه عبد الله بن علي، لا سيما وأن لقب أبي العباس نفسه قد اختلف فيه، فقيل كان من لقبه (القائم) وقيل (المهدي) وقيل (المرتضى) مما يبعد عنه حتى التسمية بالسفاح.

والحق أن هناك مصادر نصت صراحة على وصف عم الخليفة عبد الله ابن علي بالسفاح، من هذه المصادر «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة الذي يقول: «وذكروا أن أبا العباس ولي عمه عبد الله بن علي الذي يقال له «السفاح» الشام، وأمره أن يسكن فلسطين...». ولما خرج عبد الله بن عليّ على أبي جعفر المنصور فإن ابن قتيبة قال: «خروج السفاح» واصفًا عبد الله بن علي ، ويذكر المؤلف المجهول في (أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها) أن بني العباس تغلبوا على بني أمية بالمشرق «وقتل مروان في سنة اثنتين وثلاثين (ومائة) فسير برأسه إلى السفاح ثم سير به إلى أبي العباس ببغداد وهو معسكر

بها، وتتبع السفاح بني أمية...» ويذكر المؤلف المجهول في موضع آخر أن بني أمية اجتمعوا عند السفاح وأدخلهم على نفسه في سرادق ليرسلهم إلى أمير المؤمنين . وواضح أن المقصود بالسفاح هنا هو عبد الله بن علي الذي كان على بلاد الشام في عهد الخليفة أبي العباس والخليفة المنصور من بعده.

وقد ذكرت المصادر أن الخليفة أبا العباس السفاح توفي شابًّا في الثالثة والثلاثين من عمره . وكان شابًّا مهيبًا وقورًا، ضرب بجوده المثل، حتى إنه وصل عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بألفي ألف درهم، ولم يعط خليفة هذا المبلغ. وكان مقصدًا في معيشته حتى إنه لما توفي أحصوا ما خلف من الثياب، فإذا هي تسع جباب، وأربعة أقمصة، وخمسة سراويلات، وأربعة طيالسة وثلاثة مطارف خز وأنه ما وعد عدة فأخرها عن وقتها ولا قام من مجلسه حتى يقضيها.ونقل المسعودي العديد من الأخبار والروايات الدالة على حسن شخصية أبي العباس السفاح . أما المؤرخ النصراني ابن العبري فإنه انفرد بأن أبا العباس كان «يكره الدماء ويحامي عن أهل البيت».

٢- ولا شك في أن دعائم الدولة العباسية قد ثبتت في خلافة أبي العباس السفاح، واستقرت دعائمها، لكن الخليفة من بعده أخاه المنصور قد أضاف إلى دولة العباسيين كثيرًا، بتنظيمه لدواوينها وبإنشائه لعاصمتها بغداد، وغير ذلك من أمور مهمة جعلته المؤسس الحقيقي للخلافة العباسية. وتولى الخليفة أبو جعفر المنصور الخلافة سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٣م إلى سنة ١٥٨هـ/٧٧٤م. ووصف الخليفة أبو جعفر المنصور بأنه من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وعلمائهم وذوي الآراء الصائبة والتدبيرات السديدة، وقور شديد الوقار، حسن الخلق، من أشد الناس احتمالًا لما يكون من عبث أو مزاح. وكان يلبس الخشن وربما رقع قميصه. ولم يكن يرى في داره لهو أو لعب أو ما يشبه اللهو واللعب. يدل على ذلك أنه سمع مرة صوتًا عاليًا فسأل بعض مواليه فأخبره أن بعض الخدم يلعبون بالطنبور فتنمر وسأل عن الطنبور، فوصف له، فأمر بضرب رأس الخادم بالطنبور حتى تكسر الطنبور وباع الخادم. وكان جيد المشاركة في العلم والأدب، فصيحًا بليغًا مفوهًا، وكان من أعلم الناس بالحديث والأنساب،

مشهورًا بطلبه، وهو أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية بالعربية ككتاب كليلة ودمنة وكتاب إقليدس في الهندسة.

ويذكر ابن طباطبا أن المنصور هو الذي أصل الدولة وضبط المملكة ورتب القواعد وأقام الناموس واخترع أشياء، منها عمل الخيش الكتان في الصيف ولم يكن الناس قبله يعرفون ذلك، وكان الأكاسرة يطينون كل يوم من أيام الصيف بيتًا يسكنونه وكذلك بنو أمية، ثم في الغد يُطيَّن بيت آخر، وأورد ابن طباطبا ما اتهم به المنصور من صفة البخل وأنه كان مبخَّلا يُضْرَبُ بشحِّه الأمثال، لكن ابن طباطبا برأه من هذه الصفة بقوله: «وقيل كان كريمًا وإنه لما حج أفضل على أهل الحجاز فكانوا يسمون عامه عام الخصب، والصحيح أنه كان رجلًا حازمًا يعطي في موضع العطاء ويمنع في موضع المنع، وكان المنع عليه أغلب».

وسبب اتهامه بالبخل والحرص ووصفه بـ «أبي الدوانيق» أنه كان يحاسب العمال والصناع على الدوانيق والحبات . وبخاصة عند بناء بغداد. لكنه كان يبذل الأموال في مواضعها . وهناك أخبار عديدة تدل على اقتصاده منها أن جارية رأت قميصه مرقوعًا فكلمته فقال:

قد يدرك الشرفَ الفتى ورداؤه خَلْقٌ وجيْبُ قميصه مرقوعُ

ومنها أن ابنه المهدي وجد عنده ثيابًا خلقًا مرقوعة فقال له: «يا أمير المؤمنين من هاهنا يقول الناس: نظروا في الدينار والدرهم وما دون ذلك –ولم يقل: دانق– فقال المنصور: إنه لا جديد لمن لا يصلح خلقه، هذا الشتاء قد حضر، ونحتاج إلى كسوة للعيال والولد، فقال المهدي: فعلى كسوة أمير المؤمنين وعياله وولده». ومما يروى في اقتصاده أيضًا وحرصه على المال العام للدولة أن أحد أصدقائه قبل الخلافة دخل عليه في حاضرة العباسيين بغداد فسأله عن عياله فقال: ثلاث بنات والمرأة وخادم لهن، فقال المنصور: أربع في بيتك؟ قال الرجل: نعم، فظن الرجل أنه سيعطيه مالًا، فرفع المنصور رأسه قائلًا: «أنت أيسر العرب، أربعة مغازل يدرن في بيتك».

لقد وصف المسعودي المنصور وصفًا دقيقًا، فذكر أنه محنك السن، حازم الرأي، عركته الدهور، وروى العلم وعرف الحلال والحرام، يجود بالأموال حتى

يقال: أسمح الناس، ويمنع في الأوقات حتى يقال هو أبخل الناس «وخلف من الأموال ما لم يجتمع مثله لخليفة قبله ولا بعده، وهو تسعمائة ألف ألف وستون ألف ألف دينار» ففرق المهدي جميع ذلك حين أفضى الأمر إليه .

إن أبا الخلفاء العباسيين كلهم كان شديد الحرص على مالية الدولة، عارفًا بخطورة المال وأهميته في دعم اقتصاد الدول، فلم يسرف أو يبذر في استعماله وإنفاقه دون ظلم لأحد، بدليل أن أرزاق الكتاب والعمال كانت في أيامه ثلاثمائة درهم، واستمرت على ذلك إلى أيام المأمون، فكان أول من سن زيادة الأرزاق الفضل بن سهل: «فأما في أيام بني أمية وبني العباس فلم تزل الأرزاق من الثلاثمائة إلى ما دونها، كان الحجاج يجري على يزيد بن أبي مسلم ثلاثمائة درهم في الشهر».

لقد كان المنصور ينظر في حقير المال ويثمره، وكان لو أن عنده ألف بعير وعنده بعير أجرب لقام عليه قيام من لا يملك غيره. ومع هذا الفهم لقيمة المال وأثره في حياة الدول والأمم إلا أنه تعامل كثيرًا بكل كرم مع أصحاب الحاجات والأعذار.

لقد كان المنصور رجل دولة من الطراز الأول، شغله في صدر نهاره الأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السُّبل والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم وهديهم، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته، فإذا صلى العشاء الآخرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف والآفاق، وشاور سُمَّاره، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه، وانصرف سُمَّاره، وإذا مضى الثلث الثاني قام فتوضأ وصلى حتى يطلع الفجر، ثم يخرج فيصلى بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

ومما يدل على ذلك كله ما روي عن الربيع الحاجب قال: « درنا في الخزائن بعد موت المنصور أنا والمهدي، فرأينا في بيت أربعمائة حُب ، مُسَدَّدة الرءوس، فيها أكباد مملحة مُعَدّة للحصار».

ويدل عليه أيضًا وصيته لابنه المهدي، وفيها أنه جمع له من الأموال ما إن

كسر عليه الخراج عشر سنين لكفاه لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث، وقال له: «فإنك لا تزال عزيزًا ما دام الله بيت مالك عامرًا». وكان المنصور إذا عزل عاملًا أخذ ماله وتركه في بيت مال مفرد سماه (بيت مال المظالم) وكتب عليه اسم صاحبه وقال للمهدي: «قد هيأت لك شيئًا فإذا أنا مت فادع من أخذت ماله فاردده عليه، فإنك تستحمد بذلك إليهم وإلى العامة، ففعل المهدي ذلك».

٣- أما الخليفة المهدي (١٥٨- ١٦٩هـ/٧٧٤- ٧٨٥م) فاشتهر هو الآخر بحسن الاعتقاد وتتبع الزنادقة وأفنى منهم خلقًا كثيرًا، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين، وكان محببًا إلى الخاص والعام، لأنه افتتح أمره بالنظر في المظالم وإنصاف المظلوم، وبسط يده في الإعطاء، فأذهب جميع ما خلفه المنصور سوى ما جباه في أيامه، ففرغت بيوت الأموال، فلما فرغت «أتى أبو حارثة النهري خازن بيوت أمواله، فرمى المفاتيح بين يديه، وقال ما معنى مفاتيح لبيوت فُرغ؟ ففرق المهدي عشرين خادمًا في جباية الأموال، فوردت الأموال بعد أيام قلائل فتشاغل أبو حارثة النهري بقبضها وتصحيحها عن الدخول على المهدي ثلاثة أيام...».

ومن سخائه أنه وصل رجلا مرة بعشرة آلاف دينار، ونقل ابن الأنباري بإسناد أن المهدي أعطى رجلا مرة مائة ألف دينار «وجوائز كثيرة من هذا النمط وأجاز مرة مروان بن أبي حفصة بسبعين ألفًا، وليس هذا الإسراف مما يحمد عليه الإمام». وكان المهدي إذا جلس للمظالم قال: أدخلوا علي القضاة، فلو لم يكن ردّي للمظالم إلا للحياء منهم. ومما يدل على سماحة أخلاقه أنه لما نزل البصرة صلى بالمسلمين في المسجد الجامع بها الصلوات الخمس، وفي يوم أقيمت الصلاة فقال أعرابي: لست على طهر وقد رغبت في الصلاة خلفك فآمر هؤلاء بانتظاري فقال: انتظروه، ودخل المحراب، فوقف إلى أن قيل: قد جاء الرجل، فكبر، فعجب الناس من سماحة أخلاقه. ويذكر له حمل الثلج إلى مكة وإقامة البريد من المدينة المشرفة إلى العراق، وهو أول من عمل البريد من الحجاز إلى العراق، كما يذكر له زيادته الكبرى في المسجد الحرام والمسجد النبوي.

٤- أما موسى بن المهدي الخليفة الهادي (١٦٩- ١٧٠هـ/٧٨٥- ٧٨٦م) فقد واصل قتل الزنادقة تنفيذًا لوصية والده، واشتهر بالفصاحة والشجاعة، غير أن بعض المؤرخين نسب إليه أمورًا من اللهو والعبث. وكان الهادي كثير الطاعة لأمه الخيزران، فتصرفت في الأمور بنفسها دون العودة إليه فقال لها: «لئن وقف ببابك أمير لأقتلنك، أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو سُبحة». ولا شك في أن قصر حكم الهادي الذي كان سنة وأشهر يحول دون التعرف على كل شخصيته وصفاته المميزة له.

٥- ويأتي هارون الرشيد بن المهدي (١٧٠- ١٩٣هـ) على رأس أفاضل الخلفاء العباسيين وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم، يحج سنة ويغزو سنة مدة خلافته إلا سنين قليلة، ويصلى في كل يوم مائة ركعة، ولم ير خليفة أسمح منه بالمال. وكانت أيامه كلها خيرًا، كأنها من حسنها أعراس، وكان يحب العلماء ويعظم حرمات الدين ويبغض الجدال والكلام، ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه، لا سيما إذا وعظ . وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقارًا ورونقًا وخيرًا، وأوسعها رقعة مملكة، وجبي معظم الدنيا، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء ما اجتمع على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة، ويرفعه إلى أعلى درجة. وكان فاضلًا شاعرًا راوية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق والتمييز مهيبًا عند الخاصة والعامة . أمر بإجراء القمح على أهل الحرمين وحمله من مصر إليهم وأجرى على المهاجرين والأنصار، وعلى وجوه أهل الأمصار، وعلى أهل الدين والآداب والمروءات . وأراد أن يوصل ما بين بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وبحر القُلْزَم (البحر الأحمر) مما يلي الفَرَمَا، فقال له يحيى بن خالد البرمكي وزيره وكاتبه قبل الخلافة: «يُخشى أن يَخْتَطِفَ الروم الناس من الحرم وتدخل مراكبهم إلى الحجاز» فترك هذه الفكرة ولم ينفذها. وقد أكثر الرشيد من إنشاء كتاتيب لليتامى في أنحاء مملكته، وقيل إن الرشيد لما توفي سنة ١٩٣هـ/٨٠٨م كان في بيت المال تسعمائة ألف ألف ونيف .

٦- ومن الخلفاء العباسيين في العصر العباسي الأول الذين اختلفت

الروايات وتضاربت الأخبار عن شخصه: الخليفة محمد بن الرشيد، الأمين (١٩٣- ١٩٨هـ) ولم يل الخلافة هاشمي ابن هاشمية سواه وعلي بن أبي طالب، ووصف الأمين بأنه ذو قوة وشجاعة وأدب وفصاحة، ولكنه سيّئ التدبير، مفرط التبذير، أرعن، مع صحة إسلام ودين، وفي الوقت الذي وصف بالدين وصحة الإسلام. ونُعت أيضًا بقبح السيرة، وضعف الرأي، وسفك الدماء وأنه «يركب هواه ويهمل أمره ويتكل في جليلات الخطوب على غيره، ويثق بمن لا ينصحه، وأنه اشتغل باللهو والإقبال على اللذات والانعكاف على الشراب ومنادمة الفساق، ولذا أرسل إلى البلاد فجمع المغاني وأجرى عليهم الرواتب واحتجب عن الأمراء والأعيان، ثم قسم الأموال والجواهر في الحظيات والنساء، واشترى إحدى المغنيات بمائة ألف دينار، وبنى عدة قصور للهو في أماكن. ولا شك في أن هناك مبالغة كبيرة فيما ذهب إليه السيوطي والقرماني خاصة، وهو الأمر الذي خلت منه العديد من مصادرنا التاريخية التي لم تذكر شيئًا عن لهوه وانغماسه في الملذات، ولعل ما ذهب إليه الخليفة الأمين من تقديم ابنه موسى على المأمون في ولاية العهد، مما أدى إلى اندلاع فتنة بين الأخوين راح الأمين ضحية لها، لعل هذا مما جعل بعض المؤرخين يقسون على الأمين، في أحكامهم. وأخيرًا فمما يبين صحة إسلام الأمين، وحسن عقيدته إنكاره على ابن عُليّة في عبارة يستشف منها -فقط- أنه يقول بأن كلام الله مخلوق، مما جعل الإمام أحمد بن حنبل يقول: «إني لأرجو أن يرحم الله الأمين بإنكاره على ابن علية، فإنه أُدخل عليه فقال له: يا ابن الفاعلة، أنت الذي تقول: كلام الله مخلوق؟» وعلق الذهبي على ذلك بأن ابن علية لم يصرح -حاشاه- بل قال عبارة تُلزمه بعض ذلك .

٧- أما الخليفة المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ) فإنه عد من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال، قرأ العلم والأدب والأخبار والتاريخ، وكان عالمًا فصيحًا مفوها، محمود السيرة، واعتبر من كبار العلماء، واشتهر بحبه العفو، ونسب إليه قوله: «لو عرف الناس حبي للعفو، لتقربوا إلى بالجرائم، وأخاف أن لا أوجر فيه».

وكان المأمون قد قرأ العلم في صغره مع أخيه الأمين على أبي حنيفة، وقيل فيه: «إنه لم يل الخلافة من بني العباس أعلم منه»؛ ولأن الخليفة المأمون كان

عطوفًا على العلويين لدرجة أنه عهد بولاية العهد إلى على الرضا بن موسى الكاظم سنة ٢٠١هـ/٨١٦م، وجعله الخليفة من بعده، ولقبه بالرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد أحدًا أفضل ولا أورع ولا أعلم منه، مما جعل العباسيين يخلعون المأمون في السنة السابقة نفسها ويبايعون عمه إبراهيم بن المهدي بالخلافة ومن بعده لإسحاق بن موسى الهادي غير أن عليًّا الرضا توفي سنة ٢٠٣هـ/٨١٨م وفيها خلع إبراهيم ابن المهدي من أهل بغداد التي عادت إلى حكم المأمون، أقول: بسبب عطف المأمون على العلويين نسب إلى التشيع.

على أن المأمون اشتهر أيضًا بتفقد أحوال عسكره ورعيته والنظر فيمن يحبه ويبغضه، ومعرفة أحوال الناس، حتى إنه اتخذ ألفًا وسبعمائة عجوز يدرن في بغداد يعرفنه أحوال الناس في ذلك اليوم .

وأهم عملين قام بهما المأمون في خلافته ونال بهما بعض النقد هما: ترجمته لكتب الفلاسفة اليونانيين وإلزامه الناس بالقول بخلق القرآن، وفيما يتصل بجمع الكتب القديمة المختلفة في مجال الفلسفة بصفة خاصة وما يسمى بعلوم الأوائل بصفة عامة فإنه يبدو أن عصر المأمون شهد مزيدًا من ترجمة هذه الكتب؛ لأنه في خلافة المنصور ترجمت بعض كتب العلوم التجريبية، وكذلك في خلافة العباسيين بدءًا من خلافة الأمويين ترجمت بعض الكتب الطبية، وغيرها على يد يوحنا بن ماسويه الذي ترجم ما وجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد المسلمين من هذه الكتب في خلافة الرشيد والأمين والمأمون وغيرهم . وبالإضافة إلى الكتب الطبية وغيرها التي ترجمت في خلافة المأمون، فإنه اهتم بترجمة كتب أخرى حملت أفكار وخيالات اليونانيين وغيرهم. يذكر فضيلة الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله– أن أرسطو يرى أن الله خلق العالم، وبعد أن خلقه تركه، وانصرف عنه، وانقطع تدبيره له، فهو لا يدري عنه شيئًا، فهل يعقل نقل هذا اللغو ووضعه بإزاء قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]. ويستغرب مولانا الغزالي من شوقي أن يستدل على عظمة «التوحيد» الذي بعث به محمد ﷺ بأنه سبق أن نادى به

الفلاسفة اليونان:

بُنيت على التوحيد وهو حقيقةٌ نادى بها سقراط والقدماءُ

لقد كان المطلوب من الخلفاء العباسيين – وبخاصة المأمون– أن يترجموا الإسلام للناس في كل قطر، يترجموا حقائق الدين وأحكامه السياسية والاجتماعية ومبادئه الروحية والخلقية وأن يضعوا جوائز سنية لمن يقوم بهذا الجهد ويذهب به إلى آفاق الأرض ليشرح له صدورًا وينير عقولاً، بدلاً من ترجمة أفكار وخيالات الأمم المختلفة .

وبالفعل توسع المأمون في ترجمة الكتب الفلسفية، وكانت بينه وبين ملك الروم ثيوفيل مراسلات ، وكتب المأمون إليه يستأذنه في إرسال كتب العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم «فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسَلْمًا صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا ما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل. وقد قيل: إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم وأحضر المأمون أيضا حنين ابن إسحاق وكان فتى السن، وأمر بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى العربي، وإصلاح ما ينقله غيره، فامتثل أمره».

ويذكر ابن صاعد أن يوحنا بن ماسويه خدم في صناعة الطب هارون الرشيد والمأمون وبقي إلى أيام المتوكل، وكان قلده هارون ترجمة الكتب القديمة التي وجدت بأنقرة وبغيرها من بلاد الروم حين افتتحها المسلمون فترجم منها كثيرًا، إذ له في الطب تآليف عظمية القدر.

ويقول ابن صاعد: «ثم أفضت الخلافة إلى الخليفة السابع منهم عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور تمم ما بدأ به جده المنصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه، واستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة، فراسل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطو طاليس، وأبقراط، وجالينوس، وأوقليدس، وبطليموس،

وغيرهم من الفلاسفة، فاستجاد لهم مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها، فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها فنفقت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره...». فملوك الروم أبلوا المأمون بعلوم الفلسفة وعلوم الأوائل، لينتشر الجدل والاختلاف بين المسلمين، وهذا كان له أثر في ظهور مذهب الاعتزال واعتناق المأمون له. ويذكر فضيلة الشيخ الغزالي أن المعتزلة ربما خدعوا بفكر اليونان حينًا .

كما استخرج المأمون كتب الفلاسفة واليونان من جزيرة قبرص أيضًا وكان المأمون يجل أهل الكلام ويتناظرون في مجلسه. وهكذا بحث المأمون عن مؤلف علماء اليونان في القسطنطينية وقبرص وأنطاكية وغيرها من المدن، وأجرى الأرزاق على طائفة كبيرة من المترجمين لنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية ، ومزج المأمون بعلم العرب علوم الأوائل من النجوم والمنطق .

فالتأثر بالثقافة اليونانية –عندي– أدى إلى ظهور الفرق الإسلامية كالمعتزلة والأشاعرة والماتريدية وغيرها، والتعرف على بعض نظرياتهم ومنهاجهم فيها، مما أدى إلى ظهور قضايا جدلية بعيدة عن روح وسمو العقيدة الإسلامية خاصة والفكر الإسلامي عامة، فأحيطت العقيدة بصنوف مختلفة من الشقشقات الفلسفية والجدل العقيم الذي لا يفضي إلى شيء حاسم مقطوع به، بعد أن كانت العقيدة تعرض بسهولة ويسر اعتمادًا على صفائها ووضوحها.

وبسبب بعد المأمون عن منهج أهل السنة، فإنه اتهم من قبل بعض المستشرقين بفساد عقيدته ، والمأمون – بصفة خاصة – معتزلي أصيل، اعتنق مذهب الاعتزال، ومكن لهم في خلافته، واستطاعوا في خلالها أن يعمقوا جذورهم وأن يبسطوا نفوذهم .

وأما أفكار المعتزلة التي أظهرها المأمون سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وحمل الناس عليها وامتحنهم فيها سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م القول بخلق القرآن، وهو القول الذي دافع عنه حتى مات يقول الذهبي: «أما مسألة خلق القرآن، فما رجع عنها، وصمم على امتحان العلماء في سنة ثماني عشرة، وشدد عليهم فأخذه الله». ويذكر ابن طباطبا أن من اختراعات المأمون إلزام الناس أن يقولوا بخلق القرآن،

ففي أيامه نشأت هذه المقالة: «ونوظر فيها أحمد بن حنبل وغيره، ولما مات المأمون أوصى أخاه المعتصم بها، فلما ولي المعتصم تكلم فيها وضرب أحمد ابن حنبل». ولا شك أن حمل الناس على القول بخلق القرآن ومعاقبة كل من لم يؤمن بهذه المقولة يدل دلالة واضحة على مدى اعتزالية المأمون، وعمق إيمانه بهذه القضية ومحاولة تصحيح عقيدة المسلمين الفاسدة –في نظره– الذين يرون أن القرآن قديم؛ لأن الفكر الاعتزالي يؤمن بتفرد الله بالقِدم، وعدم الاعتراف بخلق القرآن يوهم اشتراك القرآن مع الله في صفة القدم، مما يخل بمبدأ التوحيد عند المعتزلة ويؤدي إلى الشرك بزعمهم. ومما يؤكد قوة تمسك المأمون بمبادئ المعتزلة واتجاهاتهم وأقوالهم ومنها القول بخلق القرآن ما جاء عند ابن العماد «امتحن المأمون العلماء بخلق القرآن وكتب في ذلك إلى نائبه على بغداد إسحاق بن إبراهيم وبالغ في ذلك وقام في هذه البدعة قيام متعبد بها وأجاب أكثر العلماء على سبيل الإكراه، وتوقف طائفة ثم أجابوا وناظروا فلم يلتفت إلى قولهم، وعظمت المصيبة بذلك، وتهدد على ذلك بالقتل، ولم يصف من علماء العراق إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فقيدا وأرسلا إلى المأمون وهو بطرسوس، فلما بلغا الرقة جاءهم الفرج بموت المأمون».

ومما يدل على التشدد البغيض والتعصب الممقوت من أصحاب الفكر الاعتزالي الذين يدعون الحرية العقلية وتشجيع الفكر الحر على الظهور والمناظرة أن أمر إكراه الناس على اعتناق فكرة خلق القرآن لم تقتصر على مدن الخلافة العباسية فقط، وإنما تعدت ذلك إلى المرابطين في الثغور مع العدو، إذ يذكر الطبري أنه في سنة ٢٣١هـ/ ٨٤٥م أمر الخليفة العباسي الواثق بامتحان أهل الثغور في القرآن «فقالوا بخلقه جميعًا إلا أربعة نفر، فأمر الواثق بضرب أعناقهم إن لم يقولوه، وأمر لجميع أهل الثغور بجوائز». وفي السنة السابقة نفسها حدث فداء بين أسرى المسلمين والروم لم يحدث منذ أيام الأمين سنة أربع أو خمس وتسعين ومائة، واجتمع المسلمون على نهر اللامس بالقرب من طرسوس، وأمر الواثق عامله على الثغور والعواصم أحمد بن سلم وخاقان الخادم أن يمتحنا أسرى المسلمين فمن قال: القرآن مخلوق وإن الله لا يُرى في الآخرة

فودي به وأعطي دينارًا، ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم ففودي من قال بخلق القرآن من المسلمين وبلغ عددهم أربعة آلاف وستمائة نفس، منهم النساء والصبية ثمانمائة، وأهل الذمة مائة نفس أو أكثر، بينما رُدّ من لم يقل بخلق القرآن. وهذه بدعة «صلعاء شنعاء عمياء صماء لا مستند لها من كتاب ولا سنة، ولا عقل صحيح».

فأهل الذمة الذين كانوا أكثر من مائة نفس، وبلغوا في إحدى روايات الطبري خمسمائة أطلقوا بلا شرط من الواثق أما المسلمون فهناك شرط القول بخلق القرآن وإلا بقوا في أيدي الكافرين ولتقارن بين هذا الموقف من الواثق في هذا الفداء، وبين موقف الروم من فداء آخر تم سنة ٢٤١هـ/ ٨٥٥م في خلافة المتوكل، وفيه عرضت ملكة الروم على أسرى المسلمين النصرانية أو القتل، وقتلت من الأسرى اثني عشر ألفًا، ثم أرسلت تطلب المفاداة لمن بقي منهم، فكان أسرى المسلمين سبعمائة وخمسة وثمانين إنسانًا، ومائة وخمسًا وعشرين امرأة .

وهكذا استمرت البدعة التي تبناها المأمون حتى نهاية عصر الواثق، ولم تترك أحدًا دون أن يتلظى بها، حتى إن المعتصم لما بويع بالخلافة سلك ما كان عليه أخوه المأمون وختم به عمره من امتحان الناس بخلق القرآن، فكتب المعتصم إلى البلاد بذلك وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك، وقاسى الناس منه مشقة في ذلك، وقتل عليه خلقًا من العلماء، وضرب الإمام أحمد بن حنبل. ولما أفضت الخلافة إلى المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال، وأظهر الميل إلى السنة ونصرة أهلها ورفع المحنة، وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة، وأجزل لهم العطاء وأكرمهم، واجتمعت ألوف الناس على مجالس العلماء، فخمدت المعتزلة، حتى قيل: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق ﷺ في قتال أهل الردة، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم، والمتوكل في إحياء السنة وإماتة التجهم .

وما كان أحرى بالأمة الإسلامية أن تمضي في النظر إلى أصول الدين معتمدة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بعيدة عن الاستناد إلى المنطق ونظريات الفلسفة في شرح أصول الدين ومعالمه، وكان هذا سيوفر وقتا وجهدًا

ودماء زكية أهرقت ظلما وعدوانًا، مما يفيد في إثراء الفكر الإسلامي والمحافظة على نقائه وصفائه، وفي جمع الكلمة وتوحيد الصف، والعمل على نهضة الأمة. ويذكر القلقشندي أن مقاصد المأمون كلها جميلة، خلا ما نحا إليه من القول بخلق القرآن والتشيع، وبث علوم الفلاسفة بين المسلمين.

٨- وإذا كان المعتصم والواثق قد اشتركا في صفة واحدة تابعا فيها المأمون في القول بخلق القرآن، فإن كل واحد منهما انفرد بصفات أخرى، فالمعتصم الذي يقال له المثمن؛ لأنه ثامن الخلفاء من بني العباس، والثامن من أولاد الرشيد، وملك سنة ثماني عشرة وملك ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة، وعاش ثمانيًا وأربعين سنة وخلف ثمانية أولاد وثماني بنات وترك ثمانية آلاف ألف درهم، ومات لثمان بقين من ربيع الأول – عد من أعظم الخلفاء وأهيبهم، ذي بأس وشدة في جسمه، وشجاعة في قلبه، ولم يجتمع الملوك بباب أحد قط اجتماعهم بباب المعتصم، ولا ظفر ملك قط كظفره، أسر ملك أذربيجان، وملك طبرستان، وملك فرغانة، وملك طخارستان، وملك كابل وغيرها.

وكان المعتصم يحب العمارة، ويقول: إن فيها أمورًا محمودة، فأولها عمران الأرض التي يحيا بها العالم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال، وتعيش البهائم، وترخص الأسعار، ويكثر الكسب، ويتسع المعاش، وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك: إذا وجدت موضعًا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهمًا فلا تؤامرني فيه.

٩- أما الواثق آخر خلفاء بني العباس في العصر الأول، فإنه كان فصيحًا، شاعرًا، يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته، وقد أحسن إلى بني عمه الطالبيين وبرهم، فما مات وفيهم فقير، ويروى أن هارون بن زياد مؤدب الواثق دخل إليه، فأكرمه إلى الغاية فقيل له: من هذا يا أمير المؤمنين الذي فعلت به هذا الفعل؟ فقال: هذا أول من فَتَقَ لساني بذكر الله وأدناني من رحمة الله .

والخلفاء العباسيون الأوائل – الذين مر ذكرهم- كانوا يحكمون بأنفسهم لا تتحكم فيهم قوة، ولا يخضعون لعنصر من العناصر الخاضعة للخلافة العباسية، وإنما كانوا أكفاء للحكم، أقوياء على قدر المسئولية، ويعدُّ عصرهم

العصر الذهبي للخلافة العباسية.

فتوحات العباسيين وجهادهم للروم وغيرهم:

شاع بين الباحثين والدارسين أن الفتوحات الإسلامية توقفت بعد عصر الخلافة الأموية، فلم يضف العباسيون شيئًا من الفتوحات للدولة الإسلامية، ولم يكن لهم نصيب في زيادة رقعة الدولة الإسلامية، والحقيقة أن فتوحات المسلمين بلغت مداها ووصلت إلى غايتها في عهد الأمويين، وتحددت معالم حدود الدولة الإسلامية وحدود دولة الروم على أساس هذه الفتوحات لكنها توقفت بعد خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦- ٩٦هـ) ولم تضف للدولة الأموية مساحات بعده تستحق الذكر والوصف بأنها فتوحات. ولذلك أتعجب من قول ابن طباطبا عن سليمان بن عبد الملك: «كانت أيامه ذات فتوح متوالية». واقتصر جهاد الأمويين للروم على محاولة فتح القسطنطينية سنة ٩٨هـ/ ٧١٧م في خلافة سليمان بن عبد الملك بقيادة أخيه مسلمة، واستمرت هذه المحاولة المشكورة إلى وفاة سليمان في العام التالي، فأمر عمر بن عبد العزيز برفع الحصار وسحب القوات الإسلامية المحاصرة للقسطنطينية، لصعوبة الفتح في هذا الوقت. وكان لولاة الأندلس محاولات جادة لفتح غالة (فرنسا) في أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١هـ) ويزيد بن عبد الملك (١٠١- ١٠٥هـ) وهشام بن عبد الملك (١٠٥- ١٢٥هـ). ومن الغريب أيضًا أن يقول ابن طباطبا عن خلافة يزيد بن عبد الملك: «ولم تكن دولة يزيد طائلة، ولا وقع فيها من الفتوح والوقائع ما تحسن حكايته».

وقد ظهر مصطلح الصوائف (جمع صائفة) والشواتي (جمع شاتية) في عهد الأمويين للدلالة على إغارات وغزوات الصيف والشتاء على أطراف بلاد الروم، وإظهار قوة الدولة الإسلامية، وقدرتها على تهديد دولة الروم وتهديد سلامتها .

وكان خط الحدود بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية قد وقف عند سقوط الخلافة الأموية عند منطقة الأطراف التي تفصل جنوب آسيا الصغرى، والتابعة للبيزنطيين عن شمال الشام والعراق من أملاك الدولة الإسلامية، وزاد من منعة خط الحدود بين المسلمين والبيزنطيين أن كان يتكون من جبال طوروس

والجبال التي تليها، كأن الطبيعة جعلتها حاجزًا قويًّا بين هاتين القوتين الكبيرتين، وقد تعرض هذا الخط من الحدود إلى أخطار شديدة من جانب البيزنطيين، وذلك في الفترة التي شهدت سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية. ولكن ما أن استتب الأمر للعباسيين حتى بادروا إلى تقوية خط الحدود التابع لدولتهم، ثم نظم الخلفاء العباسيون حملات عديدة، استطاعت أن تعبر هذا الخط الدفاعي وأن تهدد عاصمة البيزنطيين نفسها، وهي القسطنطينية. واضطربت السلطات البيزنطية إلى دفع الجزية سنويًّا للدولة العباسية طلبًا للسلام.

وقبل تناول حرب الثغور بين العباسيين والبيزنطيين يجب ذكر فتوحات العباسيين، ومن أهمها فتح طبرستان سنة ١٤١هـ/٧٥٨م، وهي تقع جنوب بحر قزوين في شمال إيران، والغالب على هذه النواحي الجبال ، وهي بلاد في غاية الحصانة والمنعة، وكان ملوك الفرس يولونها رجلاً يسمونه الأصُبْهُبذ، فإذا عقدوا له عليها لم يعزلوه عنها حتى يموت، فإذا مات أقاموا مكانه ولده إن كان له ولد، وإلا وجهوا بأصبهبذ آخر، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الإسلام وفتحت المدن المتصلة بطبرستان، وكان صاحب طبرستان يصالح على الشيء اليسير فيقبل منه لصعوبة المسلك، فلم يزل الأمر على ذلك حتى ولي عثمان بن عفان سعيد بن العاص الكوفة سنة ٢٩هـ/٦٤٩م فغزا طبرستان، فافتتح منها رُوَيان ، ودُنْبَاوَنَد . وأعطاه أهل الجبال مالاً وكان المسلمون يغزون طبرستان ونواحيها فربما أعطوا الأتاوة عفوًا وربما أعطوها بعد قتال.

فلما ولي معاوية أمر مصقلة بن هبيرة بغزو طبرستان فسار إليها ومعه عشرون ألف رجل، فكاده العدو وأروه الهيبة له حتى توغل بمن معه في البلاد، فلما جاوروا المضايق والعِقاب دهده العدو الصخور من الجبال على رءوسهم، فهلك ذلك الجيش كله «وهلك مصقلة فضرب الناس به المثال فقالوا: حتى يرجع مصلقة من طبرستان» .

وحدث للمسلمين حادث مشابه بطبرستان أيضًا أثناء ولاية عبيد الله بن زياد ابن أبي سفيان على العراق في العصر الأموي، فكان المسلمون بعد ذلك إذا غزوا هذه البلاد تحفظوا وتحذروا من التوغل في طبرستان، إلى أيام سليمان بن

عبد الملك سنة ٩٨هـ/٧١٦م فأرسل يزيد بن المهلب من خراسان فأناخ على طبرستان، فاستنجد الأصبهبذ الديلم فأنجدوه وقاتلوا يزيد أيامًا ثم صالحه على مال يؤديه سنويًّا للدولة الأموية، ولم يزل أهل طبرستان يؤدون هذا الصلح مرة ويمتنعون أخرى إلى أيام مروان بن محمد، فإنهم نقضوا ومنعوا ما كانوا يحملونه، فلما ولي السفاح وجه إليهم عاملاً فصالحوه على مال ثم غدروا وقتلوا المسلمين، وذلك في خلافة المنصور، فوجه إليهم المنصور حازم بن خزيمة التميمي وروح ابن حاتم المهلبي ومعهما مرزوق أبو الخصيب مولاه، فنزلوا على طبرستان وملكوا البلد، وولي عليها المنصور جهور بن مراد العجلي الذي كان قد أبلى بلاء حسنًا في قتال الديلم.

وفي عهد المأمون افتتح موسى بن حفص جبال شَرْوين من طبرستان «وهي من أمنع الجبال وأصعبها» فولى المأمون عند ذلك طبرستان المازيار وسماه محمدًا وجعل له مرتبة الأصبهبذ، فلم يزل واليًا عليها حتى توفي المأمون واستخلف المعتصم فأقره عليها، واستمرت طبرستان ولاية إسلامية تابعة للدولة العباسية . ففتح طبرستان إذًا حدث في خلافة المنصور وكان الفتح الأول لها، ويذكر المؤرخ النصراني ابن العبري أنه في خلافة المنصور: «خضع للعرب بلد طبرستان. وهذا البلد يحده شمالاً بحر قزوين وشرقًا جرجان وجنوبًا ماداي وبعض فرثية، وغربًا الديلم. وهو يشتمل على خمس مدن مسورة، وتكثر فيها الجبال والغابات والمروج والأودية والمضايق».

ويدل على فتح طبرستان وكونها أصبحت ولاية إسلامية أنه في سنة ١٦٢هـ/٧٧٨م في خلافة المهدي ظهرت فرقة ضالة هي المحمرة بمدينة جُرجان الواقعة بين طبرستان وخراسان، بزعامة رجل اسمه عبد القهار، وتمكن من جُرجان وقتل بشرًا كثيرًا، « فغزاه عمر بن العلاء من طبرستان، فقتل عبد القهار وأصحابه».

ومعنى هذا أن طبرستان كانت إحدى ولايات الدولة العباسية المستقرة، الأمر الذي أدى إلى خروج المسلمين منها للقضاء على فتنة بمدينة جرجان، ويذكر د. عبد المنعم ماجد أن فتح طبرستان مهد لنشر الإسلام فيها، وفيما جاورها من البلدان التي لم يكن الإسلام قد دخلها بعد، ولا سيما الديلم المجاورة

التي كان قد تأخر إسلامها .

وأكد العباسيون بفتح طبرستان –وغيرها– خرافة قول بعض الباحثين بأن العصر العباسي كان عصر تجميد للفتوحات وتوقيف للانتصارات.

وينسب إلى العباسيين أيضًا المحافظة على فتوحات المسلمين في السند التي تمت بدءًا من سنة ٨٩هـ/٧٠٧م على يد محمد بن القاسم الثقفي، والزيادة فيها، وهي البلاد الواقعة على نهر السند العظيم في شرقي إيران على ساحل بحر الهند، وتعتبر المدخل لقارة الهند، فقد كان بعد هذه البلاد عن مركز الخلافة العباسية يجعل جندها المسلمين وعلى رأسها واليها منصور بن جمهور من قبل الأمويين لا يقبل حكم العباسيين ، مما جعل أبا العباس السفاح يرسل موسى بن كعب سنة ١٣٤هـ ليقضي على فتنة ابن جمهور، لتصفو السند للعباسيين .

ولما تمكن العباسيون من أمر السند ولي أمير المؤمنين المنصور هشام ابن عمرو التغلبي السند «ففتح ما استغلق ووجه عمرو بن جمل في بوارج إلى «باربد» ووجه إلى ناحية الهند فافتتح كشمير وأصاب سبايا ورقيقًا كثيرًا، وفتح المُلتان، وكان بقندابيل متغلبة من العرب فأجلاهم عنها، وأتى القندهار في السفن ففتحها وهدم البد، وبنى موضعه مسجدًا، فأخصبت البلاد في ولايته فتبركوا به ودوخ الثغر وحكم أموره».

ويضيف اليعقوبي أن هشام بن عمرو التغلبي قدم إلى المنصور «بما لم يقدم به أحد من السند». فالملتان التي فتحها محمد بن القاسم في أيام الوليد بن عبد الملك خرج أهلها عن التبعية للمسلمين فأعيد فتحها في أيام المنصور، وفتحت القُندهار «وهدم البُدُّ، وبني موضعه مسجد». وفوق ذلك فتحت كشمير الواقعة شمالي الهند لأول مرة في تاريخ المسلمين في عهد الخليفة المنصور على يد عمرو بن جمل.

ويذكر ابن العبري أن المسلمين أخضعوا «كابول» بناحية الهند في خلافة المنصور سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م. ويبدو من هذا الخبر أنه ربما أعيد فتحها أو فتحت مناطق تابعة لهذه المدينة التي فتحها الأمويون من قبل. وهناك خبر سنة

١٧٨هـ/ ٧٩٤م يشير إلى فتوحات عباسية عندها ، كما أنه في خلافة المهدي سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٦م سير جيشًا في البحر بقيادة عبد الملك بن شهاب المسمعي إلى بلاد الهند في جمع كثير من الجند والمتطوعة، فنزلوا بَاربْد من أرض كجرات، ففتحها الله عليهم، وأحرق المسلمون البُّد الذي لهم.

وهكذا فإن للعباسيين فتوحات في الهند بعد فتوحات الأمويين، وقد استكمل الغزنويون هذه الفتوحات، وتابعها الغوريون من بعدهم .

ومن أعظم فتوحات العباسيين فتح المعتصم لعمورية سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م وفيها أغار ملك الروم تيوفيل –الذي عاصر المأمون والمعتصم – على ثغر زِبَطْرَة وغيره من ثغور المسلمين، فقتل عددًا كبيرًا من المسلمين، وسبى الذرية والنساء وقام بسمل أعين من وقع في يده من المسلمين، وقطع أنوفهم وآذانهم. وبلغ عدد من سبي من المسلمات أكثر من ألف امرأة، وصاحت امرأة من الأسيرات «وامعتصماه» فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك! ونهض من ساعته وصاح في قصره النفير النفير، ثم نهض من فوره وأمر بتعبئة الجيوش والتجهز بما لم يتجهز بمثله خليفة من السلاح والآلات والعدد وغير ذلك، وأشهر القضاة والشهود على أنه وقف أملاكه وأمواله على ثلاثة أثلاث: ثلث لله تعالى، وثلث لولده وأقاربه، وثلث لمواليه، وسأل عن أمنع وأحصن بلاد الروم فقيل: عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية، وكانت عمورية محصنة تحصنًا شديدًا، وهي في الوقت نفسه مسقط رأس ملك الروم تيوفيل فقصدها المعتصم بنفسه، وحاصرها حصارًا شديدًا حتى فتحت يوم الثلاثاء السابع عشر من رمضان، فقتل بها مقتلة عظيمة وسبى سبايا كثيرة وخرب المدينة وهدمها. وقبل وصول أمير المؤمنين المعتصم إلى عمورية خرب ما مر به من قراهم، وهربت الروم في كل وجه، وخرب أنقرة، ثم توجه قافلًا يوم السبت لسبع بقين من رمضان، فضرب أعناق أربعة آلاف من الأسرى، فلم يزل يقتل الأسرى في مسيره ويحرق ويخرق حتى ورد بلاد الإسلام.

ويذكر المؤرخ النصراني ابن العبري أن المعتصم لما فتح عمورية قتل ثلاثين ألفًا وأسر ثلاثين ألفًا ، وأن ملك الروم أخذ يلوم نفسه لأنه السبب في

تدمير عمورية وأوفد إلى المعتصم وفدًا حمل تحفا وهدايا ورسالة يعرض فيها الصلح والموادعة وإطلاق الأسرى من الجانبين .

أما الإمام الذهبي فيقول: «وخرب المعتصم أنقرة، وأنكى الروم، وأخذ عمورية عنوة، وأوطأ الروم خوفًا وذلًّا، وأخذ بثأر الإسلام من الطاغية توفيل ابن ميخائيل الذي أغار على زبطرة وملطية. فدخل المعتصم الروم في مائتي ألف مقاتل وأزيد، حتى قيل: «كان في خمسمائة ألف، وصمم على محاصرة القسطنطينية فأتاه ما أزعجه من خروج العباس بن المأمون عليه».

ومدح أبو تمام المعتصم بقصيدته البائية التي جاء فيها:

خليفة الله جازى الله سعيك في جرثومة الدين والإسلام والحسبِ

أما عن أرمينية التي بدئ غزوها منذ خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعد ذلك حتى إن الحملات الإسلامية عليها لم تنقطع عنها حتى تم فتحها في القرن الأول الهجري ، فإن العباسيين حافظوا على فتوحات الأمويين لها، وحمايتها من الخزر، وأضافوا فتوحات لمدن أرمينية أخرى ذكرها البلاذري في «فتوح البلدان».

وفيما يتصل بقطاع التركستان وسط آسيا، فإن خطر الأتراك الشرقيين والخطر الصيني كان يغير على أطراف إقليم ما وراء النهر، فنهض العباسيون بالأمانة كاملة واستطاع عاملهم زياد بن صالح الخزاعي أن يهزم جيش الصين الذي يقوده (كاو- صين- شيه) سنة ١٣٤هـ/٧٥١م، وكان هذا النصر من أعظم الانتصارات الإسلامية في تاريخ آسيا الوسطى من حيث الهزائم التي لحقت بجيش الصين ومن حيث النتائج العامة التي ترتبت عليه في تاريخ آسيا الوسطى وتذكر الروايات أنه سقط في المعركة نحو خمسين ألف قتيل من جيش الصين ووقع أكثر من عشرين ألفًا في الأسر، وابتعدت الصين عن المعركة الدائرة بين العرب وبين الأتراك الشرقيين، مما أدى إلى ضعفهم، ولم يعد العباسيون يجابهون قوات كبيرة كما فعل الأمويون من قبل، فلقد تفرقت وحدة الأتراك الشرقيين وقامت لهم إمارات صغرى متناثرة حول إقليم ما وراء النهر، وبسط العباسيون نفوذهم خارج حدود إقليم ما وراء النهر. وتوغل المسلمون في مناطق لم يكونوا يجرأون على اقتحامها،

وأوغل النفوذ العباسي في قلب آسيا الوسطى في عهد المأمون، وأرسلت الجيوش إلى بلاد الصغد وأشروسنة وفرغانة.

وقد أشارت مصادرنا العربية إلى انتصار سنة ١٣٤هـ/٧٥١ وما وقع في أيدي المسلمين من الأواني الصينية ومتاع الصين كله من الديباج وغيره .

وتواصل جهاد العباسيين للبيزنطيين صيفًا وشتاءً، في غزوات متتابعة من مناطق الثغور في الشام والجزيرة الفراتية . وكان ملك الروم قد استغل قيام الدولة العباسية فهاجم سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م ملطية وكَمخ، معلنًا أنه لم يهاجم المسلمين في هذين الثغرين إلا لأنه على علم باختلاف المسلمين، وانتصر على المسلمين الذين سلموا له الثغرين وتفرقوا في بلاد الجزيرة . وبدأت الصوافي تؤدي دورها وتؤتي ثمارها المرجوة . وأشير هنا إلى أنه في سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م سيَّر المنصور ابن أخيه إبراهيم الإمام والحسن بن قحطبة في سبعين ألفًا من المقاتلة إلى ملطية، فنزلوا عليها وعمروها، وفرغوا من عمارتها بعد ستة أشهر، وأسكنها المنصور أربعة آلاف من الجند وأكثر فيها من السلاح والذخائر. ولما سمع ملك الروم بمسير عبد الوهاب والحسن إلى ملطية سار إليهم في مائة ألف مقاتل فنزل جيحان فبلغه كثرة المسلمين فعاد عنهم «ولما عمرت ملطية عاد إليها من كان باقيًا من أهلها». وبسبب حملات المسلمين المتواصلة على بلاد الروم طلب ملك الروم سنة ١٥٥هـ/٧٧١م الصلح إلى المنصور على أن يؤدى إليه الجزية.

وتواصلت الصوائف والشواتي في خلافة المهدي الذي أغزى الروم ابنه الرشيد في بعضها. ومن أهم غزوات الروم في خلافة المهدي صائفة سنة١٦٢هـ/ ٧٧٨ بقيادة الحسن بن قحطبة في ثلاثين ألفًا سوى المطوعة، فلبغ دَرَوْلِيَّة قرب القسطنطينية فأكثر التخريب والتحريق في بلاد الروم، وسَمَّتْه الروم التنين، وصوروه في كنائسهم.

وفي سنة ١٦٥هـ/٧٨١م سيَّر المهدي ابنه الرشيد لغزو الروم في خمسة وتسعين ألفًا وتسعمائة وثلاثة وتسعين رجلًا، معه الربيع مولاه، فتوغل هارون في بلاد الروم وافتتح ماجدة، وسار حتى بلغ خليج القسطنطينية وكان إمبراطور بيزنطة

وقتئذ ايرين أرملة ليو الرابع والوصية على ابنها السادس، وخشيت هذه المرأة أن يتمكن المسلمون من فتح القسطنطينية، فطلبت الصلح وتقديم الجزية، فقبل منها هارون بن المهدي وشرط عليها الوفاء بما أعطت له وأن تقيم الأدلاء، والأسواق في طريقه، وذلك أنه دخل مدخلاً صعبًا مخوفًا على المسلمين، فأجابته إلى ما سأل، والذي وقع عليه الصلح تسعون أو سبعون ألف دينار تؤديها كل سنة مرتين، فقبل ذلك منها، وأقامت له الأسواق، وكانت الهدنة ثلاث سنوات، وكان مقدار ما غنمه المسلمون إلى أن اصطلحوا ألوفًا من الأسرى والبقر والغنم فضلًا عن قتل أربعة وخمسين ألفًا من الروم، وقتل ألفين وتسعين أسيرًا روميًّا صبرًا . ويذكر المؤرخ النصراني ابن العبري في ألم وحسرة هذه الوقعة ويعقب على ذلك بقوله: «ولو كانت ذات همة لأمكنها منع المسلمين من الخروج والفتك بهم». وبالفعل قدمت الروم الجزية سنة ١٦٦هـ/٧٨٢م ثم نقضت الصلح بعد اثنين وثلاثين شهرًا، فوجه علي ابن سليمان والي الجزيرة الفراتية وقنسرين يزيد بن بدر في سرية إلى الروم فغنموا وظفروا . ومما يدل على صعوبة الشواتي والصوائف أنه في سنة ١٧٥هـ/٧٩١م أصاب المسلمين في غزو الروم برد شديد سقط منه كثير من أيدي الجند وأرجلهم .

وفي سنة ١٨١هـ/ ٧٩٧م غزا الخليفة الرشيد أرض الروم وافتتح مطمورة. وواصل هارون السير حتى وصل إلى أفسوس، بثغر طرسوس، وانطلق في أرض الروم إلى أنقرة، فطلبت إيرين الهدنة من جديد مثلما فعلت في أيام المهدي والرشيد ولي عهده، وقد رفض الخليفة الرشيد طلبها في أول الأمر، ثم قبل ربما بسبب تهديد الخزر لبلاد المسلمين. وقد حافظت إيرين على الهدنة بينها وبين الخليفة هارون الرشيد طوال مدة حكمها، ولا سيما بعد أن أصبحت حاكمة مطلقة على بلاد الروم . وفي سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٢م. دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم وأناخ على قُرَّة وحاصرها ووجه العباس بن جعفر وأناخ على حصن سنان، فأرسلت الروم إليه تبذل له ثلاثمائة وعشرين رجلاً من أسارى المسلمين على أن يرحل عنهم فأجابهم إلى ذلك ورحل عنهم.

وفي السنة السابقة نفسها خلعت الروم إيرين الملكة، وملكت نفقور فكتب إلى الرشيد: «من نقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب، أما بعد فإن

المكلة إيرين حملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أضعافه إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما أخذت وإلا فالسيف بيننا وبينك»، فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحدًا أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، وتفرق جلساؤه خوفًا من زيادة قول أو فعل يكون منهم ودعا بدواة وكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه. والسلام». ثم شخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هرقلة بالقرب من القسطنطينية، ففتح وغنم وخرب وحرق، فطلب نقفور الموادعة على مال يؤديه كل سنة، فأجابه إلى ذلك، فلما رجع الرشيد وصار بالرقة نقض نفقور الصلح وخان الميثاق، وكان البرد شديدًا فيئس نقفور من رجعته إليه، ووصل الخبر بذلك فلم يجرؤ أحد أن يبلغ الرشيد به، فاحتيل له بشاعر أنشده شعرًا يتضمن نقض نقفور للصلح، فلما فرغ من إنشاده قال: أوقد فعل نقفور ذلك؟! وكر راجعًا وخرج نقفور للقائه فجرح ثلاث جراحات، وانهزم، وقتل من أصحابه أكثر من أربعين ألفًا.

وفي سنة ١٩٠هـ/٨٠٥ أعاد الرشيد قيادة الجيوش العباسية بنفسه ووصل من جديد إلى هرقلة وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم، ففتحت حصن الصقالبة ودلسه والصفصاف وملقونية وطوانة، وكان جيشه يتكون من مائة ألف وخمسة وثلاثين ألفًا، سوى المتطوعة والأتباع ومن لا ديوان له، ومن جديد بعث نقفور بالخراج والجزية، عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ولده دينارين، وعن بطارقته كذلك وسائر أهل بلده، فحمل ثلاثمائة ألف دينار، وتعهد بألا يعمر هرقلة. وفي السنة التالية مباشرة غزا يزيد بن مخلد أرض الروم في عشرة آلاف، فقتله الروم وقتلوا معه خمسين رجلاً، فاستعمل الرشيد على الصائفة هرثمة بن أعين وضم إليه ثلاثين ألفًا من الجند، فيهم مسرور الخادم فأغارا على الروم، وكان الرشيد يقيم بدرب الحدث ثم انصرف إلى الرقة .

وفي خلافة المأمون عادت حروب الصوائف والشواتي سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م فشخص في هذه السنة من بغداد لغزو الروم، ووصل إلى مَنْبج ودابق وأنطاكية ثم إلى المصيصة فطرسوس، ومنها دخل بلاد الروم ففتح حصن قرة وهدمه

وحصن ماجدة، ووجه ابنه العباس وبعض قواده لفتح حصون أخرى، وفي السنة التالية مباشرة عاد المأمون إلى بلاد الروم بسبب ما بلغه من أن ملك الروم قتل ألفًا وستمائة من أهل طرسوس والمصيصة، وفتح المأمون هرقلة، ووجه أخاه المعتصم فافتتح ثلاثين حصنًا وأرسل المأمون قاضيه يحيى ابن أكثم من طوانة فأغار وأصاب سبيًا.

وعاد المأمون إلى بلاد الروم سنة ٢١٧هـ/ ٨٣٢م فأناخ على لؤلؤة مائة يوم ثم رحل عنها، وأرسل ملك الروم إليه يطلب الصلح والمهادنة وعرض الفدية، فرفض المأمون وعرض عليه الإسلام أو الجزية، وأخيرًا فإن المأمون توفي في السنة التالية بطرسوس وهو متهيئ لحرب جديدة ضد الروم. وهكذا استمرت حروب الثغور بين العباسيين والروم طوال العصر العباسي الأول، وحافظ العباسيون من خلالها على ما افتتح من بلاد في آسيا الصغرى ومدنها قبلهم ولم يكن متخلفين بحريًّا، بدليل تعمير المنصور لحصون السواحل ومدنها كلها، واستتمام المهدي لذلك، وإنشاء الخليفة الرشيد لدور صناعة السفن. وتقسيم الأموال في السواحل والثغور، أما المتوكل فإنه أمر «بترتيب المراكب في جميع السواحل وأن تشحن بالمقاتلة وذلك في سنة سبع وأربعين ومائتين» ومن أهم مراكز صناعة السفن زمن العباسيين مدينة «صور» بدليل قول الواقدي –المعاصر للدولة العباسية وللرشيد– الذي أورده البلاذري: «لم تزل المراكب بعكا حتى ولي بنو مروان فنقلوها إلى صور، فهي بصور إلى اليوم»، ويدل على نشاط الأسطول زمن العباسيين إعادة فتح قبرص في خلافة الرشيد سنة ١٩٠هـ/٨٠٥م. يقول الطبري: «وولى – الرشيد– حميد ابن معيوف سواحل بحر الشام إلى مصر، فبلغ حميد قبرس، فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفًا». وذكر القلقشندي أن أهل قبرص نقضوا العهد فأغزاهم الرشيد من سواحل مصر والشام، فسبى وغنم، ومن بين الأسرى أسقف قبرص الذي فدى نفسه بألفي دينار.

وفيما يتصل بالرشيد وحروبه المتصلة مع البيزنطيين أود الإشارة إلى ما ذهب إليه بعض الباحثين من وجود اتفاق بين هارون الرشيد وشرلمان ملك الدولة الفرنجية، يقوم الرشيد – بناء عليه– بالتوغل في أرض الروم، بينما يتوغل شرلمان

في شمالي وشرقي بلاد الأندلس الإسلامية، فهؤلاء الباحثون يزعمون أن الدولة العباسية ارتبطت بروابط صداقة وعلاقات ودية مع دولة الفرنجة بفرنسا وأواسط أوربا ضد العدو المشترك المتمثل في دولة الأمويين في الأندلس، فدولة الفرنجة تخشى بأس هذه الدولة الفتية الناشئة التي يفصلها عنها جبال البرت (البرانس)، والدولة العباسية تريد إعادة الوحدة إلى عالم الإسلام والتخلص من الحكم الأموي فيها، وأثمرت هذه العلاقات الودية –في نظر هؤلاء– عن تبادل السفارات والهدايا. ويوضح الأستاذ محمد عبد الله عنان – رحمه الله رحمة واسعة– المؤيد لهذه الرواية والسفارة ذلك بأنها وردت في مصادر غربية فقط، ولم تذكر المصادر الإسلامية شيئًا عنها، وأن الرواية الغربية أفاضت في التفاصيل حيث ذكرت وصول يهودي يدعى إسحاق من قبل شارلمان إلى بلاط بغداد قدم إلى الرشيد كتاب ملك الفرنج وهديته، فأكرم الرشيد وفادته ورحب بصداقة ملك الفرنج وأوفد إليه سفراءه بهدية فخمة، منها خيمة عربية، وساعة مائية، وأقمشة حريرية وتحف من الذهب وقردة وفيل ومفاتيح قبر المسيح –عليه السلام– في بيت المقدس، مع تأكيدات ودية على حماية البقاع المقدسة، وتضيف الرواية الغربية أن شارلمان سر بهذه النتيجة وأوفد إلى الرشيد سفارة أخرى مبعوثها إسحاق أيضًا .

ويذكر الأستاذ عنان أن هناك مبالغات حول ما عرف بهبة ملك بيت المقدس أي ما وهبه الرشيد لشارلمان من سيادة على فلسطين بأسرها وقيام الرشيد بالدفاع عن البقاع المقدسة نيابة عن ملك الفرنج وأن يرسل خراجها إليه، ويشير الأستاذ عنان إلى أن هذه المبالغات وردت في رواية كنسية متأخرة عن الرواية المعاصرة، ويذهب د. حسين مؤنس و د. يوسف العش إلى أن خبر علاقة الرشيد بالفرنج أورده اثنان هما: «إرنهارد»، والقسيس «سان غال» وهما غير موثوق بهما، يخلطان في مسائل التاريخ، لا سيما الأخير. وذكر الأستاذان الفاضلان أن هذه السفارات لم تكن رسمية، وإنما قام بها عدد من التجار اليهود وتجار المسلمين المغاربة في الغالب، وحملوا الهدايا لكي يحصلوا على تسهيلات وامتيازات تجارية. أما خبر مفاتيح بيت المقدس فالظاهر فيه الوضع، إذ لا يعقل بحال من الأحوال أن يعطي الرشيد وهو الخليفة التقي مفاتيح بلدة مقدسية إلى

رجل غير مسلم. ومن الغريب الذي لا يصدق أن يعهد الرشيد وهو في أعظم سلطانه وأقوى سطوته لرجل مسيحي بحماية الأماكن المقدسة في بيت المقدس وليس لدينا على ذلك أدنى دليل. ولا ينفي د. عبد المنعم ماجد وجود هدايا متبادلة بين الجانبين لورودها في كتب الفرنجة، لكنه في الوقت نفسه يذكر وجود تعاون من هارون الرشيد مع الأمويين بالأندلس للحفاظ على دولة الإسلام به ضد الفرنج، ويعتمد في ذلك على ما ذكره ابن تغري بردي من إرسال والي مصر داود بن يزيد سنة ١٧٤هـ/ ٧٩٠م جندًا إلى الأمير الأندلسي هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢- ١٨٠هـ) لحسم نزاع وقع بينه وبين أخويه، حتى لا تضيع الأندلس، فأسر الفرنج هؤلاء الجند، وانتقم الإفرنج من تقديم هذه المعونة لمسلمي الأندلس بقصد الإسكندرية سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٥م وإن لم ينجحوا؛ لأن الحكم بن هشام هاجم بلاد فرنسية، مما جعلهم لا يسيرون في مشروع الغزو. فهذا بالأولى يدل دلالة قوية على الصلة الوثيقة بين القوتين الإسلاميتين في المشرق والأندلس ضد الفرنج.

مواجهة العباسيين الأوائل للأخطار والفتن والثورات:

واجه خلفاء العصر العباس الأول العديد من الأخطار والفتن والثورات المهددة للدولة العباسية واستقرارها، وتنوعت هذه المخاطر وتعددت ما بين مخاطر من مقربين للخلفاء أو من علويين أو من ذوي الأفكار الهدامة أو من غير ذلك.

ومن أبرز الأخطار التي صادفت العباسيين الأوائل من أنصارهم ومؤيديهم

خطر أبي سلمة الخلال أول وزير وَزَرَ لأول خليفة عباسي، والذي لعب دورًا مهمًّا في نجاح الدعوة العباسية ومول هذه الدعوة بسخاء من ماله الخاص، يذكر ابن طباطبا أن أبا سلمة كان من مياسير أهل الكوفة، وكان ينفق ماله على رجال الدعوة، وقام بأمر دعوتهم قيامًا عظيمًا منذ سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م، فلما سبر أحوال بني العباس عزم على العدول عنهم إلى بني علي، فكاتب ثلاثة من أعيانهم جعفر ابن محمد الصادق، وعبد الله المحصن بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، وعمر الأشرف بن زين العابدين وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم، ليقصدهم واحدًا واحدًا بالترتيب السابق، فلم يجد عندهم استجابة لدعوته، ولما نمي

الخبر إلى أبي العباس حقدها على أبي سلمة وقتله، عن طريق قوم أرسل بهم أبو مسلم الخراساني من أهل خراسان بعد أشهر قليلة من قيام الخلافة العباسية، فأبو سلمة الخلال حين دخل العباسيون الكوفة بعد سقوطها في أيديهم لم يشأ أن يسلم الخلافة لهم، وإنما كاتب العلويين، لكن موفد أبي مسلم الخراساني إلى الكوفة أبا الجهم الباهلي تمكن من الوصول إلى مكان أبي العباس ومبايعته، لكن أبا العباس أسرها لأبي سلمة. وقيل إن أبا مسلم الخراساني هو الذي أوغر صدر أبي العباس على أبي سلمة وأشار عليه بقتله فرد السفاح: ما كنت لأفتتح دولتي بقتل رجل من شيعتي، لا سيما مثل أبي سلمة وهو صاحب هذه الدعوة، فلم يزل أبو مسلم الخراساني وأبو جعفر المنصور وداود بن علي عم الخليفة به حتى رضي عن قتله. وكان أبو سلمة فكهًا ممتعًا أديبًا عالمًا بالسياسة والتدبير، فانصرف ليلة من عند السفاح من مدينته بالأنبار، وليس معه أحد، فوثب عليه أصحاب أبي مسلم فقتلوه، وأشيع أن الخوارج هم قاتلوه .

ويبدو أيضًا أن أبا سلمة قد أحس بعظم دوره، وخطورة مكانته، وهو ما عجل بقتله، يدل على ذلك قول الدينوري: «فلما استدف لأبي العباس الإمرة ولى أبا سلمة الداعي جميع ما وراء بابه، وجعله وزيرًا، وأسند إليه جميع أموره، فكان يسمى وزير آل محمد، فكان ينفذ الأمور من غير مؤامرة، وبلغ ذلك أبا مسلم وهو بخراسان فدعا مروان الضبي وكان أحد قواده، وقال له: «انطلق إلى الكوفة، فأخرج أبا سلمة من عند الإمام أبي العباس فاضرب عنقه، وانصرف من ساعتك» ففعل الضبي ذلك.

على أية حال فإن الخلال نال جزاء أمره لأبي العباس بالتخفي عن الأنظار والابتعاد عن الكوفة بعد سماع الخلال بمقتل إبراهيم الإمام في صفر سنة ١٣٢هـ، لنقل الخلافة للعلويين، فاضطر أبو العباس إلى البقاء في إحدى قرى الكوفة، فتحين أبو العباس الفرصة وتخلص منه جزاء خيانته .

وفي سنة ١٣٧هـ/٧٥٤م لحق أبو مسلم الخراساني بأبي سلمة الخلال، ولقي المصير نفسه، وربما للسبب نفسه وهو استعجال السلطة، وتعاظم النفس، بدليل أنه في سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٣م كتب أبو مسلم إلى أبي العباس السفاح يستأذنه في

القدوم عليه والحج، وكان قد ملك خراسان لم يفارقها إلى هذه السنة، فكتب إليه السفاح يأمره بالقدوم عليه في خمسمائة من الجند، فكتب إليه أبو مسلم: إني قد وترت الناس ولست آمن على نفسي، فكتب إليه: أن أقبل في ألف، فإنما أنت في سلطان أهلك ودولتك وطريق مكة لا يتحمل العسكر. فسار في ثمانية آلاف فرقهم فيما بين نيسابور والري، وقدم بالأموال والخزائن فخلفها بالري، وأمر السفاح القواد وسائر الناس أن يتلقوه، فدخل أبو مسلم على السفاح فأكرمه وأعظمه ثم استأذن السفاح في الحج، فأذن له وقال: «لولا أن أبا جعفر المنصور يريد الحج لاستعملتك على الموسم» فقال أبو مسلم: «أما وجد أبو جعفر عامًا يحج فيه غير هذا؟» وحقدها عليه وحجا معًا، فكان أبو مسلم يكسو الأعراب ويصلح الآبار والطريق، وكان الذكر له، ولما حجا وقفلا راجعين أتاهما خبر وفاة الخليفة السفاح، فعزى أبو مسلم أبا جعفر ولم يهنئه بالخلافة، فغضب أبو جعفر، وكان قد أخذ عليه أيضًا استخفافه من قبل به عندما ذهب أبو جعفر إلى خراسان ومعه عهد أبي مسلم بخراسان وأظهر استخفافًا بالمنصور الذي طلب من أخيه السفاح بعد العودة أن يأمر بقتل أبي مسلم، لم يوافقه السفاح .

ويذكر ابن طباطبا أن نفس المنصور كان بها قديمًا حزازات من أبي مسلم، وكان بينهما تباغض، وقد أشار المنصور على أخيه السفاح بقتله فامتنع السفاح، فلما ولي المنصور الخلافة أرسل أبا مسلم إلى الشام لحرب عمه عبد الله بن علي بن العباس الذي خرج على المنصور مطالبًا بالخلافة وظفر أبو مسلم وغنم جميع ما كان في عسكر عبد الله بن علي وأرسل المنصور بعض خدمه لإحصاء الأموال وجميع الغنائم، فغضب أبو مسلم وقال: «أمين على الدماء، خائن في الأموال!»، وشتم المنصور، وكتب بعض أصحاب الأخبار بذلك إلى المنصور، وعندئذ عزم على التخلص منه .

فأبو مسلم إذًا شديد الخطورة على سلطان الخليفة المنصور، حتى إنه إذا كتب كتابًا إليه قرأه، ولوى شدقيه ورمى به وضحك واستهزأ . وتصرف أبو مسلم في أثناء حجه كأنه الخليفة: يكسو الأعراب في كل منزل، ويحفر الآبار ويسهل الطرق، ويصل من سأله «فكان الصوت له»، وبلغ به الحد أن يشتم الخليفة،

ومعنى هذا أن أبا مسلم وصل إلى قمة النفوذ والسلطان والقوة بدليل قول المنصور لعيسى بن موسى «هل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهي مع أبي مسلم؟!».

وأعمل المنصور كل ما في وسعه من أجل الإتيان بأبي مسلم من خراسان مركز نفوذه فعرض عليه ولاية الشام ومصر، فقبلها بشرط أن تكون خراسان معهما، وكان من المنتظر ألا يخرج أبو مسلم من خراسان حيث أتباعه وشيعته، فلجأ المنصور على داهية من الدهاة لديه قدرة فائقة على الإقناع، وهو جرير بن عبد الله البجلي، وكان – كما يذكر ابن كثير – أوحد أهل زمانه، وأمره المنصور أن يكلم أبا مسلم باللين وأن يكون في جملة ما يكلمه به أن يريد رفع قدرك وعلو منزلتك، ونُصح أبو مسلم من أتباعه بألا يخرج من خراسان، ولكن الرجل الداهية تمكن من إقناعه بالتوجه نحو المنصور، وفعلًا خرج أبو مسلم من حصنه المنيع خراسان، وسار المنصور من الأنبار إلى المدائن، ولما دنا أبو مسلم من المنصور أمر الناس بتلقيه فتلقاه بنو هاشم والناس، حتى إذا ما وصل أبو مسلم إلى المنصور بالمدائن أحسن استقباله وأمره بأن يستريح ويروح نفسه ثلاثة أيام ثم يأتي الخليفة، فلما أتاه كاشفه بأخطائه وأنبه، وأبو مسلم يعتذر، ويطلب الصفح، لكن المنصور أشار بقتله، فخرج الحراس وقتلوه، واسترضى المنصور من كان معه من جند بالمال.

وترك مقتل أبي مسلم الخراساني آثارًا سيئة بخراسان التي اضطربت أحوالها، وشهدت خروج حركات وأفكار هدامة، معلنة عن غضب الخراسانيين لمقتل أبي مسلم، ومشعرة بسخطهم على العباسيين، وسيأتي الحديث عن هذه الثورات والحركات الضالة والنزعات المنحرفة.

وممن تعرضوا أيضًا لغضبة العباسيين الأوائل بسبب استبدادهم بالأمور دون الخليفة الرشيد: البرامكة . وهم أسرة فارسية الأصل تنسب إلى بَرْمك وهو لقب توارثته هذه الأسرة، ومعناه رئيس سدنة أحد المعابد البوذية بخراسان، وكان البرامكة على دين المجوس، حتى أسلم خالد بن برمك وحسن إسلامه، واتصل بأبي مسلم الخراساني مسهمًا معه في نشر الدعوة العباسية بخراسان. ولما بويع

أبو العباس السفاح بالخلافة حضر خالد بن برمك لمبايعته فرأى فصاحته وتوهمه من العرب، فعينه السفاح على ديوان الخراج وديوان الجند «وكثر فيه حامده وحسن أثره». وكان سبيل ما يثبت في الدواوين أن يثبت في صحف، فكان خالد أول من جعله في دفاتر، فخص بأبي العباس السفاح، وحل محل الوزير، ودفع أبو العباس ابنته رَيْطة إلى خالد بن برمك حتى أرضعتها زوجته وأرضعت زوجة العباس ابنة خالد بن برمك.

وفي خلافة المنصور أصبح خالد واليا على فارس لمدة سنتين، كما تبوأ خالد بعض المناصب في خلافة المهدي . ولما أغزى المهدي ابنه هارون في صائفة سنة ١٦٣هـ، وأنفذ معه خالد بن برمك وقلد كتابته ونفقاته وتدبير أمر عسكره يحيى بن خالد بن برمك، فحسن أثر يحيى فيما قام به، وحمد فعله وتدبيره، وكان خالد بن برمك سخيا جليلاً نبيلاً كثير الإحسان، لم يكن يُرى لجليس خالد دار إلا وخالد بناها له، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولما توفي خالد سنة ١٦٣هـ وجه إليه المهدي بكفن وحَنوط وصلى عليه هارون ، ولما كان يحيى بن خالد كاتب الرشيد قبل الخلافة فإنه – يحيى– كان له رأي سديد قاله للهادي الذي عزم على أن يخلع أخاه هارون من الخلافة ويبايع لابنه جعفر بن الهادي، حيث قال يحيى بن خالد للهادي: «يا أمير المؤمنين، إن فعلت حملت الناس على نكث الأيمان ونقض العهود وتجرأ الناس على مثل ذلك»، ولما حاول الهادي مرة أخرى أقنعه يحيى بن خالد بألا يفعل ذلك «وكان الرشيد بعد ذلك يرى هذه من أعظم أيادي يحيى بن خالد عنده».

ولما تقلد هارون الرشيد الخلافة دعا يحيى بن خالد – وكان يخاطبه بالأبوة– وقال له: «يا أبت أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك، وحسن تدبيرك، وقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت، واعزل من رأيت».

وكان يحيى وابناه الفضل وجعفر يجلسون للناس جلوسًا عامًا في كل يوم إلى انتصاف النهار، ينظرون في أمور الناس وحوائجهم، لا يُحجب أحد وقام يحيى بالأمور، وكان يعرض على الخيرزان أم الرشيد، ويُورد ويُصدر عن أمرها، واحتفر

نهر القاطول واستخرج نهر أبي الحيل، وأنفق عليه عشرين ألف ألف درهم، وأمر بإجراء القمح على أهل الحرمين، وكانت الدواوين كلها إلى يحيى بن خالد مع الوزارة، سوى ديون الخاتم فإنه كان إلى أبي العباس الطوسي، وكان لأبناء يحيى بن خالد كُتاب وعمال وأعوان، وكان أصحاب الحوائج يكثرون القعود على دكان على باب يحيى بن خالد فيلقاهم بالبشر وطلاقة الوجه وإنفاذ حوائجهم.

وقلد الرشيد حجابته محمد بن خالد بن برمك سنة ١٧٢هـ، وكان بنو برمك يتوسطون للناس عند الرشيد، كما اتخذوا القصور الفارهة. وفي سنة ١٧٦هـ ولي الرشيد جعفرًا المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية، وقلد الفضل المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك، وأقام جعفر بحضرة الرشيد.

وقد ذكر ابن طباطبا أن هذه الدولة – دولة البرامكة – كانت غرة في جبهة الدهر، وتاجًا على مفرق العصر، ضربت بمكارمها الأمثال، وشدت إليها الرحال، ونيطت بها الآمال، وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها، ومنحتها أوفر إسعادها «فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة، والبحور زاخرة، والسيول دافعة، والغيوث ماطرة، أسواق الآداب عندهم نافقة، ومرات ذوي الحرمات عندهم عالية والدنيا في أيامهم عامرة وأبهة المملكة ظاهرة هم ملجأ اللهف، ومعتصم الطريد» وفيهم يقول أبو نواس:

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بني برمك من رائحين وغادرِ

فوزير الرشيد وكاتبه هو يحيى بن خالد بن برمك الذي نهض بأعباء الدولة أتم نهوض. وقد ورد أن الرشيد في إحدى حجاته اصطحب يحيى بن خالد بن برمك ومعه ولداه الفضل وجعفر، فلما وصلوا إلى المدينة المنورة جلس الرشيد ومعه يحيى فأعطيا الناس، وجلس الأمين ومعه الفضل بن يحيى فأعطيا الناس، وجلس المأمون ومعه جعفر فأعطيا الناس، فأعطوا في تلك السنة ثلاث أعطيات ضربت بكثرتها الأمثال وكانوا يسمونه عام الأعطيات الثلاث . وكان الفضل بن يحيى من كرام الدنيا وأجواد أهل عصره، وكان قد أرضعته أم الرشيد، وأرضعت أمه الرشيد .

أما جعفر بن يحيى فكان فصيحًا لبيبًا ذكيًّا فطنًا كريمًا حليمًا، وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر. وما زالت دولة البرامكة في علو وارتفاع وتزايد حتى انحرفت عنهم الدنيا .

ويذكر الطبري أن الرشيد قد دفع إلى يحيى بن خالد وزيره وصاحب جميع الدواوين خاتمه سنة ١٧١هـ بعد أن أخذه من أبي العباس الطوسي. وهكذا صار الخاتم الذي يوقع به الرشيد مع يحيى بن خالد «فاجتمعت ليحيى الوزارتان»، ثم صار الخاتم للفضل وجعفر ابني يحيى .

وبلغ أمر البرامكة في دولة الرشيد أكثر من هذا حيث قلد الرشيد جعفر ابن يحيى بن خالد البرمكي دور الضرب والطراز وبريد الآفاق . وجلس للمظالم أيضًا . ولما صير الرشيد إلى جعفر البرمكي السك (ضرب العملة) «كتب اسمه بمدينة السلام –بغداد– وبالمحمدية من الري – طهران الحالية– على الدنانير والدراهم».

وولي جعفر ولاية مصر أيضًا سنة ١٧٦هـ، فولاها عمر بن مهران، وأشرف أيضًا على تأديب المأمون، في حين كان الفضل البرمكي مربيًا للأمين.

ويلخص المسعودي وضع البرامكة مع الرشيد بقوله: «ولما أفضت الخلافة إلى الرشيد استوزر البرامكة، فاحتازوا الأموال دونه حتى كان يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه، وكان إيقاعه بهم في سنة سبع وثمانين ومائة، واختلف في سبب ذلك فقيل: احتياز الأموال، وأنهم أطلقوا رجلًا من آل أبي طالب كان في أيديهم، وقيل: غير ذلك، والله أعلم». ولم يكتف البرامكة بذلك، وإنما ملكوا الفكر ومجالس العلم والأدب، فلقد كان ليحيى بن خالد معرفة بالملل والنحل، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من الإسلام وغيرهم من أهل الآراء، ليتناقشوا في القدم والحدوث، والإثبات والنفي، والحركة والسكون، والوجود والعدم، والأجسام والأعراض والتعديل والتجريح، والإمامة أنص هي أم اختيار، وغير ذلك من أمور فكرية وسياسية .

وبعد سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يومًا من الصيت الواسع، والنفوذ القوي، والجاه العظيم، والسطوة الظاهرة للبرامكة – وفي سنة ١٨٧هـ –

أمر الرشيد بالإيقاع بهم واستئصال شأفتهم، وهو ما اشتهر بنكبتهم، فأمر بقتل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، وصرف الباقين عن أعمالهم وأخذ أموالهم وسجنهم ثم أخلى سبيلهم، وكان منهم يحيى البرمكي.

ويذكر ابن كثير أن مهلك البرامكة على يد الرشيد كان سنة ١٨٧هـ، فقتل جعفر بن يحيى وقلاهم ودمر ديارهم بعدما كانوا أحظى الناس عنده، وقد جعلهم الرشيد من الرفعة في الدنيا وكثرة المال ما لم يحصل لمن قبلهم من الوزراء، ولا لمن بعدهم من الأكابر والرؤساء، بحيث إن جعفرًا بنى دارًا غرم عليها عشرين ألف ألف درهم وكان ذلك من جملة ما نقمه عليه الرشيد، ويقال: إنه نكبهم لأنه كان لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلا قيل هذا لجعفر .

ويصرح ابن خلدون بأسباب النكبة بقوله: «وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم – خص النفس بالمال– أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره، وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه، فعظمت آثارهم، وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم. يقال: إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسًا من بين صاحب سيف وصاحب قلم، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب...».

وأشار ابن طباطبا إلى أنه ربما للدسائس والوشايات والحسد والسعاية دور في نكبة البرامكة «قيل: إن أعداء البرامكة مثل الفضل بن الربيع – الذي تولى الوزارة بعدهم– ما زالوا يسعون بهم إلى الرشيد، ويذكرون له استبدادهم بالملك واحتجانهم للأموال حتى أوغروا صدره فأوقع بهم». وقيل في أسباب نكبتهم أن جعفر بن يحيى كان متعاطفًا مع العلويين. وقيل أيضًا: إن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة .

وذكرت بعض المصادر سببًا غريبًا لا يمكن قبوله هو أن الرشيد نكب البرامكة بسبب أنه ما كان يصبر عن أخته العباسة لحبه لها، وفي الوقت نفسه

لا يمكن مفارقة جعفر بن يحيى فقال أزوجها لجعفر حتى يحل له الجلوس مع هارون وأخته العباسة، والنظر إليها، واشترط هارون على جعفر ألا يقترب من أخته فكانا يجتمعان وهما شابان ثم يقوم الرشيد عنهما ويخلوان بأنفسهما، فجامعها، وحبلت منه وولدت ولدين، وكتمت الأمر في ذلك حتى علم الرشيد، فكان ذلك سبب نكبة البرامكة. وقد ذكر ابن خلدون أن من الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد ثم قال: «وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها، وأنها بنت عبد الله بن عباس، ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين...».

وقد شكَّك المؤرخون المحدثون في هذه القصة الخرافية الأسطورية وذكروا أن الإسلام لا يعرف الزواج الصوري أو العبث في الزواج، وأن أخلاق الرشيد أو غيره من بني العباس لا يمكن أن تسمح بمخالطة الرجال للنساء في مجالس الشراب – كما زعمت بعض الروايات– إن كان هناك مجالس للشراب في الأصل. كما أن العباسة كانت قد تزوجت سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م بأمير البصرة محمد بن سليمان وبغيره بعد وفاته ولم يذكر جعفر من بين أزواجها. فقصة العباسة حكاية شعبية وأسطورة خيالية حاكها الفرس بعد سقوط البرامكة مباشرة، ولم تقف الرواية الشعبية عند هذا الحد، بل كررت التهمة ثانية مع أخت الرشيد الأخرى ميمونة، مما يدل على تهافت الرواية وعدم صحتها .

وكما نفى المؤرخون المحدثون أسطورة العباسة نفوا تهمة التشيع للعلويين من قبل البرامكة، ونفوا كذلك اتهامهم بالزندقة أي الكفر والإلحاد، والعودة إلى دياناتهم القديمة قبل الإسلام، فهذه تهمة قذفوا بها بعد زوال نفوذهم، وليس في الروايات الموثوقة ما يؤيد ذلك، وكانت تهمة الزندقة وسيلة للقضاء على بعض الناس. ومن الصواب ألا يعزى سقوط البرامكة إلى عامل واحد بعينه . ذلك أن مؤرخينا الرواد الأقدمين أنفسهم يذكرون أكثر من سبب لسقوطهم، منها: العامل السياسي والاستئثار بالسلطة، فخلافات الرشيد مع البرامكة كانت بالدرجة الأولى سياسية، حيث إن نفوذ البرامكة نما بصورة تدريجية حتى إن يحيى البرمكي جمع

في يده الوزارتين: الدواوين والخاتم، وأن جعفرًا تصرف في بعض الحكم والمسئولية، فاستأثروا جميعًا بالحكم دون الرشيد، ووزعوا الأموال على الأتباع والأعوان والأنصار إلى حد أن شهرتهم غلبت على شهرة الرشيد، وتضاءل نفوذه لنفوذهم، مما أثار تخاوف الرشيد من عواقب هذا الوضع على عائلته ومصير الخلافة نفسها، حتى قيل في بعض المصادر: «إن دولة الرشيد دولة أخرى ملوكها البرامكة»، و«أنهم – البرامكة– هم الدولة وأن لا نعمة لبني العباس إلا والبرامكة أنعموا عليهم بها». ويذكر ابن طباطبا أن بَخْتَيْشوع الطبيب دخل على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد ببغداد، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر، وبينهم وبينه عرض دجلة، فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد فقال: «جزى الله يحيى خيرًا تصدى للأمور وأراحني من الكدّ»، وكان هذا في أول الخلافة، فلما دخل عليه الطبيب بختيشوع بعد فترة وجده بدأ يتغير عليهم، وسمع الرشيد وهو ينظر يرى الخيول كما رآها في المرة الأولى ويقول: «استبد يحيى بالأمور دوني، والخلافة على الحقيقة له، وليس لي منها إلا اسمها» فعلم بختيشوع أنه سينكبهم. وكان للبرامكة موقف سياسي يتسم بالمرونة مع العلويين ولهم علاقات وطيدة ببعضهم.

كما اتهم البرامكة بممالأتهم لخصوم الرشيد السياسيين مثل عبد الملك بن صالح الهاشمي العباسي الذي اتهمه الرشيد بأنه يطلب الخلافة لنفسه. والسبب الثاني في سقوط البرامكة فهو سبب اقتصادي يتمثل في سيطرة البرامكة على أموال الدولة وثرائهم الفاحش، وجمعهم الكبير للأموال، وبنائهم للقصور الفخمة وامتلاكهم للضياع، ومبالغتهم في العطايا والهبات في الوقت الذي كانوا فيه يتحكمون في المال الذي يصل إلى الرشيد ولما حذروا من عواقب ظهورهم بهذا المظهر أعلنوا أن الرشيد أعجز من أن يقوم بشيء يسيء إليهم، وأنه لم يأكل الخبز إلا بهم، وأن دولتهم لا تقوم إلا على أكتافهم، وفاتهم أن للحليم غضبة قوية يستعيد من خلالها ما فقده في أثناء حلمه الشديد.

والعامل الثالث من عوامل نكبة البرامكة عامل فكري يتمثل في عدم تحرج البرامكة في مجالسهم من الخوض في مناقشات تتصل بكافة العقائد والمذاهب

الدينية والسياسية والكلامية، فمجالسهم –كما سبق– كانت تزخر بالشعراء والكتاب وأصحاب الفرق والمتكلمين، كل يدلي بدلوه ويبدي وجهة نظره، ومن هذا الباب اتهم البرامكة بالميل للعلويين أو المعتزلة أو بالشعوبية والزندقة وغيرها من التيارات الفكرية التي كانت معروفة في عصرهم.

بينما كان رأي الرشيد بأن الجدال في مثل هذه الأمور دون ضوابط يؤدي إلى الخلط والتشويه خاصة على العامة من الناس، كما وأنه يسمح لمذاهب وتيارات معادية بالانتشار، وهذا بدوره يشكل خطرًا على سلامة الدولة وأمنها. ولعل العامل الرابع والأخير لسقوط البرامكة يعود إلى رد الفعل على نفوذهم وسياستهم التي تمثلت في العوامل الثلاثة آنفة الذكر. فقد ظهر تكتل معاد للبرامكة في البلاط والإدارة العباسية، يطمح في أن يحل محلهم. ويحقد عليهم استيلاءهم على كل شيء، وأبرز من يمثل هذا التكتل هو الفضل بن الربيع الذي كان على ديوان النفقات العام والخاص، واستمر نفوذه يتصاعد حتى أصبح حاجب الخليفة بعد أن عزل الرشيد البرامكة من هذا المنصب ثم أعطاه الخليفة الخاتم، واستكمل بذلك نفوذه في بلاط العباسيين.

وتشير الروايات التاريخية إلى جذور الخلاف والمنافسة بين الفضل بن الربيع والبرامكة، وفي نهاية هذه المنافسة استطاعت كتلة الفضل بن الربيع أن تحرك حفائظ الرشيد على البرامكة، وأغلب الظن أن هذه العوامل الأربعة قررت مصير البرامكة سنة ١٨٧هـ/٨٠٢م، وإن حاولت الروايات الشعوبية إبرازه على أنه نزوة من نزوات الخليفة.

ومن الأخطار التي هددت الخلافة العباسية في عصرها الأول أيضًا: الحركات الهدامة والثورات الفاسدة؛ وأهمها:

حركة سنباذ المجوسي:

تعد هذه الحركة من الحركات الفكرية المنحرفة والثورات الهدامة التي قام بها الفرس في العصر العباسي الأول، وصاحب هذه الثورة أحد المجوس من قرية من قرى نيسابور، وكان ظهوره غضبًا لقتل أبي مسلم الخراساني سنة ١٣٧هـ،

وقام صاحب هذه الثورة الفاسدة سنباذ المجوسي – والذي عرف أيضًا بفيروز – بالاستيلاء على خزائن الأموال التي تركها أبو مسلم الخراساني في الري حين شخص إلى أبي العباس، وسنباذ من صنائع أبي مسلم الخراساني، وتمكن من جمع عامة أهل الجبال، وهي المنطقة الشمالية الغربية من إيران الحالية، واستولى على أهم مدن الجبال الري ونيسابور وقومس، وهذه المناطق تتميز بكثرة جبالها وصعوبة تضاريسها وتمكن سنباذ من منطقة الجبال، وأعلن أنه سيقصد الكعبة وسيهدمها، فوجه إليه المنصور جَهْوَر بن مرَّار العجلي في عشرة آلاف فارس، فالتقى به بين همذان والري، وهزمه ومن معه من مجوس، وقُتل سنباذ بين طبرستان وقومس.

حركة المُسلمية:

يذكر المسعودي وابن النديم أنه لما نمى قتل أبي مسلم الخراساني سنة ١٣٧هـ، إلى خراسان وغيرها من الجبال اضطربت البلاد، وظهر بأذربيجان جماعة تدعى المسلمية، نسبة إلى أبي مُسلمية من أصحاب أبي مسلم، ويعتقد إمامته، وتبعه في ذلك جماعته، وقالت طائفة المسلمية بأن أبا مسلم الخراساني حي يرزق وهو محبوس في جبال الري، وسيخرج في وقت يعرفونه ليملأ الأرض عدلاً ويقيم الدين، وهناك فرقة قطعت بموته وقالت بإمامة ابنته فاطمة وهؤلاء يدعون الفاطمية وبالخُرَّمية وبالمحمرة، ومن هؤلاء الخرمية: بابك الخرمي الذي خرج على المأمون والمعتصم في منطقة الجبال وأذربيجان وقتل «ألف ألف وخمسمائة ألف». وأقام عشرين سنة يهزم جيوش المأمون والمعتصم بدءًا من سنة ٢٠١هـ، حتى قضى الأخير عليه. لكن الخرمية في زمن المنصور انضموا إلى ثورة سنباذ المجوسي، ونالهم ما نال أصحاب سنباذ من هزيمة وقتل.

حركة الراوندية:

الراوندية قوم من خراسان منسوبون إلى «راوند» إحدى قرى أصبهان، ومنها خرجوا ثائرين لمقتل أبي مسلم الخراساني، معتقدين بالحلول والتناسخ أي بحلول روح الإله في بعض الشخصيات، منها أبو مسلم الخراساني الذي انتقلت إليه من العلويين بعد علي رضي الله عنه، وبمقتل أبي مسلم انتقلت إلى قاتله أبي جعفر

المنصور، فتوجهوا إليه سنة ١٤١هـ ووقفوا عند قصره بالهاشمية بجوار الكوفة قائلين: هذا قصر ربنا، فأخذ المنصور رؤساءهم وحبس منهم مائتين، فثار الراوندية وأخرجوا أصحاب السجون وعادوا في نحو ستمائة فحاصروا قصره وكادوا يقتلونه لولا ثبات معن بن زائدة وغيره من القواد، وهزم الراوندية .

حركة أستاذ سيس:

خرج أستاذ سيس – الذي يصفه ابن كثير بالكفر– في أهل هَرَاة وسجستان من بلاد خراسان سنة ١٥٠هـ في ثلاثمائة ألف مقاتل، فغلبوا على عامة خراسان وقتلوا من المسلمين هنالك خلقًا كثيرًا، وهزموا عددًا من قواد المنصور وجيوشه، وسبوا عددًا كبيرًا من المسلمين، فوجه إليه المنصور ابنه المهدي والقائد خازم بن خزيمة الذي أخذ يماكرهم ويراوغهم حتى فاجأهم بالحرب فقتل منهم نحوًا من سبعين ألفًا، وأسر منهم أربعة عشر ألفًا، وهرب زعيمهم أستاذ سيس واختبأ بجبل هناك، فحاصره خازم حتى قبض عليه، وحمل إلى بغداد فقتل بها .

حركة المُقَنَّع الخراساني:

تعد حركة المقنع الخراساني سنة ١٥٩هـ بخراسان إحدى حركات الزندقة والإلحاد التي ظهرت في العصر العباسي الأول، والمقنع من أهل مرو، وكان قد عمل وجهًا من ذهب وركبه على وجهه لئلا يرى وجهه، واسمه حكيم واشتهر بهاشم، وادعى الألوهية، وزعم أن الله خلق آدم فتحول إليه في صورته ثم في صورة نوح وهكذا هلم جرًّا إلى أبي مسلم الخراساني ثم تحول إليه، وقد تابعه خلق من ضلال الناس، وكانوا يسجدون له ويقولون: يا هاشم أعنَّا. وكان يعتقد أن أبا مسلم أفضل من النبي ﷺ فأرسل المهدي إليه جيشًا قاده سعيد الحَرشي فحاصره بإحدى قلاع خراسان، فلما أحس المقَنَّع بالهلكة شرب سُمًّا وسقاه نساءه وأهله فمات وماتوا جميعًا .

وقد اشتهر المهدي بالشدة على أهل الإلحاد والزندقة «لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم». وكان يشتد في طلبهم وقتل جماعات منهم . وخصص موظفًا أسماه «صاحب الزندقة»، مهمته تتبع هؤلاء والكشف عنهم وتأديبهم . وأمر المهدي بتصنيف كتب في الرد على الزنادقة والملاحدة .

حركة بابك الخُرَّمي:

هذه الحركة إحدى الحركات الهدامة التي دفعت بها بلاد فارس لمواجهة الدولة الإسلامية ممثلة في العباسيين، وهي أخطر الثورات الضالة لطول فترتها ولكثرة قتلى المسلمين من خلالها الذين بلغ عددهم مليونًا ونصف مليون بتقدير الذهبي نقلاً عن الإمام ابن الصلاح .

وتنسب هذه الحركة إلى بابك الخرمي الذي يقول عنه ابن النديم: «كان يقول لمن استغواه إنه إله، وأحدث في مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب والمثلة».

وظهر بابك الخرمي في عهد المأمون سنة ٢٠١هـ، ودخل في دعوته بقرية بابك ببلاد القوقاز كثير من أهل الجبال وهمذان، وأصبهان وما سبذان، وهدفت هذه الحركة إلى إحياء الأديان والمذاهب الفارسية القديمة والدعوة إلى الانحلال وإباحة الأعراض والأموال، وقد تتبعهم الخليفة المعتصم لخطورة آرائهم بدءًا من سنة ٢١٨هـ فقتل منهم في أعمال همذان ستين ألفًا في السنة السابقة وهرب عدد منهم إلى بلاد الروم. وقد لا حظ بعض الباحثين البعد الجديد للخرمية حين استعانت بدولة أجنبية لتحقيق أهدافها، فاتصلت بالدولة البيزنطية وأجرت مفاوضات سرية لتنظيم التعاون والعمل بين الجانبين، فكان ثيوفيل يهاجم الخلافة العباسية في سني ثورة بابك الخرمي لتخفيف الضغط على الخرمية . وواصل المعتصم حرب الخرمية، فأمر في سنة ٢٢٠هـ أبا سعيد محمد بن يوسف ببناء الحصون التي أخربها بابك الخرمي ومَلْئِها بالرجال والسلاح، ففعل أبو سعيد هذا، إلا أنه هُزم أمام جيوش بابك الخرمي واستشهد في عدد كبير من أصحابه بعد قتال شديد، واشتدت بذلك شوكة بابك وكثر أتباعه من الفرس والديلم والأكراد وغيرهم، وانتشرت دعوته لإعادة عقائد الفرس القديمة والقضاء على دولة الإسلام في طبرستان وجرجان وأرمينية إضافة إلى همذان وأصبهان غيرها، فقرر المعتصم أن يرسل قائده الإفشين سنة ٢٢٠هـ على رأس جيش كثيف تمكن من هزيمة بابك سنة ٢٢١هـ، وسنة٢٢٢هـ وفيها فتحت البَدّ مدينة بابك ودخلها المسلمون وخربوها في العشرين من رمضان، وما لبث أن تداعى هذا الكيان

الخرب كله وقبض على بابك سنة ٢٢٢هـ وقدم الإفشين به على المعتصم بسامرا، الذي أمر بقطع يدي ورجلي بابك ثم ذبحه، جزاء فتنته التي راح ضحيتها أكثر من مليون مسلم واستمرت أكثر من عشرين سنة . غير أن خرميا آخر إباحيا يدعى المازيار ظهر في إقليم طبرستان المجاور لخراسان والممتد إلى بحر قزوين حتى بلاد الديلم، وكان المازيار ممن يكاتب بابك الخرمي ويعده بالنصر فلما قبض على بابك على وقتل خرج المازيار سنة ٢٢٤ فبعث إليه المعتصم محمد بن إبراهيم بن مصعب في جيش كبير، وجرت بينهما حروب طويلة أسر في نهايتها المازيار ونقل إلى سامرا سنة ٢٢٥هـ حيث ضرب بالسياط حتى مات .

ومما سبق يتبين لنا دور العباسيين في مقاومة كل الأفكار المنحرفة والقضاء على أصحابها، وكانت فارس وما حولها من بلاد منطلق كل هذه الحركات الهدامة ومصدر كل هذه الثورات المنحرفة، وأعتقد أن لترجمة كتب الفلسفة أثرًا فيما شاهدناه من أفكار غريبة عن الإسلام، يقول المقريزي : «وهذا المأمون بن هارون الرشيد قد أثر في الإسلام أقبح أثر، وهو أنه عرب كتب الفلسفة حتى كاد بها أهل الزيغ والإلحاد الإسلام وأهله وحمل مع ذلك الناس كافة على القول بخلق القرآن وامتحنهم فيه أشد محنة».

وبالإضافة إلى هذه الثورات، فإن هناك ثورات أخرى ضد عباسي العصر الأول منها ثورات الخوارج ، **وثورة الزط الهنود** بالبصرة والخليج العربي سنة ٢٠٥هـ وقُضي عليها سنة ٢٢٠هـ في خلافة المعتصم بعد أن عاثوا في طريق البصرة وقطعوا الطرق وأخافوا السبيل واستولوا على الغلات من مخازنها بكسكر، واستولوا على الطريق بين البصرة وواسط، وكان رئيس الزط محمد بن عثمان، واستطاع عُجيب بن عنبسة أن ينال من هؤلاء الزط، فعرضوا الصلح فأعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وكانوا سبعة وعشرين ألفًا بين رجل وامرأة وصبي، وحملهم في السفن من البصرة إلى بغداد، ومنها إلى ثغر عين زَرْبَة «فأغارت عليه الروم فاجتاحوهم فلم يفلت منه أحد». وكان أهل الثغر قد انتفعوا بهؤلاء الزط قبل قضاء الروم عليهم .

وتذكر بعض الروايات التاريخية أن عددًا من هؤلاء الزط وقعوا في أيدي البيزنطيين سنة ٢٤١هـ في خلافة المتوكل على الله العباسي، فنقلهم إلى القسطنطينية ومنها وجدوا طريقًا إلى أوربا ونزل بعضهم أسبانيا، ويرجح أن الغجر الموجودين في إسبانيا حاليًا من سلالة الزط ويعرفون باسم جينو، وهو قريب جدًّا من الاسم الفارسي للزط (جت) خاصة وأن هؤلاء الزط اشتهروا في المشرق الإسلامي باشتغالهم بالغناء والرقص وإلهاء الجماهير .

والزط كانوا يسكنون بحر الهند إلى الخليج العربي حيث مناقع المياه العديدة، ثم دخلوا الإسلام، ومع أن معاوية وبعض خلفائه كانوا قد نقلوا بعضهم إلى الثغور مع الروم ليكونوا عيون لهم عليهم إلا إنه بقيت جماعة كبيرة منهم تسكن في المنطقة المعروفة بجوار الخليج العربي وهي كسكر، ويبدو أن هذه الجماعة انتهزت فوضى النزاع بين الأمين والمأمون فقامت بفتنة ربما لسوء أحوالهم المعيشية .

ومن الفتن الثورات التي حدثت في العصر العباسي الأول: فتنة خروج عبد الله بن علي عم الخليفة المنصور سنة ١٣٧هـ مطالبًا بالخلافة على أساس أنه هو الذي تتبع مروان بن محمد والأمويين في الشام إبان قيام الدولة العباسية، ووعد وقتئذ بولاية العهد من قبل أبي العباس السفاح ، فلما مات وتولى المنصور ثار عليه عمه عبد الله بن علي ببلاد الشام، فأرسل إليه المنصور أبا مسلم الخراساني الذي قضى على فتنته وحمله إلى المنصور، حيث حبس ومات في محبسه سنة ١٤٧هـ .

ومن فتن وثورات العصر العباسي الأول: ثورات العلويين، وأهمها ثورة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة سنة ١٤٥هـ، والذي كان من سادات بني هاشم ورجالهم فضلًا وشرفًا ودينًا وعلمًا وفصاحة ورياسة وكرامة ونبلاً، واعتمد في خروجه على ما ذكره من أن بني هاشم من العلويين والعباسيين اجتمعوا في آخر دولة بني أمية وتذاكروا حالهم وما هم عليه من الاضطهاد وميل الناس إليهم ومحبتهم لأن يكون الحكم فيهم، فاتفقوا سرًّا على مبايعة النفس الزكية، وحضر هذا الاجتماع من العلويين: الصادق جعفر بن محمد وعبد الله بن الحسن بن الحسن وابناه محمد (النفس

الزكية) وإبراهيم (قتيل باخَمْرى) وجماعة منهم، ومن أعيان العباسيين: السفاح والمنصور وغيرهما من آل العباس، وبايع الجميع النفس الزكية، فلما انتقل الملك إلى بني العباس لم يكن هم المنصور بعد الخلافة إلا طلب النفس الزكية، فلما اشتد الطلب عليه خرج وبايعه أهل المدينة المنورة جميعًا إلا نفرًا يسيرًا.

وغلب النفس الزكية على المدينة الشريفة وعزل عنها أميرها من قبل المنصور ورتب عليها عاملاً وقاضيًا وكسر أبواب السجون وأخرج من بها واستولى على المدينة المنورة، وبعد شهرين من اندلاع ثورة النفس الزكية خرج أخوه إبراهيم ثائرًا بالعراق واستجيب له في البصرة وواسط وفارس والأهواز، وزاد الأمر صعوبة على المنصور بفتوى الإمام مالك بالخروج مع النفس الزكية على المنصور، لما كان للنفس الزكية من سيرة عطرة رأى الإمام مالك أنه سيعيد الخلافة إلى عهد الخلفاء الراشدين، ولما قيل للإمام مالك: «في أعناقنا بيعة للمنصور»، قال: «إنما بايعتم مكرهين» فتسارع الناس إلى محمد النفس الزكية ولزم الإمام مالك بيته يدعو إلى مبايعة النفس الزكية، وتكاتب المنصور والنفس الزكية وتراسلا، وكل منها يحتج بإمامته وأحقيته بالخلافة، ولم تؤد المكاتبات والمراسلات إلى شيء، فأمر المنصور بقطع الميرة من القمح التي يرسل بها من مصر إلى بلاد الحجاز، وندب ابن أخيه عيسى بن موسى لقتاله فسار إلى النفس الزكية في جند كثيف التقى بأنصار النفس الزكية بالقرب من المدينة المنورة، وكانت الغلبة لعسكر المنصور، وقتل محمد بن عبد الله النفس الزكية وحمل رأسه إلى المنصور وذلك في سنة خمس وأربعين ومائة وتوجه عيسى بن موسى بعد ذلك إلى البصرة بخمسة عشر ألف مقاتل فالتقى بإبراهيم بن عبد الله عند قرية باخَمْرى القريبة من الكوفة، وكانت الغلبة لعسكر المنصور، وقتل إبراهيم في السنة السابقة نفسها .

والواقع أن ظهور محمد في الحجاز حكم عليه مسبقًا بالهزيمة، فكل ثورة ظهرت فيه لم تنجح، ومن أشهرها ثورة ابن الزبير ومؤيديه بمكة والمدينة في العصر الأموي، وإذا كان الإمام مالك قد أفتى بالخروج على المنصور مع النفس الزكية بالمدينة، فإن الإمام أبا حنيفة كان قد فعل ذلك بالعراق مع إبراهيم «وكان أبو حنيفة يجهر بالكلام أيام إبراهيم جهارًا شديدًا».

ومن ثورات العلويين المهمة أيضًا: ثورة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب سنة ١٦٩هـ، في خلافة الهادي بالمدينة المنورة، وبويع بها خليفة، فأرسل إليه محمد بن سليمان فالتقى به بموضع يقال له «فخ» بين مكة والمدينة، واقتتلوا قتالًا شديدًا، وقتل الحسين بن علي، وحمل رأسه إلى موسى الهادي، وفر من العلويين اثنان من أخوة النفس الزكية، هما: يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، نجيا من وقعة (فخ) وفر يحيى إلى بلاد الديلم، فثار على الرشيد سنة ١٧٦هـ، وقبض عليه، بينما فر الثاني والأخير إدريس بن عبد الله إلى المغرب الأقصى، وقامت هناك دولة باسم الأدارسة العلوية.

ولم تنتهِ ثورات العلويين ضد العباسيين بعد موقعة (فخ) بل استمرت طوال الحكم العباسي، ولم تؤد إلى شيء ذي بال في الشرق الإسلامي .

وهناك فتنة خطيرة أثرت تأثيرًا سيئًا على الدولة العباسية في جميع نواحيها وهي الفتنة بين الأمين والمأمون التي اندلعت سنة ١٩٣هـ وانتهت بمقتل الأمين سنة ١٩٨هـ.

وكان الرشيد قد بايع للأمين بولاية العهد وللمأمون من بعده، وكتب الكتب بذلك، وأشهد عليها الشهود وأرسل نسخها إلى الأمصار، وعلقت نسخة منها على الكعبة، ولما مات كان المأمون في خراسان ومعه جماعة من أكابر القواد ووزيره الفضل بن سهل، وكان الأمين ببغداد ووزيره الفضل بن ربيع، وبتأثير من الفضلين وقع الخلاف بين الأخوين، حيث أشار الفضل بن ربيع على الأمين أن يخلع أخاه المأمون من ولاية العهد وأن يبايع بها لابنه موسى، فخلع الأمين المأمون وبايع لابنه وسماه «الناطق بالحق» وبسبب ذلك كانت الفتنة ببغداد بين الأمين والمأمون وكان في آخرها قتل الأمين وتولى المأمون للخلافة سنة ١٩٨هـ.

من مظاهر الحضارة الإسلامية زمن العباسيين الأوائل:

شهد العالم الإسلامي نهضة حضارية عملاقة في زمن العباسيين الأوائل في جميع مظاهر الحيوات المختلفة، الدينية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية وغيرها، شهد بها مؤرخونا القدامى والمحدثون، ومرت الإشارة إلى

بعض جوانبها الاقتصادية المتمثلة في كثرة الأموال التي زخرت بها خزائن العباسيين الأوائل، مما جعل سيديو يقول: «أبدوا من الزينة والزخرفة أعجب المناظر ومنحوا منحًا وافرة وعملوا أعمالا فاخرة، نثروا الذهب في قصورهم وبساتينهم ومساجدهم». وعاد الاقتصاد العباسي القوي بالنفع على جميع أفراد الأمة، يستوي في ذلك المسلمون وغير المسلمين، واستشهد على ذلك بقصة المأمون مع إحدى النصرانيات بمصر عندما زارها سنة ٢١٧هـ/ ٨٣٢م، ومعه أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل وغيرهم، وكان المأمون قد سار في قرى مصر يتتبع أحوالها، لا سيما وأن قومًا بها كانوا يعتادون منع الخراج وعدم تقديمه للدولة الإسلامية العباسية . ومر المأمون بقرية فخرجت منها عجوز نصرانية تعرف بمارية القبطية – صاحبة القرية– وهي تصيح، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها، وكان لا يمشي أبدًا إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس، فذكروا له أن النصرانية تسأله أن يشرفها في ضيعتها، فوافق المأمون ودخل ضيعتها، فجاء ولدها إلى صاحب المطبخ وسأله كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة وغير ذلك مما جرت به العادة؟ فأحضر جميع ذلك وزيادة، وقدمت النصرانية للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئًا كثيرًا حتى إنه استعظم ذلك، فلما أصبح وقد عزم على الرحيل حضرت إليه النصرانية ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق فيه كيس من ذهب، فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته، فقالت: لا والله لا أفعل، فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله فقال: هذا والله أعجب، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك، ورفض المأمون أخذ هذه الهدية الثمينة، فقالت القبطية: يا أمير المؤمنين هذا – وأشارت إلى الذهب– من هذا – وأشارت إلى الأرض الزراعية– فأقطعها المأمون عدة ضياع «وانصرف متعجبًا من كبر مروءتها وسعة حالها».

ولا يمكن أن يجمع كتاب واحد بين السياسة والحضارة في زمن العباسيين لاتساع الجانبين معًا، وبخاصة الأخير، جانب الحضارة بمظاهرها المختلفة، ويكفى هنا أن أشير إلى عشرات المدارس (الكليات الجامعية) التي أقامها العباسيون في بغداد وغيرها، وإلى الازدهار العلمي في العلوم التجريبية خاصة: من طب

ورياضيات وفيزياء وكيمياء وفلك وغير ذلك في عصر العباسيين .

ولعل بعض الجوانب الحضارية قد سبقت الإشارة إليها موزعة في هذا الكتاب، إضافة إلى ما سوف يذكر بعد ذلك من بعض الجوانب الحضارية التي تكشف عن حضارة العباسيين الزاهرة التي شملت الناس جميعًا بدليل ما جاء في المصادر سنة ١٦٢هـ، من أمر المهدي بإعطاء العطاء للمجذومين وأهل السجون في جميع الآفاق. وفي السنة السابقة نفسها وضع المهدي دواوين الأزِمَّة لمراقبة جميع دواوين الدولة وضبط تعاملاتها بدقة وأمانة.

ومن أبرز الأعمال الحضارية للدولة العباسية ربط مدنها بالبريد الذي اهتم به المهدي اهتمامًا كبيرًا، ومن ذلك الجلوس للمظالم من قبل الخلفاء بحضرة القضاة، ونسب للمهدي قوله: «فلو لم يكن ردي المظالم إلا للحياء منهم لكفى».

ومن ذلك الحرص على إنصاف الرعية في الخراج وتخفيفه عنهم والحصول عليه بالعدل والإنصاف ، ولعل ما جاء لدى البغدادي من رخص الأسعار زمن المنصور يقدم دليلاً على انتعاش الأحوال الاقتصادية أهم الجوانب الحضارية المعيشية لأفراد الأمة، فلقد كان الكَبْش يباع زمن المنصور بدرهم، والحمل بأربعة دوانيق والتمر كل ستين رطلًا بدرهم، والزيت ستة عشر رطلًا بدرهم، والسمن ثمانية أرطال بدرهم.

وتمثل النقاط الآتية نماذج صادقة لحضارة العباسيين الأوائل:

بناء مدينة بغداد: اتخذ الخليفة أبو العباس السفاح الكوفة أول أمره مقرًّا لخلافته ثم بنى إلى جانبها مدينة سماها الهاشمية، سكنها فترة، ثم انتقل إلى الأنبار الواقعة على نهر الفرات سنة، ١٣٤هـ حيث بنى على مقربة منها مدينة سماها الهاشمية أيضًا، جعلها عاصمة لدولته حتى وفاته. ولما ولى المنصور فإنه اتخذ مدينة الهاشمية التي أسسها أبو العباس بضواحي الكوفة مقرًّا لخلافته ووسعها، وبنى إلى جانبها مدينة سماها «الرصافة». وبسبب ميول الكوفة العلوية فكر المنصور في البحث عن موقع جديد يتخذه حاضرة الدولة يكون في أواسط العراق «فخرج بنفسه يرتاد له موضعًا يسكنه، ويبني فيه مدينة له ولعياله ولأهله ولجنده»، وأرسل جماعة من الحكماء ذوي اللب والعقل وأمرهم بارتياد موضع،

فوقع اختيارهم على موقع بغداد على الضفة الغربية لنهر دجلة، فحضر المنصور إلى هناك وأقام فيه أيامًا ليختبر بنفسه حالة جوها وتربتها «واعتبر المكان ليلًا ونهارًا فاستطابه وبنى به المدينة»، وأوضح المنصور ميزات هذا الموقع في وسط العراق بقوله: «هذا موضع صالح، وهذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر، وتأتينا الميرة – التجارات والأموال– من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك، وهذه الفرات يجيء فيها كل شيء بالشام والرقة». فالتجارات المختلفة تأتي بغداد في الفرات من المغرب ومصر والشام، وتأتيها من الصين والهند والبصرة وواسط وآمد والجزيرة والموصل في دجلة، وقيل للمنصور: «وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسور وأخربت القناطر لم يصل إليك عدو وأنت بين دجلة والفرات، ولا يجيئك أحد من المشرق أو المغرب إلا احتاج إلى العبور بدجلة والفرات خنادق لمدينة أمير المؤمنين».

إن بغداد تقع في أقرب نقطة بين دجلة والفرات وسط بلاد العرب والعجم متوسطة لدار الإسلام، وتقع في إقليم العرق أو السواد وهي كثيرة المزروعات في أرض مستوية خالية من التضاريس التي تعرقل الري وتجاري الأنهار والترع، وانحدارها بطيء نحو دجلة، مما يمكن شق الترع للري، وفوق ذلك لا مثيل لموقع بغداد من الناحية الدفاعية، فهي تتوسط نهري: دجلة والفرات، ونهرين آخرين يأخذان من دجلة هما: دُجيل والصُّراة، فضلًا عن أنه قد شُقت لها فيما بعد قنوات تأتي من الفرات لجلب الماء إلى المدينة، فكانت جميع هذه الأنهار والقنوات أشبه بخطوط دفاعية طبيعية وموانع تعيق تقديم الجيوش التي قد تحاول غزوها .

ويذكر الخطيب البغدادي أن المنصور لما عزم على بنائها أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين، فمثل لها صفتها التي في نفسه، ثم أحضر الفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين وغيرهم وأجرى عليهم الأرزاق، وكتب إلى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئًا من أمر البناء، ولم يبتدئ البناء حتى تكامل بحضرته من أهل المهن والصناعات ألوف كثيرة ثم اختطها وجعلها مدورة، ويقال: لا يعرف في

أقطار الدنيا كلها مدينة مدورة سواها. وكان المنصور أمر أن يخط المدينة بالرماد، وأخذ يدخل من كل باب ويمر في طاقاتها ورحابها وهي مخطوطة بالرماد، وأمر أن يحفر أساس ذلك على هذا الرسم. وبنى المنصور قصره المعروف بقصر الذهب في وسط بغداد وفوقه القبة المشهورة بالقبة الخضراء، وأقام حول مدينته المدورة سورين كبيرين خارجيين الداخلي منهما أكثر ارتفاعًا من الخارجي ثم أقام سورًا ثالثًا داخليًّا حول مركز المدينة الذي يضم القصر والجامع وجعل له أربعة أبواب حديدية ضخمة عالية، وأحيط السور الداخلي بخندق حفر بين السورين، وأقطع المنصور أهله من العباسيين أراضي لبناء بيوت لهم في الأطراف الشرقية الجنوبية من بغداد وخارجها، بينما جعل الدواوين داخل المدينة المدورة، والأسواق خارجها، حيث أمر ببنائها ناحية الكرخ وجعلها صفوفًا وبيوتًا لكل صنف، وكان سبب جعل الأسواق خارج المدينة أنه قيل للمنصور: إن الغرباء وغيرهم يبيتون فيها ولا يؤمن أن يكون فيهم جواسيس، ومن يتعرف للأخبار أو أن يفتح أبواب المدينة ليلاً لموضع السوق. وأمر المنصور بعقد ثلاثة جسور لبغداد: أحدها للنساء، والآخران لنفسه وحشمه، وعقد المهدي بعد ذلك جسرين آخرين، وكذلك الرشيد.

وكان تخطيط بغداد على شكل دائرة، ولذلك سميت بالمدينة المدورة «لئلا يكون الملك إذا نزل وسطها إلى موضع منها أقرب منه إلى موضع». ويعني هذا أن الخليفة يكون في قصره الواقع في مركز المدينة على بعد واحد من جميع أنحاء المدينة. والتخطيط العمراني لبغداد فريد من نوعه بين المدن الإسلامية على الإطلاق، وهو يجعل المدينة صحية؛ لأن البناء المدور يكون عادة أكثر تعرضًا للشمس والهواء من أي بناء آخر، وهو أفضل في الدفاع والاستراتيجية الحربية من التخطيط المربع أو المستطيل، فالأسوار المستديرة تتيح للمدافعين سهولة التحرك والرؤية، بينما تحجب زوايا المربع أو المستطيل جانبًا من المنطقة المحيطة بالسور وتعرقل سير المدافعين، ولا شك أن المنصور كان يستهدف موقعًا حصينًا تدور به الأسوار الحصينة .

إن هذا الطابع الجدي الرسمي كان المظهر البارز للمدينة المدورة خاصة

وأنها كانت صغيرة الحجم لا يتجاوز قطرها كيلومتر، واستهدف المنصور من بنائها أن يتخذها مقرًّا له ولدواوينه وحرسه، ولذلك كانت كالثكنة المحصنة يطغى عليها طابع الجد والصرامة، ولم يقبل الناس على السكنى في داخلها بل حتى الخلفاء العباسيون الأوائل أقاموا في قصور بنوها خارجها .

ووجد في خزائن أبي جعفر المنصور في الكتب أنه أنفق على مدنية بغداد – التي عرفت بمدينة السلام أيضًا تيمنًا بالجنة– وجامعها وقصر الذهب بها والأسواق والأسوار والخندق والأبواب والقباب: أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهمًا . وكانت بغداد في أول عهد المنصور مدينة غربية أي أنها تقع في الجانب الغربي من دجلة، واستوعبت حاشية الخليفة وحرسه وجنده، غير أن هؤلاء سرعان ما تزايدوا إلى حد لم يكن المنصور قد قدره عندما وضع تخطيطه للمدينة، وتجلى هذا التزايد بعد فترة قصيرة من إقامته فيها، ففي سنة ١٥١هـ قدم المهدي وكان وليا للعهد مع جيشه من الري وأدرك المنصور أن المدينة المدورة وأرباضها حولها لا تتسع لهم فأمر ببناء الرصافة في الجانب الشرقي من دجلة مقابل المدنية المدورة، وبنى فيها للمهدي قصرًا فخمًا وجامعًا كبيرًا، وأقطع حولها قطائع لعدد من كبار رجال الأسرة العباسية وكبار رجال الدولة وقادتها، فبنوا القصور، وشقت لها الأنهار وعمرت فيها الأسواق، وربطت بجسر على دجلة ييسر المواصلات مع الجانب الغربي، وأصبحت بغداد غربية شرقية يشقها نهر دجلة، وهي بغداد الحالية.

وقد اتفق الناس أن بغداد لا نظير لها، وأحسن ما كانت في أيام الرشيد ، فلم يكن في جلال قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وكثرة دورها ودروبها ومنازلها وشوارعها ومساجدها وحماماتها وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها، ثم تناقص أحوالها في القرن الخامس الهجري وبعده لا سيما في أيام هولاكو الذي قتل خليفتها وعلماءها وخرب قصورها ودورها وانتقل من بقي من أهلها إلى بلاد الشام .

بناء سامراء (سُر من رأى): بُدئ في بناء سامرا (سامراء) (سُرَّ مَن رأى) في عهد الخليفة المعتصم بالله سنة ٢٢١هـ وتم الانتهاء منها بعد سنتين مثل بغداد، وكان بناء سامراء لتكون معسكرًا لجند الأتراك الذين استكثر منهم

المعتصم، فضاقت بهم بغداد وتأذى بهم الناس وزاحموهم في دورهم. وأظهر أهالي بغداد استياءهم من هذا الوضع الجديد ببغداد أعلنوا تذمرهم، فعزم على بناء مدينة شمالي بغداد يجعلها مركزًا له ولجنده وحاشيته، وقام بنفسه بالبحث عن موضع سامرا ووجد فضاء واسعًا في شمال بغداد يتميز بطيب الهواء، فأقام بهذا المكان ثلاثة أيام يتصيد في كل يوم، ووجد نفسه تتوق إلى الغذاء وتطلب الزيادة على العادة الجارية فعلم أن ذلك لتأثير الهواء والتربة فلما استطاب الموضع اشتراه من أصحابه، وارتاد لبناء قصره موضعًا فيه، فأسس بنيانه وأحضر له الفعلة والصناع وأهل المهن من سائر الأمصار، ونقل إليها من سائر البقاع أنواع الغروس والأشجار، وجعل للأتراك قطائع مميزة، وأقطع القطائع وبنى الأسواق، وجعل لأهل كل صنعة محلا بالسوق، وكذلك التجار، وبنى الناس وكثرت العمارة وجلب المياه من دجلة وغيرها، وحمل إليها الناس من كل بلد، وأمرهم أن يعمروا عمارة بلدهم، وحمل قومًا من أرض مصر يعملون القراطيس. وبنيت سامرا على ضفتي دجلة وإن كان الجزء الأكبر منها يقع على الضفة الشرقية، على عكس بغداد التي تقع على الضفة الغربية ثم توسعت إلى الضفة الشرقية. وقد استمرت سامراء عاصمة لتسعة خلفاء من ٢٢١هـ إلى ٢٨٩هـ فسكنها المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد، ثم عادت بغداد لتكون عاصمة لباقي العباسيين.

إنشاء بيت الحكمة : بداية هذه المؤسسة العلمية العظمية كانت مع الخليفة العباسي المنصور الذي جعل طبيبه جورجيوس بن جبرائيل يترجم له كتبًا من كتب اليونانيين إلى العربية، احتفظ بها الخليفة المنصور في قصره حتى كانت خلافة الرشيد فأنشأ بيت الحكمة، وجعل بها المترجمين الذين يترجمون الكتب من كل اللغات إلى العربية. وازدهرت هذه المكتبة في عهد المأمون حيث إنه اشتهر بمحبته للعلم والأخبار والأدب وتعريب الكتب. وبيت الحكمة لم يكن مكتبة فقط بل معهدًا علميًا عظيمًا بنشاطه في الترجمة والعلم والحوار والمناظرة، وضم هذا المعهد العلمي مترجمين ومجلدين للكتب ونساخًا ومسئولين يتابعون أداء هذه المؤسسة التعليمية التي أدت دورًا عظيمًا في ازدهار الحياة الفكرية في عهد العباسيين.

ملخص الوحدة السادسة

تولى الحكم في العصر العباس تسعة من الخلفاء الأكفاء، أسهموا في إعطاء العصر العباسي طابعه القوي: سياسيًّا وحضاريًّا، وكانوا رجال دولة من الطراز الأول، وهذا جعلهم يضيفون فتوحات إسلامية لم تتحقق قبلهم، ففتحت لأول مرة في عصرهم طبرستان الواقعة على بحر قزوين شمالي إيران سنة ١٤١هـ/٧٥٨م، وبعد هذا الفتح بسنوات قليلة تمكن العباسيون من فتح كشمير شمالي الهند في خلافة المنصور أيضًا، وفي سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م فتحت عمورية في خلافة المعتصم، وكانت من أمنع وأحصن بلاد الروم، ولم يحاول المسلمون فتحها قبل هذا التاريخ. وتواصلت إلى جانب هذه الفتوحات صوائف وشواتي العباسيين في بلاد الروم، ووصلوا من خلالها إلى عاصمة الروم القسطنطينية أكثر من مرة، منها سنة ١٦٥هـ/ ٧٨١م، وقدمت دولة الروم الجزية للعباسين الأوائل في سنوات عديدة بدئت بسنة ١٥٥هـ/ ٧٧١م.

وواجه العباسيون الأوائل عددًا كبيرًا من المخاطر والفتن والقلاقل والثورات، وكان الحسم طابع هذه المواجهات التي أدت إلى الحفاظ على الدولة العباسية وتماسكها، من ذلك التخلص من كل مراكز القوى في العصر العباسي الأول كالبرامكة وغيرهم، والتصدي للحركات الفكرية المنحرفة التي حاول أصحابها النيل من الإسلام كحركة سنباذ المجوسي سنة ١٣٧هـ/٧٥٤، والمسلمية في السنة السابقة نفسها، والروانديـة سنة ١٤١هـ/٧٥٨م، وأستاذ سيس سنة ١٥٠/٧٦٧م، والمقنع الخراساني سنة ١٥٩هـ/٧٧٥م، وبابك الخرمي سنة ٢٢٢هـ/ ٨٣٦م. وقضى العباسيون على ثورات مناوئين سياسيين آخرين ومنهم العلويون.

وكان للعباسيين الأوائل العديد من الأعمال الحضارية المهمة، وعلى رأسها بناء بغداد وبناء سامرا، وإنشاء بيت الحكمة.

أسئلة على الوحدة السادسة

س١: وصف الخليفة العباسي الأول عبد الله بن محمد أبو العباس بالسفاح. وضح حقيقة هذا الوصف.

س٢: اتهم الخليفة العباسي المنصور بالبخل الشديد. اشرح سبب هذا الاتهام واذكر رأيك فيه.

س٣: اشتهر الخليفة المهدي بمقاومة الزندقة. بين ذلك.

س٤: اهتم الخليفة المأمون بترجمة كتب فلاسفة اليونان، وكان لهذا الاهتمام أثره الفكري، وتأثيره العقدي عند المسلمين. وضح ذلك مبينًا الفكر الذي تبناه المأمون.

س٥: تحققت فتوحات للمسلمين في خلافة المنصور – اذكرها تفصيليًّا.

س٦: فتحت مدينة رومية لأول مرة في عهد العباسيين، تناول فتحها بالذكر.

س٧: اذكر أسباب نكبة البرامكة. ووضح رأيك فيما حدث لهم.

س٨: اختر حركتين هدامتين في العصر العباسي الأول وتناولهما بالتفصيل.

س٩: كان للفقهاء في العصر العباسي الأول رأيهم ودورهم في الحياة العامة. وضح ذلك.

س١٠: اكتب مقالًا تاريخيًّا عن بناء مدينة بغداد.

س١١: اذكر أسباب بناء سامرا، وتناول بناءها بالشرح.

نموذج إجابة

إجابة السؤال الثاني:

يعد الخليفة العباسي المنصور مؤسس الخلافة العباسية، ورجل دولة من الطراز الأول، يضع الأموال في مكانها الصحيح، ويعرف قيمة المال، ولذلك كان يحاسب العمال والصناع على الدوانيق وهي سدس الدراهم، وكان شديد الحرص على مالية الدولة، لا يسرف ولا يبذر. وكان ينظر في قليل المال ليثمره، ولو أن عنده ألف بعير وعنده بعير أجرب لقام عليه قيام من لا يملك غيره. وبسبب فهمه لقيمة المال فإنه اتهم بالحرص والبخل حتى لقب بأبي الدوانيق، وهذا الاتهام لا يصح؛ لأن المنصور كان حريصًا – فقط– على المال، يعطي في مواضع العطاء، ويمنع في مواضع المنع، وبسبب سياسته هذه فإنه ترك في بيت مال المسلمين أموالاً تكفي عشر سنين دون أن تضاف إليه أية أموال أخرى. وذكر المؤرخ المسعودي أن خزانة بيت المال كان بها عند وفاة المنصور تسعمائة ألف ألف وستون ألف دينار. وهذا يؤكد على شدة حرص المنصور على مالية الدولة وتنمية اقتصادها ووضع المال في موضعه الصحيح.

الوحدة السابعة
خلفاء العصر العباسي الثاني
عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢- ٣٣٤هـ/٨٤٦- ٩٤٥م)

الأهداف:

في نهاية هذه الوحدة، ينبغي أن يكون الدارس ملمًا بما يأتي:

١- بداية ظهور العنصر التركي في العالم الإسلامي.

٢- وصول الأتراك إلى مرحلة القوة والنفوذ وتدخلهم في السلطة وتحكمهم في الدولة العباسية.

٣- الصحوة المؤقتة للخلافة العباسية واستعادة النفوذ والسلطان.

٤- فتن الزنج والقرامطة في العصر العباسي الثاني.

العناصر:

١- معرفة العالم الإسلامي للعنصر التركي لأول مرة في عهد الرشيد بعد انتشار الإسلام في التركستان موطن الترك الأول، وبداية الاعتماد عليهم في خلافة المأمون والمعتصم بقوة وظهور سلطانهم في خلافة المتوكل في بداية العصر العباسي الثاني.

٢- الوقوف على مظاهر ضعف الخلفاء العباسيين في العصر العباسي الثاني بداية من الخليفة المنتصر وحتى الخليفة المهتدي بالله.

٣- التعرف على فترة استعادة هيبة الخلافة العباسية التي ظهرت في خلافة المعتمد على الله (٢٥٦- ٢٧٩هـ) وبلغت ذروتها في عهد المعتضد بالله (٢٧٩- ٢٨٩هـ).

٤- عودة الخلافة العباسية إلى الضعف بخلافة المقتدر بالله واستمرارها حتى نهاية العصر العباسي الثاني في عهد المستكفي بالله.

٥- انتهاز فرص ضعف الخلافة العباسية وظهور فتنة الزنج سنة ٢٥٥هـ حتى قضى عليها سنة ٢٧٠هـ، وظهور فتنة أخرى خطيرة مع القرامطة الملاحدة سنة ٢٧٨هـ وحتى انتهى أمرها في القرن الخامس الهجري بعد أن تركت العديد من الآثار السيئة في العالم الإسلامي وبخاصة في بلاد الحجاز والشام والعراق.

تمهيد:

حكم المسلمين من الخلفاء العباسيين في هذا العهد: المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦- ٨٦١م)، والمستعين (٢٤٨- ٢٥١هـ/٨٦٢- ٨٦٥م)، والمعتز (٢٥١- ٢٥٥هـ/٨٦٥- ٨٦٨م)، والمهتدي (٢٥٥- ٢٥٦هـ/٨٦٨- ٨٦٩م)، والمعتمد (٢٥٦- ٢٧٩هـ/٨٦٩- ٨٩٢م)، والمعتضد (٢٧٩- ٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠١م)، والمكتفي (٢٨٩- ٢٩٥هـ/٩٠١- ٩٠٧م)، والمقتدر (٢٩٥- ٣٢٠هـ/ ٩٠٧- ٩٣٢م)، والقاهر (٣٢٠- ٣٢٢هـ/ ٩٣٢- ٩٣٣م)، والراضي (٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٣- ٩٤٠م)، والمتقي (٣٢٩- ٣٣٣هـ/٩٤٠- ٩٤٤م)، والمستكفي (٣٣٣- ٣٣٤هـ/ ٩٤٤- ٩٤٥م). وشهد بدء عصر نفوذ البويهيين في العصر العباسي الثالث.

بداية ظهور الأتراك في العالم الإسلامي:

عرف العالم الإسلامي استخدام الأتراك لأول مرة في خلافة الخليفة العباسي هارون الرشيد، وذلك بعد أن استقرت الأوضاع وبدأ انتشار الإسلام في موطن الترك الأول (تركستان) المعروفة ببلاد ما وراء النهر، وبإقليم بخارى الكبير التي وصل المسلمون إلى حدودها بفتوحاتهم بعد الانتهاء من فتح فارس سنة ٣١هـ/ ٦٥١م، وحدث الاحتكاك بين المسلمين وبين الترك من تلك السنة، حتى جاءت سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م. فبدأ الفتح الحقيقي لبلاد ما وراء النهر على يد القائد قتيبة بن مسلم الذي وصل بفتوحاته إلى حدود الصين، وكما أخضع الأمويون الأتراك الغربيين بتركستان فإنهم تصدوا لغارات الأتراك الشرقيين وموطنهم يتجاوز إقليم ما وراء النهر حتى منطقة السهوب الروسية أو يمتد قليلاً صوب الشرق حتى حدود

الصين، وكانوا يهددون إقليم ما وراء النهر طوال العصر الأموي. وفي عهد العباسيين رسخ الإسلام في بلاد ما وراء النهر، وبدأ الأتراك الغربيون حركة الجهاد بين جيرانهم الأتراك الشرقيين، وأضاف العباسيون استخدام الترك في وظائف الدولة والجيش وحدث هذا مع هارون الرشيد بصورة محدودة، ومع المأمون الذي جعل منهم حرسه الخاص واستخدمهم في الجيش. ويذكر المقريزي أن المأمون أكثر من شراء الأتراك وتغالى في أثمانهم حتى كان يشتري المملوك منهم بمائتي ألف درهم. وفي عهد المعتصم استقدم منهم عددًا كبيرًا بلغ أكثر من خمسين ألفًا، وبنى لهم مدينة سامرا. ومن أسباب جلب المعتصم للأتراك أيضًا أن أمه كانت تركية، وكان في طباعه كثير من طباعهم من حيث القوة والشجاعة ومتانة الجسم «فبعث إلى سمرقند وفرغانة والنواحي في شرائهم وبذل فيهم الأموال».

استبداد الأتراك بأمور الخلافة العباسية:

١- بدأت ملامح هذا الاستبداد في الظهور في خلافة الواثق آخر خلفاء العصر العباسي الأول، بدليل قول السيوطي: «وفي سنة ثمان وعشرين (ومائتين) استخلف – الواثق- على السلطنة أشناس التركي، وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجًا مجوهرًا، وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطانًا، فإن الترك إنما كثروا في أيام أبيه». ولأن الواثق توفي دون أن يعهد لأحد من بعده بالخلافة ولم يكن له ولي للعهد، فإن كبار الدولة من الأتراك وغيرهم اجتمعوا لاختيار الخليفة، واستقر رأي الأتراك على تولية جعفر بن المعتصم ولقبوه بالمتوكل على الله . وظهر عدد من الأتراك في الوظائف المهمة في دولة المتوكل على الله، منهم: إيتاخ الذي كان طباخًا لرجل فاشتراه منه المعتصم فرفعه، ومن بعده الواثق حتى ضم إليه أعمالًا من أعمال السلطان، ولما ولي المتوكل كان إلى إيتاخ الجيش والحجابة ودار الخلافة والبريد والأموال، والأتراك والموالي، وجعله المتوكل أميرًا للحج سنة ٢٣٤هـ «وكان هو والي مكة والمدينة والموسم، ودعي له على المنبر» ولما رجع من الحج استصفى ماله وحبس وضرب ومات في الحبس، وكانت هذه أولى محاولات المتوكل للتخلص من سلطان الأتراك، وأول صدام بينه وبينهم.

وفي سنة ٢٣٥هـ تشبه المتوكل بجده هارون الرشيد فعهد بولاية العهد لبنيه

الثلاثة: محمد الملقب بالمنتصر بالله، وأبو عبد الله محمد الملقب بالمعتز، وإبراهيم الملقب بالمؤيد، وقسم أقاليم الدولة وولاياتها بينهم، فأقطع المنتصر المغرب كله والعواصم والثغور والموصل والحرمين واليمن والسند ومكران وقندابيل وغيرها، وأقطع المعتز خراسان وطبرستان والري وأرمينية وأذربيجان وفارس ودور الضرب، وأمر بضرب اسمه على الدراهم في حين كان للمؤيد جند دمشق وجند فلسطين.

وحدث خلاف بين المتوكل والأتراك سنة ٢٤٤هـ بسبب تحول المتوكل عن سامرا إلى دمشق وعزمه المقام بها واتخاذها عاصمة لدولته ونقل الدواوين إليها «فأمر بالبناء بها فتحرك الأتراك في أرزاقهم وعيالاتهم، فأمر لهم بما أرضاهم، ثم استوبأ البلد». وكان عودة المتوكل على الله إلى سامرا من دمشق بعد سبعة وتسعين يومًا بها. وبسبب جفاء المتوكل ابنه محمدًا المنتصر أغراه الأتراك بأبيه وأوغروا صدره على والده وحرضوه على قتله، وشاركه في اغتيال أبيه بغا الصغير وباغر، واتهم الفتح بن خاقان أفضل أمرائه بقتله، فقتله المنتصر وأرسل إلى وصيف: إن الفتح قد قتل أبي فقتلته، فحضر إليه وصيف مع الأتراك وبايعوا المنتصر بالخلافة، وكانت ليلة مقتل المتوكل «ثلمة الإسلام وعنوان سقوط الهيبة وتاريخ تراجع الخلافة».

ولا شك في أن مقتل المتوكل على يد ابنه المنتصر والأتراك يعد بداية التحول في تاريخ دولة بني العباس، ونقطة أساسية في تاريخ تضعضع وانهيار دولتهم، لا سيما في العصر العباس الثاني، حيث إن المنتصر أصبح ألعوبة في أيدي مُنَصبيه الخلافة، ومانحيه السلطان، فخلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد بمشورة من الأتراك، وعبر عن استبدادهم بالأمر دونه بقوله: «هؤلاء قتلة الخلفاء». فاغتاظوا منه وهموا به فلم يقدروا عليه لشدة تحرزه منهم. ولم ينعم المنتصر بالخلافة سوى ستة أشهر مات بعدها، وقيل بل سمه الأتراك.

٢- ومن جديد وقع عبء اختيار الخليفة العباسي الجديد على الأتراك، فاستبعدوا أبناء المتوكل وبحثوا عن الخليفة في بني المعتصم فاختاروا أحمد ابن محمد بن المعتصم ولقبوه بالمستعين، يقول ابن طباطبا: «ولما مات المنتصر

اجتمع الأمراء وأكابر المماليك وقالوا: متى ولينا أحدًا من ولد المتوكل طالبنا بدمه وأهلكنا، فأجمعوا على مبايعة المستعين، وقالوا: هو ابن مولانا المعتصم فإذا بايعناه لم تخرج الخلافة من ولد المعتصم فبايعوه في سنة ثمان وأربعين ومائتين».

٣- وواصل الأتراك سيطرتهم على الخلافة العباسية واحتفاظهم بالنفوذ والمناصب ومنها الوزارة، الأمر الذي أزعج المستعين بالله فغادر سامرا حاضرة الخلافة إلى بغداد سنة ٢٥١هـ إثر خلافات بين القادة الأتراك راح ضحيتها أحد قتلة المتوكل باغر التركي، وخرج مع المستعين بغا ووصيف التركيين، فبعث بقية الأتراك جماعة منهم تسأل المستعين العودة إلى سامرا، فرفض، وعندئذ بايعوا ابن عمه المعتز بالله ابن المتوكل في سامرا، وأصبح هناك خليفتان: أحدهما ببغداد وهو المستعين والآخر بسامراء وهو المعتز، ووقع القتال بينهما، وانتهى لصالح جيش المعتز، وتم الاتفاق على تنازل المستعين للمعتز عن الخلافة . وعنه يقول ابن طباطبا: «وكان المعتز جميل الشخص، حسن الصورة، ولم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس إلا أن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير إن شاءوا أبقوه، وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه» وقد أورد السيوطي بيتين يصوران ما كان عليه الخليفة المستعين مع وصيف وبغا التركيين:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له كما تقول الببغا

ولم يقتصر تحكم الأتراك في الخلفاء فقط، وإنما دخلوا في خلافات وفتن مع المغاربة، بالإضافة إلى فتن بين الأتراك أنفسهم راح ضحيتها وصيف سنة ٢٥٣هـ وبغا في العام التالي مباشرة.

٤- وفي سنة ٢٥٥هـ ثار الأتراك بالمعتز وطلبوا منه مالًا، فاعتذر إليهم على أساس أن الخزائن خالية، فاتفقوا على خلعه وقتله، ولجأ إلى والدته (قبيحة) التي كان لها مقدار خمسمائة ألف دينار وخزائن تحت الأرض بها ألف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار، ورفضت أن تعطي ابنها خمسين ألف دينار ليقدمها للأتراك الذين قبضوا عليه وأقاموه في الشمس وضربوه حتى خلع نفسه .

٥- وبتنازل المعتز عن الخلافة سنة ٢٥٥هـ أصبح منصبها شاغرًا، فبايع الأتراك محمد بن الواثق، ولقبوه بالمهتدي بالله الذي أجمعت المصادر التاريخية على أنه من أحسن الخلفاء مذهبًا وأجملهم طريقة وسيرة، وأظهرهم ورعًا وأكثرهم عبادة، وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ويقول: إني أستحيي أن يكون في بني أمية مثله ولا يكون مثله في بني العباس، وكان يجلس للمظالم فيحكم حكمًا يرتضيه الناس، وكان يتقلل في مأكله ومشربه.

وروي أنه كان إذا أفطر من صومه في رمضان فإنه كان يفطر على رغيفين وملح وخل، تشبهًا بعمر بن عبد العزيز ﷺ، وكان يجلس للعام والخاص للمظالم، وأظهر العدل، ونهى عن القيان، وحرم الملاهي والغناء، وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويخطب الناس ويؤم بهم «فثقلت وطأته على العامة والخاصة، بحمله إياهم على الطريق الواضحة، فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه، وعملوا الحيلة حتى قتلوه». ويذكر الذهبي أن المهتدي بالله كان ورعًا عادلًا صالحًا متعبدًا بطلًا شجاعًا قويًّا في أمر الله، خليقًا للإمارة «لكنه لم يجد معينًا ولا ناصرًا والوقت قابل للإدبار» وأنه ما زال صائمًا منذ استخلف إلى أن قتل، وكان يجلس بنفسه للإشراف على أمر الدواوين، ويجلس بين يديه الكتاب، ويعملون الحساب، وقد نفى جماعة إلى بغداد بسبب الرفض. وفي أول خلافته عبأ موسى بن بغا جيشه وشهر السلاح بسامرا لقتل صالح بن وصيف بدم المعتز ولأخذه أموال أمه قبيحة وأموال الدواوين، وصاحت الغوغاء على صالح: يا فرعون جاءك موسى، فطلب موسى الإذن على المهتدي بالله فلم يأذن له، فهجم بمن معه والمهتدي جالس في دار العدل فانتهبوا القصر، وحلفوه أن لا يمالئ صالح بن وصيف فحلف لهم، ثم طلبوا صالحًا فاختفى، ثم قتل صالح شر قتلة فيما بعد، وأراد المهتدي أن يتخلص من الأتراك بضرب بعضهم ببعض فطلب إلى بكيال أن يقتل موسى ومفلحًا أحد أمراء الأتراك أيضًا أو يمسكهما، فأوقف بكيال موسى على كتابه، فأجمعوا على قتل المهتدي وساروا إليه ووقع قتال راح ضحيته في يوم واحد أربعة آلاف من الأتراك، لكن جيش الخليفة هزم في نهاية القتال وقبض عليه وخلع سنة ٢٥٦هـ.

استعادة هيبة الخلافة العباسية:

٦- يعد الخليفة المهتدي فاصلاً بين عهدين: عهد رضوخ للأتراك وعهد استعادة النفوذ وهيبة الخلافة فيما عرف بالصحوة المؤقتة للخلافة العباسية والتي أطلق المهتدي شرارتها وقويت في خلافة المعتمد على الله (٢٥٦- ٢٧٩هـ)، وبلغت ذروتها في عهد المعتضد بالله (٢٧٩- ٢٨٩هـ). وأظن أن الفضل في انتعاشة الخلافة في هذه الفترة يعود إلى الخليفة الورع المهتدي بالله الذي بدأ في إظهار قوة الخلافة، وحاول الوقوف أمام نفوذ الأتراك حتى استحق تعاطف عوام الناس الذين اكتفوا بالدعاء بنصرته على عدوه، وبالثناء على سيرته الزكية . ويقوى رأيي قول ابن كثير: «وكان من عزمه أن يبيد الأتراك الذين أهانوا الخلفاء وأذلوهم وانتهكوا منصب الخلافة».

٧- وبتنازل المهتدي عن الخلافة ووفاته بعد ذلك بقليل، بايع الأتراك بالخلافة أحمد بن المتوكل بن المعتصم ولقب بالمعتمد على الله، واستعان المعتمد بأخيه الموفق طلحة في الحكم وولاه ولاية العهد، فكان الموفق بيده العقد والحل لا يبرم أمر دونه، وكان محبوبًا إلى الرعية لا سيما لما استؤصل الخبيث طاغوت الزنج «علي بن محمد» علي يديه، فإنه ما زال يحاربه حتى ظفر به، ولذا لقبه الناس: «الناصر لدين الله»، ولم يزل أمر الموفق طلحة يقوى ويزيد حتى صار صاحب الجيش وكلهم تحت يده، ولما غلب على هذا الأمر حظر على المعتمد واحتاط عليه وعلى ولده ووكل بهم، وأجرى الأمور مجاريها وتوفي سنة ٢٧٨هـ. ويذكر ابن طباطبا أن دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع، كان هو وأخوه طلحة كالشريكين في الخلافة «للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقود العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء، وكان المعتمد مشغولاً عن ذلك بلذاته».

٨- ولما توفي المعتمد سنة ٢٧٩هـ خلفه أبو العباس بن الموفق طلحة، ولقب بالمعتضد بالله وكان يمنع بيع كتب الكلام والفلسفة والجدل للناس وينهى عن الجلوس في المساجد والطرقات للقص، ومنع من جلوس المنجمين أيضًا للتنجيم.

ووصف المعتضد بأنه محمود السيرة، كفأ للخلافة «ولي والدنيا خراب

والثغور مهملة، فقام قيامًا مرضيا حتى عمرت مملكته وكثرت الأموال وضبطت الثغور، وكان قوي السياسة شديدًا على أهل الفساد، حاسمًا لمواد أطماع عساكره عن أذى الرعية».

ولما مات سنة ٢٨٩هـ كان في خزائنه بضعة عشر ألف ألف دينار «الألف مكررة مرتين»، وكان المعتضد ملكًا شجاعًا مهيبًا ظاهر الجبروت وافر العقل، ذا سياسة عظيمة، أسقط المكوس، ونشر العدل، ورفع الظلم عن الرعية، هابه الناس ورهبوه أحسن رهبة، وسكنت الفتن في أيامه لفرط هيبته، وكانت أيامه طيبة، كثيرة الأمن والرخاء، ويسمى بالسفاح الثاني لأنه جدد ملك بني العباس.

ويذكر المسعودي أنه كان إذا غضب على القائد النبيل والذي يختصه أمر أن تحفر له حفيرة بحضرته، ثم يدلي على رأسه فيها ويطرح التراب عليه، ونصفه الأسفل ظاهر على التراب ويداس التراب فلا يزال كذلك حتى تخرج روحه، روي أنه نظر يومًا في كتاب جمع مؤلفه له الرخص من زلل العلماء، فقيل له: مصنف هذا زنديق فقال: ألم تصح هذه الأحاديث؟ قيل له: بلى ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء، وما من عالم إلا وله زلة، ومن أخذ بكل زلل العلماء ذهب دينه، فأمر بالكتاب فأحرق، وذكر ابن كثير أن من الناس من يشبهونه بالخلفاء الراشدين.

٩- واستمرت الصحوة في عهد المكتفي ابن المعتضد الذي تولى الخلافة سنة ٢٨٩هـ بعد وفاة والده، والمكتفي بالله من أفاضل الخلفاء، سمع يقول في علته التي مات بسببها سنة ٢٩٥هـ: «والله ما آسى على سبعمائة ألف دينار صرفتها من مال المسلمين في أبنية ما احتجت إليها وكنت مستغنيًا عنها، أخاف إن أسأل عنها، وإني أستغفر الله منها».

العودة إلى ضعف الخلافة:

١٠- تولى المقتدر بالله الخلافة سنة ٢٩٥هـ بعد وفاة أخيه المكتفي، وكان عمر المقتدر ثلاث عشرة سنة، ولم يل الخلافة قبله أصغر منه، فكان من اللازم عودة نفوذ الأتراك وتحكمهم في هذا الصبي الصغير. وعبر عن ذلك الذهبي

بقوله: «وانخرم نظام الإمامة في أيامه وصغر منصب الخلافة، وقد خلع في أوائل دولته، وبايعوا ابنه المعتز ثم لم يتم ذلك، وقتل ابن المعتز وجماعة، ثم إنه خلع ثانيًا في سنة سبع عشرة (وثلاثمائة) وبذل خطة بعزل نفسه، وبايعوا أخاه القاهر، ثم بعد ثلاث أعيد المقتدر، ثم في المرة الثالثة قتل».

ولعل فترة ضعف الخلافة في عهد المقتدر بالله (٢٩٥- ٣٢٠هـ) تظهر من أن الروم عاثوا في هذه الفترة في الثغور وفعلوا العظائم «وبذل لهم المسلمون الإتاوة». وكان صاحب الدولة كلها في عهده صافي الحرمي (ت٢٩٨هـ) فلما مات تفرد مؤنس بأعباء الأمور.

ويصف ابن الأثير فترة حكم المقتدر بقوله: «على أن المقتدر أهمل من أحوال الخلافة كثيرًا، وحكم فيها النساء والخدم وفرط في الأموال، عزل من الوزراء وولي مما أوجب طمع أصحاب الأطراف والنواب وخروجهم عن الطاعة، وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيرًا وتضييعًا في غير وجه نيفًا وسبعين ألف ألف دينار، سوى ما أنفقه في الوجوه الواجبة، وإذا اعتبرت أحوال الخلافة في أيامه وأيام المكتفي ووالده المعتضد، رأيت بينهم تفاوتًا بعيدًا». وقد قاد مؤنس الخادم مؤامرة قتل من خلالها المقتدر سنة ٣٢٠هـ، واختار الأتراك محمد بن المعتضد الملقب بالقاهر، ولعل ما ذكره ابن الجوزي متصلًا بأم المقتدر أقوى دليل على ضعفه السياسي، يقول ابن الجوزي: «وفي هذه السنة -٣٠٦هـ- أمرت السيدة أم المقتدر، قهرمانة لها تعرف بثُمُل أن تجلس بالتربة التي بنتها بالرصافة للمظالم، وتنظر في رقاع الناس في كل جمعة، فجلست وأحضرت القاضي أبا الحسين بن الأشناني وخرجت التوقيعات على السداد». وأكد ابن الجوزي أيضًا أن ثُمُل القهرمانة قعدت في أيام المقتدر للمظالم «وحضر مجلسها القضاة والفقهاء».

١١- وحدث للخليفة القاهر بالله (٣٢٠- ٣٢٢هـ) ما لم يحدث للخلفاء العباسيين من قبل على أيدي الأتراك حيث سملوا عينيه بعد سنة وستة أشهر من خلافته ، وكان القاهر بالله فيه شر وجبروت وطيش، ولم يكن متمكنا من الأمور، مقدامًا على سفك الدماء، رديء السياسة، صادر جماعة من أمهات

أولاد المقتدر، وصادر أم المقتدر وأخذ منها مائة وثلاثين ألف دينار. وفي سنة ٣٢٢هـ خلع القاهر، وكان سبب ذلك أن وزيره ابن مقلة كان يفسد عليه قلوب الجند ويحذرهم منه، وحسَّن لهم أن يهجموا عليه وأن يخعلوه، ففعلوا ذلك وسملوه حتى سالت عيناه على خديه، ثم حبس في دار السلطنة ومكث في الحبس مدة، ثم أخرج منه عند تقلب الأحوال، وكان مرة يحبس ومرة يفرج عنه، فخرج يومًا ووقف بجامع المنصور ببغداد يطلب الصدقة من الناس، فرآه بعض الهاشميين فأعطاه خمسمائة درهم ومنعه من الخروج.

١٢- وولي الأتراك الخلافة بعد عزل القاهر لمحمد – وقيل أحمد – ابن المقتدر بالله، ولقبوه بالراضي بالله وذلك سنة ٣٢٢هـ، وفي أيامه ضعف أمر الخلافة العباسية، فكانت فارس في يد علي بن بويه، والري أصبهان والجبل في يد أخيه الحسن بن بويه، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر في أيدي بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، ثم في أيدي الفاطميين، والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الأموي (عبد الرحمن الناصر) وخراسان والبلاد الشرقية في يد نصر بن أحمد الساماني.

واستحدث الراضي بالله سنة ٣٢٤م منصبًا جديدًا أسماه «إمرة الأمراء» بغرض إصلاح أمور الخلافة العباسية المختلفة، وأول من تولى هذا المنصب الأمير محمد ابن رائق (ت٣٣٠هـ) الذي كان واليًا على واسط والبصرة، فاستدعاه الراضي، وأسند إليه مقاليد الأمور في الدولة «ورُدَّت أمور المملكة إليه». واستبد ابن رائق بالأمور وولي النظار والعمال، ورفعت المطالعات إليه وردَّ الحكم في جميع الأمور إلى نظره «ولم يبق للوزير سوى الاسم من غير حكم ولا تدبير، ومن تلك الأيام اضطهدت الخلافة العباسية وخرجت الأمور منها، واستولى الأعاجم والأمراء وأرباب السيوف على الدولة وجبوا الأموال وكفوا يد الخليفة وقرروا له شيئًا يسيرًا وبلغة قاصرة، ووهن من يومئذ أمر الخلافة».

ويذكر الذهبي أنه في أيام الراضي عظم محمد بن رائق ولم يبق للراضي معه حل ولا ربط، وضعف شأن الخلافة . وجرت منازعات ومنافسات حول منصب

إمرة الأمراء الذي زاد الأحوال في الدولة سوءًا، وكانت الفتن والحروب متواترة بالعراق في هذه السنين، وجرت فتنة ابن رائق وفتنة ابن البريدي حاكم الأهواز وبجكم، بسبب الصراع على منصب أمير الأمراء، ومرج الناس وعم البلاء .

ومما يبين هوان منصب الخلافة ما ذكره بُجْكم بعد موت الراضي في جماعة من أصحابه: إن هؤلاء حدثوني أن الراضي أراد أن يقبض علي في بعض دعواته فقيل له: «الأمير يعلم أن الراضي لا يرجى في هذا الوقت ولا يخاف». ويدل على هذا الهوان لمنصب الخلافة أيضًا أنه في سنة ٣٢٣هـ، دعي للوزير ابن ياقوت على المنابر من الأئمة بعد دعائهم للراضي وقرظ الأئمة ابن ياقوت، فبلغ ذلك الراضي فأنكره.

١٣- وبوفاة الراضي سنة ٣٢٩هـ بويع أخوه المتقي لله بالخلافة، وكان كثير الصوم والتعبد، ولم يشرب نبيذًا قط، وكان يقول: لا أريد نديمًا غير المصحف «ولم يكن له سوى الاسم والتدبير لأبي علي عبد الله أحمد بن علي الكوفي كاتب بجكم».

وحدث خلاف بين المتقي لله وبين أمير الأمراء توزون، ووقع قتال بين أتباعهما، وقيل للمتقي: «وقد عرفت الأتراك وفجورهم وعذرهم» وعرض الإخشيد على المتقي لله أن يسير معه إلى مصر ليأمن على نفسه من توزون التركي فلم يقبل المتقي لله، فما كان من توزون إلا أن قبض على المتقي وسمله، وأخذ منه البُرد والخاتم والقضيب، وخلعه وبايع المستكفي .

١٤- وكان عبد الله بن المكتفي الملقب بالمستكفي بالله الذي بويع سنة ٣٣٣هـ، من قبل توزون آخر خلفاء العصر العباسي الثاني، عصر نفوذ الأتراك، وتولى الخلافة لمدة سنة وأربعة أشهر، وشهد اقتحام بني بويه الشيعة لبغداد ونهبها على أيديهم، ودخل عليه اثنان من الديلم فقبضا عليه وعلى القهرمانه (عَلَم) التي كانت معظمة عند المستكفي تأمر وتنهى، فقطع لسانها، وسيق المستكفي ماشيًا إلى منزل معز الدولة البويهي فخلع المستكفي وسَمَلَه، وبايعوا في الحال الفضل ابن المقتدر ولقبوه المطيع لله، وبقي المستكفي مسجونًا إلى أن مات سنة ٣٣٨هـ، «واستقل بملك العراق معز الدولة، وضعف دست الخلافة

جدًّا وظهر الرفض والاعتزال ببني بويه».

وبذلك ينتهي عهد نفوذ الأتراك ليبدأ عهد أسوأ منه، وأشد إيلامًا، وأكثر تضييعًا لهيبة الخلافة ومكانتها، من تحكم الشيعة البويهيين في خلفاء بني العباس وفي مقدرات المسلمين، وفي إثارة الفتن بين السنة والشيعة ببغداد التي لم تنقطع أبدًا، وإنما كانت مستعرة على أشدها برعاية هؤلاء البويهيين الشيعة وإشرافهم.

ولم تقف مآسي المسلمين في عصر نفوذ الأتراك على ما اقترفوه بحق الخلفاء العباسيين بصفة خاصة والأمة الإسلامية بصفة عامة، وإنما شهد هذا العصر فتنًا سوداء أراقت دماء المسلمين فسالت دماؤهم أنهارًا، وضاعت كرامتهم وعزتهم بالاعتداء على مقدساتهم، بكسر الحجر الأسود وسرقته وابتعاده عن مكانه مدة زادت على عشرين سنة، هذا إضافة إلى الاستقلال ببعض البلاد عن الخلافة العباسية.

فتنة الزنج (سنة ٢٥٥ - ٢٧٠هـ):

مثلت فتنة الزنج خطرًا داهمًا على المسلمين بدءًا من سنة ٢٥٥هـ حتى ثم القضاء عليها سنة ٢٧٠هـ. والزنج طائفة من العبيد من زنوج أفريقية جلبوا من الصومال وزنجبار بأسعار رخيصة للعمل في المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط، وهي أراض فيها مياه يستخرج منها الملح ومغطاة بالأعشاب والآجام، وبيعت هذه الأراضي منذ خلافة الرشيد واحتيج إلى هؤلاء العبيد الزنوج للاستفادة من هذه الأراضي بتجفيفها واستخراج الملح منها وزراعتها، وبلغ عدد العاملين من العبيد بالبصرة ونواحيها حوالي خمسة عشر ألفًا يعيشون في حالة سيئة وظروف معيشية صعبة، طعامهم فيها قليل من الدقيق والتمر والسويق، واستغل جهلهم وفقرهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية السيئة رجل فارسي الأصل من أهل الري يدعى «بهبوذ» وتسمى بعلي بن محمد وادعى انتسابه إلى عبد القيس ثم إلى زيد بن علي بن الحسين ابن علي، وكان ماكرًا، داهية منحلا، زنديقا، ظهر بالبصرة سنة ٢٥٥هـ، واستغوى عبيد الناس وأوباشهم، فتجمع له كل لص ومريب، وكان هذا الخبيث قد ظهر سنة ٢٤٩هـ بالبحرين قبل خروجه بالبصرة بعد ذلك بست سنوات، ولقيت دعوته بالبحرين قبولاً، ومال إليه رئيس هجر،

ونابذه قوم فاقتتلوا فتحول إلى الأحساء واعتصم ببني الشماس «وإنما قصد البحرين لغباوة أهلها ورواج المخاريق عليهم، فحل منهم محل نبي وصدقوه بمرة، ثم تنكروا له لدبره، فشخص إلى البادية يستغوي الأعاريب بنفوذ حيله وشعوذته واعتقدوا فيه أنه يعلم منطق الطير، وجعل يغير على النواحي، ثم تمت له وقعة كبيرة هزم فيها وقتل كبراء أتباعه وكرهته العرب فقصد البصرة».

وكان ظهوره بالبصرة في خلافة المهتدي، وزعم أنه خوطب من الرعد وقال لأصحابه: «إني أمرت بصوت هذا الرعد بالمصير إلى البصرة»، ولما قدم البصرة انضم إليه عبيدها أملًا في التخلص من الرق، فخاطبهم قائلاً: «أنتم الأمراء وستملكون»، ووعدهم ومناهم، ثم طلب أستاذيهم وسادتهم، وأمر الغلمان والعبيد بضربهم بعد تقييدهم. وأعلن الخبيث علي بن محمد أنه مبعوث العناية الإلهية لهؤلاء العبيد لإنقاذهم من بؤسهم، وأنه هو عبد الله المذكور في سورة (الجن)، وأن النبي ما يمتاز عليه إلا بالنبوة، وأنه تكلم في المهد، وأنه مذكور في التوراة والإنجيل، وكان يجمع اليهود والنصارى يسألهم عما في التوراة والإنجيل من ذكره . وكان يقول لأصحابه «لقد عرضت علي النبوة فأبيتها»، فقيل له: ولمَ ذاك؟ قال: «لأن لها أعباء خفت ألا أطيق حملها». ثم ادعى الخبيث أنه مطلع على الغيب، وبالرغم من أنه ادعى أنه من ولد زيد بن علي العلوي إلا أنه لم يجهر بمبدأ الشيعة، وإنما جهر بمبدأ الخوارج، مما جعل الذهبي يصفه بأنه حروري، على رأي فجرة الخوارج يتستر بالانتماء إليهم «وإلا فالرجل دهري فيلسوف زنديق».

وكان هذا الزنديق يسب سيدنا عثمان وعليًّا ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم، وكان ينادي على المرأة العلوية التي وقعت في أسره في عسكره بدرهمين وثلاثة، «وكان عند الواحد من الزنج العشر من العلويات يطؤهن ويستخدمهن». وتنقل الخبيث بين مدن العراق يدعو إلى أفكاره الخبيثة فاستغوى عدة من الحاكة ببغداد بخرافاته، ثم لم يزل ينهب ويغير ويكثر جمعه حتى أصبح أتباعه يقدرون بمئات الألوف، واستولوا سنة ٢٥٥هـ على ألف وتسعمائة سفينة، كان بعضها يحمل حجاجًا إلى مكة المكرمة أرادوا أن يسلكوا طريق البصرة، ويبدو أنها كانت قادمة من الهند، وناظر الطاغية هؤلاء الحجاج فوافقوه على

رأيه، خوفًا منه فأطلق سراحهم.

وتمكن الطاغية علي بن محمد من أن يوقع بجيش الخليفة المهتدي بالبصرة وقتل عدد كبير منه، فوقع الرعب في النفوس، ووجه الخليفة جيشًا آخر ما فعل شيئًا، ثم أوقع الخبيث علي بن محمد بأهل الأُبُلّة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج العربي سنة ٢٥٦هـ وأحرقها، وكذلك أخذ عبَّادان بالقرب من البصرة، وانضم إليه عبيدهم، ثم أخذ الأهواز بالسيف سنة ٢٥٧هـ، وهرب جندها فأحرق الجامع وقت صلاة الجمعة بما حوى، واستباح واسط سنة ٢٦٤هـ «وحصل للخبيث جواهر وأموال فاستأثر بها، فأنكر عليه المتقشفون من أصحابه، وذكروا له سيرة أبي بكر وعمر، فقال: ليس فيهما قدوة».

وتوالت انتصارات جيش الخبيث على الجيوش العباسية وقتل ألوف المسلمين، حيث قتل بالأُبلة على مقربة من الخليج العربي وشط العرب نحو ثلاثين ألف مسلم، ونحو خمسين ألف مسلم بالأهواز وسبى منها أربعين ألفًا، وكان الموفق طلحة أخو المعتمد الخليفة العباسي، يكتب إلى الخبيث يدعوه إلى التوبة من ادعاء مخاطبة الملائكة، ومن تحريفه القرآن وضلالته، فما أجاب بشيء، وبنى الخبيث مدينته «المختارة» لتكون مركزًا لدعوته ومعسكرًا لجنده، وبناها على الضفة الغربية لنهر أبي الخصيب أحد الأنهار الآخذة من الجانب الغربي من نهر دجلة، وكانت مدينة منيعة ضرب بحصانتها المثل، ونصب فيها المجانيق والأسلحة بما يبهر العقول، وبها نحو مائتي ألف مقاتل، فما قدر عليها الجيش العباسي إلا بالمطاولة، ولما تولى الموفق طلحة أمر مقاتلة الخبيث بنفسه بنى إزاءها مدينة الموفقية على دجلة، وبنى بها الجامع والأسواق وسكنها وأسكنها الناس، وتمكن الموفق طلحة بعد حروب متواصلة مع الزنج بدءًا من سنة ٢٦٤هـ، من إجلاء الزنج عن الأهواز وتهديد المختارة أكثر من مرة، لكن الخبيث كان يصد هجوم الموفق عليها، وأخذ جند الخبيث في التخلي عنه والخروج إلى الموفق الذي أحسن إليهم، إلى أن جاءت سنة ٢٦٩هـ، وفيها اقتحم الموفق طلحة (المختارة) عَنوة ونادى بالأمان، وقاتل حاشية الخبيث عنه أشد قتال وجُرِحَ الموفق، فعاد عن المختارة التي رمَّها الخبيث وأعاد تحصينها.

وفي شوال سنة ٢٧٠هـ كانت الملحمة الكبرى بين الخبيث والموفق ووقعت الهزيمة على الزنج وقتل الطاغية علي بن محمد، وأتي فارس برأسه إلى الموفق فما صدق حتى عرضه على جماعة فقالوا: هو هو، فترجل الموفق والأمراء وخروا ساجدين لله، وضجوا بالتكبير ودخل برأسه الخبيثة إلى بغداد وكان يومًا مشهودًا، وكان قتله بعد خمس عشرة سنة حيث كان ظهوره في السادس من رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين.

وذكر ابن طباطبا أن عدد القتلى في الوقائع التي جرت بين المسلمين والزنج بلغت ألفي ألف وخمسمائة ألف إنسان ، ونقل الذهبي والسيوطي عن الصولي أن قتلى المسلمين بلغ ألف ألف وخمسمائة ألف، وعلق الذهبي على ذلك بقوله: «قلت وكذا عدد قتلى بابك الخُرَّمي».

وهكذا انتهت هذه الثورة المدمرة والفتنة الخبيثة التي هددت الدولة العباسية وحصدت أرواح مليون ونصف مليون مسلم، منهم كبار الفقهاء والأئمة على رأسهم: زيد بن أخزم الحافظ البصري أحد شيوخ البخاري وأرباب السنن الأربعة، ووثقه النسائي «وكان ممن قتلته الزنج والأوباش الواثبون على البصرة مع الخبيث في سنة سبع وخمسين ومائتين». وصرح الخطيب البغدادي بأنهم ذبحوه ذبحًا . ومن هؤلاء عباس بن الفرج العلامة الحافظ الرياشي البصري النحوي الحافظ للغة والشعر، قتلته الزنج بالبصرة سنة ٢٥٧هـ، بمسجدها وهو قائم يصلي الضحى فضربوه بالأسياف وقالوا: هات المال، فجعل يقول: أي مال، أي مال؟! حتى مات. ومنهم الحافظ الإمام الثبت عبد الله بن سعيد الأشج المفسر إمام أهل زمانه، قال النسائي عنه «صدوق» وقد ذبحه الزنج.

وما سبق أمثلة فقط لهول وفظاعة فتنة الزنج التي كان للموفق طلحة فضل كبير في إخمادها. ويذكر د. يوسف العش: أن الموفق طلحة كان قد اطلع على طريق الزنج في الحرب وأنهم لا يحسنون حمل السلاح والتدرب على القتال كما يحسنه جيش الخليفة، فوضع خطة لمحاربتهم تمنع كل وسيلة من وسائل نجاحهم بتأمين طرق تموين الجيش العباسي وإنشاء الحصون المنيعة، وتسوية كل قطعة من الأرض المحررة بإزالة الأشجار والمستنقعات، واستخدام أحدث ما توصلت

إليه الحرب النفسية بتأمين الزنوج المستسلمين على حياتهم وإحسان معاملتهم. ولم تحمل دعوة صاحب الزنج أي قيم إنسانية كما يدعي بعض المتحررين من الإسلام الذين يمدحون القائمين بهذه الفتنة، ولم يكن صاحب الزنج داعية إلى فكر نبيل يرمي إلى تحرير العبيد، بل كان يهدف لاستخدامهم من أجل أغراضه الشخصية وإلا ما استعبد المسلمين والمسلمات ممن وقع في أسره، وما أكثر الأرقاء الذين وقعوا في قبضة الزنج، حتى كان الزنجي –كما مر– يمتلك العشرات من النساء المسلمات، وقد استنقذ الموفق من أيدي الزنوج أكثر من عشرين ألف طفل وامرأة كانوا مستعبدين، فأين إذًا الفكر الاشتراكي الذي دعا إليه الخبيث علي بن محمد؟!

فتنة القرامطة:

فرقة القرامطة إحدى الفرق المتطرفة وجماعات الزنادقة الملاحدة، التي بدأت كفرقة الفاطميين العبيديين سرية، يكتنف نشأتها الأولى كثير من الغموض والتكتم الشديدين شأن كل جماعة هدامة أو فرقة منحرفة أو مجموعة فاسدة، ومن الغريب أيضًا أن يثني عليها اللادينيون ويعدونهم جماعة تحمل فكرًا اشتراكيًّا، لا عملاً إجراميًّا، ويبدو أن أفكار المجرمين جميعًا تتلاقى ورؤى المنحرفين فكريًّا تتساند وغلو المغالين في الفساد والانحلال والكفر تتناصر. وعدت جريمة القرامطة الباطنية إحدى حركات التشيع الغالية في الانحراف عن الإسلام وجوهره وأصوله ومبادئه، وكان أول ظهور أمر القرامطة في الكوفة سنة ٢٧٨هـ، بينما ظهر قرامطة البحرين سنة ٢٨٦هـ بقيادة أبي سعيد الجنابي، وظهر قرامطة الشام سنة ٢٨٩هـ. يذكر ابن الجوزي أنه في سنة ٢٧٨هـ وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة وهم الباطنية وهؤلاء تبعوا طريق الملحدين، وجحدوا الشرائع، وغرضهم الإلحاد ولذلك تبنوا آراء الملحدين مثل: زرادشت ومُزْدَك، فإنهما كانا ينتحلان المحظورات، وأخذ القرامطة ببعض آرائهم من المجوس والفلاسفة المتقدمين، ويذهب القرامطة إلى تعطيل الشرائع، ويقولون بإلهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان، إلا أن أحدهما علة لوجود الثاني، ومذهبهم في النبوات قريب من مذهب الفلاسفة، وهو أن النبي عبارة عن شخص فاضت عليه من العقل السابق (الإله الذي خلق العالم بواسطة الإله

التالي) بواسطة الثاني قوة قدسية صافية، وجبريل عبارة عن العقل الفائض عليه لا أنه شخص، وأن القرآن هو تعبير محمد عن المعارف التي فاضت عليه من العقل، فسمى كلام الله مجازًا، وهذه القوة الفائضة على النبي لا تفيض عليه في أول مرة، وإنما تتربى كنطفة. واتفق القرامطة على أنه لا بد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق، يرجع إليه في تأويل الظواهر وحل الإشكال في القرآن والأخبار، وأنه يساوي النبي في العصمة. وينكر القرامطة القيامة وأولوا القيامة بأنها رمز إلى خروج الإمام، ونفوا الحشر والنشر والجنة والنار، واعتقد القرامطة استباحة المحظورات وأن كل ما ذكر من التكاليف فرموز إلى باطن، فمعنى الجنابة مبادرة المستجيب بإنشاء سر إليه، ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك – ولذا لا يغتسلون من الجنابة– والزنا: إلقاء نطفة العلم الباطن إلى نفس، والبعث عندهم الاهتداء إلى مذاهبهم. ويقولون: «للذكر مثل حظ الأنثيين» الذكر: الإمام، والحجة: الأنثى.

وقالوا: «يوم يأتي تأويله» أي يظهر الإمام «فإن قال قائل مثل هذه الاعتقادات الركيكة والحديث الفارغ كيف يخفى على من يتبعهم، ونحن نرى أتباعهم خلقًا كثيرًا، فالجواب أن أتباعهم أصناف، فمنهم قوم ضعفت عقولهم وقلت بصائرهم وغلبت عليه البلادة والبله...».

ويذكر السيوطي ظهور القرامطة بالكوفة سنة ٢٧٨هـ ويقول: «وهم نوع من الملاحدة يدعون أنه لا غسل من الجنابة وأن الخمر حلال، ويزيدون آذانهم، وأن محمد ابن الحنفية رسول الله، وأن الصوم في السنة يومان: يوم النيروز ويوم المهرجان، وأن الحج والقبلة إلى بيت المقدس، وأشياء أخرى ونفق قولهم على الجهال». ويضيف ابن الأثير: أن القرامطة يحرمون النبيذ ويحلون الخمر وأن الجمعة يوم الاثنين.

وأول من نشر مذهب القرامطة هو حمدان بن الأشعث المسمى قِرمطًا ؛ لأنه كان رجلاً قصيرًا، قصير الرجلين، متقارب الخطو فسمى بذلك «قِرْمط». وكان ابتداء أمر القرامطة أن حمدان قرمط أظهر الدين والزهد والتقشف والأكل من كسبه وأقام على ذلك مدة، فكان إذا جالسه رجل ذكره الدين والزهد في الدنيا

وأعلمه أن الصلاة مفروضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة، حتى فشا ذلك بموضعه، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت رسول الله ﷺ، فاستجاب له جمع كبير، ودعا أهل الناحية إلى مذهبه فأجابوه، وكان يأخذ من الرجل إذا أجابه دينارًا واحدًا، يزعم أنه للإمام، واتخذ منهم اثني عشر نقيبًا، وأمرهم أن يدعوا الناس إلى مذهبه وقال: أنتم كحواري عيسى ابن مريم، وامتحن قرمط الداخلين في دعوته بتأدية درهم واحد، وسمى ذلك الفطرة من كل رأس من الرجال والنساء والصبيان، فسارعوا إلى ذلك، فتركهم مديدة، ثم فرض عليهم الهجرة وهو دينار على كل رأس أدرك الحنث وتلا عليهم قوله تعال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال: هذا تأويل هذا، ثم فرض عليهم البُلْغَة وهي سبعة دنانير وزعم أن ذلك هو البرهان بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [الأنبياء:٢٤]. وزعم أن ذلك بلاغ من يريد الإيمان والدخول في السابقين السابقين «أولئك المقربون»، وصنع لهم طعامًا طيبًا حلوًا لذيذًا وجعله على قدر البنادق يطعم كل من أدى إليه سبعة دنانير واحدة منها، وزعم أنه طعام أهل الجنة نزل إلى الإمام، ولما تواطأ له هذا الأمر فرض عليهم أخماس ما يملكون وما يتكسبون وتلا عليهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنزلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:٤١]، فقوموا جميع ما يملكونه من ثوب وغيره وأدوا خمسه إليه، حتى كانت المرأة تخرج خمس ما تغزل والرجل خمس ما يكسب، فلما تم له ذلك فرض عليهم الألفة، وهو أن يجمعوا أموالهم في موضع واحد وأن يكونوا في ذلك أسرة واحدة، لا يفضل أحد منهم صاحبه وأخاه في ملك يملكه، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وعرَّفهم أنه لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم؛ لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم، وطالبهم بشراء السلاح وإعداده، وأقام الدعاة في كل قرية رجلاً مختارًا من ثقاتها يجمع عند أموال أهل قريته من بقر وغنم وحلي ومتاع وغيره، فكان يكسو عاريهم وينفق عليهم ما

يكفيهم ولا يبقي فقيرًا بينهم ولا محتاجًا ضعيفًا. ولما استقدم له ذلك كله أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ليلة معروفة ويختلطن بالرجال وقال: إن ذلك من صحة الود والألفة بينهم فربما بذل الرجل لأخيه امرأته متى أحب، فلما تمكن من أمورهم ووثق بطاعتهم وتبين مقدار عقولهم أخذ في تدريجهم إلى الضلالة وأتاهم بحجج من مذهب الثنوية، فسلكوا معه في ذلك، حتى خلعهم من الشريعة ونقض عليهم ما كان يأمرهم به في مبدأ أمورهم من الخشوع والورع والتقى، وأباح لهم الأموال والفروج والغنى عن الصوم والصلاة والفرائض وأن ذلك كله موضوع عنهم، وأن أموال المخالفين ودماءهم حلال لهم، وأن معرفة صاحب الحق الذي يدعو إليه يغني عن كل شيء، ولا يخاف معه إثم ولا عذاب».

وبانتشار الفكر القرمطي الكافر بسواد أهل الكوفة في البداية خرج يحيى ابن زكرويه يقود هؤلاء القرامطة سنة ٢٨٩هـ فاقتحموا الرصافة وأحرقوا مسجدها وهزموا الجيش العباسي الذي أرسل به المعتضد، ثم اتجه جيش القرامطة إلى الشام التابع للطولونيين، وهزم القرامطة جيش الطولونيين وقتل يحيى القرمطي عند دمشق، وتولى الحسين بن زكرويه أخو يحيى قيادة القرامطة فاستولى على حمص وغيرها من بلاد الشام، وتسمى بأمير المؤمنين وخطب له بالمنابر هناك، واشتهر الحسين بن زكرويه بالدموية حتى إنه كان يقتل صبيان المكاتب والكتاتيب، وقد قتل كل مسلمي «سَلَمية»، وقد خرج المكتفي بالله الخليفة العباسي بنفسه إلى الشام عن طريق الموصل وتمكن جيش العباسيين من الانتصار على جيوش القرامطة بالقرب من حماة، واستمر خطر القرامطة بالشام بالرغم من هزائمهم على يد جيش العباسيين. ومن جرائم القرامطة قيامهم سنة ٢٩٤هـ بالإغارة على قوافل الحج العائدة من مكة إلى العراق والمشرق، فأغار عليهم رأس القرامطة بالعراق والشام زكرويه بن مهرويه ووضع فيهم السيف وقتلهم عن آخرهم وجمع القتلى كالتل .

وكان نساء القرامطة يطفن بالماء بين القتلى يعرضن عليهم الماء، فمن كلمهن قتلنه، «فقيل إن عدة القتلى بلغت عشرين ألفًا»، وكان مبلغ ما أخذ من إحدى القوافل للحجاج ألفي ألف دينار لأن بها أموال الطولونيين. وعظم ما فعله

المجرم القرمطي زكرويه بن مهرويه على جميع المسلمين، فجهز المكتفي الجيوش في السنة السابقة نفسها والتقت بزكرويه وهزمته وأسر زكرويه بعد إصابته ولقي حتفه بعد أيام قليلة، وتتبع الخليفة المكتفي القرامطة بالعراق فقتل بعضهم وحبس بعضهم ومات بعضهم في الحبس. وهذا أدى إلى ضعف طائفة القرامطة بالعراق والشام المعروفين بقرامطة الشمال الذين فقدوا مدبر أمرهم ورأس كفرهم.

وكان حمدان قرمط قد أرسل سنة ٢٨١هـ إلى البحرين أحد دعاته وهو أبو سعيد بن بهرام من أهل جَنّابة، وأصله من الفرس، وكان قد سافر إلى سواد الكوفة وتزوج من قوم يقال لهم بنو القصار، وكانوا أصولاً في هذه الدعوة الخبيثة فأخذها عنهم، وسار داعية لحمدان قرمط بالقطيف، وهي حينئذ مدينة عظمية، فجلس بها يبيع الدقيق ولزم الوفاء والصدق ودعا الناس لعقيدة القرامطة، وتمكن من تأسيس ولاية لهم على الشاطئ الغربي للخليج العربي، واتخذ في الإحساء عاصمة سماها المؤمنية، واستولى على اليمامة سنة ٢٩٢هـ وحاول أخذ عمان فلم يتمكن، وقام بقتل من بقي حيا من جيشه المهزوم، وجرت بينه وبين عسكر المعتضد بالله حروب انتصر فيها القرمطي أبو سعيد الجنابي، إلا أنه لقي مصرعه سنة ٣٠١هـ بعد هزيمته لجيش العباسيين، وتولى بعده أمر قرامطة البحرين ابنه أبو طاهر سليمان.

وعدو الله ملك البحرين أبو طاهر سليمان بن حسن القرمطي الجنابي الزنديق هو الذي سار إلى مكة سنة ٣١٧هـ واستباح الحجيج كلهم في الحرم، واقتلع الحجر الأسود وأخذ كسوة الكعبة وبابها، وردم زمزم بالقتلى، وصعد على عتبة الكعبة يصيح:

أنا بالله وبالله أنا يخلق الله وأفنيهم أنا

وقتل في سكك مكة وما حولها زهاء ثلاثين ألفًا، وسبى الذرية، وأقام بالحرم أحد عشر يومًا، وبذل السيف في الحجاج في سابع ذي الحجة ولم يقف أحد بعرفة في هذه السنة، وقتل أمير مكة ابن محارب، وعرى البيت وأخذ بابه ورجع إلى بلاد هجر، ومعه الحجر الأسود فبقي عندهم أكثر من عشرين سنة، ودخل

قرمطي سكران على فرس المسجد الحرام، وبال عند البيت وصاح: يا حمير أليس قلتم في هذا البيت «ومن دخله كان آمنا» فكيف يكون آمنًا وقد قتلته الساعة بحضرتكم؟ وكان أمير الأمراء بجكم التركي دفع لهم في الحجر خمسين ألف دينار فأبوا ، وقالوا: أخذناه بأمر وما نرده إلا بأمر. ثم جرت لأبي طاهر مع المسلمين حروب أوهنته، وقتل جنده، فطلب الأمان على أن يرد الحجر، وأن يأخذ عن كل حاج دينارًا، وذلك سنة ٣٣٩هـ، وقد نهبت دور أهل مكة وقتل الكثير من أهلها بعد أخذ أموالهم في اعتداء أبي طاهر على الحرم الشريف، وعاد أبو طاهر إلى بلده سنة ٣١٨هـ، وأقام به ثم سار إلى الكوفة فدخلها في رمضان سنة ٣١٩هـ، فاشتروا منها أمتعة وأسروا خلقًا من السواد، وعاثوا ورجعوا بعد خمسين يومًا إلى بلدهم، فأقاموا به.

وقد شهد القرن الخامس الهجري نهاية القرامطة كجماعة فاسقة مجرمة، وأسهم العباسيون والسلاجقة في القضاء عليهم سنة ٤٦٢هـ، وتم طرد القرامطة من الأحساء سنة ٤٧٠هـ، بعد الهزيمة في موقعة (الخندق) وهي إحدى المواقع الحاسمة في التاريخ؛ لأنها قضت على دولة القرامطة بعد قرنين من الزمان.

وكعادة اللادينيين فإنهم يجعلون من إجرام القرامطة رموزًا للاشتراكية، وذكر المستشرق ماسينيون جانبًا آخر من ميزاتهم المزعومة وهو أنهم أول من أسس نقابات العمال في ديار الإسلام، فجمعوا بين العمال ووحدوهم، والصحيح أن النقابات العمالية ظهرت قبل القرامطة في القرن الثاني الهجري، وأن هؤلاء القرامطة إنما جمعوا العمال ووحدوهم من أجل استخدامهم في العمليات الإجرامية والعدوانية، وليس من أجل صالحهم وحياتهم، وإنما لتحقيق أغراض دنيئة حقيرة.

وبالإضافة إلى فتن الزنج والقرامطة في العصر العباس الثاني، فإن هذا العصر شهد استقلال العديد من المناطق عن الخلافة العباسية، وظهور دول مستقلة بها، بعضها يرجع إلى عهد المأمون، ومن هذه الدول: الدولة الطاهرية (٢٠٥- ٢٥٩هـ)، والدولة الصفارية (٢٥٤- ٣٠٠هـ)، والدولة السامانية (٢٦١- ٣٨٩هـ) ويمكن تقديم ملخصات عن هذه الدول في الصفحات التالية:

الدولة الطاهرية (٢٠٥- ٢٥٩هـ):

دولة استقلت بعض الاستقلال عن الحكم العباسي في خراسان، وقامت على أنقاضها في خراسان والمنطقة نفسها الدولة الصفارية، وامتدت إلى خراسان وإيران الدولة الثانية السامانية التي نشأت ببلاد ما وراء النهر ثم ضمت خراسان وبعض المناطق الإيرانية المجاورة لها. ويعود ظهور هذه الدولة إلى خلافة المأمون حيث ولي خراسان قائده طاهر بن الحسين (ت٢٠٧هـ) فأسس بها دولة فارسية ارتبطت بعلاقات جيدة بالعباسيين، وقدمت لهم الخراج، واستمر الحكم فيها في عقب طاهر بن الحسين حتى كان آخرهم طاهر الثالث بن محمد ابن طاهر الذي تولى ٢٤٨هـ حتى سنة ٢٥٩هـ، وفيها سقطت دولتهم أمام يعقوب الصفار صاحب الدولة الصفارية التي كانت قد قامت في سجستان بأقصى إيران، ثم استولت على هراة وخراسان وغيرها.

الدولة الصفارية (٢٥٤- ٣٠٠هـ):

تنسب هذه الدولة إلى يعقوب بن الليث (ت٢٦٥هـ)، وكان هو وأخوه عمرو ابن الليث يعملان في النحاس وتصفيره، فتزهدا وجاهدا الخوارج بسجستان بأقصى شرق إيران، وغلب عليها يعقوب بن الليث وحكمها بعد أن طرد واليها من قبل الطاهريين، واشتهر يعقوب بحسن السياسة، ووطد دولته بالاستيلاء على هراة وبُوشَنْج الطاهريتين، وحارب الترك وقتل منهم ثلاثة ملوك، فهابته الملوك، وكان يحمل إلى الخليفة العباسي المعتمد في العام خمسة آلاف ألف درهم، وقنع المعتمد بمداراته، ثم أخذ يعقوب بلخ ونيسابور وجُرجان، وقضى على الدولة الطاهرية وحاول توسيع دولته على حساب الدولة الزيدية في طبرستان فلم يتمكن، وتملك بعد يعقوب أخوه عمرو بن الليث، وأحسن السياسة وعدل وعظمت دولته، وأطاع الخليفة، لكن دولته تعرضت للأخطار على يد السامانيين الذين أسروا عمرو بن الليث سنة ٢٨٧هـ، واستمر وجود الصفاريين بسجستان حتى قضى عليهم السامانيون نهائيًّا سنة ٣٠٠هـ.

الدولة السامانية (٢٦١- ٣٨٩هـ):

السامانيون فرس أسلم جدهم الأعلى في عهد الأمويين، واستخدم المأمون في

خلافة الرشيد أربعة إخوة من أولاد أسد بن سامان، هم: نوح وأحمد ويحيى وإلياس في مناطق ببلاد ما وراء النهر، سمرقند وفرغانة والشاش وأشروسنة وهراة، وأقرهم على ذلك طاهر بن الحسين لما ولي خراسان، وفي سنة ٢٦١هـ ولي نصر بن أحمد أخاه إسماعيل بخارى وبدأت دولة السامانيين من هذا التاريخ، حيث طمع إسماعيل في السلطة ونازع أخاه وتحارب معه سنة ٢٧٥هـ وظفر إسماعيل بأخيه نصر، وتولى إسماعيل أمر الدولة سنة ٢٧٩هـ بعد وفاة أخيه نصر وتمكن إسماعيل من إخضاع إقليم ما وراء النهر كله لسلطانه وأن يستولي على خراسان من الصفاريين، وبذلك عد مؤسس هذه الدولة. وتداول أمر الدولة بعد إسماعيل أبناؤه ببلاد ما وراء النهر وخراسان حتى تمكن محمود بن سبكتكين الغزنوي سنة ٣٨٩هـ، من الاستيلاء على خراسان، بينما وقعت بلاد ما وراء النهر في أيدي القراخانيين. وللدولة السامانية أثر كبير في إحياء الآداب الفارسية.

وبعد... فكانت لكل الدول السابقة حضارتها الزاهرة وأعمالها المجيدة، ويكفي هنا أن أذكر أن مستشرقًا ألمانيًا هو الأستاذ آدم متز ألف كتابا أسماه «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» الذي شهد العصر العباسي الثاني وسبعين سنة من العصر العباسي الثالث المشابه من حيث الضعف السياسي وتحكم البويهيين الشيعة للعصر العباس الثاني.

ملخص الوحدة السابعة

يعد العصر العباسي الثاني عصر نفوذ الأتراك الذين عرفهم العالم الإسلامي في خلافة الرشيد، حيث بدئ استخدامهم على نطاق ضيق في أيامه، ثم جعل ابنه المأمون حرسه الخاص منهم واستخدمهم بكثرة في جيشه، وفي عهد المعتصم استقدم منهم عددًا كبيرًا، وبنى لهم مدينة خاصة بهم هي مدينة سامرا، وبوفاة الخليفة العباسي الواثق دون أن يعهد لأحد من بعده بالخلافة قام كبار الدولة من الأتراك باختيار المتوكل، وتبوأوا في خلافته المناصب المهمة والوظائف الرئيسة، واستمر تحكم الأتراك في الدولة العباسية في خلافة المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي، ولم يكن للخلفاء في هذه الفترة التاريخية سوى الاسم والدعاء على المنابر، بينما استبد الأتراك بالأموال والولايات والمناصب وباقي شئون الدولة العباسية.

وبتولي الخلفية المعتمد على الله للحكم سنة ٢٥٦هـ قويت الخلافة العباسية وتضاءل نفوذ الترك، واعتمد الخليفة المعتمد على أخيه الموفق طلحة في إدارة شئون الدولة العباسية، فكان بيده الحل والعقد وكان محبوبًا من الرعية لا سيما بعد استئصال خطر الزنج سنة ٢٧٠هـ، واستمرت صحوة الخلافة العباسية في عهد الخليفة العباسي المعتضد الذي عُد مجدد ملك العباسيين، ولكن خبت جذوة الصحوة في عهد المكتفي بن المعتضد ثم انتهت في خلافة المقتدر بالله العباسي سنة ٢٩٥هـ، واستمر الضعف حتى نهاية العصر العباسي الثاني، وإن كان للدولة العباسية في هذه المرحلة دور مهم في مقاومة القرامطة والملاحدة الذين انتهى أمرهم في موقعة الخندق الحاسمة سنة ٤٧٠هـ.

أسئلة على الوحدة السابعة

س١: تحدث عن بداية ظهور الأتراك في العالم الإسلامي حتى بداية استبدادهم بالأمر في الخلافة العباسية.

س٢: تناول وضع الخلافة العباسية مع الأتراك في فترة ضعفها الأول.

س٣: اكتب مقالًا تاريخيًّا عن فترة انتعاش الخلافة العباسية في العهد العباسي الثاني.

س٤: تناول مظاهر ضعف الخلافة العباسية في فترتها الثانية من العصر العباسي الثاني.

س٥: مثل الزنج خطرًا شديدًا على المسلمين في العصر العباسي الثاني وضح ذلك..

س٦: بين خطر القرامطة على المسلمين في العصر العباسي الثاني من خلال أفكارهم الفاسدة وأعمالهم الإجرامية.

نموذج إجابة

إجابة السؤال الخامس:

بدأ الزنج في الظهور في العصر العباسي الثاني ضد العباسيين سنة ٢٥٥هـ، وهم أصلاً طائفة من عبيد أفريقية، أتوا من الصومال وزنجبار إلى منطقة المستنقعات بين البصرة وواسط للعمل في استخراج الملح منها وتهيئتها للزراعة، ولأنهم كانوا في وضع اجتماعي واقتصادي سيئ فإنهم استغلوا دعوة رجل فارسي يدعى (بهبوذ) ويسمى بعلي بن محمد للخروج على الدولة العباسية، وقد ادعى هذا الداهية أنه سيحرر هؤلاء العبيد وسيجعلهم يملكون الأرض والمال، وأنه مبعوث العناية الإلهية إليهم لإنقاذهم من البؤس، فاتبعوه في أفكاره المنحرفة وأعماله المجرمة، إذ إنه ادعى علمه بالغيب، ورفضه للنبوة، وعمد هذا الخبيث علي بن محمد وأتباعه إلى الاعتداء على الحجاج وحدث هذا سنة ٢٥٥هـ، ٢٥٦، ولجأ إلى حرق المساجد وخطف العلويات وبيعهن إماءً، وتمكن من الانتصار على جيوش العباسيين في أكثر من موقعة حربية، وبنى مدينة عسكرية حصينة سماها (المختارة) على الضفة الغربية لأحد الأنهار الآخذة من نهر دجلة، ولما تولى الموفق طلحة أمْر مقاتلته بنى مدينته (الموفقية) على دجلة، ودخل معه في حروب طاحنة بدءًا من سنة ٢٦٤هـ، إلى أن تمكن الموفق طلحة من اقتحام المختارة سنة ٢٦٩هـ، وبعد سنة واحدة استطاع الموفق طلحة قتل الخبيث علي بن محمد في موقعة الخندق سنة ٢٧٠هـ، لتنتهي بذلك هذه الثورة المدمرة، والفتنة الخبيثة التي حصدت ما يزيد على مليون ونصف مليون مسلم، من بينهم عدد كبير من الفقهاء، منهم الحافظ زيد بن أخزم أحد شيوخ البخاري.

الوحدة الثامنة
خلفاء العصر العباسي الثالث
(عصر نفوذ البويهيين)

الأهداف:

بعد دراسة هذه الوحدة، ينبغي أن يكون الدارس ملمًّا بما يأتي:

١- معرفة أصل بني بويه المتحكمين في الخلافة العباسية في عصرها الثالث.

٢- الوقوف على تمكن البويهيين في الخلافة العباسية.

٣- الإلمام بزوال النفوذ البويهي عن الخلفاء العباسيين.

العناصر:

١- انتساب البويهيين إلى بويه الفارسي ببلاد الديلم في الجنوب الغربي لبحر قزوين.

٢- توجُّهُ البويهيين إلى بغداد سنة ٣٣٤هـ في خلافة الخليفة المستكفي وتحكمهم في الخلافة العباسية تحكمًا شديدًا جعلهم يتحكمون في أرزاق الخلفاء أنفسهم.

٣- محاولة القضاء على الخلافة العباسية عن طريق الأمير التركي البساسيري لحساب الدولة العبيدية الفاطمية بمصر.

تمهيد:

(بنو بويه): ينتسب البويهيون إلى بويه الفارسي، وسكن هؤلاء الفرس الديلم، التي تقع في الجنوب الغربي من بحر قزوين، وهي منطقة جبلية يسكنها الديالمة المعروفون بالجبل أيضًا، وثقافتهم فارسية، وهم مزيج من الإيرانيين والأتراك والشعوب الأخرى، وهم شعب صلب، قوي، شديد المراس، معتاد على

الحرب والقتال، ودينهم الوثنية حتى عهد العباسيين، حتى استطاع الزيديون من آل على أن يستميلوا الديالمة إلى الإسلام، وعاملوهم معاملة حسنة، ونشروا فيهم المذهب الزيدي فأقبل الديالمة على التشيع وتركوا الوثنية. وقد فتحت بلاد الديلم منذ خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ويذكر ابن طباطبا أن البويهيين ليسوا من الديلم، وإنما سموا بالديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم. وكانت بلاد الديلم قد خضعت للعلويين الذين أقاموا لهم دولة بها هي الدولة الزيدية التي لعب من خلالها الحسن بن علي الزيدي الملقب بالأطروش دورًا في الدعوة إلى الإسلام بطبرستان وببلاد الديلم، وظلت الديلم تحكم عن طريق عقب الأطروش حتى تمكن الديالمة من إقامة الدولة الزيارية التي أسسها مرداويج بن زيار سنة ٣١٥هـ فحلت محل الدولة الزيدية.

واتصل بنو بويه بمرداويج بن زيار فولى علي بن بويه بلاد الكرج بين أصفهان وهمذان، ولأنه كان صاحب طموح فإنه لم يقتصر على هذه الولاية، وإنما مد سلطانه إلى أصفهان، وبسط أخواه الحسن وأحمد سلطانهما إلى كرمان والري والأهواز، وبمقتل مرداويج سنة ٣٢٣هـ وسع البويهيون دولتهم واستولوا على الجبال وهمذان وغيرها.

ويعجب ابن طباطبا من أمر بني بويه الذين كانوا يعيشون حياة صعبة أساسها الفقر والمسكنة والحاجة، وجدهم وأباه وجده كانوا كآحاد الرعية الفقراء ببلاد الديلم، أما أبو الأمراء البويهيين (بويه) فكان صياد سمك، لكن أحمد ابن بويه (معز الدولة) كان بعد تملكه البلاد يعترف بنعمة الله تعالى ويقول: «كنت أحتطب الحطب على رأسي». وهذا هو ما ذكره الذهبي وهو يترجم لعلي بن بويه (عماد الدين) صاحب ممالك فارس وأخو الملكين أحمد (معز الدولة) والحسن (ركن الدولة). وكان عماد الدولة أول من تملك البلاد بعد أن كان قائدًا كبيرًا من قواد الديلم، «وكان أبوهم بويه يصطاد السمك، ثم آل بأولاده الأمر إلى ملك البلاد، ثم تملك من بعده العماد ولد أخيه عضد الدولة ابن ركن الدولة».

البويهيون في بغداد والتحكم في الخلفاء:

سبقت الإشارة إلى قصد أحمد بن بويه (معز الدولة) بغداد سنة ٣٣٤هـ في خلافة المستكفي بالله وقيام البويهيين بسمله وقطع لسان القهرمانة (علم) التي كانت معظمة عنده، وبذلك آل أمر الخلافة فعليًّا إلى البويهيين الشيعة الزيديين بعد الأتراك، بينما للخلفاء العباسيين الحكم الشكلي. وخلفاء العصر العباسي الثالث عصر نفوذ البويهيين هم: المطيع (٣٣٤- ٣٦٣هـ)، والطائع (٣٦٣- ٣٨١هـ)، والقادر (٣٨١- ٤٢٢هـ)، والقائم (٤٢٢- ٤٦٧هـ). وفي أيامه دخل السلاجقة بغداد.

ويصور ابن الأثير وضع الخلافة العباسية في عهد نفوذ البويهيين بقوله: «وازداد أمر الخلافة إدبارًا، ولم يبق لهم من الأمر شيء ألبتة، وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشيء – في عهد الأتراك– فلما كان أيام معز الدولة – أحمد بن بويه– زال ذلك جميعه بحيث إن الخليفة لم يبق به وزير، وإنما كان له كاتب يدبر إقطاعه وإخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد، وكان من أعظم الأسباب في ذلك أن الديلم كانوا يتشيعون، ويغالون في التشيع ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها، فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة، حتى لقد بلغني أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوي، أو لغيره من العلويين، فكلهم أشار عليه بذلك ما عدا بعض خواصه فإنه قال: ليس هذا برأي، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه، مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من يعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه، فأعرض عن ذلك».

ويذكر ابن الأثير أن معز الدولة تسلم العراق بأسره، ولم يبقَ بيد الخليفة منه شيء ألبتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته، وكان ما قرره عماد الدولة، (علي بن بويه) (ت٣٣٨هـ) للخليفة العباسي المطيع لله في اليوم مائة دينار فقط. ولم يكن الخليفة الطائع الذي خلف أبا المطيع أحسن حظًّا منه، فقد تعرض

لسوء معاملة البويهيين، وكان الحل والعقد للملك عز الدولة وابن عمه عضد الدولة ابن السلطان حسن بن بويه ركن الدولة الذي قدم العراق فأعجبه واستمال الجند، وتمكن عضد الدولة ولقب بتاج الملة، وعلا سلطانه علوًّا لا مزيد عليه، ومع ذلك الارتقاء فكان يخضع للطائع، وتزوج الطائع ببنت عضد الدولة وببنت عز الدولة قبلها. وفي سنة ٣٨١هـ قبض على الخليفة الطائع بسبب أنه حبس رجلًا من خواص بهاء الدولة فغضب على الطائع وجذبه بهاء الدولة من سريره، وتكاثر الديلم، وخلع الخليفة نفسه وسلم الأمر إلى القادر بالله أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر، وكان القادر بالله من الدين وإدامة التهجد وكثرة الصدقات على صفة اشتهرت عنه، وصنف كتابًا في الأصول ذكر فيه فضل الصحابة وإكفار من قال بخلق القرآن، وكان ذلك الكتاب يقرأ في كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث ويحضره الناس مدة خلافته وهي إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر.

وتولى القائم بالله بعد وفاة أبيه الخلافة سنة ٤٢٢هـ. ومما يدل على تحكم البويهيين في دولته أن غلامًا لجلال الدولة بن بهاء الدولة اعتدى على مزرعة الخليفة القائم بأمر الله فامتعض الخليفة من ذلك وكوتب الملك جلال الدولة بالقبض على هذا الغلام وتأديبه، فوقع التواني عن ذلك، لضعف الهيبة، فزاد غيظ الخليفة فأمر القضاة بالامتناع عن الحكم والفقهاء بترك الفتاوى والخطباء بألا يعقدوا عقد زواج، وعمل على إغلاق باب الجامع ومنع الصلاة، فحُمل الغلام ترضية للخليفة القائم وسجن، ثم أطلق سراحه.

ويذكر ابن الجوزي أنه في سنة ٤٣٤هـ منع جلال الدولة أصحاب الخليفة القائم بالله من جمع مال الجزية واستولى على ما تم الحصول عليه فعلاً من هذا المال، وعين من قبله من يتولى جبايتها، فشق ذلك على القائم بالله وعزم على الرحيل من بغداد وأرسل بذلك إلى القضاة والفقهاء للخروج معه وأمر القائم بغلق الجوامع ومنع الصلاة يوم الجمعة، فعدل عن تصرف جلال الدولة وأعلن موافقته على اختصاص الإمام بجمع هذه الجزية.

وبسبب ضعف الخلافة العباسية فإن أميرا تركيًّا يدعى البساسيري كان القائم لا يقطع أمرًا دونه لكنه عزم على القبض على الخليفة وإنهاء الخلافة

العباسية، وضم ممتلكاتها للعبيديين الفاطميين بمصر وكان حاكمهم وقتئذ المستنصر، وبالفعل قدم البساسيري بغداد سنة ٤٥٠هـ بعد أن عظم شأنه وظلم وخرب القرى، وأراد تنفيذ مخططه الخبيث، الذي تهيأت له بغداد بالخطبة على المنابر للمستنصر العبيدي إلا جامع المنصور، وبالزيادة في الأذان: «حي على خير العمل» وحدث قتال لمدة شهر بين البساسيري وجند الخلافة، وانتصر البساسيري وقبض على القائم بالله وحبسه، وكان القائم قد كاتب طُغْرلبك ملك السلاجقة يستنهضه، فقدم إلى بغداد سنة ٤٤٧هـ، وذهب البساسيري إلى الرحبة وأمده المستنصر العبيدي بالمال والسلاح، وانشغل طغرلبك بخلافات مع أخيه (إينال)الذي أراد اغتصاب الملك منه، والتقى الأخوان بهمذان، ودخل من جديد البساسيري بغداد في الرايات الفاطمية العبيدية ونصرته الشيعة، ونهض البساسيري في أهل الكرخ وغيرهم إلى حرب القائم، وتم القبض عليه – كما سبق– سنة ٤٥٠هـ، ولما ظفر طغرلبك بأخيه وقتله جهز عسكرًا قاتل البساسري فقتل وطيف برأسه، وعادت الخطبة للقائم العباسي، بعد أن كانت للمستنصر الفاطمي ببغداد سنة كاملة، ولما عاد الخليفة القائم إلى داره لم ينم بعدها إلا على فراش مصلاه ولزم الصيام والقيام، وعفا عن كل من آذاه، ولم يسترد شيئًا مما نهب من قصره. ولما نهب قصره لم يوجد فيه شيء من آلات اللهو.

وزال بدخول السلاجقة بغداد حكم البويهيين. يقول الذهبي واصفا حال المسلمين في القرن الرابع الهجري: «قلت: فنحمد الله على العافية، فلقد جرى على الإسلام في المائة الرابعة بلاء شديد بالدولة العبيدية بالمغرب –ثم بمصر– وبالدولة البويهية بالمشرق، وبالأعراب القرامطة، فالأمر لله تعالى».

إن البويهيين أخربوا الزراعة بالعراق بتوزيع الإقطاعات بالقرى على كبار أصحابهم ومصادرة الأراضي من أصحابها ووقع النزاع بين هؤلاء الديلم على الأراضي، وحدثت وحشة ومنافرة وصراعات . أضف إلى ذلك حدوث منازعات وفتن مستمرة لا تنقطع أبدًا بين السنة والشيعة ببغداد، وكان الشيعة في يوم عاشوراء يعطلون الأسواق لإقامة النوح واللطم. وطمع هؤلاء البويهيون في مال الخلفاء وما في قصورهم من الجواهر، وتعدى الأمر إلى أن يدعى لهؤلاء

البويهيين مع الخلفاء على المنابر، وأن تنقش أسماؤهم وألقابهم مع اسم الخليفة على السكة (العملة) وذلك منذ عهد عضد الدولة، كما اشترك البويهيون مع الخلفاء العباسيين في خاصية أخرى من خصائصهم المعروفة بشارات الخلافة، وهي ضرب الطبول على أبوابهم في أوقات الصلوات الخمس .

وكل هذا التجريد للخلافة من كل سلطان ظهر بقوة في عهد عضد الدولة وبعده. ويلخص د. يوسف العش كل ذلك بقوله: «كان الخليفة لا يستطيع أن يعين كتابه ووزراءه، وإنما يعينهم الملك البويهي بنفسه، وكان الملك البويهي يقرن اسمه على السكة (النقد) باسم الخليفة، ويضع على السكة ألقابه وكنيته كما يضع الخليفة لقبه وكنيته...». وبقي للخليفة تعيين القضاة والمفتين والأئمة والخطباء «ولا ريب أنه ما كان لملك شيعي أن يتدخل في شأن هؤلاء باعتبار أن أكثرهم من أهل السنة، حتى لو أنه أراد أن يتدخل يخالفه الخليفة ولا يرضى بما قام به».

والخلاصة أن البويهيين الشيعة استأثروا بالخلافة العباسية السنية في عهدها الثالث، وكانت أيامهم كلها فتنًا وحروبًا طائفية، في وقت لا حول للخلفاء فيها ولا طول، ولم يقدم البويهيون شيئًا ذا بال للمسلمين.

ملخص الوحدة الثامنة

ينتسب البويهيون إلى بويه الفارسي ببلاد الديلم بالجنوب الغربي من بحر قزوين، وهي منطقة جبلية فقيرة، عاش فيها بنو بويه معيشة صعبة، وكان بويه يعمل بصيد السمك، وقد خضعت بلاد الديلم للعلويين الذين أقاموا لهم بها الدولة الزيدية، ونشروا الإسلام بين الديالمة الذين سرعان ما أقاموا دولة هي الدولة الزيارية، التي أقامها مرداويج بن زيار سنة ٣١٥هـ، فحلت محل الدولة الزيدية. وتولى عليٌّ ابن بويه ولاية الكرج لمرداويج بن زيار، فمد سلطانه إلى أصفهان، وبدأت الدولة البويهية تقوم على أنقاض الدولة الزيارية. ثم تطلع البويهيون إلى بغداد، وبالفعل أصبحت الخلافة العباسية تابعة للنفوذ الشيعي الزيدي متمثلاً في البويهيين منذ سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، وحتى سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م وكانت الخلافة العباسية في هذه الفترة أسوأ مما كانت عليه في عهد النفوذ التركي السابق للنفوذ البويهي.

أسئلة على الوحدة الثامنة

س١: عرِّف ببني بويه حتى قيام دولتهم سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م ببلاد الديلم.

س٢: كانت الخلافة العباسية ألعوبة في أيد الأمراء البويهيين. وضح ذلك.

س٣: بم تفسر سوء معاملة الأمراء البويهيين للخلفاء العباسيين.

س٤: وضح محاولة الأمير التركي البساسيري للقضاء على الخلافة العباسية.

نموذج إجابة

إجابة السؤال الثالث:

عامل الأمراء البويهيون الخلفاء العباسيين معاملة سيئة للغاية، حيث أصبح الخليفة العباسي مجردًا تمامًا من سلطانه السياسي وسلطته الفعلية، ومن تحكمه في مالية الدولة، وآل ذلك كله إلى البويهيين الذين استأثروا بالسلطة والمال دون الخلفاء العباسيين الذين كان لهم راتب يومي يتقاضونه من هؤلاء البويهيين، ولم يكتف البويهيون بذلك، وإنما قاموا بفقء عيني الخليفة المستكفي بالله وعزلوا الخليفة الطائع وولوا بعده القادر بالله. وسبب إهانة البويهيين للخلفاء العباسيين هو أن البويهيين كانوا على المذهب الشيعي الزيدي، فعمدوا إلى إذلال الخليفة السني الذي لا يعترفون بإمامته وخلافته، لكنهم أبقوا على الخلافة العباسية السنية ليتمكنوا من السيطرة على مقاليد الدولة كلها في ظلال هؤلاء الخلفاء العباسيين، وإلا فلو أنهم أحلوا خلافة شيعية محل الخلافة السنية، لكان للخلافة الجديدة قوتها ومكانتها ولما استطاعوا العمل في ظلالها، فأبقوا على الخلافة السنية العباسية ضعيفة مهانة لا قيمة لها.

الوحدة التاسعة
خلفاء العصر العباسي الرابع
(عصر نفوذ السلاجقة وما بعده)

الأهداف:

بعد دراسة هذه الوحدة، ينبغي أن يكون الدارس ملمًّا بما يأتي:

١- التعريف ببني سلجوق الأتراك الغز.

٢- معرفة الظروف التي أدت إلى دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧/٦٥٦هـ.

٣- الوقوف على طبيعة العلاقة بين السلاجقة وخلفاء العصر العباسي الأخير.

٤- الإلمام بنشأة المغول وخروجهم على بلاد الإسلام حتى تم لهم القضاء على الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

العناصر:

١- انتقال عناصر السلاجقة التركمان الغز الأتراك من أقصى التركستان إلى إقليمي ما وراء النهر وخراسان، واعتناقهم الإسلام على مذهب أهل السنة والجماعة.

٢- قيام دولة للسلاجقة في خراسان ٤٢٩هـ على أنقاض الدولة الغزنوية بها واعتراف الخليفة العباسي القائم بالدولة السلجوقية التي امتدت إلى بلاد ما وراء النهر.

٣- استدعاء الخليفة القائم للزعيم السلجوقي طغرلبك سنة ٤٤٧هـ للقضاء على فتنة البساسيري ببغداد.

٤- دخول السلاجقة بغداد وإعادة رونق الخلافة العباسية وهيبة خلفائها.

٥- ظهور خطر التتار المدمر الذي سحق التركستان وإقليم ما وراء النهر والعراق، فضلاً عن الصين وأفغانستان وروسيا وغيرها. وقضاء التتار على الخلافة العباسية وعلى خليفتها الأخير بالعراق المستعصم بالله سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م،

وإزهاق أرواح ما يزيد عن مليوني مسلم بالعراق، وبذلك سقطت الخلافة العباسية بالعراق، وأحياها الظاهر بيبرس بمصر بدءًا من سنة ٦٥٩هـ، ولكنها كانت بمصر خلافة اسمية وشكلية، والحكم الفعلي لسلاطين المماليك.

تمهيد:

(بنو سلجوق): يطلق اسم السلاجقة على العشائر التركية المنتمية إلى طائفة الغز الترك، والمعروفين أيضًا بالتركمان الذين كانوا يسكنون أقصى التركستان ثم بدأت تهاجر من أقصى التركستان إلى إقليمي ما وراء النهر وخراسان في القرن الثاني الهجري وحتى القرن الرابع الهجري.

وأطلق على هذه العشائر أو القبائل التركية اسم السلاجقة، نسبة إلى «سلجوق بن دقاق» الذي تولى رئاسة هذه القبائل التركية، ويبدو أنه هو الذي جمع شملها ونظم صفوفها ووحدها تحت زعامته، ثم قادها إلى تلك المنازل التي نزلت فيها عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م فنسبت إليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفاده، وكانت منازل السلاجقة – في ذلك الوقت– تجاور البلاد الخاضعة لنفوذ السامانيين والغزنويين وهم من المؤيدين للمذهب السني، فأدى جوار السلاجقة لهم إلى اعتناق الإسلام وتعصبهم للمذهب السني قبل أن يكونوا دولة، ويسر اعتناق السلاجقة الإسلام لهم فرصة التقرب من حكام المسلمين المجاورين لهم، والتدخل – أحيانًا– في المنازعات التي تثور بينهم، وقد أفاد زعيمهم سلجوق من مساعدته للسامانيين، فأذنوا له بالمرور في بلادهم، والاستقرار بطوائف السلاجقة بالقرب من شاطئ نهر سيحون واتخاذ مدينة «جَنَد» قاعدة له، ثم أخذ السلاجقة – منذ أواخر القرن الرابع الهجري– يجنحون إلى الاستقرار بالقرب من موارد المياه، حيث توجد الأراضي الخصبة، وتكثر المراعي اللازمة لدوابهم. فيطيب لهم العيش ويحلو. وبدأ القرن الخامس الهجري والسلاجقة يستقرون في بلاد ما وراء النهر بعد أن تمت هجرتهم من بلاد التركستان، وكانت الدولة السامانية قد انهارت في عام ٣٨٩هـ/٩٩٨م فتوزعت أراضيها بين الخانيين والغزنويين. ولأن السلاجقة أخذوا يغيرون على المناطق المجاورة لهم محاولين توسيع ممتلكاتهم

فإن الخانيين أصهار الغزنويين وأصدقاءهم عقدا التحالف معًا ضد السلاجقة، وتنبه السلاجقة لهذا الخطر المحدق ففكر ميكائيل في الانتقال بالسلاجقة إلى إقليم خراسان وتثبيت أقدامهم في هذا الإقليم، ثم الانتقاض على الغزنويين وتكوين دولة قوية على أنقاضهم في خراسان وبلاد ما وراء النهر.

وبالفعل عبر السلاجقة نهر جيحون بإذن الغزنويين وزعيمهم محمود الغزنوي واستقروا في إقليم خراسان، وكان هذا الانتقال إلى خراسان نقطة تحول في تاريخهم وتاريخ إيران خاصة، ولم يكد السلاجقة يستقرون في إقليم خراسان حتى أخذوا يدعمون قوتهم وينتشرون في الأرجاء المجاورة ويتحينون الفرصة للانقضاض على الدولة الغزنوية واقتلاع جذورها من خراسان وما وراء النهر.

وفي سنة ٤٢٩هـ حدثت معركة حامية الوطيس بين السلاجقة بقيادة طغرلبك ومسعود الغزنوي، انتصر السلاجقة انتصارًا حاسمًا، فصاروا أقوى قوة في خراسان، وتوجه طغرلبك بعد النصر صوب نيسابور واستولى عليها وأعلن قيام دولة السلاجقة، وبذلك عد طغرلبك أول سلطان سلجوقي، واعترفت الخلافة العباسية في عهد القائم بهذه الدولة وبسلطانها، ومن جديد انتصر السلاجقة على الغزنويين سنة ٤٣١هـ في موقعة (دندانقان) لتعلن دولة السلاجقة انفرادها بخراسان، ولتفكر بعد ذلك في السيطرة على أجزاء أخرى من إيران، وأخذ نفوذ الغزنويين ينحسر عن إيران وما وراء النهر مكتفيًا بالهند، ويصف الذهبي طُغْرلبك بأنه أصل السلجوقية الذين لهم عدد وقوة وإقدام وشجاعة وشهامة، وقد عظم سلطان طغرلبك، وبعث إليه ملك الروم سنة ٤٤١هـ هدايا وتحفًا والتمس منه الهدنة، فأجابه وعمر مسجد القسطنطينية الذي بناه مسلمة بن عبد الملك بها، وأقام فيها الخطبة لطغرلبك حيث خطب خطبة الجمعة بجامع القسطنطينية ودعا للخليفة القائم رسوله ناصر بن إسماعيل إلى الروم.

السلاجقة والخلفاء العباسيون:

سبقت الإشارة إلى حركة المملوك التركي لبهاء الدين بن عضد الدولة البويهي المدعو البساسيري الذي ارتفعت مكانته في عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله حتى دعا له على كثير من المنابر في العراق، ولم يكن الخليفة يقطع

أمرًا دونه، كما وزر للملك الرحيم البويهي آخر البويهيين في العراق، وقام البساسيري بالتمرد وذلك سنة ٤٤٧هـ، وبالفعل تغلب البساسيري على بغداد، فكاتب الخليفة القائم طغرلبك أمير السلاجقة وهو بنواحي الري يستنهضه على المسير إلى العراق، ولبى طغرلبك الدعوة ودخل بغداد وقبض على الملك الرحيم منهيًا النفوذ البويهي في العراق، وبعد إقامة طغرلبك ببغداد لمدة سنة اضطر طغرلبك لمغادرة بغداد لملاقاة البساسيري بالموصل التي استولى عليها وتمكن بالفعل من وأد فتنة الموصل، لكن خروج أخي طغرلبك إبراهيم إينال عليه جعل طغرلبك يغادر الموصل إلى همذان، واستغل البساسيري فرصة هذا النزاع الأخوي فتوجه نحو بغداد وعزل الخليفة القائم وأمر بالخطبة للمستنصر الفاطمي، وتمكن البساسيري من الاستيلاء على واسط والبصرة، إضافة إلى الموصل وبغداد، وما إن أخمد طغرلبك فتنة أخيه إينال حتى بادر بالتوجه نحو بغداد فأعاد الخليفة إلى منصبه، في حين فرَّ البساسيري إلى الشام، فأرسل طغرلبك جيشًا أدركه في الطريق إلى الكوفة وهزمه وانتهى القتال بمصرع البساسيري؛ لينفرد طغرلبك بالحكم في الخلافة العباسية. وقد عده د. عبد النعيم حسنين المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة في إيران والعراق، فهو الذي رتب أمورها وبسط نفوذها وأظهر قوتها، وكان سلطانًا قويًّا مظفرًا موفقًا، وقد وضع طغرل أساسًا متينًا لدولة السلاجقة ببسط نفوذها على إيران والعراق، فاستطاع خلفاؤه أن يقيموا على هذا الأساس بناءً شامخًا، ومجدًا عظيمًا، حتى أشرف السلاجقة على بلاد الروم وسواحل البحر الأبيض المتوسط والهند والصين حينما بلغ السلاجقة أوج قوتهم وشامخ رفعتهم.

وقد ذكر ابن طباطبا أن طغرلبك بدخوله بغداد فإنه أعاد رونق الدولة العباسية، وخطب له بالسلطنة على منابر بغداد «وكان ذلك أول سلطنتهم بالحضرة، وأما انتهاؤها فإنها ما زالت أمورها تضعف حتى انقرضت بالكلية في أيام الناصر، وذلك في سنة تسعين وخمسمائة». وحدد بذلك ابن طباطبا تاريخ بداية سلطة السلاجقة ببغداد، وتاريخ انتهائه سنة ٥٩٠هـ بمقتل الملك «طغرل ابن ألب أرسلان بن طغرل» أمام الخوارزميين بالقرب من الري، فكان هذا إيذانًا بانهيار سلاجقة العراق، فسرعان ما سقطت همذان في يد جند «خوارزم شاه»

وأرسل الخليفة الناصر لدين الله العباسي الخِلَع السلطانية لخوارزم شاه، ليبدأ زوال ملك سلاجقة العراق ولتصبح قوة الخوارزميين أكبر قوة في إيران والعراق.

ولأن السلاجقة كانوا يدينون بالمذهب السني فإنهم عاملوا الخلفاء العباسيين بتقدير وتبجيل، فعادت الخلافة إلى هيبتها ومكانتها السامية، وأعيد للمذهب السني رونقه وقوته على أيدي هؤلاء السلاجقة، فضلاً عن انتصاراتهم العظيمة على البيزنطيين، لا سيما سنة ٤٦٣هـ في موقعة «ملازجرد» أو «منازكرت» أو «ملازكرد» غربي آسيا الصغرى، وأسر الإمبراطور البيزنطي رومانس الرابع .

ويذكر هنا أن السلاجقة لم يستقروا في بغداد وإنما في الري (طهران الحالية) عاصمة السلاجقة، وعرف هؤلاء السلاجقة بسلاجقة الشرق أو سلاجقة خراسان، بينما أقام سلاجقة العراق ببغداد حتى سنة ٥٥٢هـ حيث أقاموا في همذان.

والخلفاء العباسيون الذين عاصروا السلاجقة وحكموا بعدهم أيضًا هم: القائم (٤٢٢- ٤٦٧هـ)، والمقتدي (٤٦٧- ٤٨٧هـ)، والمستظهر (٤٨٧- ٥١٢هـ)، المسترشد (٥١٢- ٥٢٩هـ)، والراشد (٥٢٩- ٥٣٠هـ)، والمقتفي (٥٣٠- ٥٥٥هـ)، والمستنجد (٥٥٥- ٥٦٦هـ)، والمستضيء (٥٦٦- ٥٧٥هـ)، والناصر (٥٧٥- ٦٢٢هـ)، والظاهر (٦٢٢- ٦٢٣هـ)، والمستنصر (٦٢٣- ٦٤٠هـ)، والمستعصم (٦٤٠- ٦٥٦هـ).

ويدل على حسن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين واستعادتهم لنفوذهم قول السيوطي عن خلافة المقتدي: «وكانت قواعد الخلافة في أيامه باهرة وافرة الحرمة بخلاف من تقدمه». وقوله عن خلافة المسترشد: «كان ذا همة عالية وشهامة زائدة، وإقدام ورأي، وهيبة شديدة، ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب وباشر الحروب بنفسه». ويبدو أن المسترشد أراد أن يستعيد النفوذ الكامل للخلافة العباسية في كافة الأمور فوجه بمقاومة من السلطان السلجوقي مسعود، وأفضى الحال إلى الحرب، وانكسر جيش المسترشد واستظهر السلطان مسعود ونهب عسكر الخليفة وتحصل على أموال عظيمة، لكن مسعودًا رد الأموال وعامل

الخليفة بكل توقير، وامتدت أيدي الباطنية الآثمة إلى الخليفة فاغتالته سنة ٥٢٩هـ، وورد لدى الذهبي ما يؤكد على شهامة المسترشد بن المستظهر وشجاعته وإقدامه وأن أيامه لم تزل مكدرة «بتشويش المخالفين، وكان يخرج بنفسه لدفع ذلك ومباشرته إلى أن خرج فكسر وأسر ثم استشهد على يد الملاحدة».

وبالمثل كان الراشد بن المسترشد في صفات أبيه وفكره، والوقوف أمام السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه، وأدى الأمر إلى خلعه بسبب مواقفه، وذلك سنة ٥٣٠هـ، ومبايعة عمه المقتفى بالله الذي أجلسه مسعود وبايع له بعدما أخذ جميع ما بدار الخلافة من ذهب وأثاث وغير ذلك، وأرسل إلى الخليفة المقتفي يقول له: «اذكر ما تحتاج إليه أنت وكل من يتعلق بك حتى أعين لك به إقطاعات». فأرسل إليه المقتفي يقول: «عندنا بالدار ثمانون بغلا تنقل الماء من دجلة ليشربه عيالنا، فانظر أنت كم يحتاج إليه من يشرب في كل يوم ماء يحمله ثمانون بغلا» فقال مسعود: «لقد أجلسنا في الخلافة رجلًا عظيمًا فالله تعالى يكفينا شره».

وحدث سنة ٥٤١هـ أن قدم السلطان مسعود بغداد وعمل دار ضرب فقبض الخليفة المقتفي على الضراب الذين كانوا سبب إقامة دار الضرب لمسعود، فقبض عليهم، فأمر مسعود بالقبض على حاجب الخليفة وعلى أربعة آخرين، فغضب الخليفة وأمر بغلق الجامع والمساجد ثلاثة أيام ثم أطلق الحاجب فأطلق الضراب.

ومما يؤكد قوة الخلافة العباسية في عهد المقتفي قول الذهبي: «كان المقتفي عاقلاً، لبيبًا، صارمًا، جوادًا، محبًّا للحديث والعلم، مكرمًا لأهله، وكان حميد السيرة، يرجع إلى تدين وحسن سياسة، جدَّد معالم الخلافة، وباشر المهمات بنفسه، وغزا في جيوشه». ويضيف السيوطي أنه خليق للإمامة «لا يجري في دولته أمر – وإن صغر – إلا بتوقيعه». قد أعيدت إلى المقتفي ضياعه ومعاملاته «وتمكن».

وتعد فترة حكم المقتفي بداية عودة الخلفاء العباسيين إلى قوتهم ونفوذهم من أيام المقتفي عادت بغداد والعراق إلى يد الخلفاء، ولم يبق له منازع، وقبل ذلك

من دولة المقتدر إلى وقته كان الحكم للمتغلبين من الملوك، وليس للخليفة معهم إلا اسم الخلافة. وكان المقتفي قد استغل الصراع بين السلاجقة للتمكين للخلافة العباسية حتى نجح في ذلك سنة ٥٥٢هـ، حيث رفض أن يخطب للسلطان محمد ابن محمود بن ملكشاه ببغداد والعراق، بعد وفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧، فسار محمد بن محمود من همذان في عساكر كثيرة نحو العراق وحاصر بغداد سنة ٥٥١هـ، وجرى قتال بين السلاجقة وجند الخلافة، ولم يتمكن محمد بن محمود من دخول بغداد، وعاد إلى همذان للدفاع عنها ضد أطماع أخيه ملكشاه وأتابكة أذربيجان، فانفرد المقتفى بذلك بحكم العراق.

«وكان حليمًا كريمًا عادلاً حسن السيرة، من الرجال ذوي الرأي والعقل الكثير، وهو أول من استبد بالعراق منفردًا عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر إلى الآن، إلا أن يكون المعتضد، وكان شجاعًا مقدامًا مباشرًا للحروب بنفسه، وكان يبذل الأموال العظمية لأصحاب الأخبار في جميع البلاد حتى كان لا يفوته منها شيء».

وعلى أثر ذلك أخذت سلطة الخليفة في الازدياد من جديد، ومنذ ذلك الوقت لم يقم أي سلطان سلجوقي في بغداد، بل صاروا يقيمون في همذان، وأصبح هؤلاء السلاجقة في موقف ضعيف لا يستطيعون من خلاله ممارسة أية سلطة فعلية على الخلافة العباسية حتى انتهى حكمهم في العراق سنة ٥٩٠هـ، وبدأت علاقة جديدة بين الخوارزميين والخلافة العباسية اعتمدت على الشد والجذب.

وكما قويت الخلافة في عهد المقتفى قويت الوزارة أيضًا، وعمل الوزراء على التخلص من نفوذ السلاجقة، وأبرز وزراء المقتفى يحيى بن هبيرة الذي سعى للتخلص من أطماع السلاطين السلاجقة «وكانت له في قمع الدولة السلجوقية يد قوية وحيل مرضية».

ولم ترد أية إشارات إلى وجود نفوذ سلجوقي على المستنجد بالله الذي وصف بالعدل والرفق والشدة على المفسدين، وإبطال كل المكوس، بحيث لم

يترك بالعراق مكسًا واحدًا . وبالمثل كان المستضيء عادلًا حسن السيرة في الرعية، كثير البذل للأموال، وكان الناس معه في أمن وطمأنينة وسكون، لم يروا مثله في الصفح والحلم.

أما الناصر لدين الله بن المستضيء الذي لم يل أحد من الخلفاء العباسيين أطول مدة منه، حيث أقام خليفة سبعة وأربعين سنة، فإنه أحيا هيبة الخلافة، فامتلأت القلوب هيبة وخيفة منه، وكان له أصحاب أخبار بالعراق وسائر الأطراف يطالعونه بجزئيات الأمور، حتى ذكر أن رجلاً ببغداد عمل دعوة وغسل يده قبل أضيافه فطالعه صاحب الخبر، فكتب الناصر في جواب ذلك «سوء أدب من صاحب الدار، وفضول من كاتب المطالعة».

ويذكر ابن طباطبا للناصر بناءه لدور الضيافات والمساجد والرُّبط الكثيرة ويعقب على ذلك بقوله: «وكان وقته مصروفًا إلى تدبير أمور المملكة، وإلى التولية والعزل والمصادرة وتحصيل الأموال». كذلك أظهر ابنه الظاهر بعد خلافته من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين، فلو قيل: إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقًا؛ فإنه أعاد من الأموال المغصوبة في أيام أبيه وقبله شيئًا كثيرًا، وأبطل المكوس في البلاد جميعها وعدل في استخراج الخراج، واتخذ سياسة أدت إلى رخص الأسعار، وقام بأمور أخرى كثيرة ، استحق عليها ثناء المؤرخ ابن الأثير: «فالله تعالى يؤيده، وينصره، يبقيه، فإنه غريب في هذا الزمان الفاسد». ووصف المستنصر بن الظاهر بأمر الله أيضًا بالعدل في الرعية، وتقريب أهل العلم والدين، وبناء المساجد والربط والمدارس والمارستانات، وإقامة منار الدين ونشر السنن، وتعمير دور للمرضى ببلاد الحرمين وبعث إليها الأدوية، وإصلاح طريق الحاج وحفظ الثغور، وبسبب اهتمامه بالعلم والعلماء راجت سوق العلم في عصره، فبيعت كتب العلم في أيامه بأغلى الأثمان .

«واتفق أنه لم يكن في أيامه معه سلطان يحكم عليه، بل ملوك الأطراف خاضعون له، وفكرهم مُتَقسّم بأمر التتار واستيلائهم على خراسان» . وينسب إليه إنشاء المدرسة المستنصرية على دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة، ولم يبن على وجه الأرض مدرسة أحسن منها ولا أكثر وقفًا، وجعل فيها أربعة

مدرسين على المذاهب الأربعة، كل مدرس منهم له سدة عالية، ومسند يستند إليه، ورتب في المدرسة دار كتب فيها من الكتب النفيسة في سائر أنواع العلوم شيئًا كثيرًا جدًّا، ورتب فيها الورق والأقلام لمن يريد النسخ، ورتب بيمارستانا للمدرسة، للمرضى فيه جميع صنوف الأدوية والعقاقير والأشربة، ورتب به من الأطباء من يقوم بمعالجة الفقهاء، ويصرف إليهم مما في البيمارستان ما يشير الأطباء باستعماله من الأشربة والأدوية والسكر والفراريج وغير ذلك، ورتب أيضًا في المدرسة مطبخًا للفقهاء يطبخ فيه الطعام ويحمل إليهم، وجعل لكل فقيه دينارًا في كل شهر، وجعل للمدرسين والمعيدين ما يليق بهم من الرواتب، ورتب حمامًا لهم يقوم بأمره جماعة من الناس، ولهذه المدرسة طاقات مطلة على دجلة يشاهدون فيها المراكب المقلعة والمنحدرة، وأعظم مدرسة كانت ببغداد المدرسة النظامية المنسوبة إلى نظام الملك وزير السلطانين ألب أرسلان وولده ملكشاه، وبدئ في بنائهما سنة ٤٥٧هـ، وفرغ منه سنة ٤٥٩هـ، ولا نسبة لها إلى هذه المدرسة لا في الصورة ولا في المعلوم، ولا في الحسن والنزاهة. «وللخليفة منظرة مطلة على هذه المدرسة يرى الفقهاء منها إذا حضروا، ويسمع مناظراتهم ولا يرونه». ويذكر الذهبي أن قيمة ما وقف عليها يساوي ألف ألف دينار، وغلت أوقاف المدرسة العظيمة في سنة من السنوات نيفًا وسبعين ألف دينار .

وكان المستنصر قد أكثر من استخدام الجند بحيث فاق في ذلك أباه وجده، وأكثر من العساكر تحسبًا لأي هجوم على أراضي الخلافة العباسية من التتار، وبالفعل لما قصدت التتار البلد لقيهم عسكره فهزموا التتار هزيمة عظيمة.

وبالجملة فلقد كانت أيامه طيبة، وليست الدنيا هادئة –كما زعم ابن طباطبا – لأن التتار كانوا قد أشعلوا نار الحرب على المسلمين، وقتلوا منهم ملايين في بلاد ما وراء النهر وغيرها، وكانوا على أعتاب العراق مقر حكم العباسيين. ولكن الشيء الطيب فعلًا في العصر العباسي الرابع والأخير هو استعادة الخلفاء لنفوذهم ومكانتهم وسلطتهم المدنية، لا سيما منذ خلافة المقتفي بأمر الله، وإن كانت هناك محاولات سابقة عليه قام بها المسترشد وابنه الراشد. وعلى الرغم من أن السلاجقة أسدوا جميلًا للخلافة العباسية بتخليصها من البويهيين الشيعة،

فإنهم أيضًا وقت سلطانهم السياسي عاملوا الخلفاء بكل احترام، لكنهم أسهموا في زوال ملكهم بصراعاتهم وباعتمادهم على كبار الأمراء في حكم الولايات وإدارتها بالوراثة، وكان هؤلاء الأمراء يلقبون بأتابك أو شاه أو ملك، وأخيرًا كان النزاع بين السلاجقة والعباسيين عاملًا مساعدًا من عوامل سقوط دولة السلاجقة.

الخليفة المستعصم ونهاية الخلافة العباسية على يد التتار:

ظهور المغول وتوسعاتهم:

المغول أو التتار قبائل –ليست كلها تركية– نشأت في الهضبة الآسيوية الشاسعة التي تمتد من أطراف الصين إلى أواسط آسيا، وهي الهضبة المعروفة بهضبة منغوليا، وتشمل جغرافيتها عددًا من خطوط الطول والعرض، ولذا تختلف فيها البيئة وأنواع المناخ والتضاريس، وتغلب عليها الصفة السهوبية ذات المراعي المتغيرة. ومن ثم احترف المغول الرعي، والانتقال في سرعة هائلة على ظهور الخيل، وأجبرت ظروف البيئة المغول على العيش عيشة رعوية انتقلوا من خلالها من مكان إلى آخر بحثًا وراء الرزق. وأخذت هذه الجموع تضرب في الأرض بين أطراف الصين إلى بحيرة بايكال القريبة من تركستان الإسلامية. ومناخ المنطقة التي عاشت فيها قبائل المغول يتسم بشتاء طويل قاسي البرودة، تهطل فيه الأمطار، وتنخفض درجة الحرارة فتصل إلى (٥٨ درجة) تحت الصفر، فتتجمد المياه، فإذا حل الصيف القصير اشتدت الحرارة فتصل أحيانًا إلى (٦٠ درجة). وبالإضافة إلى قسوة المناخ فإن الرياح الشديدة التي تهب في معظم أيام السنة تنقلب في كثير من الأحيان إلى أعاصير تتلف كل ما يواجهها، وعلى هذا كانت حياة المغول في هذه المنطقة حياة صعبة مليئة بالصراع من أجل أسباب الحياة، وطبعت هذه الأحوال الجوية المغول بطابع القسوة والخشونة وكثرة التنقل والترحال، وانعكست مظاهر البيئة في حياتهم الدينية ومعتقداتهم، فانفردوا من دون الجماعات الوثنية بعبادة قوى الشر من الجن والشياطين، بالإضافة إلى الجبال والأنهار والشمس والقمر، كما كانت بعض القبائل تدين بالنصرانية .

وتمكن أحد زعماء المغول المسمى جنكيز خان (حاكم الحكام أو أعظم الحكام) من توحيد القبائل المغولية شمال الصين، ونودي به إمبراطورًا على دولة المغول، واتخذ عاصمة لهم في مدينة «قره قورم» شمال التبت، ووضع جنكيز خان دستورًا عامًّا لهذه الدولة المغولية أسماه (اليساق) ويذكر الذهبي. في ترجمته لجنكيز خان أنه ملك التتار وسلطانهم الأول الذي خرب البلاد وأفنى العباد، واستولى على الممالك، وليس للتتار ذكر قبله، إنما كانوا طوائف المغول بادية بأراضي الصين فقدموه عليهم، وأطاعوه طاعة أصحاب نبي لنبيهم، بل طاعة العباد المخلصين لرب العالمين. وكان مبدأ ملكه وأول ظهوره سنة ٥٩٥هـ، فهزم جيوش الخطا، واستولى على ممالكهم ثم على تركستان وإقليم ما وراء النهر، فاستولى على بخارى وسمرقند سنة ٦١٠هـ، واستولى على مدن خراسان وبلاد الجبل سنة ٦١٧هـ. لقد توسع جنكيز خان بعد تتويجه إمبراطورًا على المغول سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م، شرقًا على حساب الصين، فاستولى على معظم أجزاء الإمبراطورية الصينية، ودخل العاصمة بكين سنة ٦١٢هـ، واتخذها عاصمة للمستعمرة المغولية في الصين، ثم بدأ في التوسع غربًا حيث الدول الإسلامية، فاصطدم بقبائل الترك (الخطا) المسلمة التي كانت حاجزًا بين المغول ودولة الخوارزميين التي تحكم إيران وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر، والتي بلغت اتساعها في فترة قوة المغول، وتساقطت مدن الدولة الخوارزمية مدينة مدينة، واستشهد أكثر من مليون مسلم في بلاد ما وراء النهر وغيرها من بلاد تابعة للدولة الخوارزمية، وفر السلطان الخوارزمي علاء الدين خوارزم شاه إلى إحدى جزائر بحر قزوين وتوفي سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، حزنًا على ما حل بالمسلمين من كوارث فادحة، اختص بها المسلمون دون غيرهم من أهل الذمة بالبلاد الإسلامية، اليهود والنصارى .

وتظهر المأساة واضحة وتبدو المصيبة الكبرى جلية في كلام ابن الأثير، المعاصر لخروج التتار إلى بلاد الإسلام، يقول في حوادث سنة ٦١٧هـ: «لقد بقيتُ عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلًا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني

مت قبل حدوثها وكنت نسيا منسيًا، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعًا، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن، لم يُبْتَلَوا بمثلها، كان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها».

وتعجب ابن الأثير من قوم خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاد ساغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر، مثل سمرقند وبخاري وغيرها فيملكونها ويفعلون بأهلها الأفاعيل، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكًا وتخريبًا وقتلًا ونهبًا، ثم يتجاوزونها إلى الري وهمذان وبلاد الجبل وما فيها من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها «ولم ينج إلا الشريد النادر في أقل من سنة، هذا ما لم يُسمع بمثله».

سقوط بغداد واستشهاد الخليفة المستعصم:

تولى الخليفة الشهيد المستعصم بن المستنصر سنة ٦٤٠هـ وكان فاضلًا تاليًا لكتاب الله، ختم على ابن النيار –أحد الشهداء أمام التتار– واستجاز له ابن النجار، وروي عنه بالإجازة جماعة، إلا أنه لم يكن في حزم أبيه المستنصر وتيقظه، حيث ركن إلى وزيره الرافضي الشيعي مؤيد الدين ابن العلقمي «فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد، وباطن التتار وناصحهم وأطمعهم في المجيء إلى العراق وأخذ بغداد، وقطع الدولة العباسية ليقيم خليفة من آل علي، وصار إذا جاء منهم خبر كتمه عن الخليفة ويطالع بأخبار الخليفة التتار».

وقد أكد الذهبي على تعمية أخبار التتار عن الخليفة المستعصم من قبل وزيره ابن العلقمي الذي حسن للمستعصم أيضًا جمع الأموال والاقتصار على بعض العساكر وتسريح معظمهم، وكان أبوه المستنصر – كما مر– قد استخدم عساكر عظيمة لم يستخدم مثلها أبوه وجده، فسرحهم المستعصم بمشورة خبيثة من وزيره ابن العلقمي الذي أجمعت كل المصادر التاريخية على خيانته للمسلمين وإهماله للاستعداد لملاقاة التتار، ونشره الفزع والخوف بين المسلمين،

وإشاعة القول بأن المغول قوم لا ينهزمون، وأن المصلحة في الخضوع لهم والاستسلام لجيشهم، وأنه استحث هولاكو للمسير إلى بغداد وهوَّن عليه أمرها بسبب ما كان يظنه من وقوع ظلم للشيعة على يد الخليفة وأهل السنة في بغداد، وأنه هيأ للتتار ما يحتاجون إليه من العلف والمؤونة في طريقهم إلى بغداد، وأن جيش بغداد وصل إلى مائة ألف فارس –كما يذكر ابن الوردي– فحسن ابن العلقمي وأمثاله للمستعصم قطعهم ليحمل إلى التتار متحصل إقطاعاتهم، «فصار عسكر بغداد دون عشرين ألفًا، فأرسل ابن العلقمي إلى التتار يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد في جحافل عظيمة». حتى إن ابن الوردي علق على خيانة ابن العلقمي بقوله: «قلت: أراد نصرة الشيعة فنصر عليهم، وحاول الدفع عنهم فدفع إليهم وسعى ولكن في فسادهم، وعاضد ولكن على سبي حريمهم وأولادهم، وجاء بجيوش سلبت عنه النعمة، ونكبت الإمام والأمة، وسفكت دماء الشيعة والسنة، وخلدت عليهم العار واللعنة».

أقول بالرغم من اتفاق المصادر على خيانة ابن العلقمي إلا أن ابن طباطبا العلوي ينفي عن ابن العلقمي الشيعي تهمة الخيانة فيصفه بأنه من أعيان الناس وعقلاء الرجال، وأنه كان ينبه المستعصم إلى خطر التتار، ويشير عليه بالتيقظ والاحتياط والاستعداد، والخليفة لا يزداد إلا غفولًا، مشغولاً بسماع الأغاني والتفرج على المساخرة، وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوسًا ليس فيه كبير فائدة، وكان أصحاب الخليفة مستولين عليه، وكلهم جهال من أراذل العوام، إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي الذي تنبه لخطورة الموقف. أما خواص الخليفة فإنهم أوهموه أنه ليس هناك خطورة من التتار، وأن الوزير ابن العلقمي إنما يضخم أمر التتار ويعظم شأنهم لأنه يريد أن يجند العساكر ويقطعهم الإقطاعات، ويأخذ نصيبه من هذه الأموال. فابن العلقمي عند ابن طباطبا مخلص في غاية الإخلاص، خبير بالسياسة وشئونها، وخواص الخليفة جميعهم يكرهونه ويحسدونه، أما الخليفة المستعصم فمستضعف الرأي، قليل الخبرة بأمور المملكة، مطموعًا فيه، غير مهيب في النفوس ولا مطلع على حقائق الأمور «وما زالت غفلة الخليفة تنمي ويقظة الجانب الآخر تتضاعف حتى وصل العسكر السلطاني إلى همذان وأقام بها مديدة...» ويدافع ابن طباطبا عن التهمة

التي ألصقت بابن العلقمي، لكن دفاع ابن طباطبا أشبه بدفاع محام مبتدئ يريد الدفاع عن موكله بالباطل فقدم دليل إدانته بنفسه يقول ابن طباطبا: «ونسبه الناس أنه خامر، وليس ذلك بصحيح. ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة، فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد (هكذا يقول فتح) وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير وحسن إليه وحكمه، فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه».

فمكافأة هولاكو لابن العلقمي – على خيانته – وتعيينه وزيرًا في دولة التتار – عند المؤرخ ابن طباطبا دليل براءة لا دليل إدانة. هكذا يكون التاريخ ويكون تفسيره إذا تحكمت الأهواء في النفوس، وغلبت المذهبية على العقول، وتحكم التعصب في الفكر. ولم ينس المؤرخ العلوي أن يترحم على ابن العلقمي الذي مات – كمدًا – سنة ٦٥٦هـ، كما لم ينس أن يشيد بشيعي آخر كان ملازمًا لهولاكو وولاه الرصد، وهو نصير الدين الطوسي (ت٦٢٧هـ). الذي قيل: إنه هو الذي أشار على هولاكو بقتل الخليفة المستعصم، وممن سكت عن خيانة ابن العلقمي المؤرخ ابن الفوطي (ت٧٢٣هـ) الذي أسر في واقعة التتار ثم تخلص من الأسر، فكان مُشرفًا على الكتب بالمستنصرية.

وذكر ابن الفوطي أن الخليفة المستعصم شاور وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي فيما ينبغي فعله عندما رحل هولاكو من همذان نحو العراق فأشار ببذل الأموال وحملها إليه مع التحف الكثيرة والأشياء الغريبة والأعلاق النفسية، فلما شرع في ذلك ثناه الدويدار وغيره، وقالوا: إن غرض الوزير تدبير حاله مع السلطان، فوافقهم واقتصر على إنفاذ شيء يسير. ويبدو أن ابن الفوطي يريد الوقوف على الحياد في قضية خيانة ابن العلقمي، لا سيما وهو يكتب كتابه تحت النفوذ المغولي الذي استعان بالشيعة في المناصب ببغداد وبغيرهم من اليهود والنصارى.

أما المؤرخ النصراني ابن العبري فإنه لم يتعرض لا من قريب أو بعيد لذكر اسم ابن العلقمي أو فعله، وإنما اكتفى بإيراد عبارة وردت على لسان أحد خواص المستعصم «إن الوزير –ابن العلقمي ولم يصرح باسمه– إنما يدبر شأنه نفسه مع التتار، وهو يروم تسليمنا إليهم فلا نمكنه من ذلك».

وقد ناقش د. مصطفى طه بدر موقف الوزير ابن العلقمي من هجوم المغول على بغداد، وأورد آراء المؤرخين المتهمين لابن العلقمي بالخيانة وهم: ابن عساكر، وأبو الفدا، والديار بكري، وابن خلدون، والسيوطي، والمقريزي، والذهبي، وغيرهم، وأورد آراء النافين لتهمة الخيانة عن ابن العلقمي وهم: ابن طباطبا، ورشيد الدين صاحب (جامع التواريخ)، وحلل أقوال المؤرخين وانتهى إلى رأي هو: أنه لا يمكن نفي تهمة الخيانة عن ابن العلقمي، فلقد غضب لما حاق بطائفته الشيعة –في نظره– من مظالم، ورأى ببعد نظره أن النصر سيكون حليفًا للمغول لقوتهم وضعف الخلافة العباسية، ولذلك لم يتردد في اتخاذ سياسة تقربه من المغول، وفي الوقت نفسه لا تثير شك الخليفة فيه، فتباطأ في جمع الجند عندما كلفه الخليفة بجمعهم، وراسل هولاكو وعمل على الحصول على ثقته بإخباره بما يدور في بغداد، ولكن لا تنسب كل جرائم التتار إليه، وهذا – عندي– أمر مقبول. وعلى أية حال فإن هولاكو أوغل في إيران، وقضى في طريقه على قلاع طائفة الإسماعيلية ومدنهم مثل قلعة «ألموت»، وبذا تفرغ للزحف على بغداد، وكان في أيام محاصرته قلاع الملاحدة قد سير رسولا إلى المستعصم يطلب منه نجدة، فأراد أن يسير ولم يقدر ولم يمكنه الوزراء والأمراء وقالوا: «إن هولاكو رجل صاحب احتيال وخديعة وليس محتاجًا إلى نجدتنا، وإنما غرضه إخلاء بغداد عن الرجال فيملكها بسهولة».

وقد انتهى أمر الإسماعيلية سنة ٦٥٤هـ، بعد أن استفاد هولاكو من جبن ركن الدين خورشاه رئيس الإسماعيلية وإدخال الرعب في قلبه حتى يسلم، ثم استخدامه في فتح معاقل الإسماعيلية التي لو كان هولاكو عزم على فتحها بالقوة للقي من شجاعة الإسماعيلية وروح التضحية المتأصلة فيهم ما أتعبه وأقض مضجعه، ولكنه استخدم الحيلة، وأرسل عطا ملك الجويني، ليسهل عملية تسليم القلاع لهولاكو، مما أوقع قلاع الإسماعيلية في يد هولاكو بسهولة شديدة.

وسار هولاكو إلى بغداد من همذان سنة ٦٥٥هـ وانتصرت قواته على القوات العباسية فاقتحم بغداد الغربية سنة ٦٥٦هـ، ثم حاصر بغداد الشرقية حيث مقر الخليفة وحكومته. ويذكر ابن طباطبا أن أهل بغداد الغربية انتقلوا إليها منذ

عبرت إحدى فرق المغول نهر دجلة لغزو بغداد من الغرب، فانجفل الناس «من دجيل والإسحاقي ونهر ملك ونهر عيسى ودخلوا المدينة بنسائهم وأولادهم حتى كان الرجل أو المرأة يقذف بنفسه في الماء، وكان الملاح إذا عبر أحدًا في سفينة من جانب إلى جانب يأخذ أجرته سوارًا من ذهب أو طرازًا من زركش أو عدة من الدنانير». والتقى الجيشان بالجانب الغربي من بغداد، وكانت الغلبة في أول الأمر لعسكر الخليفة ثم كانت الكرة للمغول، فأبيد جيش الخليفة عن آخره، ولم ينج إلا من رمى نفسه في الماء أو من دخل البرية ومضى إلى الشام.

واستبيحت بغداد «فجرى من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة فما الظن بتفاصيله

وكان ما كان مما لست أذكره فَظُن ظنا ولا تسأل عن الخبر»

ويذكر ابن كثير أن هولاكو قدم بحوالي مائتي ألف مقاتل إلى بغداد في المحرم من سنة ٦٥٦هـ ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الظالمة الكافرة وأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم وبقية الجيش، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وفي بغداد أعمل المغول القتل والسلب والنهب والتخريب أربعين يومًا، ولما ضاق الحال بأهل بغداد خرج النساء والصبيان وعلى رءوسهم المصاحف والألواح، فلم يأبه بهم المغول وداسوهم حتى ماتوا، واستدعى ابن العلقمي الفقهاء والأماثل فخرجوا فضربت أعناقهم «وصار كذلك: تخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم حتى قتل جميع من هناك من العلماء والأمراء والحجاب والكبار. ثم مد الجسر وبذل السيف في بغداد، واستمر القتال فيها نحو أربعين يومًا، فبلغ القتلى أكثر من ألف ألف نسمة، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة، وقتل الخليفة رفسًا».

وذكر ابن واصل أسماء عدد من قتل من القضاة والمدرسين والأكابر منهم: محيي الدين بن الجوزي، وأولاده وهم : جمال الدين مدرس المستنصرية على مذهب أحمد، وتاج الدين، وشرف الدين . وذكر الذهبي أن الخليفة المستعصم

رفس حتى تلف، وقتل ثمانمائة ألف نفس، وأكثر ما قيل بلغوا ألف ألف وثمانمائة ألف وجرت السيول من الدماء، ومن القتلى مجاهد الدين الدويدار والشرابي وابن الجوزي أستاذ الدار وبنوه، وابنا المستعصم أحمد وعبد الرحمن، وبقي ولده مبارك وفاطمة وخديجة ومريم في أسر التتار.

ويذكر ابن كثير أن المغول مالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش وقني الوسخ وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون. وكان الجماعة من الناس يجمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فيفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي، وطائفة من التجار أخذوا أمانًا بذلوا عليه أموالًا جزيلة حتى سلموا، وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس وهم في خوف وجوع وذلة وفقر.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل من بغداد من المسلمين في هذه الوقعة فقيل ثمانمائة ألف، وقيل : ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغ القتلى ألفي ألف نفس، وقتل المستعصم وولده الأكبر أبو العباس أحمد وولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث: فاطمة وخديجة ومريم، «وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل، والله أعلم، فإنا لله وإنا إليه راجعون».

وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، وكان عدو الوزير ابن العلقمي، وقتل أولاده الثلاثة: عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم، وأكابر الدولة واحدًا بعد واحد منهم الدودار الصغير مجاهد الدين أيبك، وشهاب الدين سليمان شاه، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد، وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه

فيذهب به إلى مقبرة الخلال تجاه المنظرة فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.

وقتل شيخ الشيوخ صدر الدين علي بن النيار، وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات مدة شهور ببغداد، وأراد الوزير ابن العلقمي – قبحه الله ولعنه– أن يعطل المساجد والمدارس والربط ببغداد ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض، وأن يبني للرافضة مدرسة هائلة ينشرون علمهم، فلم يقدره الله تعالى على ذلك، بل أزال نعمته وقصف عمره بعد ثلاثة أشهر من سقوط بغداد، وكان القتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسري في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقني والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضًا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى .

لقد فني من كان ببغداد في هذه الكارثة، ويبدو أن العدد زاد على المليون – كما مر– أما ما ذكر عن استشهاد ثمانمائة ألف نفس وهو أقل عدد مذكور فهذا العدد لا يضم الأطفال وغيرهم كما جاء عند ابن الفوطي ، مما يؤكد تجاوز العدد على المليون، وربما كان – كما مر– مليون وثمانمائة ألف مسلم، وفقدت بغداد أيضًا إلى جانب المسلمين ذخائرها وكتبها وثرواتها العلمية كلها، حيث ألقى بكتب العلم في دجلة فاسود ماؤها من مداد هذه الكتب بعد أن احمر من دماء المسلمين.

وبذلك سقطت الخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦هـ، فأقامها الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ بمصر حيث بايع المستنصر بن الظاهر بعد أن انتصر المماليك على التتار في «عين جالوت» سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م تلك المعركة الفاصلة في التاريخ كله، حيث وضعت حدًّا لغارات المغول المدمرة وحروبهم التي لم يعرف التاريخ لها نظيرًا، وحصرت خطر المغول دون الامتداد إلى غرب أوربا، حتى إن

مؤرخًا أوربيًّا هو «رنسيمان» يذكر أن معركة عين جالوت من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ.

وبعد... فما أجمل أن نأخذ العظة من التاريخ، والعبرة من أحداثه وأن نتعرف على تاريخ الإسلام والمسلمين من منابعه الأصيلة التي عكرها أعداء الإسلام من الجهلة وأتباع الغربيين الذين يهدفون إلى التجهيل بالتاريخ الإسلامي، والاستهانة بأعلامه ورموزه، وتشويه أبطاله وعظمائه، خدمة للمستعمر وخططه وأهدافه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ودليل ذلك فيما يتصل بموضوعنا إسلام التتار بدءًا من سنة ٦٦١هـ وفيها أسلم بركة خان أمير مغول القفجاق بجنوب روسيا، وأسلم حفيد هولاكو السلطان المغولي تكودار سنة ٦٨١هـ، وتسمى باسم (أحمد)، ودخل الإسلام قلوب كل التتر، وبآسيا الوسطى الآن دولة «تتارستان» المسلمة وأبناؤها من نسل التتار.

وفي هذا أقوى الأدلة على عظمة الإسلام التي احتوت العديد من الأجناس والشعوب والأديان والأفكار والنظريات، وهيمنت على ذلك كله بصفاء الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان، وحاجتنا إليه الآن أشد من حاجة مشركي العرب إليه عند بزوغ نوره وظهور هداياته ممثلة في بعثة الرسول الكريم ﷺ.

ملخص الوحدة التاسعة

حكم الخلافة العباسية في عصرها الأخير اثنا عشر خليفة، كانوا ذوي كفاءة وسلطة حتى في عهد نفوذ السلاجقة نفسه الذي انتهى سنة ٥٩٠هـ بعد قرابة قرن ونصف قرن من دخول بغداد حاضرة الخلافة العباسية. وفي خلال الفترة التاريخية السابقة أحسن السلاجقة معاملتهم للخلفاء العباسيين، فاستعاد العباسيون نفوذهم وقوتهم التي افتقدوها في عصري الأتراك والبويهيين، وقد أسدى السلاجقة جميلاً للخلافة العباسية بتخليصها من البويهيين الشيعة وبحسن معاملتهم لخلفائهم. وقد تعرضت الخلافة العباسية في عهد آخر خلفائهم بالعراق المستعصم بالله إلى خطر التتار الداهم الذي بدأ في الظهور في بدايات القرن السابع الهجري، وتمكن من الاستيلاء على بخارى وسمرقند سنة ٦١٠هـ وتوالى سقوط المدن الإسلامية الواقعة تحت سيطرة الخوارزميين، ثم وجه وجهته صوب العراق سنة ٦٥٥هـ واقتحم بغداد الغربية سنة ٦٥٦هـ ثم بغداد الشرقية، ونتج عن سقوط بغداد استشهاد ما يزيد على المليوني مسلم، وقتل الفقهاء والعلماء والنساء والأطفال، حتى انتشر الوباء والفناء، وتغير الهواء من كثرة من فني من المسلمين فقط، وفقد مع هذا ما كان يملكه المسلمون من ثروة علمية وحضارة زاهرة.

أسئلة على الوحدة التاسعة والأخيرة

س١: عرِّف بالسلاجقة وتناول قيام دولتهم قبل دخولهم بغداد.

س٢: اذكر الظروف التي جعلت السلاجقة يمدون سلطانهم إلى عاصمة العباسيين بغداد.

س٣: تحدث عن أحوال الخلافة العباسية في ظلال بني سلجوق.

س٤: تحدث عن ظهور المغول وعن توسعهم وأعمالهم المدمرة قبل سقوط الخلافة العباسية.

س٥: أبرز دور الوزير الشيعي ابن العلقمي في سقوط الخلافة العباسية.

س٦: بيِّن الآثار السيئة التي نجمت عن اقتحام التتار لمقر الخلافة العباسية وحاضرتها بغداد.

نموذج إجابة

إجابة السؤال الخامس:

أجمعت كل المصادر التاريخية على الدور الخبيث الذي لعبه ابن العلقمي وزير الخليفة العباسي الأخير بالعراق المستعصم بالله، وأن لابن العلقمي دورًا في إسقاط الخلافة العباسية على يد التتار، بدليل:

١- حسّن ابن العلقمي للخليفة المستعصم تسريح عدد كبير من جيش الخلافة العباسية، فأصبح الجيش دون العشرين ألفًا بعد أن كان عدده أكثر من مائة ألف.

٢- نشر ابن العلقمي الفزع والخوف بين المسلمين، وأشاع أن المغول قوم لا ينهزمون وأن المصلحة تكمن في الخضوع لهم والاستسلام لجيشهم.

٣- استحث ابن العلقمي هولاكو القائد المغولي على المسير إلى بغداد، وكشف أمرها وأمر تحصيناتها أمامه عن طريق رسله ومنهم أخوه نفسه، وهيأ للتتار ما يحتاجونه من علف ومؤونة وغذاء لهم ولدوابهم وهم في طريقهم إلى بغداد.

٤- كُوفئ ابن العلقمي على خيانته للمسلمين بتعيينه وزيرًا في دولة التتار بعد القضاء على الخلافة العباسية.

وبالرغم من إجماع المؤرخين المسلمين على اتهامهم لابن العلقمي بالخيانة إلا أن المؤرخ العلوي ابن طباطبا هو من خالف هذا الإجماع ودافع عن ابن العلقمي؛ لأنه متشيع للعلويين، ولا شك في أن ابن العلقمي لم يكن مخلصًا للخلافة العباسية السنية وأنه أسهم بدور ما في إسقاطها، بالإضافة إلى عوامل أخرى عديدة.

من أهم المصادر والمراجع

أولا – المصادر :

١- **الأخبار الطوال**- للدينوري (ت ٢٨٢هـ)- تحقيق عبد المنعم عامر- ط: مكتبة المثني بغداد.

٢- **الإمامة والسياسة** - المنسوب لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) - دار المنتظر، بيروت.

٣- **إخبار العلماء بأخبار الحكماء** - للقفطي (ت٦٤٦هـ) - مكتبة المتنبي بالقاهرة.

٤- **إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس**- للإتليدي - ط: مطبعة المؤيد، السعودية.

٥- **البداية والنهاية** - لابن كثير (ت٧٧٤هـ) - طبعة دار الغد العربي، مصر.

٦- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** - لأبي عبد الله محمد المشهور بابن عذارى المراكشي – ط: دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م، بتحقيق ليفي بروفنسال.

٧- **التاريخ** - لخليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ)- تحقيق د. سهيل زكار- دار الفكر للطباعة والنشر.

٨- **التاريخ** - لليعقوبي (ت٢٨٤هـ) – ط: دار صادر. بيروت. لبنان .

٩- **تاريخ بغداد** - للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)- دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

١٠- **تاريخ الخلفاء** - للسيوطي (ت٩١١هـ)- تحقيق: أ. محمد محيي الدين عبد الحميد .

١١- **تاريخ دمشق** - لابن عساكر: أبي القاسم علي بن حسن (ت ٥٧١هـ)، ط: المجمع العلمي العربي بدمشق . وطبعة أخري: دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولي.

١٢- **تاريخ دولة آل سلجوق** - للأصفهاني (ت٥٩٧هـ) - دار الآفاق الجديدة. بيروت.

١٣- **تاريخ الرسل والملوك** - للطبري (ت٣١٠هـ) - تحقيق. أ. محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: دار المعارف، القاهرة .

١٤- **تاريخ المسلمين**- لابن العميد(ت٦٧٢هـ)- تحقيق د.علي بكر- دار العواصم، مصر.

١٥- **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية** - للراوندي - تحقيق: د. فؤاد صياد . دار العلم، مصر.

١٦- **سير أعلام النبلاء** – للذهبي (ت ٧٤٨هـ) – ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

١٧- **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** – للقلقشندي (ت٨٢١هـ) – ط: الهيئة المصرية للكتاب.

١٨- **الطبقات الكبرى** – لمحمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ) – ط دار صادر، بيروت. وطبعة أخرى: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢م.

١٩- **العبر وديوان المبتدأ والخبر** – لابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) – مؤسسة جمال للطباعة والنشر. بيروت.

٢٠- **العواصم من القواصم** – لأبي بكر بن العربي المالكي الأندلسي (ت٥٤٣هـ) – ط: دار الكتب العلمية، القاهرة، الطبعة الأولي ١٤٠٥هـ، تعليق محب الدين الخطيب.

٢١- **عيون التواريخ** – لابن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ) – تحقيق د. عفيف حاطوم– دار الثقافة. بيروت.

٢٢- **الفتوح** – لابن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ) – دار الندوة الجديدة. بيروت.

٢٣- **فتوح البلدان** – للبلاذري (ت٢٧٩هـ) – دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان.

٢٤- **فتوح مصر والمغرب** – لابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ) . ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، تحقيق شارلز تُوري.

٢٥- **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** – لابن طباطبا العلوي (ت٧٠٢هـ) دار صادر بيروت.

٢٦- **قيد الشريد من أخبار يزيد** – لمحمد بن طولون الدمشقي (٩٥٣هـ) – ط: دار الصحوة، بالقاهرة ١٩٨٦، بتحقيق محمد زينهم محمد عزب

٢٧- **الكامل في التاريخ** – لابن الأثير (ت٦٣٠هـ) – دار صادر. بيروت.

٢٨- **مقدمة ابن خلدون**– لابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) – تحقيق د. علي عبد الواحد وافي. ط: نهضة مصر.

٢٩- **المقفى الكبير** – للمقريزي (ت٨٤٥هـ) – تحقيق أ. محمد اليعلاوي– دار الغرب الإسلامي، لبنان.

٣٠- **الملل والنحل** – للشهرستاني (ت٥٤٨هـ) – تحقيق: أ. محمد سيعد كيلاني– مكتبة مصطفى البابي الحلبي.

٣١- **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك** – لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) – تحقيق أ. محمد عبد القادر عطا. أ. مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العليمة. بيروت.

٣٢- **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية** - لابن تيمية (ت٧٢٨هـ). المطبعة الأميرية بولاق، القاهرة، ١٣٣١هـ.

٣٣- **الوافي بالوفيات** - للصفدي (ت٧٦٤هـ) - نشره : فرانز شتايز بفيسبادن. ألمانيا.

٣٤- **الوزراء والكتاب** - للجهشياري (ت ٣٣١هـ) - تحقيق أ. مصطفى السقا وزميليه. مطبعة البابي الحلبي .

ثانيا- المراجع:

٣٥- **الأمويون والبيزنطيون** - للدكتور إبراهيم العدوي - مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٣٦- **بغداد مدينة السلام** - د. صالح أحمد العلي - مطبوعات المجمع العلمي العراقي.

٣٧- **بنو أمية بين الضربات الخارجية والانهيار الداخلي** - للدكتور عبد الحليم عويس. دار الصحوة للنشر، القاهرة ١٤٠٨هـ=١٩٨٧م.

٣٨- **الجذور التأريخية للوزارة العباسية** - د. فاروق عمر - بغداد ١٩٨٦م.

٣٩- **تاريخ الإسلام** - د. حسن إبراهيم حسن - ط: النهضة المصرية.

٤٠- **تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام** - للدكتور السيد عبد العزيز سالم، والدكتور أحمد مختار العبَّادي - ط مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٣م.

٤١- **تاريخ عصر الخلافة العباسية** - د. يوسف العش - دار الفكر.

٤٢- **الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية** - للدكتور محمد ضياء الدين الريس - مكتبة دار التراث بالقاهرة، الطبعة الخامسة،١٩٨٥م.

٤٣- **الخلافة والدولة في العصر العباسي** - د. محمد حلمي - مكتبة الشباب.

٤٤- **الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول** - د. أحمد الشامي - الأنجلو المصرية.

٤٥- **الدولة الأموية دولة الفتوحات**- للدكتورة نادية محمود مصطفي - ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة ١٩٩٦م.

٤٦- **سلاجقة الشام والجزيرة** - د. إرشيد يوسف - ط: قطر .

٤٧- **العالم الإسلامي في العصر الأموي، دراسة سياسية** - للدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف - ط القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ=١٩٩٣م.

٤٨- **العالم الإسلامي في العصر العباسي** - د. حسن أحمد محمود - دار الفكر العربي.

٤٩- **عبد الملك بن مروان والدولة الأموية** – للدكتور محمد ضياء الدين الريس – مطابع سجل العرب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م.

٥٠- **العصر العباسي الأول** – د. عبد المنعم ماجد – مكتبة الأنجلو المصرية.

٥١- **العباسيون في التاريخ** – د. علي حبيبة – مكتبة الشباب، القاهرة،

٥٢- **العراق في العصر البويهي** – د. محمد حسين الزبيدي – دار النهضة العربية.

٥٣- **فتح العرب للمغرب** – للدكتور حسين مؤنس . مكتبة الآداب . القاهرة، ١٩٤٧م.

٥٤- **الفتنة السوداء أو ثورة الزنج** – محمد عثمان جمال – دار السلام للطباعة والنشر.

٥٥- **قيام الدولة العباسية** – د. محمد عبد الفتاح عليان – دار الهداية للطباعة والنشر.

٥٦- **المغول** – د. السيد الباز العريني – دار النهضة العربية.

٥٧- **المأمون الخليفة العالم** – د. محمد مصطفى هدارة – ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٥٨- **نظام ولاية العهد ووراثة الخلافة في العصر الأموي** – للدكتور حسين عطوان– ط: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولي، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٥٩- **النظريات السياسة الإسلامية** – للدكتور محمد ضياء الدين الريس – مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة السابعة.

ملحـــق

خرائط الفتوحات الإسلامية في العصر الأموى

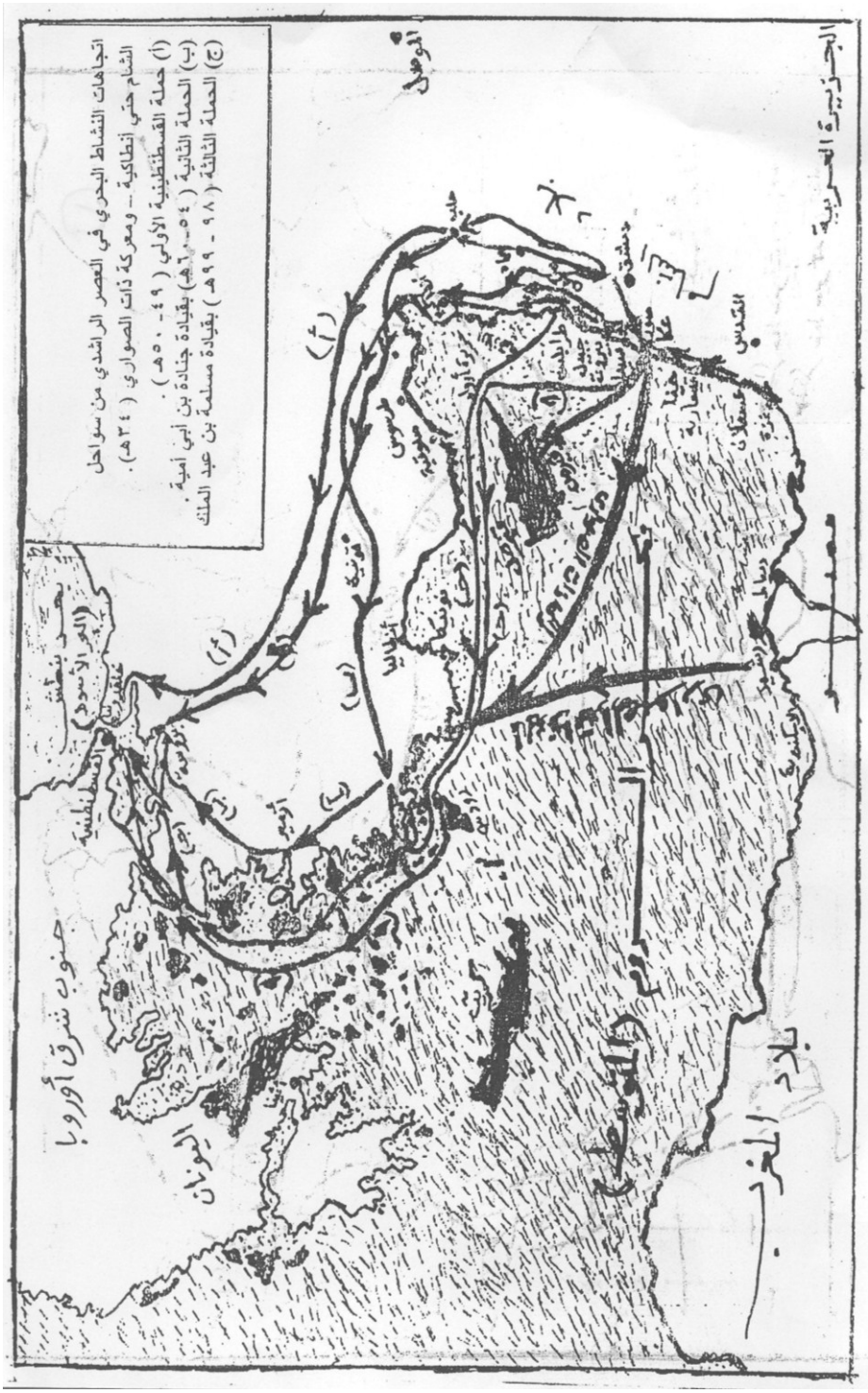
اتجاهات النشاط البحري في العصر الراشدي من سواحل الشام حتى أنطاكية ـ ومعركة ذات الصواري (٣٤هـ).
(أ) حملة القسطنطينية الأولى (٤٩ ـ ٥٠هـ).
(ب) الحملة الثانية (٥٤ ـ ٦٠هـ) بقيادة جنادة بن أبي أمية.
(ج) الحملة الثالثة (٩٨ ـ ٩٩هـ) بقيادة مسلمة بن عبد الملك
جنوب شرق أوروبا
اليونان
القسطنطينية
(البحر الأسود)
الموصل
حلب
دمشق
القدس
عسقلان
غزة
جنيا
بلاد المغرب
البحيرة العربية

الجبهة الشرقية
(١) خط سير قتيبة بن مسلم الباهلي
(٢) خط سير محمد بن القاسم الثقفي
البحر الأسود
آسية الصغرى
بلاد الكرج
أذربيجان
خوارزم
ما وراء النهر
الري
همدان
أصبهان
سمرقند
بخارى
بلخ
طخارستان
غزنة
سجستان
مكران
السند
الملتان
كابل
الكوفة
البصرة
واسط
الأنبار
الحيرة
الأبلة
فارس
كرمان
مكة
المدينة
الطائف
اليمن
البحر المتوسط

بعض مدن المغرب الإسلامي
الصحراء الكبرى
المغرب الأوسط
البحر المتوسط
الأندلس
تونس
القيروان
سبتة
طنجة
فاس
تلمسان
تاهرت
بجاية
قسنطينة
المسيلة
بسكرة
سوسة
المهدية
قابس
جربة
سفاقس
درعة

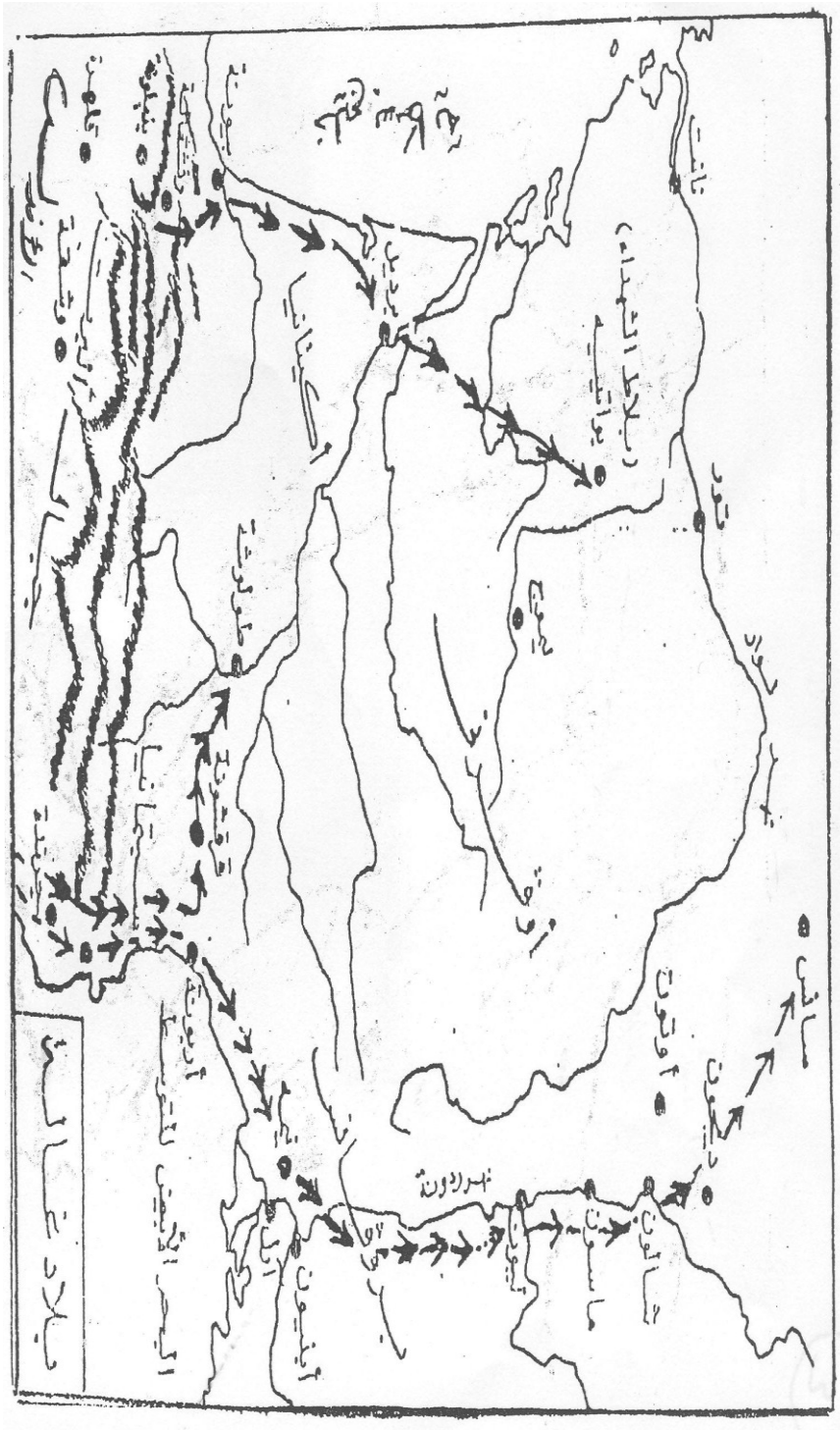

الفتوحات في بلاد غالة (جنوب فرنسا) وموضع معركة بلاط الشهداء

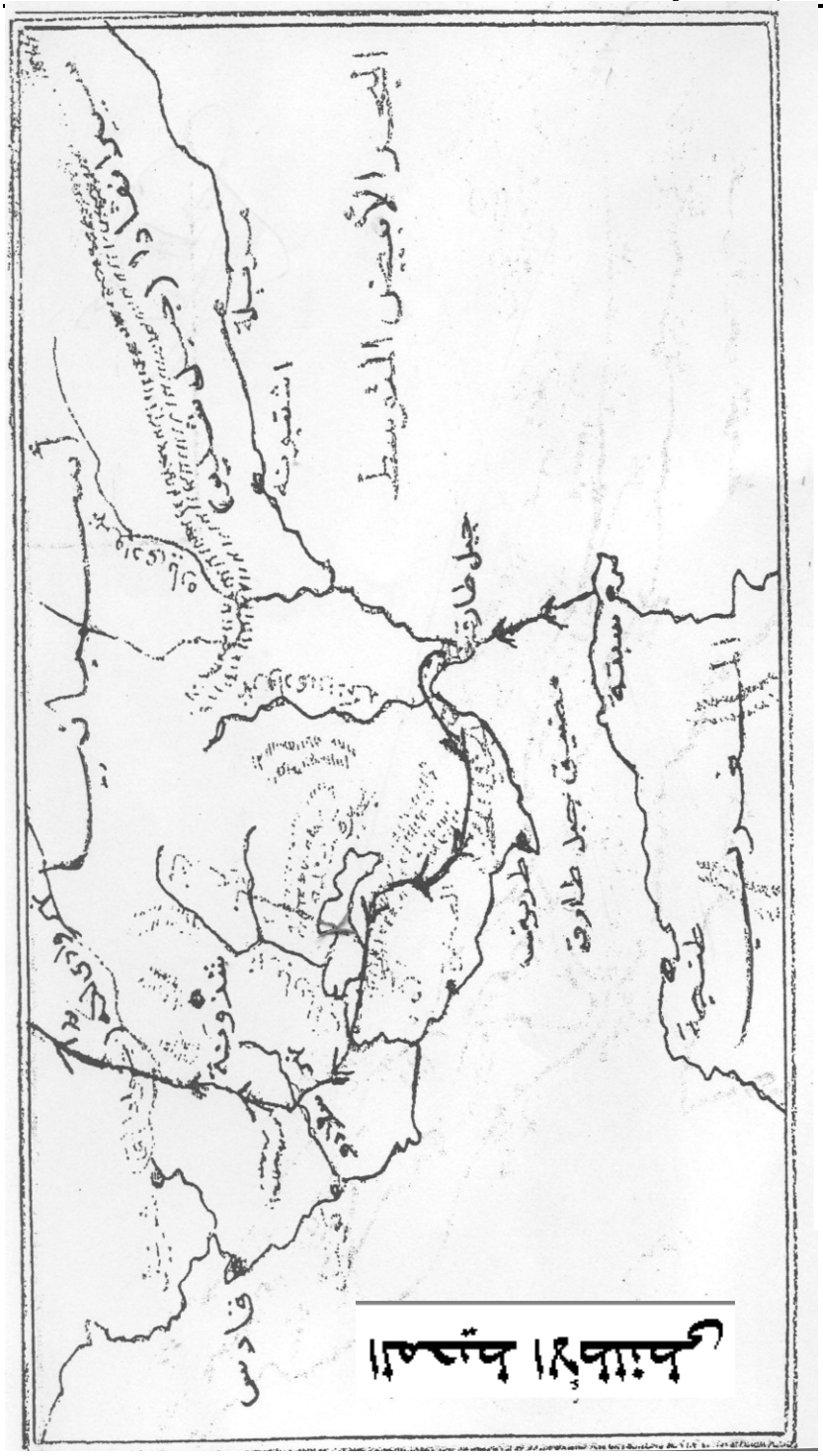

عبور طارق بن زياد إلى منطقة الجبل ومعركة وادى لكه في إقليم شذونة جنوب الأندلس

التطبيقات

القسم الأول

الدولة الأموية

د/ طه عبد المقصود عبد الحميد

الوحدة الأولى قيام الدولة الأموية

● س١- أكمل ما يأتى:

١- تنتسب الأسرة الأموية إلي ..... ، وإلى اثنين من أولاده تنتهي الفروع الأموية التي كانت فيها الشهرة والخلافة، وهما: ..... و.....

٢- تولي يزيد بن معاوية الخلافة بعهد من أبيه سنة ..... هـ، واستمر خليفة مدة ..... ، وتوفي في ربيع الأول سنة ..... هـ.

٣- بعد موت ..... انتقلت الخلافة الأموية من الفرع السفياني إلى الفرع .....، حينما اجتمع الأمويون علي البيعة لـ .....

٤- كانت مدة الخلافة الأموية ..... سنة، وتسعة أشهر، تبدأ من (سنة ٤١هـ)، وهى السنة التى بويع فيه ..... بالخلافة، وتنتهي بمقتل آخر الخلفاء الأمويين ..... على أيدي العباسيين سنة ..... هـ .

٥- من أبرز الخلفاء الأمويين الذين كان لهم دور كبير في تاريخ الدولة الأموية : ..... و ..... و ..... و .....

الإجابة:

١- أميّةَ بنَ عبد شمس – حرب بن أمية، وأبو العاصي بن أمية.

٢- ٦٠هـ - أربع سنين – ٦٤هـ .

٣- معاوية الثاني- المرواني- مروان بن الحكم بن أبي العاص- عبد الله ابن الزبير.

٤- تسعين- معاوية بن أبي سقيان- مروان بن محمد – ١٣٢هـ .

٥- معاوية بن أبي سفيان – عبد الملك بن مروان – عمر بن عبد العزيز

● س٢- اختر الإجابة الصحيحة فيما يأتي:

١- (مروان بن محمد – معاوية بن يزيد – معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية، سنة (٤٠- ٤١ – ٤٢ هـ).

٢- ينتمي الفرع المرواني من الخلفاء الامويين إلي (محمد بن مروان - مروان بن الحكم – عبد الملك بن مروان).

٣- تولي معاوية الثاني الخلافة بعهد من أبيه سنة (٦٣ – ٦٤– ٦٥هـ). وتولي عبد الملك بن مروان الخلافة الأموية سنة (٦٣ – ٦٤ – ٦٥ هـ).

الإجابة :

١- معاوية بن أبي سفيان - ٤١ هـ .

٢- مروان بن الحكم . ٣- سنة ٦٤ هـ - سنة ٦٥هـ .

● س٣- هل كان امتناع معاوية من إعطاء البيعة لعلي ﷺ لا يؤثر على الإجماع المنعقد له بالخلافة؟ ولماذا ؟ وما السبب الحقيقي في النزاع الذي وقع بينهما ؟

الإجابة:

لمَّا قُتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ شهيدًا مظلومًا يوم الجمعة لثمانِ عشرةَ مَضَتْ من ذي الحجة، سنة خمس وثلاثين، بأيدي الثائرين من الرعاع الخارجين عليه تمت البيعةُ لعلي ﷺ بالخلافة بإجماع الصحابة، المهاجرين والأنصار، ولم يتخلف أحدٌ منهم عن البيعة له، وبايع طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهما طائعين غير مكرهين، ومن ثمَّ أصبح عليٌّ خليفةً وإمامًا حقًا، يجب على سائر الناس طاعتُه، ويحرُمُ عليهم مخالفتُه.

ونؤكد هنا علي أن امتناع معاوية من إعطاء البيعة لعلي ﷺ لا يؤثر على الإجماع المنعقد له بالخلافة، لأن معاوية لم يقاتل عليًا على الخلافة، ولم ينكر إمامته وفضله وأحقيته، وإنما كان يقاتل من أجل **التعجيل** بإقامة حد القصاص الشرعي على الذين اشتركوا في قتل عثمان ﷺ، وكان معاويةُ يظن أنه مصيبٌ في اجتهاده وسعيه هذا، لكنه كان مخطئًا، وهذا ما استقر عليه أهلُ السُّنَّة واتفقوا عليه وقرروه في كتبهم.

وقد أقر معاوية نفسه بأحقية علي لمنصب الخلافة حين سأله أبو مسلم الخولاني – وكان علي رأس الوفد الذي أرسله عليّ إليه لما احتدم الخلاف بينهما: أنتَ تنازع عليًا؟ أَوَ أنت مثله؟ فقال: « والله إني لأعلمُ أنه خيرٌ مني وأفضلُ، وأحقُّ بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمانَ قُتِلَ مظلومًا، وأنا ابنُ عمه، وأنا أطلبُ بدمه، وأَمْرُهُ إليَّ ؟ فقولوا له: فَلْيُسلِّمْ إليَّ قَتَلَةَ عثمان، وأنا أُسلِّم له أمرَه». فلما أتوا عليًا وكلَّموه بما قاله معاوية قال: « يدخل في البيعة ويحاكمهم إليَّ»، أي عليه أن يبايع أولاً، ثم يرفع القضية إلى الحاكم لينظر فيها؛ لأنه المسئول الأول عن إقامة الحدود.

وكان معاوية ﷺ يرى أنَّ عليه مسئولية الانتصار لعثمان، والقوَد من قاتليه، والله يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ {الإسراء:٣٣}. لذلك جمع معاوية الناس، وخطبهم بشأن عثمان، وأنه قُتل مظلومًا على يد سفهاء منافقين لم يُقدِّروا الدَّمَ الحرامَ، إذْ سفكوه في الشهر الحرام، وفي البلد الحرام. فثار الناس واستنكروا، وأيدوا معاوية في دعواه وموقفه.

ومن هنا يتبين أن محل النزاع هو التعجيل بتنفيذ حكم الله في القتلة وهذا هو السبب الرئيسي في رفض أهل الشام - بقيادة معاوية بن أبي سفيان - البيعةَ لعلي، ورأوا أن تنفيذَ حكم القصاص مُقدَّم على البيعة.

والحق أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ لم يكن أقلَّ من غيره حرصًا على إقامة الحد على قتلة عثمان، وأنه لن يُقصِّرَ في إقامة الحدِّ على قاتلٍ أبدًا، فضلاً عمن

قتلوا الخليفة، لكن الموقف الذي هم فيه آنذاك لا يمكِّنه من ذلك، فإذا كان الذين نفَّذوا القَتْلَ في عثمان ﷺ عددًا محدودًا (قيل: هم الغافقيُّ بن حرب زعيم ثوار مصر، ومعه سُودان بن حمران، وكِنانةُ بن بشر التُّجيبي)، إلا أنَّ وراءَهم عشرةَ آلاف من الثائرين الذين ضَلَّلوهم وأقنعوهم بسلامة موقفهم، ومن ثَمَّ فهم مستعِدُّون للدفاع عنهم، ولذلك كانوا عندما يسمعون قائلاً يقول: مَنْ قتل عثمان؟ كان العشرةُ آلاف يصيحون: « نحن جميعًا قلناه » ومن هنا كان رأيُ عليّ بن أبي طالب واجتهادُه: الصبرَ والتَّرَيُّثَ ريثما تهدأُ الأوضاعُ، ويعودُ الناسُ إلى بلادهم، وعندئذ يمكنُ التحقيقُ في الأمر، وإقامةُ الحدّ على القتلة الحقيقيين. وقد عبَّر الإمام عليّ عن موقفه هذا عندما دخل عليه جماعة من رءوس الصحابة بعد إتمام البيعة له- فيهم طلحة والزبير رضي الله عنهما - وطلبوا منه إقامة الحدود، والأخذَ بدم عثمان، فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مَدَدٌ وأعوان، وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا. وقال لهم: «ياإخوتاه، إني لست أجهلُ ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عُبْدَانُكم، وثابت إليهم أعرابُكم، وهمْ خِلالكم (أي: يعيشون بينكم) يَسُومُونكم ما شاءوا (أي: يسيطرون عليكم) فهل ترون موضعًا لقدرةٍ على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا، قال: فلا - والله - أرى إلا رأيًا ترونه أبدًا، إلا أن يشاء الله...».

هذا ما كان يراه علي بن أبي طالب ﷺ . لقد كان موافقًا - من حيث المبدأ - على وجوب إقامة القصاص من قتلة عثمان ﷺ، لكنه رأى أن يُرجئَ القصاصَ من هؤلاء إلى حين استقرار الأوضاع، وهدوء الأمور، واجتماع الكلمة. وبناء على هذا فإن الاختلاف الذي وقع بين علي ومعاوية لم يكن في أصل المسألة، وإنما كان في الطريقة التي تُعالَجُ بها هذه القضية.

● س٤- وضح الموقف الصحيح الذي ينبغي اعتقاده فيما حدث من نزاع وقتال في معركتي الجمل وصفين.

الذي عليه اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة فيما حدث بين الطائفتين من نزاع وقتال هو أن عليًا ﷺ ومن قاتل معه كانوا على الحق والصواب، أو أقرب إليه

وأَوْلَى به، وأن مخالفيهم- في معركتي الجمل وصِفّين- مخطئون متأولون بغاة. وينبغي الإمساك عما شَجَرَ بينهم، وعدم الخوض فيه إلا بما هو لائق بمقامهم، ولبيان وجه الحق والرد على شبهات الطاعنين، وأنه يجب على كل مسلم أن يحبهم جميعًا، ويترضى عنهم، ويترحم عليهم، ويحفظ لهم فضائلهم، ويعترف لهم بسوابقهم، وينشر مناقبهم. وأن الذي حصل بينهم من اختلاف وقتال إنما كان اجتهادًا منهم، وهم لإخلاصهم مثابون مأجورون عليه في حالتي الصواب والخطأ، غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطئ. ونردد هنا ما قاله الحسن البصر رحمه الله حين سُئِل عن قتال الصحابة فيما بينهم فقال:« قتالٌ شهده أصحاب محمد ﷺ وغِبْنا، وعلموا وجهِلنا، واجتمعوا فاتَّبعنا، واختلفوا فوقفنا».

● س٥- وضح لماذا تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ ؟ وما الشروط التي اتفق عليها الطرفان ليتم الصلح بينهما ؟ وهل كان الحسن مُوَفقا في ذلك؟

الإجابة:

١- لما قُتل عليٌّ ﷺ بأيدي الخوارج لم يَعْهَدْ ولم يوص بالخلافة إلى أحدٍ من بعده. وهذا هو الصحيح. أما قولُ الشيعة الرافضة: إنه عهد إلى الحسن فباطل. وقد قيل له: ألا تستخلف علينا؟ قال: « ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف، ولكن إن يُرِد اللَّهُ بالناس خيرًا فسيجمعهم بعدي على خيرهم، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم ». ثم انعقدت البيعة للحسن بن علي بعد موت أبيه، وكان «أحق بها من معاوية ومن كثير من غيره». وكان أول من تقدم إليه بالمبايعة قيس بن سعد بن عبادة، ثم بايعه الناس بعده، فبقي في الكوفة إلى شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، ثم عزم على الخروج لمثل ما خرج إليه أبوه من دعاء الفئة الباغية - معاوية وأهل الشام - إلى الانقياد للحق والدخول في الطاعة.

٢- ولم يكن في نية الحسن أن يقاتل أحدًا، ولكن جنده غلبوه على رأيه،

فاجتمعوا اجتماعًا عظيمًا لم يسمع بمثله، فجعل الحسن ﷺ قيسَ بن سعد قائدًا على المقدمة في اثني عشر ألفًا بين يديه، وسار هو بالجيوش في أثره قاصدًا بلاد الشام، فلما اجتاز المدائن نزلها وقدَّم المقدمة، لكنه لما رأى تفرق جيشه واختلافهم عليه وتعرُّضَه لمحاولة القتل كرههم، وكتب عند ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان- وكان حينئذ قد تحرك بجيشه في أهل الشام، فنزل "مسْكِن" - يسالمه ويراسله في الصلح. ويُروي أن معاوية ﷺ كان يعلم أن الحسن أَكْرهُ الناس للفتنة، فرغب هو في الصلح وبدأ به، وأنه عرض على الحسن المال، ورغَّبه فيه، وحثَّه على رفع السيف.

٣- وقد اشترط الحسن للتنازل شرطين بحسب ما جاء في الروايات؛ الأول: أن يأخذ من بيت المال خمسة آلاف ألف. وقد أراد الحسن بذلك كله تسكين الفتنة وتفرقة المال على من لا يرضيه إلا المال. والثاني: أن يتولي الحسن الخلافة من بعد معاوية، لكن الحسن توفي سنة ٥١هـ قبل وفاة معاوية بعشر سنوات. وكان تسليم الحسن الخلافة لمعاوية في الخامس من ربيع الأول أو الثاني سنة إحدى وأربعين. وهو العام الذي وُصف بعام الجماعة، لاجتماع الكلمة فيه على معاوية، وانتهاء فترة الفتن والحروب.

٤- ولما تسلم معاوية ﷺ الخلافة دخل الكوفة فبايعه الناس، وبايعه كل من كان معتزلاً للقتال، كعبد الله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة . ثم خطب في الناس، وخطب الحسن خطبة، ورد فيها قوله : " ألا وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية حقٌّ لامرئ كان أحقَّ به مني، أو حقٌّ لي تركته لإرادة إصلاح المسلمين وحقن دمائهم ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ {الأنبياء:١١١}". ثم لحق الحسن بالمدينة ومعه أخوه الحسين، وبقية أخوته وعشيرته.

٥- ولا شك أن الحسن كان موفقا في تنازله عن الخلافة، وقد حقق بهذا نبوءة جده النبي محمد ﷺ، فقد روي البخاري عن أبي بكرة قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر- والحسن بن عليّ جنبه وهو يُقبِلُ على الناس مرة وعليه أخرى- ويقول: «ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». وهذا الحديث يبين أن الإصلاح بين الطائفتين كان ممدوحًا يحبه الله ورسوله، وأن ما فعله الحسن من ذلك كان من أعظم فضائله ومناقبه التي أثنى عليه النبي ﷺ، ولو كان القتال واجبًا أو مستحبًا لم يثن النبي ﷺ بترك واجب أو مستحب.

● س٦- أكمل ما يأتي:

١- بلغ قتلى موقعة الجمل..... مسلم، وقتل فيها من كبار الصحابة أمثال:..... و.....

٢- وقعت معركة صفين سنة ..... هـ، بين فئتين عظيمتين من المسلمين، هما: ..... و ..... وكان من أهم نتائجها: ..... و..... و .....

٣- اجتمع الحكمان: ..... و..... في .....

٤- التحكيم الذي اتفق عليه الطرفان المتنازعان في معركة صفين هو: ..... والنتيجة التي أسفر عنها هي: .....

٥- يُعرِّف العلماء " فرقة الخوارج " بأنهم ..... وقاتلهم علي بن أبي طالب في معركة .... سنة ..... هـ، ومن نتائج هذه المعركة ..... و .....

٦- انهزم الخوارج أمام عليّ في موقعة..... سنة..... ثم استشهد الخليفة عليّ في مسجد..... علي يد.....، سنة .....

٧- اشترط الحسن بن علي للتنازل عن الخلافة لمعاوية شرطين، هما: ..... و.....

الإجابة :

١- عشرة آلاف – طلحة – والزبير.

٢- سنة ٣٦هـ - علي بن أبي طالب ومعه اهل العراق، ومعاوية بن أبي سفيان ومعه أهل الشام - ومن أهم نتائج صفين: (أ) مقُتل عدد كبير من الجانبين نحو سبعين ألفًا، خمسة وعشرون ألفا من جيش عليّ ﷺ، وخمسة وأربعون ألفا من جيش معاوية. (ب) كان من بين القتلى في صفوف جيش عليّ: عمار بن ياسر، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم. (ج) التداعي إلي الصلح والتحاكم إلي القرآن والسنة في النزاع بين الفريقين.

٣- عمرو بن العاص – أبو موسى الأشعري – دومة الجندل.

٤- **التحكيم** هو : رفع المصاحف من قِبل جيش معاوية والاحتكام إلى القرآن الكريم، ووقف القتال فورًا بدلاً من سفك الدماء، وإبقاءً على البقية الباقية من الطرفين المقتتلين، والاتفاق على ما فيه مصلحة المسلمين - **والنتيجة التي أسفر عنها التحكيم هي** ترك أمر الخلافة لكبار الصحابة الذين توفى النبي ﷺ وهو عنهم راضٍ، ليروا فيه رأيهم. وبقيتْ الأوضاعُ على حالها، عليُّ بن أبي طالب ﷺ خليفةُ المسلمين ويتصرف في البلاد التي تحت حكمه، وهي كل الأمة الإسلامية، عدا الشام التي كان معاوية أميرًا عليها وتحت حكمه.

٥- **الخوارج:** هم طائفة كانوا من أنصار الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ﷺ، رفضوا قَبُولَ «التحكيم» في معركة «صفين»، وخطَّأوه في ذلك، معتقدين أن «التحكيم» ليس حلاً للخلاف بين الطرفين، وأن حكم الله واضح، لا يحتاج إلى هذا التحكيم، ورفعوا شعارًا أخذوا يرددونه قائلين: «لا حكم إلا لله»، يشيرون إلى قول الله تعالى:﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ {يوسف:٤٠}. وقالوا أيضًا: «الحكم لله، لا لك يا علي»، ثم أعلنوا براءتهم من عليّ ﷺ وكفّروه وطالبوه بأن يُعلنَ توبته، ويُسْلمَ من جديد،

وأن يعود بهم إلى قتال معاوية وأهل الشام - وقاتلهم علي بن أبي طالب في معركة النهروان سنة ٣٨هـ ، وكان من نتائج هذه المعركة:

(أ) انتصار جيش علي، ومقتل عدد كبير من الخوارج

(ب) تدبير الخوارج قتل علي.

٦- النهروان – ٣٨هـ - الكوفة – عبد الرحمن بن ملجم المرادي – ٤٠هـ.

٧- (أ) أن يكون الحسن الخليفةَ من بعد معاوية، (ب) دفع مبلغ كبير من المال للحسن مقداره خمس آلاف ألف، ليتألف به جنده، وليترضى قلوب من لا يُرضيه إلا المال من جنده.

● س٧- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة، مع بيان الإجابة الصحيحة في حالة الخطأ :

١- عدد خلفاء بني أمية إحدي عشر خليفة ( ).

٢- قامت الدولة الأموية في المشرق من عام الجماعة ٤١هـ وانتهت سنة ١٤٠هـ ( ).

٣- لم يكن محل النزاع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما إقامة حد القصاص علي قتلة عثمان رضي الله عنه ( ).

٤- لم يقاتل معاوية عليًا على الخلافة، ولم ينكر إمامته وفضله وأحقيته، وإنما كان يقاتل من أجل تعجيل إقامة حد القصاص الشرعي على الذين اشتركوا في قتل عثمان ﷺ ( ).

٥- بتنازل الحسن بن علي ﷺ عن الخلافة لمعاويةَ بن أبي سفيان قامت الخلافة الأموية سنة ٤١هـ ( ).

الإجابة:

١- (×) ٢- (×) ٣- (×) ٤- (√) ٥- (√).

حاول أن تذكر الإجابة الصحيحة للعبارات الخطأ.

الوحدة الثانية

ولاية العهد ووراثة الخلافة

● س٨- ما مدى صحة القول بأن معاوية أجبر بعض الصحابة علي إعطاء البيعة لابنه يزيد؟ وما موقف كبار أبناء الصحابة في ذلك الوقت من هذه البيعة؟

الإجابة:

١- وفى الأخبار التى رويت فى شأن سَعْى معاويةَ لأَخْذِ البيعة لابنه يزيد ما يدل على أنه لم يستبدّ بالرأى، ولم يحمل الناسَ على التسليم والإذعان لرغبته، بل إنه حرص على مشاورتهم ومناظرتهم، ورغب فى أن يحظى بموافقتهم عن رضًا منهم، كما أنه أظهر حلْمه وصبره على معارضيه، واجتهد فى إقناعهم واستمالتهم بطرق شتى، كالمكاشفة والمصارحة، والملاطفة والملاينة. وقد اعتَّد بطاعة أهل الشام، واعتمد على مساندتهم له، وظل معاوية سبع سنين يتابع هذا الأمر ويمهّد له، ويروّض الناسَ، ويشاور ويعطى الأقارب، ويقاربُ الأباعد، حتى استوثق من أكثر الناس، وأجابه معظم أهل الأمصار، ولم يرفض إلا زعماء أهل المدينة، وفى مقدمتهم أبناءُ الصحابة؛ الحسينُ بن على ابن أبى طالب، وعبدُ الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم جميعًا. ويروى الطبرى فى (تاريخه) ما يفيد أن هؤلاء الأربعة لم يوافقوا معاوية على ما يريد من البيعة بولاية العهد لابنه يزيد. وتذكر الرواية أن معاوية قدم المدينة لتأدية العمرة سنة ٥٦هـ ، وأنه التقى بأبناء الصحابة البارزين، وحاول إقناعهم بالبيعة ليزيد، وقابل كل واحدٍ منهم على حدة، لمحاولة إقناعه، غير أنهم ظلوا ممتنعين عن البيعة.

٢- ويذهبُ البعضُ إلى أن عبد الله بنَ عمر رضى الله عنهما وافق على البيعة ليزيد فى حياة أبيه معاوية، لكن الصحيح فى موقف ابن عمر أنه لم يبايع

ليزيد فى حياة معاوية، وكان يقول له : " لا أبايع لأميرين". وقال له أيضًا: "هل لك فى أمرٍ يُذهِبُ الذمَّ، ويحقنُ الدَّمَ، وتدركُ به حاجَتَك ؟ ". قال معاوية : ودِدْتُ. قال ابن عمر: " تُبرز سَريرَك، ثم أجئ فأبايعك على أن أدخل بعدك فيما تجتمع عليه الأمة، فوالله لو أن الأمة اجتمعتْ بعدك على عبدٍ حبشى لدخلتُ فيما تدخل فيه الأمة ". قال معاوية: وتفعل؟ قال: " نعم".

ولما توفى معاوية بايع ابنُ عمر يزيد بالخلافة، بل وكان ينكر بشدة على من ينزع يده من طاعته، كما حدث أثناء ثورة أهل المدينة على يزيد سنة ٦٤هـ، فقد روى البخارى فى صحيحه بإسناده عن نافع مولى ابن عمر قال: لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حَشَمه وولَدَه فقال: إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: " يُنصَبُ لكل غادرٍ لواءً يوم القيامة، وإنا قد بايَعْنا هذا الرجلَ على بيعة الله ورسوله، وإنى لا أعلم غدرًا أعظمَ من أن يُبايَعَ رجلٌ على بيع الله ورسوله، ثم يُنصَبُ له القتالُ، وإنى لا أعلمُ أحدًا منكم خَلَعه ولا بايع فى هذا الأمر إلا كانت الفيصلُ بينى وبينه"؛ أى أَعتزله وأُقاطعه.

وفى الحديث إشارة ودلالة علي وجوب طاعة الإمام – أى الحاكم – الذى انعقدت له البيعة، والمنع من الخروج عليه ولو جار وظلم فى حكمه، وأنه لا ينخلع بالفسق.

٣- أما عن الحسين بن على بن أبى طالب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر فإنهم لم يبايعوا يزيد، لا فى حياة أبيه، ولا بعد موته. وقد توفى عبد الرحمن قبل وفاة معاوية . وخرج الحسين ﷺ بالثورة على يزيد سنة ٦١هـ، وانتهى أمره بمقتله فى كربلاء. وأعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة فى مكة بعد وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ، وسيأتى الكلام عن هذه الأحداث فيما بَعْدُ إن شاء الله تعالى.

٤- ويروى بعض المؤرخين أن معاوية أجبر زعماءَ المدينة من أبناء الصحابة – الحسين، وابن الزبير، وابن عمر، وعبد الرحمن بن أبى بكر –

أجبرهم على البيعة ليزيد تحت تهديد السلاح، وبخُدعة محكمة حتى حصل منهم على موافقتهم أمام جمهور المسلمين وهم واقفون فى المسجد الحرام. وهذه الرواية باطلة لا تصح، لأنها تتهم هؤلاء الرجالَ بالجبُن، وأنهم أعطوا البيعةَ خوفًا من الموت، كما تتهم معاوية نفسَه بالكذب، وهو الصحابى الجليل وأمير المؤمنين، ومن كُتَّاب الوحى المبين .

● س٩- وضح الأسس التي اعتمد عليها معاوية بن أبي سفيان ﷺ في العهد بالخلافة لابنه يزيد.

الإجابة:

بعد مُضي عشر سنوات من خلافة معاوية بن أبي سفيان بدأ – سنة ٤٩ أو ٥٠هـ - في السعي إلي عقد ولاية العهد بالخلافة لابنه يزيد. وقد حاول أن يحقق مبدأ الشوري في ذلك، فاستدعي وجوه الناس وأشرافهم من الأمصار، فجاءوا وفوداً إلي دمشق، وتشاور معهم في هذا الأمر، وتطلع أن يظفر برضاهم، وحاول أن يستميلهم بطرق شتي، مع ضمان حرية القول، وإبداء الرأي، وظل علي مدى سبع سنوات يروض الناس حتي استوثق ليزيد. وقد استند معاوية في تفضيل ابنه يزيد إلي عدد من المسوغات والأسباب:

السبب الأول: أن معاوية كان يرى أنه ينبغي للخليفة أن يفكر فى ولاية أمر المسلمين من بعده، وأن يحرصَ على وَحْدة جماعتهم، وائتلاف كلمتهم، وأن يُجنِّبهم الاختلاف والفُرقة، وأن العهدَ بالخلافة أفضلُ من ترك الأمر على غاربه. وقد عبَّر معاوية عن ذلك بقوله لابن عمر ﷺ: " إنى خِفْتَ أن أذرَ الرعيةَ من بعدى كالغنم المَطيرة، ليس لها راع ". ولا شك أن ذكريات الفتنة التى وقعت منذ مقتل الخليفة عثمان ﷺ، وما تبعها من حروب بين المسلمين وما نتج عنها من دماء لا تزال حاضرة فى الأذهان وتثير القلقَ والخوف.

والسبب الثاني: أن معاوية ﷺ نظر إلي تجربة المسلمين فى الخلافة، فوجد أنها لم تستقر على صورة واحدة ثابتة، بل تعددت صورها وتنوعت أشكالها،

وأن من سبقه من الخلفاء الراشدين اجتهد كل منهم رأيه فى الخلافة، فأخذت به الأمة، وانقادت له، وإذا اجتهد هو يعنى معاوية مثلهم فإنه متبع وليس بمبتدع، وهو لا يبغى من اجتهاده إلا مصلحة الأمة.

والسبب الثالث: كان معاوية ﷺ - إضافة إلى عاطفة الأبوة وُحبّ الوالد لولده - يعتقد أن ابنه يزيد أهل للخلافة، وأنه جمع شروطها؛ من صفات الرئاسة، كشرف النسب، وسماحة الخُلُق، وحَصَافة الرأى، كما جمع صفات الإمامة، من معرفةٍ بالكتاب والسنة، وممارسة السياسة، والنهوض بأعباء الحكم، ودقة التدبير للأمور فى السلم الحرب، وحسن السيرة. وكان يظن أن لا يقوم أحد من أبناء الصحابة في هذا المعنى. وقال يوماً في خطبته: "اللهم إن كنت تعلم أني وليته لأنه فيما أراه أهل لذلك فأتم له ما ولَّيتُه، وإن كنت ولَّيتُه لأني أحبه فلا تتم له ما ولَّيتُه". وكان من رأيه تقديم أهل المعرفة بالسياسة والحرب علي أهل الفضل في الدين. وكان حريصاً علي أن يتعهد ولده ويُعدّه للخلافة ويُدرِّبه على مسائل الحكم وتحمُّل المسئولية.

والسبب الرابع: أن معاوية نظر إلى مقر الخلافة فوجد أن الشام أكثر الأماكن صلاحًا، فيجب أن يبقى مركز الحكم فيها، إذْ إن أهلها كلهم على رأي واحد، ولن يسمحوا بخروج الخلافة منهم بعد أن أحسُّوا بالمكانة العالية التى اكتسبوها طيلة عشرين عامًا منذ أن تولى معاوية الخلافة. كما أن الشام أقرب البقاع إلى منطقة الثغور، وفيها بطانته، ومنها قوته، ويستطيع الخليفة الجديد أن ينفذ أوامره بكل سهولة. وهذا ما عبر عنه ابن خلدون " بقوة العصبية "، وتعني: روابط التضامن والتناصر في الأسرة أو القبيلة الواحدة، والأسرة أو العشيرة الأقوى هي صاحبةُ العصبية الأقوى والشوكة والقوة، فتؤدى إلى الملك كأمر طبيعي.

● س١٠- هل كان يزيد بن معاوية رحمه الله أهلاً للخلافة؟ وكيف تردُّ على بعض الطوائف التي تجيز لَعن يزيد؟

الإجابة:

١- ولد يزيد بن معاوية سنة خمس وعشرين، أو سنة ستٍ وعشرين، فى عهد عثمان بن عفان ﷺ . وأمه هى "ميسون بنت بَحْدل الكلبية". وقد نشأ يزيد

فى بيت أبيه معاوية حين كان أميرًا على الشام، وعُنى أبوه معاوية بتربيته تربية عربية إسلامية، فقد أرسله فى طفولته إلى البادية عند أخواله من بنى كلب، ليشب فى أحضان الفطرة، وخشونة البادية ورجولتها، وليتعلم اللغة العربية النقية السليمة. وقد أثمرت هذه التربية فى يزيد، فكان شاعرًا فصيحًا وأديبًا لبيبًا، حاضر البديهة، أَبِيَّ النَّفسِ، عالِيَ الهِمّة. وعندما شبَّ انصرف إلى شيءٍ من اللهو وممارسة الصيد، ولم يكن على صلة بالحياة الاجتماعية التى تجعله بين القادة والأمراء ورجال الحكم، فلما صار له من العمر أربع وعشرون سنة أحب أبوه أن يُعدّه لمعالى الأمور، فاختاره أميرًا على الجيش المتوجه لغزو مدينة القسطنطينية (عام ٤٩هـ)، ثم أميرًا على موسم الحج (سنة ٥٠هـ)، ثم سعى معاوية لعقد ولاية العهد من بعده وليزيد، ورآه أهلاً لهذا المنصب، وبنى ذلك على بعض الأسس (اقرأها في إجابة السؤال السابق)، وكان يدرّبه على مسائل الحكم ويستشيره ويستعين به فى الأمور المشكلة المعْضِلة، وقد سأله مرةً : كيف تراك فاعلاً إن وُلِّيتَ ؟ فقال يزيد :" كنتُ – واللهِ يا أبةِ عاملاً فيهم عَمَلَ عمر بن الخطاب". فقال معاوية: "سبحان الله يا بُنىّ ، واللهِ لقد جَهِدتُ على سيرة عثمان بن عفان فما أطقتها، فكيف بك وسيرة عمر؟ ".

٢- وبعد أن توفى معاوية ﷺ فى شهر رجب سنة ستين من الهجرة بويع بالخلافة ليزيد، واجتمعت الأمةُ على بيعته. ولم يشذ عن ذلك إلا الحسين بن على، وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما، وسيكون لكل منهما شأن مع يزيد. أما بقية الصحابة فقد بايعوه، جمعًا للكلمة، وحفظًا لوحدة الأمة، مثل عبد الله بن عمر، وابن عباس. وقد استمر يزيد خليفةً مدةَ ثلاث سنين وستة أشهر أو وثمانية أشهر، وتوفى فى قرية "حوَّارين" بمدينة حمص فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وستين من الهجرة .

٣- وقد اتُّهم يزيد بأنه كان يشربُ الخمر، ويضيع الصلاة، ويلعب بالقرود، وغير ذلك. والحقُّ أن هذا كله غير صحيح ، وكلُّ الأحاديث المروية فى ذمه

موضوعةٌ لا يصح منها شئ كما يقول المؤرخ ابن كثير فى (البداية والنهاية) . وقد دافع عنه الصحابىُّ الجليل محمد بن على بن أبى طالب المشهور بمحمد ابن الحنفية، فقد ردَّ على الاتهامات التى ذكرها زعماء أهل المدينة فى حق يزيد، وذلك حينما خلعوا يزيد، وخرجوا عليه بقوة السلاح سنة٦٤هـ، وذهبوا إلى محمد ابن الحنفية لإقناعه بمشاركتهم، وقالوا له: " إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة ويتحدّى حكم الكتاب. فقال لهم : ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرتُه وأقمتُ عنده فرأيته مواظبًا على الصلاة ، متحريًا للخير، يسأل عن الفقه، ملازمًا للسُّنَّة. قالوا : فإن ذلك كان منه تصنُّعاً لك. فقال: وما الذى خاف منى أو رجا حتى يظهر لى الخشوع ؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ؟ فلئن أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا... " .

وقد روى البخارى فى صحيحه عن أم حرام بنت مِلْحان رضى الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : " أول جيشٍ من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم" . ومدينة قيصر هى القسطنطينية، وأول جيش غزا هذه المدينة كان فى خلافة معاوية سنة ٤٩هـ، وأمير الجيش هو يزيد بن معاوية، فيدخل فى هذه الفضيلة الواردة فى الحديث النبوى، ويُعدُّ هذا من فضائله.

ومما يشير إلى فضل يزيد أن الإمام أحمد رحمه الله ذكره فى كتابه (الزهد)، وروى عنه. وهذا - كما يقول ابن العربي المالكي - يدل على منزلة يزيد عند الإمام أحمد حتى يدخله فى جملة الزهَّاد من الصحابة والتابعين الذين يُقتدى بقولهم. كما أن فقيه مصر الليثَ بنَ سعد وصف يزيد بأمير المؤمنين، ولو كان فيه ما يتهمه به خصومه لَمَا وصفه الليث بن سعد بذلك الوصف. وذكره أبو زُرعة الدمشقى فى الطبقة التى تلى طبقة الصحابة، وهى العليا . وليزيد أحاديث رواها، فقد روى عن أبيه معاوية أن رسول الله ﷺ قال :" مَنْ يُرد اللهُ به خيرًا يفقهه فى الدين" (رواه البخارى).

٤- والأسباب التى جعلت خصومَ يزيد ومُبغضيه يتهمونه بالفسق والفجور، ويشوهون صورته وتاريخه وسيرته : ما وقع فى عهده من أحداث جسيمة، وما ترتب عليها من نتائج، كمقتل الحسين بن على ﷺ فى كربلاء (سنة ٦١هـ)، واتهام "يزيد" بأنه هو الذى أمر بقتله، وما حدث كذلك للمدينة النبوية من تخريب ونهب وسلب حينما دخلها جيش الدولة بعد هزيمة الذين خرجوا بالثورة من أهلها لخلع يزيد من منصب الخلافة، وذلك فى معركة الحرَّة (سنة ٦٤هـ) . وسيأتى شرح هذه الأحداث قريبًا إن شاء الله. ومع أننا لا نقلل من أهمية هذه الأحداث وآثارها إلا أننا نستطيع أن نقول: إن يزيد بن معاوية حافظ على هيبة الدولة، وسهر على حراستها، ولم تتوقف حملات الفتح والجهاد فى عهده. ولو دُرِس تاريخه دراسةً هدفُها البحثُ عن الحقيقة، وبعيدًا عن الهوى والميول والعواطف لتغيرت نظرةُ كثيرٍ من الناس إليه، ولأخذ مكانَه الصحيح بين الخلفاء فى التاريخ الإسلامى.

٥- هذا، ولا يجوز لعن يزيد بن معاوية ولا سبُّه. وقد ذكر قاضي الحنابلة ابن مفلح الحنبلي في كتابه (المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد) في ترجمة عصمة بن أبي عصمة العكبري- وهو من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل - أنه سأله: أألعنُ يزيد بن معاوية ؟ فقال: " لا تتكلم في هذا، قال النبي ﷺ: (لَعْنُ المؤمن كقتله)، وقال: (خيرُ الناس قرني ثم الذين يلونهم)، وقد كان يزيد منهم، فأرى الإمساك أحبُّ إلىَّ" .

وورد في (فتاوي) الشيخ تقي الدين بن الصلاح قوله : " لم يصح عندنا أنه أمر بقتل الحسين ﷺ، والمحفوظ أن الآمر بقتاله المفضي إلى قتله إنما هو عبيد الله بن زياد الوالي على العراق إذ ذاك. وأما سبُّ يزيد ولعنه فليس ذلك من شأن المؤمنين، وإن صح أنه قتله أو أمر بقتله ،وقد ورد في الحديث المحفوظ: أن (لعن المؤمن كقتله)، وقاتل الحسين لا يكفر بذلك، وإنما ارتكب إثماً، إنما يكفر بالقتل قاتل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. والناس في يزيد ثلاث فرق؛ فرقة تحبه وتتولاه، وفرقة تسبه وتلعنه، وفرقة متوسطة في ذلك لا تتولاه ولا

تلعنه وتسلك به في سبيل سائر ملوك الإسلام وخلفائهم غير الراشدين في ذلك وشبهه . وهذه الفرقة هي المصيبة، ومذهبها هو اللائق لمن يعرف سير الماضين، ويعلم قواعد الشريعة الظاهرة، جعلنا الله من خيار أهلها، آمين" .

● س١١- اختر الإجابة الصحيحة من بين الأقواس:

١- تتفق أكثر الروايات على أن (المغيرة بن شعبة - مروان بن الحكم- زياد بن أبي سفيان) هو الذى أشار علي معاوية بأن يرشح ابنه "يزيد" لولاية العهد بالخلافة .

٢- كتب معاوية إلى (المغيرة بن شعبة - مروان بن الحكم - زياد بن أبي سفيان) الأمير علي المدينة بأن يُسمي لهم يزيدا لولاية العهد، وأن يأخذ له البيعة، فامتنع زعماؤهم عن إعطاء البيعة.

٣- الحسين بن عليّ بن أبي طالب، و (عبد الله بن الزبير- عمران بن حصين- القعقاعَ بنَ عَمْرو) وعبد الرحمن بن أبي بكر لم يبايعوا ليزيد، لا في حياة أبيه، ولا بعد موته .

٤- معاوية جعل ابنه يزيداً أميرًا على الحملة العسكرية المتجّهة إلى حصار مدينة (القسطنطينية- القيروان- خرسان) سنة ٥٠هـ، ليقدمه إلى المسلمين على الصورة التي يفضلونها مجاهدًا في سبيل الله .

الإجابة :

١- المغيرة بن شعبة ٢- مروان بن الحكم

٣- عبد الله بن الزبير ٤- القسطنطينية.

● س١٢- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١- يجوز إمامة المفضول في وجود الأفضل إذا تعيَّن ذلك، دفعًا للفتنة، وإغلاقًا لباب الخلاف والفرقة والشر، وهذا ما فعله معاوية بإسناد ولاية العهد بالخلافة لابنه ليزيد ( ).

٢- من فضائل يزيد دخوله في عموم قول النبى- صلى الله عليه وسلم- قال: " أول جيشٍ من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم" . وكان يزيد هو قائد هذا الجيش( ).

٣- معاوية أجبر زعماءَ المدينة من أبناء الصحابة على البيعة ليزيد تحت تهديد السلاح ( ).

<u>الإجابة :</u> ١- (√) ٢- (√) ٣- (×) .

الوحدة الثالثة

أهم الثورات والفتن في العصر الأموي

● س١: أكمل ما يأتى:

١- في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ثار الخوارج بقيادة ..... وكانوا قد اعتزلوا فى خمسمائة رجل فى بلدة " شَهْرَزَوْر" وهاجموا الكوفة، فقاتلهم أهلُها حتى قُتلوا. ثم أعاد الخوارج هجومهم مرةً أخرى (سنة ٤٣هـ) بقيادة ..... ثم واصل خوارج الكوفة ثوراتهم (سنة ٤٨هـ) بقيادة .....، فظفر بهم المغيرة بن شعبة، وأودعهم السجون .

٢- ثار خوارج البصرة عدة مرات سنة..... و ..... و..... وعبثوا بالأمن والنظام، فاشتد زياد بن أبى سفيان (أمير العراق فى عهد معاوية) في ملاحقتهم، وجرَّد فيهم السيف وتعقَّبهم.

٣- كان من أبرز الخوارج الذين قتلهم الأمير عبيد الله بن زياد: ..... التميمي، وهو أول من دعا إلى ..... في معركة صفين قبل ذلك بعشرين عامًا. وقتل أيضاً من زعماء الخوارج ..... سنة ٦١هـ .

٤- افترقت الخوارج وصاروا أحزاباً وفرقاً متباينة، أبرزها: (الأزارقة) أتباع ..... وكانوا أكثر الخوارج عددا وأشدهم شوكة. و(الصُّفرية) أتباع ..... و(الأباضية) أتباع..... و(البهنسية) أتباع ..... و(النجدات) أتباع .....

٥- وقد خاض المُهلَّب بن أبي صُفْرة – هو وبنوه - مع الخوارج الأزارقة حروباً طويلة علي مدي تسع عشرة سنة، فيما بين بلاد " فارس" و"الأهواز"، واستطاع أن يقضي عليهم قضاء تاماً، وكان آخر رؤوسهم ..... الذي قُتل سنة ..... هـ، بعد أن ظل عشرين سنة يقاتل ويُسلَّم عليه بالخلافة.

٦- سيطر الخوارج " الصُّفرية " علي مدينة الكوفة سنة ..... بقيادة كل من ..... و .....، وتمكنوا من دخولها والسيطرة عليها مدة قصيرة، وانتصروا علي جيوش الخلافة في عدة معارك.

٧- اشتد خطر الخوارج في فترة الخليفة مروان بن محمد(سنة ١٢٧هـ)، واتسعت حركاتهم واستطاعوا أن يسيطروا علي ..... كله، وامتد نفوذهم إلي ..... ، وكان أشدها خطراً الثورات التي قادها ..... في العراق، و..... في جنوب الجزيرة العربية.

الإجابة :

١- فروة بن نوفل الأشجعى - المستورد بن عُلَّفة التيمى - حيان بن ظبيان السلمي. ٢- (٤١ ، ٤٥ ، ٥٠هـ) .

٣- عروةُ بن أُديَّة – التحكيم - مِرْداس ابن أُديَّة .

٤- نافع بن الأرزق - عبد الله بن الصفَّار - عبد الله بن أباض - حنظلة بن بيهس - نجدة بن عامر.

٥- قَطْري بن الفُجاءة - سنة ٧٨هـ .

٦- سنة ٧٦هـ - صالح بن مُسرِّح التميمي و شبيب بن يزيد الشيباني.

٧- العراق - الحجاز واليمن - الضحاك بن قيس الشيباني - أبو حمزة الخارجي .

● س٢- أكمل ما يأتى:

١- كان ..... الكندي من المعارضين لصلح الحسن بن على مع معاوية، وكان يعلن ذلك في حياة .....أمير الكوفة قبل زياد بن أبي سفيان، ولكن الأمير كان يحلم عليه ويعفو عنه.

٢- مع إصرار حُجْر بن عدي وأتباعه على مبادئهم فقد اعتبره الخليفة ..... ساعيًا في الأرض بـ.....، وأنه خشِي إن تركه أن يُثير ..... بين الناس

٣- لما مات المغيرة بن شعبة جمع معاوية بن أبي سفيان .....و..... لزياد بن أبي سفيان وظل كذلك إلى أن توفي (سنة ٥٣هـ) فتولاهما ابنه .....

الإجابة:

١- حُجْر بن عدي- المغيرة بن شعبة.

٢- معاويةُ- الفساد – الفتنة ٣- الكوفة- البصرة- عبيد الله بن زياد.

● س٣- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١- لما مات الحسنُ بن على فجأة تحول حُجْر بن عدي من المعارضة القولية إلى المعارضة الفعلية والقولية وأخذ يُحرّض الناسَ على الخليفة، دون خشيةٍ أو خوف ( ) .

٢- أوصى حُجْرَ بن عدي بقوله "ادفنوني في ثيابي، فإني أُبعث مُخاصمًا" ( ).

٣- غاية ما يقال فى قضية معاوية و حُجْرَ بن عدي: نتركهما حتى يلتقيا عند الله تعالى ( ).

الإجابة: ١- (√) ٢- (√) ٣- (√) .

● س٤- من هو حجر بن عدي؟ ولماذا قتل؟ وما مدى مسئولية معاوية رضي الله عنه فيما انتهي إليه أمره؟

الإجابة:

هو حُجْر بن عدى بن ربيعة الكندى، الكوفى، أبو عبد الرحمن. وهو من أوائل طبقة التابعين. وقيل: إنه معدودٌ فى الصحابة. وفد علي رسول الله ﷺ، ولا

رواية له عنه. ويقال له "حُجْر الخير". شهد معركة القادسية (سنة ١٥هـ) وغزا بلاد الشام، وهو الذى فتح "مرج عذراء"(من قرى غوطة دمشق تبعد عنها خمسة عشر ميلاً)، وكان من أنصار على ﷺ ومتشيعًا له. قال عنه الذهبى: " كان شريفًا وأميرًا مطاعًا، أمَّارًا بالمعروف، مُقدمًا على الإنكار، من شيعة على ﷺ، وكان ذا صلاح وتعبُّد" . ووُصف أيضًا بأنه " كان من عبَّاد الناس وزهّادهم، بارًا بأُمّه، كثير الصلاة والصيام". وقد أمر معاوية بقَتْل حُجْر (سنة ٥١هـ)، وكان ذلك من المآخذ التى أُخِذتْ عليه.

كان حُجْر من المعارضين لصلح الحسن بن على مع معاوية، ويعلن ذلك، فكان المغيرة بن شعبة أمير الكوفة يحلُم عليه ويعفو عنه، ولما مات مات الحسنُ ابن علىٍ فجأة (سنة ٥١هـ) تحول حُجْر بن عدىٍ من المعارضة القولية إلى المعارضة الفعلية والقولية، وأخذ يُحرّض الناسَ على الخليفة، دون خشيةٍ أو خوف. ولمَّا قدم "زيادُ بن أبيه" واليًا على الكوفة وجد جماعاتٍ من شيعة على ابن أبى طالب ﷺ يلتفُّون حول حُجر بن عدى، ويُحرِّضُونه على المعارضة، ويُعلنون سبَّ معاويةَ والبراءَةَ منه.

وحينما خطب زياد أوَّلَ خُطبة بالكوفة وفى آخرها فَضَّلَ عثمان بن عفان ﷺ، وذمَّ قاتليه ومن أعان على قتْله: قام حُجر، وتكلم بنحو ما كان يتكلم، فلم يتعرض له زياد بشيء. ثم دعاه ونصحه بأن يكف عما يصنع، وأن يمسك لسانه عما يقول، وقال له : " املك عليك لسانَك، وليسعْك منزلك، وهذا سريرى فهو مجلسك، وحوائجك مقضية لدىّ، فاكفنى نفسك، فإنى أعرف عَجَلتَك، فأنشدُك اللَّهَ فى نفسك". ثم حذره من هؤلاء الذين يلتفُّون حوله، ويُحرضونه على السلطان .

ثم إن زيادًا انصرف إلى البصرة – وكان يقيم فيها ستة أشهر، وفى الكوفة ستة أشهر – وترك "عمرو بن حُريث" نائبًا له على الكوفة، فعاد أصحاب حُجْر يترددون إليه ويسيرون معه فى طريقه إلى المسجد، ويُحِّرضونه، ويقولون له: "أنت شيخنا "، وبدأوا يثيرون الفتنة، وكانوا يجلسون معه وحوله فى المسجد

وهم فى كامل سلاحهم، ورموا عمرو بن حريث بالحصى وهو يخطب على المنبر يوم الجمعة. وقد وصلت هذه الأخبارُ إلى زياد، فانتقل إلى الكوفة، وخطب فى الناس فقال فى خطبته : " إن هؤلاء آمنون فاجترءوا علىَّ، وايمُ الله، لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم". ثم قال : "ما أنا بشئ إن لم أمنع ساحة الكوفة من حُجْر وأصحابه، وأَدَعْه نكالاً لمن بعده ". ويُروى : إن زيادًا لما خطب طوَّل الخطبة وأخَّر الصلاة ، فقال حُجْر: " الصلاة "، فمضى زياد فى خطبته، فلما خشى حُجْر فوتَ الصلاة عمد إلى كفٍ من حصباء ونادى : "الصلاة"، وثار الناس معه، فلما انصرف زياد من صلاته كتب إلى الخليفة فى أمر حُجر وأصحابه، وما يصدر منهم، فكتب إليه معاوية بأن يقبض عليه، ويشده فى الحديد ويرسله إليه فى دمشق.

وقبل أن ينفذ زيادُ ما أمره به الخليفة أرسل إلى حُجْر جماعة من أشراف الكوفة، فيهم الصحابىُّ جرير بن عبد الله البجلى ﷺ، وكلّموه فى أن يكف عما يفعل، وعن تحزيب الناس حوله، فلم يُبال بهم، ولم يستجب لنصائحهم، وحاول هؤلاء أن يرققوا قلب زياد، وسألوه الرفق بحُجْر بن عدى، فلم يفعل، وأرسل إليه جنوده، فلم يزالوا به حتى أحضروه إلى زياد بعد عدة محاولات، فقيّده وسجنه عشرة أيام، ثم وافق زياد على الشرط الذى اشترط حُجر عند استسلامه، وهو " إحالة القضية إلى معاوية ليحكم فيها "، فبعث به إلى معاوية، ومعه عشرون أو أربعة عشر من كبار أنصاره ومؤيديه، وبعث معهم جماعة يشهدون عليه أنه سبَّ الخليفة، وأنه حارب الأمير، وأنه يقول: " إن هذا الأمر – يعنى الخلافة – لا يصلح إلا فى آل على بن أبى طالب".

ولما وصل حُجْر وأصحابه العشرون – أو الأربعة عشر – إلى "مَرْج عذراء" (على بُعْد خمسة عشر ميلاً من غوطة دمشق) أرسل معاويةُ مَنْ تلقّاهم بها، فقُتلوا هناك. وذكر ابن سعد فى (الطبقات الكبرى) أن معاوية استشار أمراءه ومستشاريه فى أمرهم، فِمن مشيرٍ بقتلهم، ومن مشير بتفريقهم فى البلاد،

ثم أرسل إلى " زياد بن أبيه" كتابًا آخر فى أمرهم، فأشار عليه بقتلهم إن كان له حاجة فى استقرار العراق، فعند ذلك أمر معاويةُ بقتلهم، فاستوهب منه الأمراءُ واحدًا بعد واحد، حتى استوهبوا منه ستة، وقُتل منهم سبعةٌ، أولهم حُجْر بن عدى، وعفى عن واحد رجع عن آرائه وموقفه.

ويُذكر أن حُجْرًا لما أرادوا قَتْله قال:" دعونى حتى أتوضأ ". فقالوا له: توضأ. فقال: " دعونى حتى أصلى ركعتين"، فصلاهما، وخفف فيهما، فلما قدموه للقتل قال: " ادفنونى فى ثيابى، فإنى أُبعث مُخاصمًا".

إن حُجْر بن عدى وأنصاره - وكما يذكر الطبرى فى روايته – " كانوا ينالون من عثمان بن عفان ﷺ (أى ينتقصون من شأنه) ويطلقون فيه مقالة الجور، وينتقدون على الأمراء، ويسارعون فى الإنكار عليهم (أى معارضتهم وإثارة الناس عليهم) ويبالغون فى ذلك، ويتولون شيعة على (أى يفضلون علياً وأبناءه، وأنهم أحق بالخلافة)، ويتشددون فى الدين". ومع إصرار حُجْر وأتباعه على هذه المبادئ فقد اعتبره معاويةُ ساعيًا فى الأرض بالفساد، وأنه خشِى إن تركه أن يُثير الفتنة بين الناس، ويعرض أمن المجتمع واستقراره للفوضى. ثم إن معاويةُ لم يُقْدم على ذلك إلا بعد أن استشار فى أمر حُجْر، ولم يجد أمير العراق زيادُ بن أبيه حلاً سلميًا لمشكلته، فرفع شأنه إلى الخليفة، مع شهادة الشهود.

وقد أُخذ على معاوية ﷺ قَتْلُه حُجْرَ بن عدى، ولامته على ذلك عائشةُ أمُّ المؤمنين رضى الله عنها . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن أبى مُليكة قال : " لما قدم معاويةُ المدينة دخل على عائشة (أى أستأذن فى الدخول إليها) فقالت: أقتلتَ حُجْراً. فقال : وجدتُ فى قتله صلاحَ الناس، وخِفْتُ من فسادهم" . وفى رواية ذكرها ابن كثير في (البداية والنهاية) من طريق سعيد بن المسيَّب، عن مروان بن محمد قال: دخلت مع معاوية على أم المؤمنين عائشة، فقالت : " يا معاويةُ، أقتلتَ حُجْراً وأصحابه، وفعلتَ الذى فعلتَ ؟ ". فقال : "يا أمَّ المؤمنين، كيف أنا فيما سوى ذلك من حاجاتِك وأمرِكِ ؟ ". قالت : صالحٌ . قال :

" فدعينى وحُجْرًا حتى نلتقى عند ربنا عز وجل" .

ونحن نقول أيضاً : دعوه وحُجْرًا حتى يلتقيا عند الله تعالى .

● س٤- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١- الحسين لم يعجبه ما عمِل أخوه الحسن من تسليم الخلافة إلى معاوية، بل كان رأيه القتال ( ).

٢- أصرَّ الحسينُ وعبدُ الله بن الزبير على المخالفة وامتنعا عن البيعة ليزيد بن معاوية ( ).

٣- قتل يزيد الحسين بن عليّ ﷺ في كربلاء فحُقَّ أن تشوَّه صورته وتاريخه وسيرته ( ).

الإجابة : ١- (√) ٢- (√) ٣- (×).

● س٥- أكمل ما يأتى:

١- بعث الحسين ابن عمه ..... إلي الكوفة، فتتابعتْ عليه وفودُ الشيعة تبايعه سرًّا، واستجابت له جموعٌ ضخمة، وبايعه أكثر من ..... ، ثم تكاثروا حتى بلغ عددهم ..... ، فكتب إلى الحسين ليقدم عليه.

٢- حين أيقن مسلم بن عقيل أنه مقتول أوصى..... وكان موجودًا في قصر الإمارة، قال له: ابعث إلى ..... بالرجوع، فإني كنت قد كتبتُ إليه أن الناس معه، ولا أراه إلا مقبلًا.

٣- خرج الحسين إلى ..... قبل علمه بمقتل ابن عمه مسلم بن عقيل .....، وقد نصحه كثير من ..... بترك الخروج.

٤- من الصحابة الذين نصحوا الحسين بعدم الخروج إلي الكوفة، وحذروه من ذلك: ..... و ..... و ..... و .....

٥- كان من الذين نصحوا الحسين وحذروه من أهلَ العراق ..... ولكن رد عليه الحسين: "إني رأيت رؤيا، رأيت رسول الله ﷺ، وأمرني بأمرٍ، وأنا ..... له، ولستُ بمخبر بها أحدًا حتى ألاقي ربي " .

الإجابة:

١- مسلم بن عقيل - اثني عشر ألفًا - ثمانية عشر ألفًا

٢- عمر بن سعد بن أبي وقاص- الحسين .

٣- الكوفة- بيوم واحد- الصحابة .

٤- عبد الله بن عمر و عبد الله بن عباس – أبو سعيد الخدري – جابر بن عبد الله - أبو واقد الليثي.

٥- عبد الله بن جعفر- ماضٍ

● س٦- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١- كتب مروانُ بن الحكَم إلى عبيد الله بن زياد أمير الكوفة يحذره من قَتْل الحسين( ).

٢- أُرسل برأس الحسين إلى يزيد بن معاوية فجعل ينكت بها ومعه قضيب يدخله في فمه( )

٣- أساء عبيد الله بن زياد معاملة نساء الحسين وأهل بيته بعد قتله بالسبى والدوران بهن على البلدان ( ).

٤- لما بلغ خبرُ مقتل الحسين يزيدَ بنَ معاوية بكى بكاءا شديدا، ولم يرض بما فعل عبيد الله بن زياد( ).

الإجابة: ١- (√) ٢- (×) ٣- (×) ٤- (√)

● س٧- أكمل ما يأتي:

١- عزل يزيد بن معاوية .....عن مدينة الكوفة، وضمَّها إلى عبيد الله بن زياد مع مدينة .....، وكتب إليه: إذا قدمتَ الكوفَة فاطلب ..... فإن قدرتَ عليه فاقتله أو انْفِه.

٢- أمر عبيد الله بن زياد ..... التميمي أن يخرج بألف رجل مُقدمةً ليلقى الحسين في الطريق، فلقيه قريبًا من ..... فنصحه بالذهاب إلـي ..... حيث عبيد الله بن زياد، فأبى الحسين ذلك، وخيره بين ثلاث، هي: .....

٣- قتلُ الحسين ﷺ في ..... وبعد انتهاء المعركة أمر ..... قائد الجيش بألا يدخل أحدٌ على نساء الحسين وصبيانه، وألا يتعرض لهم أحد بسوء، وأرسل برأس الحسين ونسائه، ومن كان معه من الصبيان إلى ..... في الكوفة.

٤- قال ابن تيمية: لم يكن في خروج الحسين للقتال .....، لا في دين ولا في دنيا، وكان في خروجه وقتله من ..... ما لم يحصُل لو قَعَدَ في بلده .

٥- قتل من أصحاب الحسين وأهل بيته ..... رجلاً، منهم ..... نفسًا، سوي الجرحي، فصلي عليهم ودفنهم .

٦- بالغ ..... في يوم عاشوراء، وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين، فوضعوا أحاديث كثيرة، مملوءة ..... فاحشًا، من كون الشمس ..... يومئذ حتى بدت النجوم وقت .....

الإجابة:

١- النعمانَ بن بشير – البصرة - مسلمَ بن عقيل.

٢- الحُرَّ بن يزيد – القادسية - العراق - " أن تَدَعَني أرجع، أو أذهبَ إلي ثغرٍ من ثغور المسلمين، أو أذهبَ إلي (يزيد) حتي أضعَ يدي في يده في الشام".

٣- العاشر من المحرم سنة ٦١هـ - عمر بن سعد - عُبيد الله بن زياد.

٤-- رجلاً من نسل فاطمة رضي الله عنها، فدفنهم أهل الغاضرية من بني أسد بعدما قُتلوا بيوم واحد. وقُتل من جند عمر بن سعد قائد الجيش الأموي ..... مصلحة – الفساد.

٥- اثنان وسبعون - سبعة عشر أو ستة عشر - ثمانية وثمانون.

٦- الشيعة- كذبًا- كسفت- الظهر .

● س٨- أكمل ما يأتي :

١- التوابون جماعة من ..... أحسُّوا بخطئهم الفادح حين دعوا الحسين بن علي إلى .....، ليبايعوه خليفةً وإمامًا، ثم تخلَّوْا عنه بعد قدومه عليهم، وخذلوه، فلما قتل في ..... تابوا عن تقصيرهم في نُصرته وقرروا الثأر له من الذين سعوا في قتله.

٢- التقى عبيد الله بن زياد بالتوابين في منطقة تسمى ..... وفي هذا اللقاء أبلى الشيعةُ بلاء حسنًا، ولكنَّ الكثرةَ والعُدةَ جعلت النصرَ في كفة .....، وقُتل ..... قائد التوابين وكثيرٌ من أتباعه، وتفرق الباقون عائدين إلى ديارهم بالكوفة.

الإجابة:

١- الشيعة – الكوفة – كربلاء.

٢- عين الوردة - ابن زياد - سليمانُ بن صُرَد.

● س٩- من هو المختار بن أبي عبيد الثقفي؟ وما الأسباب التي أخرجته بالثورة على السلطة الأموية؟ وماذا حدث؟ وما النتائج التي أسفرت عنها الثورة؟

راجع عنها الكتاب. وتتلخص عناصر الإجابة في النقاط الآتية:

١- التعريف بالمختار بن أبي عبيد الثقفي.

٢- الأسباب التي أخرجته بالثورة على السلطة الأموية – تاريخ الثورة والمناطق الجغرافية التي سيطر عليها المختار.

٣- مراحل الثورة .

٤- النتائج التي أسفرت عنها الثورة .

● س١٠- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١- استجاب الخليفة يزيد بن معاوية لرغبة نجدة بن عامر وعزل أمير المدينة الوليد بنَ عتبة، وعين مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان ( ) .

٢- جميع أهل المدينة وزعمائهم خلعوا يزيد بن معاوية وخروجوا عليه بالثورة ( ) .

٣- يجب طاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة، والمنع من الخروج عليه ولو جار في حكمه ( ) .

٤- اعترض محمد ابن الحنفية علي قادة ثورة أهل المدينة في الاتهامات التي وجهوها ليزيد، ومن ثَمَّ خرجوا عليه وخلعوه، بل وبيَّن لهم فضائله وأنه برئ مما يقولون ( ) .

٥- يزيد بن معاوية يتحمل جزءًا كبيرًا من تبعة انتهاك حرمة المدينة المنورة ( ) .

الإجابة: ١- (√) ٢- (×) ٣- (√) ٤- (√) ٥- (√) .

● س١١- أكمل ما يأتي:

١- لم يكتف عبد الله بن عمر بتحذير قادة ..... من الخروج على الخليفة الشرعي ..... وتمزيق كلمة الأمة، وإنما جاهد في .....، وحثَّ الناسَ على عدم الاشتراك فيها، ومَنَعَ أهله وولَدَه من ذلك.

٢- اعترض بعض علماء المدينة على خلع يزيد والخروج عليه بالثورة، ولم يؤيدوا من قام بذلك، واعتزلوا هذه الفتنة. وكان أغلب من يُمثل هذا الرأى جماعة من أكابر الصحابة وفقهاء التابعين، مثل: ..... و ..... من الصحابة ومثل: ..... و ..... من التابعين.

الإجابة:

١- ثورة أهل المدينة- يزيد بن معاوية- منعها.

٢- عبد الله بن عمر، ومحمد ابن الحنفية، - على بن الحسين بن على ابن أبى طالب (زين العابدين)، وسعيد بن المسيب.

● س١٢- ما الأسباب التي أدت إلى فشل حركة عبد الله بن الزبير وسقوط دولته؟ وما موقف الصحابة في عصره من دعوته؟

الإجابة:

عندما أعلن عبد الله بن الزبير دولته وبايعه الناس في رجب سنة ٦٤هـ كانت كل عوامل النجاح متوفرة له. فبيعته جاءت في وقت لم يكن للمسلمين فيه خليفة، فهو – والحالة هذه – خليفة شرعي، وليس خارجًا على خليفة، وكانت هذه دعامةً قوية. ثم بايعتْه معظم أقطار الأمة الإسلامية، عدا إقليم الأردن. وعلى الرغم من ذلك فإن "عبد الله بن الزبير" أخفق في الحفاظ على دولته لأسباب كثيرة، ومن أهمها:

١- بقاؤه في "مكة": وهي على قداستها لم تكن تصلح عاصمة سياسية لدولة امتدت حدودها، فكان عليه أن ينتقل إلى قطر غنى يتوسط الدولة

كالعراق أو الشام، ولو فعل ذلك لكان أفضل له ولَشدَّ من عزيمة أنصاره، لأن كفته كانت ترجح كفة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك عند كثير من الناس، حتى في الشام نفسها، فقد بايعه معظم أهلها.

٢- امتناع " بنى هاشم" عن بيعته: فقد رفض أن يبايعه زعماؤهم، مثل "عبد الله بن عباس" و "محمد بن على بن أبي طالب"، وكان قاسيًا معهم، فلم يعاملهم بما يليق بهم من التقدير والاحترام، مثلما كان يفعل معهم "بنو أمية"، بل تهددهم وسجنهم فلم يرضخوا له، وبايعوا "عبد الملك بن مروان"، كما امتنع عن بيعته "ابن عمر"، فأضعف ذلك كله موقفه .

٣- عدم إخلاص أهل العراق له: فقد تخلى معظمهم عن أخيه مصعب عندما التقت جيوشه بجيوش عبد الملك بن مروان، وانضموا إليها.

٤- إسراف أخيه مصعب في سفك الدماء: حتى لَيُروَى أنه قتل ستة آلاف من أهل الكوفة دفعة واحدة، بعد مقتل " المختار بن عبيد الله الثقفي" سنة (٦٧هـ)؛ مما أوغر صدور قبائلهم على "آل الزبير"، فليس ببعيد أن يكون موقفهم في معركته الفاصلة مع عبد الملك انتقامًا منه لما صنع بأهلهم.

أما عن موقف كبار الصحابة والتابعين من البيعة لابن الزبير فقد كان عبد الله بن عباس، ومحمد بن على بن أبي طالب (المعروف بابن الحنفية) مقيمين بمكة منذ قُتل الحسين، فدعاهما ابن الزبير إلى البيعة فامتنعا، وقالا: "لا نبايع حتى يجتمع الناس على خليفة"، وتبعهما جماعة على ذلك، فشدَّد عليهما ابن الزبير، ثم خرجا إلى الطائف فأقاما بها، حتى مات ابن عباس (سنة ٦٨هـ) قبل أن يغلب عبد الملك على العراق والحجاز، وتجتمع عليه الأمة، وأوصى ابنه علي ابن عبد الله بن العباس أن يأتي الشام وينتحي عن سلطان ابن الزبير إلى سلك عبد الملك بن مروان.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يتوقف في بيعة ابن الزبير بعد موت يزيد ابن معاوية، وكان يكُفُّه عن مخالفة الأمة وإثارة الفرقة، وأخذ يخذَل الناس عن

الانضمام إليه والقتال معه، ويدعوهم إلى الطاعة والابتعاد عن الفتنة. يروي الواقدي عن ابن عمر أنه كان يقول: " **لا أقاتل في الفتنة، وأصلي وراء من غلب**". وروي الواقدي أيضًا : " أن ابن عمر كان في زمان الفتنة لا يأتي أمير إلا صلى خلفه، وأدى إليه زكاة ماله ". وأخرج البخاري بإسناده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: " أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد ضيعوا وأنت ابن عمر، وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرم دم أخي. فقالا: ألم يقل الله ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ {البقرة : ١٩٣}؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدينُ لغير الله". وقد ساق الذهبي رواية الزهري: أخبرني حمزة بن عبد الله بن عمر قال: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ ﴾ {الحجرات :٩} فقلت لأبي : من هُمْ ؟ قال: ابنُ الزبير بغى على أهل الشام". وفي لفظ : " بغى على هؤلاء، ونكث عهدهم " .

وروى الإمام مسلم – بإسناده – عن أبي نوفل قال : رأيتُ عبدَ الله بن الزبير على ثنية الحَجُون مصلوبًا، فجعلتْ قريشُ تمر عليه والناسُ، حتى مر عليه عبدُ الله بن عمر فوقف عليه فقال : " **السلام عليك أبا خُبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما واللهِ لقد كنتُ أنهاك عن هذا، أما واللهِ لقد كنتُ أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنتُ أنهاك عن هذا، أما والله إن كنتَ – ما علمتُ – صوَّامًا قَوَّامًا وصولاً للرحم، أمَا والله لأُمَّةُ أنت شرُّها لأُمَّةُ خير**".

ولمَّا بسط عبد الملك بن مروان سلطانه على جميع الأمصار واتفقت عليه الأمة بايع له ابن عمر وكتب إليه : " بلغني أن المسلمين اجتمعوا على البيعة لك وقد دخلتُ فيما دخل فيه المسلمون" .

● س١٣- أكمل ما يأتى:

١- كان ..... هو الذي يُصلي بالناس، ويدبر شئون الدولة فى عهد معاوية الثاني الذى كان ..... في المدة القصيرة التي تولى فيها الخلافة.

٢- كان ..... في عهد عثمان ﷺ كاتبًا لـه ووزيرًا، وكـان عثمـانُ يُعظّمـه ويُكرمه، ولما ..... في داره، وأراد الخـارجون عليـه قَتْلـه كـان مـروان ..... عنه، ويُقاتل قتالًا شديدًا.

٣- خاض ..... ضد أنصار ابن الزبير معركة كبيرةً في .....، شرقي دمشق في نهاية سنة (٦٤هـ)، كـان النصـر فيهـا حليفَ مـروان، وبدايـةَ الطريـق لاستعادة ..... لدولتهم .

٤- بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان رفض أن يبايع عبد الله بن الزبير لـ ..... وانتقل إلى .....، وسمَّى نفسه ..... بالبيت.

٥- بعد أن تولى مروان بن الحكم الخلافة (سنة ٦٤هـ)، بدأ عهده بالقضاء على أنصار ..... في الشام في معركة .....الشهيرة .

٦- لمَّا بسط ..... سلطانه على جميع الأمصاروقضي علي الزبيريين، واتفقت عليه الأمة بايع له .....

الإجابة:

١- الضحاك بن قيس - مريضا .

٢- مروان بن الحكم – حوُصر – يدافع .

٣- مروان بن الحكم- مرج راهط – الأمويين .

٤- يزيدَ بن معاوية**-** مكة المكرمة**-** العائذ **.**

٥- عبد الله بن الزبير**-** مرج راهط **.**

٦- عبد الملك بن مروان**-** عبد الله بن عمر .

● س١٤- لماذا خرج عبد الرحمن بن الأشعث بالثورة على السلطة الأموية؟ ومتي ؟ وما النتائج التي أسفرت عنها ثورته ؟ وما موقف علماء عصره منها ؟ وما تقييمك لها ؟

الإجابة:

أسباب ثورة ابن الأشعث: تولى الحجاج بن يوسف الثقفي علي العراق سنة ٧٥هـ، وظل واليًا عليها إلى أن توفي سنة ٩٥هـ ، وكانت سياسته التي انتهجها في حكمه للعراق تقوم على الحزم والقوة والبطش، بل واستعمال السيف، بسبب ما كان منهم من شَقِّ عصا الطاعة على بني أمية. وقد قال في خطبته التي ألقاها عندما تولى إمرة العراق: " والله لتستقيمُنَّ على سُبل الحق أو لأَدَعنَّ لكل رجل منكم شُغُلاً في جسده "، وأخذ الناس بالحزم وحذّر من التجمّع والتجمهر وإذاعة الشائعات، ومضى يصدر أوامره الصارمة ولا يعفو من يخالفها، فهَابُه الناس، وهدأت الفتن.

كان الحجَّاج في سياسته أن ينال بالعقوبة كل من يحاول المخالفة أو العبث بالأمن، خاصة من الشخصيات الكبيرة، وكان يهدف في سياسته هذه إلى القضاء على الفتن والثورات التي جُوبه بها. وقد ولَّدت هذه السياسة القاسية لأهل البصرة والكوفة ثورة من أقوى الثورات وأعنفها ضد الحجاج خاصة، وضد بني أمية عامة، وهي ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي (٨١ -٨٣ هـ) .

هذه هي الأسباب الحقيقية للثورة. أما **السبب المباشر** لقيامها فهو أن الحجاج أرسلَ عبد الرحمن بن الأشعث في عشرين ألفًا من أهل الكوفة إلي "سجِستان" لحرب "رُتبيل" ملك الترك ، وكان هذا الجيش يُدعي جيش "الطواويس" لكثرة ما فيه من الشباب. ونجح ابن الأشعث في جولته الأولى، وفتح كثيرًا من البلاد والقرى من أرض العدو، ورفض أن يتفاوض أو يتهاون مع "رُتْبيل"، ثم توقف عن التوغل في أرض العدو، واكتفى بما ناله من أراضٍ وغنائم، ورأى أن الخير ألا يتعمق في

تلك البلاد مرة واحدة، بل مرحلة مرحلة، وعامًا بعد عام، حتى يتسنى لجنوده أن يألفوا هذه البلاد ويتعرفوا على طرقها، وكتب عبد الرحمن بذلك إلى الحجاج، فرد عليه الحجَّاج مُسفِّهًا رأيه، وعدَّ ذلك تسويفًا وضعفًا وجبنًا، وكتب إليه يلومه ويعنفه ويأمره بالإسراع في الفتح. ورغم أن ابن الأشعث لم يكن ينوى المخالفة أو العصيان فقد ساءه ذلك، فعرض الأمر على جنوده وذوى الرأى والحرب فيهم واستشارهم، وذلك "بعد أن تأكد لديه أنهم يبغضون الحجاج بقدر ما يبغضون التوغل في تلك البلاد الموحشة"، وزاد من هذه الحالة ورود كتاب من الحجاج يأمر فيه المسلمين أن يقيموا في الأرض ويزرعوها، فإنها دراهم حتى يفتحها الله عليهم، ومن ثم أتيحت الفرصة لأهل البصرة والكوفة للثورة على الحجاج وخلعه، فأظهروا رغبتهم في مبايعة ابن الأشعث، على أن يعود بهم إلى أوطانهم لقتال الحجاج.

أحداث الثورة ومراحلها: استطاع ابن الأشعث أن يدخل البصرة بجيشه (سنة ٨١هـ) " فبايعه جميع قرائها وكُهُولها على حرب الحجاج وخلع عبد الملك ابن مروان"، ولكن الحجاج نجح بجنود أهل الشام أن يرد الثوار عن البصرة، فخرج ابن الأشعث يريد الكوفة لأن بها من عشائره ومواليه أنصارًا كثيرة. فلما دخل الكوفة استقبله أهلها استقبالاً حاسمًا، "ومالوا إليه كلُّهم، ولم يبق من وجوه أهل الكوفة وقُرَّائهم أحد له نباهة إلا خرج مع ابن الأشعث". ووقف الكوفيون معه إلى النهاية، فلم يتخلَّفوا حين بعثهم لملاقاة الحجاج الذي أقبل بجيشه من البصرة، فاستطاعوا أن يمنعوه من النزول في القادسية، ثم قاموا بدور كبير في تلك السلسلة الضخمة من المعارك التي دارت في "دير الجماجم" والتي يقال: إنها بلغت نحو أربع وثمانين وقعة في مائة يوم، كانت كلها لصالح ابن الأشعث، والأخيرة عليه.

وكان أبرز هؤلاء الذين قاتلوا بإخلاص شديد وحماس بالغ : القراء والعُباد والفقهاء، وكان لذلك أثره البالغ في ثورة ابن الأشعث. وقد كانوا في كتيبة مستقلة تُدعي "كتيبة القراء"، وعددهم خمسمائة كلُّهم يرون القتال، ومنهم من

كبار علماء الكوفة: سعيد بن جبير وعامر الشعبي، وعبد الرحمن ابن أبي ليلى وأبو البّختري الطائي، وأبو الجوزاء الربعي. وكان ابن الأشعث حريصًا على أن يكون هؤلاء العلماء والعُباد في جيشه. وقد خرج هؤلاء يُقاتلون الأمويين "على جورهم في الحكم وتجبُّرهم في الدين واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة "(كما يقول أحدهم وهو سعيد بن جبير). وكان هذا اجتهادا فقهيا خاصا بهم، يخالف ما استقر عليه مذهب أهل السنة والجماعة، من ترك الخروج علي الأمراء، حتي وإن جاروا وظلموا، لما ينتج عن هذا الخروج من مفاسد عظيمة، وسفك الدماء، ووقوع الفوضي.

النتائج: وبعد قتال طويل في " دير الجماجم" استمر مائة يوم - انتهي بهزيمة ابن الأشعث - سيطر الحجاج على الكوفة، ثم التقى الجمعان عند مكان يُسمى "مَسْكن" بالقرب من الأهواز، واستُؤنف القتال فانتصر جيش الشام، وفرَّ ابن الأشعث في جماعة من أصحابه إلى أرض "سجستان"، ولجأ إلى الملِك "رُتْبيل" فآواه، ثم طلب الحجَّاج من "رُتْبيل" أن يسلمه "ابن الأشعث"، فعزم على تسليمه، فلما أحس ابن الأشعث بنيّه " رتبيل" علي تسليمه ألقي بنفسه من فوق القصر الذي كان يقيم فيه، فمات (سنة ٨٥هـ) – وقيل : بل غدر به " رُتبيل " وأسلمه إلي الحجَّاج فقتله . ثم تتبَّع الحجاج أصحاب ابن الأشعث من القادة والسادات والعلماء الذين ناصروه وأيدوه ، فقَتَلَ منهم من قَتَل، وعفا عن البعض. ومن العلماء الذين شاركوا في ثورة ابن الأشعث: سعيد بن جُبير، قتله الحجَّاج صبرًا (سنه ٩٥هـ) بعد أن ظل عشر سنين مختفيًا. ومنهم الإمام عامر الشعبي، اعتذر للحجاج فعفا عنه .

وقد امتنع عدد من العلماء من الانضمام لثورة ابن الأشعث، ويأتي الإمام الحسن البصري في مقدمة هؤلاء، فإنه نصح الفقهاء الذين شاركوا في هذه الثورة بالكف عن ذلك، ولزوم جماعة المسلمين، وحكم عليهم بأنهم أهل فتنة، ولمَّا سأله الناس عن رأيه في الانضمام لابن الأشعث ومناصرته قال لهم :

" إني أرى أنها فتنة، فرحم الله عبدًا اتقى ربه، ونظر ليوم معاده". ولما كثر تّذَمَّر أهل العراق من الحجَّاج وأرادوا الوثوبَ به والثورة عليه بالسيف أشار عليهم الحسن البصري أن يُوطّنوا أنفسهم على احتمال الشدة وأن يركنوا إلى الهدوء، ويبتهلوا إلى الله ، وكان يقول عن الحجَّاج: " إنما هو نقمة، فلا نقاتل نقمة الله بالسيف، وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع" .

ونردد هنا ما قاله الحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية): **" والعجيب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة (يعني : الخلافة) وليس (هو) من قريش، وإنما هو كِنْدي من اليمن. وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة (أي بعد موت رسول الله ﷺ) على أن الإمارة في قريش، واحتج عليهم أبو بكر الصدِّيق بالحديث في ذلك، حتى إن الأنصار سألوا أن يكون منهم أمير مع أمير المهاجرين، فأبي أبو بكر عليهم ذلك، ثم مع هذا كله ضُرب سعد بن عبادة الذي دعا إلى ذلك أولاً ثم رجع عن ذلك، فكيف يعمِدون إلى خليفة قد بُويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه (يعني عبد الملك)، وهو من صُلْبية قريش، ويبايعون لرجل كِندي بيعةً لم يتفق عليها أهلُ الحلّ والعقد ؟ ولهذا لما كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شرٌّ كبير، هلك فيه خلقٌ كثير، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون"** .

● س١٥- أكمل ما يأتى:

١- تولى الحجاج بن يوسف الثقفي علي (العراق- الأردن- اليمن) سنة ٧٥هـ، وظلَّ واليًا عليها إلى أن توفي سنة ٩٥هـ .

٣- امتنع عدد من العلماء من الانضمام لثورة ابن الأشعث، ويأتي الإمام (الحسن البصري- سعيد بن جبير - عامر الشعبي) في مقدمة هؤلاء.

٣- ينتمي عبد الرحمن بن الاشعث إلي قبيلة (قريش- كندة – ثقيف).

٤- استمرت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث في العراق فترة ثلاث سنوات تبدأ من سنة (٨١ – ٨٢ – ٨٥هـ) وانتهت بهزيمتة ومقتله سنة (٨١ – ٨٣ – ٨٥هـ).

الإجابة:

١- العراق. ٢- الحسن البصري . ٣- كندة . ٤- (٨١ – ٨٣ هـ).

الوحدة الرابعة

الفتوحات الإسلامية

● س١- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١- أسس معاويةُ في عهد الخليفة عثمان بن عفان أول أسطول بحري إسلامي، وفتح به جزيرة قُبرص سنة ٢٨هـ ( ) .

٢- عقبة بن نافع الفهري هو الذي أسس مدينة القيروان وقد استشهد في طريق عودته منها وضاعت جهوده ( ) .

الإجابة: ١ - (√) ٢- (√).

● س٢- أكمل ما يأتى:

١- شملت حركة الجهاد والفتوحات فى العصر ..... ثلاث جبهات رئيسية ، وهى : الجبهة ..... فى آسيا الصغرى ومدينة القسطنطينية،والجبهة ..... وتضم " بلاد ما وراء النهر" وبلاد السند وشمال الهند،والجبهة .....، وتضم الشمال الأفريقى إلى ساحل المحيط الأطلنطى ، بالإضافة إلى ..... وجنوب فرنسا.

٢- خاض المسلمون فى أواخر عصر الراشدين موقعةً بحرية هامة ضد .....، وكان من نتائجها سيطرة المسلمين على مياه حوض البحر ..... الشرقى، وهذه الموقعة هى ..... سنة (٣٤هـ/٦٥٤م) وكان قائدها هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح" ودار بين الفريقين قتال مرير فوق أظهر السفن، وانتهى بانتصار حاسم للمسلمين.

٣- فى خلافة عثمان ﷺ رفع إليه ..... طلبَه القديم بإنشاء أسطول .....، فرفض عثمانُ فى أول الأمر، لكنه عاد فوافق بعدما اقتنع بأهمية المشروع فى ذلك ، لكنه اشترط أن يكون الجهادُ البحرى .....، ولا يُكْرَه عليه أحدٌ .

٤- أدرك المسلمون أنه لا استقرار لفتوحاتهم إلا بإدخال مدينة ..... فى قائمة الفتوحات، كما تمَّ لهم من قبل الاستيلاءُ على .....عاصمة دولة الفرس

٥- تنبأ النبى ﷺ بغزو .....، ووعد أهلَها المغفرة، فقال ﷺ – فيما رواه البخارى عن أم حَرام بنت ملحان : "..... جيشٍ من أمتى يركبون ..... قد أوجبوا ، وأول جيش من أمتى يغزون مدينة ..... مغفورٌ لهم" .

الإجابة:

١- الأموى- البيزنطية - الشرقية- الغربية - أسبانيا.

٢- البيزنطيين- المتوسط - ذاتُ الصوارى .

٣- معاويةُ- بحرى- تطوعًا.

٤- القسطنطينية - المدائن ٥- الروم- أولُ- البحر- قيصر

● س٣- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١-نجحت الدولة الإسلامية في عهد معاوية في فتح معظم "خراسان" على يد أميرها عُبيد الله بن زياد ( ).

٢-بلاد ما وراء النهر تضم – في العصر الحديث - ست جمهوريات إسلامية كانت خاضعة للاتحاد السوفيتي، ثم منَّ الله عليهم فاستقلوا بعد انهياره ( ) .

٣-المرحلة الحاسمة في فتح بلاد ما وراء النهر والاستقرار بدأت مع تسلُّم " قتيبة بن مسلم الباهلي" قيادة الجيوش وولاية خراسان( ) .

٤-البلاد التى كان يفتحها المسلمون جاءوا إليها للاستيلاء على خيراتها بالسيف ( ).

الإجابة: ١- (√) ٢- (×) ٣- (√) ٤- (×).

● س٤- أكمل ما يأتي:

١- كان العرب يطلقون على السند من الأسماء: .....، لأنه كان في ذلك الوقت المعبر إلى بلاد الهند .

٢- طالت مدة الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي بلغت ..... سنة تقريبا، ويرجع ذلك إلى أن الدولة ..... كانت شديدة التمسك بهذه البلاد، وأدركت أن سياسة ..... العربي الإسلامي كانت تهدف في أساسها إلى غزوهم من ناحية .....

٣- توقفت الفتوحاتُ في جبهة السند بمجرد مغادرة ..... البلاد، وانكمش المسلمون في المناطق التي تم فتحها من قبل، وتركت الأوضاع السياسية السيئة التي وقعت في عاصمة الخلافة ..... بعد سنة ١٢٥هـ تأثيرها على الاستقرار والأمن في شبه القارة .....

٤- كان بناء المدن الإسلامية في الأمصار المفتوحة مثل..... والكوفة في العراق، والفسطاط في ..... قد لعب دوره الحاسم في تثبيت أقدام ..... في هذه المناطق، ونشر ..... والعروبة.

الإجابة:

١- ثغر الهند . ٢- سبعين – البيزنطية – التوسع - الغرب

٣- محمد بن القاسم - دمشق - الهندية.

٤- البصرة – مصر – المسلمين – الإسلام .

● س٥- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١- انتصر المسلمون في معركة سُبيطلة انتصارًا حاسمًا وبسهولة، وقتلوا من الروم أعدادًا كبيرة، منهم ملكهم "جريجريوس ( ).

٢- اندمج في حملة عبد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح وفَتْح تونس نفر قليل من مشاهير الصحابة وأولادهم، وسمى هذا الجيش "جيش العبادلة ( ).

٣- لما تولى عثمانُ بن عفان ﷺ عزل عبد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح عن إمارة مصر، وأسندها إلى عَمْرو بن العاص ( ).

٤- لما أرسل عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب يستئذنه فى فتح إقريقية وافق مباشرة ( ).

الإجابة: ١- (√) ٢- (√) ٣- (×) ٤- (×).

● س٦- أكمل ما يأتي:

١- كانت الفتوحات الإسلامية في المنطقة ..... في عهد الدولة الأموية تسير في خطين: شمالي إلى بلاد.....، وجنوبي إلى بلاد ..... والهند.

٢- أطلق المسلمون اسم بلاد ما وراء النهر على البلاد التي يفصلها نهر..... عن "خراسان" وهي التي تقع وراءه من جهة ..... والشمال.وتعرف الآن باسم آسيا ..... الإسلامية.

٣- تهيَّأ ..... لفتح الصين لولا وفاة كل من ..... والخليفة الوليد بن عبد الملك التى جعلته يتوقف عند هذا الحد، لكنه أجبر ملك الصين على دفع .....

٤- اكتفي عبد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح بالغنائم الوفيرة من معركة .....، بدلًا من أن يسير إلى ..... القاعدة الكبرى للروم ويستولي عليها.

الإجابة:

١- الشرقية - ما وراء النهر – السند

٢- جيحون – الشرق- الوسطى

٣- قتيبة بن مسلم الباهلي - الحجاج بن يوسف الثقفي - الجزية

٤- سبيطلة – قرطاجنة.

● س٧- أكمل ما يأتى:

١- استطاع أبو المهاجر أن يغزو مواقع ..... في جبال الأوراس، وأن يكتسب رئيسها ..... إلى الإسلام، فأسلم، وتبعه نفر كبير من قومه .

٢- حملة معاوية بن حُديج ومن قبلها حملة .....في عهد الراشدين تعتبر من الحملات ..... الاستكشافية التي أتاحت للمسلمين التعرف على بلاد .....

٣- تأكد لعُقْبَة بن نافع أن فتح إفريقيَّة وبقية المغرب لا يثبت إلا بأمرين،الأول: إنشاء ..... للمسلمين تعسكر فيه جيوشهم بدلًا من العودة في كل مرة إلى ..... مصر. والثاني: غَزْوُ ..... أنفسهم .

٤- عقبة بن نافع أحسن اختيار موقع مدينة .....، إذْ راعى أن تكون في موقع متوسط بين ..... و..... وأن تكون في موقع يتمتَّع بوفرة ..... والأرض الصالحة للزراعة.

الإجابة:

١- أَوْربة - كَسيلة

٢- عبد الله بن أبي سرح – الاستطلاعية - إفريقيَّة

٣- مركز – فسطاط - البربر

٤- القيروان - الساحل والجبل- المياه والمرعى.

● س٨- اختر الإجابة الصحيحة:

١- اتجه عُقْبَة في حملته الثانية نحو مدينة (باغاية – تَاهَرْت - وَليلى) عند أقدام جبل الأوْراس، ولقي جمعًا كبيرًا من الروم، فهزمهم.

٢- وصل إلى (باغاية – تَاهَرْت - طنجة) ووجد نفسه أمام تحالفٍ كبير من الروم والبربر لم يعهد المسلمون له مثيلًا من قبل، فالتقى بهم في معركة حامية، فأباد فرسانهم وفرَّق جمعهم، وقطع آثارهم .

٣- استمر في طريقه غيرَ عابئٍ بالمقاومة مهما اشتدَّت، حتى وصل إلى (بلاد الزاب- ولاية طنجة- مدينة وَليلى) في شمال المغرب الأقصى.

٤- استمرَّ عقبة في تحركاته وتقدُّمه حتى انتهى بجيوشه إلى ساحل المحيط الأطلنطي عند المدينة التي تعرف حاليًا باسم (باغاية – تَاهَرْت - أغادير) وتقع على مصب نهر السُّوس الذي يصب في المحيط .

الإجابة:

١- باغاية ٢- تَاهَرْت ٣- ولاية طنجة ٤- أغادير.

● س٩- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١- أنفق عُقْبَة في تخطيط مدينة القيروان وبنائها ست سنوات كاملة ( ).

٢- أبا المهاجر لم يكن من خيرة الولاة بل كان أقل كفاءة من عُقْبَة بن نافع ( ).

٣- استطاعت الخلافة الأموية أن تهتم بأمور إفريقيَّة بعد مقتل عُقْبَة بن نافع واحتلال " كَسِيلة " البربري للقيروان سريعا ( ).

٤- مدينة القيروان أفادت من الناحية العسكرية ومن ناحية العمل على نشر الإسلام والعروبة في المغرب ( ).

٥- أحد الأسباب الرئيسية لعودة زهير بن قيس للمشرق أنه كان من كبراء الزاهدين والعابدين، فخشى الدنيا ( ).

الإجابة: ١- (×) ٢- (×) ٣- (×) ٤- (√) ٥- (√) .

● س١٠- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١- بدأ حسَّان بن النعمان في بناء مدينة القيروان (سنة ٨٤هـ/٧٠٣م) ، وأسس فيها دارًا لصناعة السفن( )

٢- بعد هزيمة القرطاجنيين تصدى حسأَن بن النعمان لتحالف بيزنطى بربري جديد ( ).

٣- اتبع حسان خطة عسكرية جديدة، أساسُها مقابلةُ أعدائه من الروم والبربر، كلٌّ على حِدَة ( ).

٤- قام حسَّان بن النعمان ببعض الأعمال الإنشائية والإدارية المهمة ، كان لها الأثر الطيب في تثبيت الإسلام في بلاد المغرب ( ).

الإجابة: ١- (×) ٢- (√) ٣- (√) ٤- (√)

● س١١- أكمل ما يأتى:

١- سيطر موسى بن نصير على المغرب ..... بعد أن استطاع أن يقضى على قوة التجمعات البربرية من قبائل ..... وهُوَّارة و..... بقيادة رجل يدعى .....

٢- ترك موسى بن نُصير في إقليم ..... حامية عسكرية للرباط تتكون من (١٧٠٠) جندى من العرب، واثنى عشر ألفًا من ..... المسلمين، واختار ..... قائدًا عليهم وهو من البربر.

٣- لم يكتف موسى بن نصير بالنواحى .....، وإنما بدأ بمهمة أخرى لا تقل أهمية عن جهاده الحربى ، وهى تثبيتُ .....، وتعليمُ .....

٤- الفتح الإسلامى لبلاد ..... قد أحدث فيها تغييرًا دينيًا وسياسيًا و..... وتطور المجتمع .....، وتغيَّرت عاداته وتقاليده بعد الفتح الإسلامى واحتكاك البربر بالفاتحين العرب المسلمين

الإجابة :

١- الأوسط – زناتة- كُتّامة- كامون.

٢- طنجة – البربر- طارق بن زياد.

٣- العسكرية – الإسلام - اللغة العربية.

٤- المغرب – اجتماعيًا – البربرى .

● س١٢- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١- من أسباب خسارة المسلمين في معركة "بلاط الشهداء" اتحاد إمارات "غالة" جميعها لمواجهة جيوش الإسلام ( ).

٢- حملة عَنْبَسة بن سُحَيم الكلبي لم تثر أى مخاوف، لأوربا لأنها تم مقاومتها بسهولة ( ).

٣- يعد السمح بن مالك الخولاني أول من غزا بلاد غالة في عصر الولاة بالأندلس ( ) .

٤- فتح الأندلس كان آخر أعمال المسلمين العسكرية في الجناح الغربي لدولة الإسلام خلال العصر الأموي( ).

٥- تُعدُّ معركة "وادى لكه" معركة فاصلة، توقَّفت عليها مصير إسبانيا في يد المسلمين ( ).

الإجابة: ١- (√) ٢- (×) ٣- (√) ٤- (×) ٥- (√)

● س١٣- أكمل ما يأتى:

١- اهتم حسَّان بن النعمان بعمران مدينة ..... على نحو تتسع معه لجموع العرب والمسلمين التى سكنتها ، حتى أصبحت المدينة جديرة بمركزها كعاصمة للبلاد بدلاً من .....

٢- كانت ..... قبل الفتح الإسلامي تشكو الفشلَ ..... ، والتأخرَ الاقتصادي ، والتفككَ .....، والظلمَ .....

٣- فرض حسَّان بن النعمان الخدمة العسكرية على أهل البلاد من ....، جنبًا إلى جنب مع العرب. وكانت تلك خطوةً موفَّقةً استطاع بها أن يضمنَ .....، وأن يُحببَ إليهم الإسلام .

٤- الفتحَ العربيَّ الإسلامى لبلاد المغرب لم يكن فتحًا عسكريا، وإنما كان – في المقام الأول - فتحًا .....، أثر في الحياة العامة المغربية تأثيرًا كبيرًا ، وحقَّق لها وَحْدَتَها في ....واللغة

٥- كتب موسى بن نصير إلى الخليفة الأموي ..... يخبره بالذي دعاه إليه يُليان من أمر .....، ويستأذن في اقتحامها فطلب منه الخليفة أن يختبرها بإرسال ..... عسكرية استطلاعية، وذلك خوفًا على المسلمين أن يقتحموا بلادًا مجهولة لهم، ولا يعرفونها .

الإجابة:

١- القيروان - قرطاجنة. ٢- إسبانيا- السياسي – الاجتماعي- الطبقى

٣- البربر – ولاءهم

٤- حضاريًا – الدين ٥- الوليد بن عبد الملك – الأندلس – حملات.

● س١٤- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١- لقى المسلمون متاعبَ كبيرةً فى حَمْلاتِهم الأولى التى قاموا بها عبر الجهات الجبلية التى تفصل شمالَ الشام عن آسيا الصغرى ( ).

٢- عُرِفت الغزوات التى كانت تخرج من منطقة الثغور والقلاع لمهاجمة أراضى البيزنطيين باسم "الصوافى والشواتى" ( ) .

٣- اشتبك المسلمون مع الروم فى القتال فى أول محاولة لفتح القسطنطينية واستُشْهِد الصحابىُّ أبو أيوب الأنصارى في تلك المعركة ( ).

٤- حاصر المسلمون القسطنطينية مدة عشر سنوات فى عهد معاوية بن أبي سفيان ( ).

٥- لم تتوقُّف حركة الفتوح لأراضى الدولة البيزنطية بعد وفاة معاوية بن أبى سفيان ( ) .

الإجابة: (×) ٢- (√) ٣- (√) ٤- (×) ٥- (×).

س١٥- تحدث عن المراحل التي مر بها الفتح الإسلامي لبلاد ما وراء النهر، مع العناية بذكر التواريخ .

الإجابة:

"بلاد ما وراء النهر" هي البلاد التي يفصلها نهر "جيحون" عن "خراسان" وهي التي تقع وراءه من جهة الشرق والشمال. وتعرف الآن باسم " آسيا الوسطى" الإسلامية ، وتضم خمس جمهوريات إسلامية كانت خاضعة للاتحاد السوفيتي ، ثم منَّ الله عليهم فاستقلوا بعد انهياره. وهي الآن " أوزبكستان" و "طاجيكستان" و"قازاخستان" و"تركمانستان" و" قرغيزيا "

وتقع "بلاد ما وراء النهر" بين هذين النهرين، "جيحون" و" سيحون" (أو أَموداريا و سرداريا) . ويُطلق على هذه البلاد أحيانًا بلاد " الهياطلة"، وكان

أهلها وثنيين، ومن أصول تركية وتتميز بوفرة المياه، لوجود نهري "جيحون" و"سيحون" وما يتفرع عنهما من روافد، مما ساعد على خصوبة المنطقة، وكثرة الزراعة والعمارة فيها، واجتذاب السكان إليها. وتنقسم بلاد ما وراء النهر قبل الفتح الإسلامي إلى عدة أقاليم أو ممالك مستقلة هي: (إقليم طخارستان. وإقليم الصُّغْد ومن أشهر مدنه : " . وإقليم " خُوارزم". وإقليم " الخُتَّل" في أعالي نهر "جيحون"). وكانت هذه الممالك الأربعة تُسمى بالممالك "الجيحونية") . وإقليم " فرغانة" . وإقليم " الشَّاش" . وكلاهما على نهر سيحون "طَشْقَنْد" .

ولقد غزا المسلمون هذه البلاد عدة مرات منذ عهد عثمان بن عفان ﷺ (٢٣-٣٥هـ)، وغزاها عدد من القادة المسلمين في عهد الدولة الأموية إلى سنة (٨٦هـ)، لكن هذه الغزوات والفتوحات لم تأخذ صفة الفتح الدائم المستقر.

أما المرحلة الحاسمة في الفتح والاستقرار فقد بدأت مع تسلُّم "قتيبة بن مسلم الباهلي" قيادة جيوش الفتح وولاية إقليم "خراسان" وبلاد الشرق (سنة ٨٥هـ)، وظل واليًا عليها إلى سنة (٩٩هـ). وقد كانت الظروف مناسبة له تمامًا، فالدولة الأموية كانت عندئذٍ في أحسن حالاتها استقرارًا وهدوءًا وثراءً عريضًا، فاجتمع لقتيبة مهارةُ القائد، وعَزْمُ الوالِي "الحجاج بن يوسف الثقفي" وتشجيعه، وقوةُ الدولة وهيبتها، فتمت فتوحاتهُ العظيمة في بلاد "ما وراء النهر". ولقد مرت خطواتُ "قتيبة" في فتح تلك البلاد على مدى عشر سنوات (٨٦ ــ ٩٦هـ) عبر مراحل أربع، حقق في كل منها فتح ناحية واسعة فتحًا نهائيًا، وثبت أقدام المسلمين والإسلام فيها. وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولى (٨٦ - ٨٧هـ): وفيها أخضع قتيبة بن مسلم إقليم " طخارستان" الواقع على ضفتي نهر "جيحون". وكانت تلك بداية ناجحة من "قتيبة"؛ فبدون توطيد أقدامه في "طخارستان"لم يكن ممكنًا أن يمضى لفتح "ما وراء النهر" وقد أصبح يتمتع بهيبة كبيرة في تلك البلاد، فما إن يسمع الملوك بمسيره إليهم حتى يسرعوا إلى لقائه وطلب الصلح .

المرحلة الثانية (٨٧ – ٩٠هـ): وفيها فتح " قتيبة " إقليم "بخاري" .

المرحلة الثالثة (٩١ – ٩٣هـ): وفيها أكمل فتح حوض "جيحون" كله وأتم فتح سجستان (٩٢هـ)، وإقليم خوارزم (٩٣هـ). وتَوَّج عمله بالاستيلاء على "سمرقند" أعظم مدن ما وراء النهر.

المرحلة الرابعة (٤٩-٩٦هـ) : وفيها عبر قتيبة " نهر سيحون"، وفتح الممالك السيحونية الثلاث: " الشاش" و" أشروسنة" و" فرغانة"، ثم دخل أرض الصين، وأوغل في مقاطعة "سنكيانج"، ووصل إلى إقليم " كاشَغَر" وجعلها قاعدة إسلامية، وتهيأ لفتح الصين لولا أن وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي (٩٥هـ)، والخليفة الوليد بن عبد الملك (٩٦هـ) جعلته يتوقف عند هذا الحد، لكنه أجبر ملك الصين على دفع الجزية.

الوحدة الخامسة

من مظاهر الحضارة الإسلامية في عصر الخلافة الأموية

● س١- اختر الإجابة الصحيحة:

١- ديوان (الخاتم – الرسائل – العمال) استحدثه معاويةُ لمنع التزوير والتلاعب في مراسلات الدولة، وولَّى عليه عبدَ الله بنَ مِحْضَنٍ الحِمْيَري.

٢- ديوان(الخاتم- الرسائل – العمال) يختص بأمور عديدة وهو أشْبَهَ بديوان رئاسة الدولة والديوان الملكي، وإدارةِ المراسمِ والعلاقاتِ العامةِ في الدول المعاصرة .

٣- ديوان(العمال – الخاتم- الرسائل) يختص بتسجيل أسماء الموظفين المدنيين في الدولة، وترتيب أعمالهم ووظائِفهم، وتحديدِ رواتبهم، وهو بذلك أشبه بديوان الموظفين في النظم المعاصرة .

٤- ديوان (البريد- الرسائل- العمال) يقوم بنَقْلُ الرسائلِ من دار الخلافة وإليها و مراقبةُ أعمالِ الولاةِ وكبارِ الموظفين .

الإجابة: ١- الخاتم ٢- الرسائل ٣- العمال ٤- البريد.

● س٢- أكمل ما يأتى:

١- أصدر .....أوامره بتحويل الدواوين إلى اللغة العربية، فتكونَ هي اللغةَ ..... الوحيدةَ في جميع الدواوين، وفي الدولة كلِّها. وهذه الحركةُ تسمى في كتب التاريخ بحركة: .....

٢- عيَّن ..... صالحَ بنَ عبد الرحمن، وأمره بتحويل ديوان العراق من ..... إلى العربية وكان صالح يجيد اللغتين معًا، وحدَّد له أجلًا لينهي عمله، فأتم مهمته بنجاح. وقد تخرج على يده أكثرُ ..... العراق .

٣- لما صدرت العملةُ ..... وكثُرت أمرالخليفة ..... بمنع التعامل بالنقود الأجنبية الرومية و..... التي كان أكثرُها مغشوشة، وجُمعتْ من الأسواق، وأُعيد سَبْكُها وطَبْعُها على النسبة الجديدة.

٤- تكونت في ..... طبقاتُ من الموظفين المثقفين الذين حَصَلوا على قدرٍ من الثقافة .....، ونَبَغُوا في الكتابة والآداب العربية. ومن أظهر الأمثلة في ذلك: .....الكاتب في عهد ..... ثم كبار الكُتَّاب في عهد بني العباس.

الإجابة:

١- عبد الملك بن مروان – الرسميةَ – تعريب الدواوين

٢- الحجَّاجُ الثقفي – الفارسية – كُتَّاب.

٣- الإسلاميةُ- عبدُ الملك بن مروان- الفارسية.

٤- الدواوين- العربية- عبد الحميد- الامويين .

● س٣- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١- الحضارة يقصد بها:" كلُّ نشاط إنسانيّ في الحياة، سواء أكان هذا النشاط فكريًّا أو ماديًّا ملموسًا" ( ).

٢- الدواوين التي أنشأها الأمويون تقوم بالأعمال والاختصاصات التي تقوم بها الوزاراتُ المختلفةُ في الدول المعاصرة ( ).

٣- معاويةَ بن أبى سفيان هو أول من أنشأ الدواوين في الدولة الإسلامية ( ).

٤- أنشأ معاويةُ ديوانين على درجة كبيرة من الأهمية، هما ديوان البريد وديوان الخاتم ( ).

٥- شهدت النظم الإدارية تطورًا كبيرًا في عهدِ الخليفةِ الأُموي عبدِ الملك ابنَ مروان ( ).

٦- اقتصر جهدُ عبد الملك بن مروان على تعريب الدواوين فحسب ( ).

٧- وَحَّد عبد الملك بن مروان عِيار العملة ووزْنها، وجعل وزن الدرهم العربي خمسة عَشرَ قيراطًا من قراريط الدينار العزيز( ) .

الإجابة:

١-(√) ٢- (√) ٣- (×) ٤- (√) ٥- (√) ٦- (×) ٧- (×) .

● س٤- اختر الإجابة الصحيحة:

١- مدينة (واسط - تونس- القيروان) في العراق هي التي أسسها الحجاج ابن يوسف الثقفي (سنة ٨٣- ٨٤- ٨٥هـ) وتقع بين البصرة والكوفة وبنى وسطها قصرًا فخمًا بجوار المسجد الجامع.

٢- أسس عقبة بن نافع الفهري مدينة (واسط - تونس- القيروان) سنة ٥٠- ٥٥هـ، وتقع في "إفريقية" (الجمهورية التونسية) في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان .

٣- مدينة (واسط - تونس- القيروان) أسسها حسان بن النعمان سنة ٨٤هـ. وهو الذى قام ببعض الأعمال الإنشائية والإدارية المهمة كان لها الأثر البعيد في تثبيت الفتح الإسلامي في بلاد المغرب.

٤- مدينة (الرُّصافة- تونس- القيروان) التي تقع بالقرب من الرَّقّة في العراق، أنشأها الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥- ١٢٥هـ).

٥- مدينة (المحفوظة- الرُّصافة- تونس) في السند: أنشأها الحكم بن عوانة الكلبي، وهو من المجاهدين الفاتحين. وأنشأ عُمر بن محمد بن القاسم الثقفي مدينة المنصورة في السند أيضًا.

الإجابة:

١- واسط - سنة ٨٣هـ ٢- القيروان ٣- تونس ٤- الرُّصافة

٥- المحفوظة.

● س٥- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١- أقام الأمويون العديدَ من المساجد الجديدة، من أشهرها مسجدُ قُبة الصخرة الذي أنشأه عبدُ الملك بن مروان ( ) .

٢- استمر العملُ في إعادة بناء المسجد النبوى نحو ثلاث سنوات، وكان المشرف على ذلك صالح بن كيسان ( ).

٣- المسجد الأموى بدمشق كان أولا موضع كنيسةً يقال لها: كَنيسة يوحنا ( ) .

٤- سنة ٩٦هـ هي السنة التي تكامل فيها بناء الجامع الأموي بدمشق( ).

الإجابة: ١- (√) ٢- (√) ٣- (√) ٤- (×).

● س٦- ضع علامة (√) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (×) أمام العبارة الخاطئة:

١-تشييد المدنِ العربيةِ الإسلاميةِ لم يكن يسير وَفْقَ نظامٍ مدروسٍ وخُطط مُحكمة ( ).

٢-بلغ نظامُ مجاري الماء من الدقة عند الأمويين بحيث أصبح لكل دار في دمشق نافورة خاصة بها ( ).

٣-كان من بين الخلفاء الأمويين الذين أعطوا اهتمامًا كبيرًا للتعمير والبناء: الوليد بن عبد الملك ( ).

٤- ازدهرت حركة بناء المساجد الكبرى في عهد الأمويين ازدهارًا كبيرًا، فوسَّعوا المساجد التي كانت موجودة من قبل ( ).

الإجابة: ١- (×) ٢- (√) ٣- (√) ٤- (√) .

- **س٧ - قام الخليفة عبد الملك بن مروان بإصلاحات إدارية مهمة، كان من أبرزها: تعريب الدواوين، وسكّ العملة الإسلامية الموحدة - اشرح ذلك بإيجاز.**

الإجابة:

أولاً- تعريب الدواوين: لقد شهدت النظم الإدارية تطورًا كبيرًا في عهدِ الخليفةِ الأُموي عبدِ الملك بنَ مروان (٦٥-٨٥هـ)، فقد قام بإصلاحاتٍ مهمةٍ، كان لها أفضل النتائج، من حيث صيانة أحد المقومات الكبرى للأمة، وحفْظُ كِيانها، وهو خاصٌّ باللغة، واللغةُ – بلا جدال – من أكبر مُقَوِّماتِ وأهمِّ أركان الأمة العربية والإسلامية .

وقد بقيت أهمُّ الدواوين في الدولة الإسلامية (وهي دواوينُ الخَراج التي تشرف على الشئون المالية، وكانت موجودة في عواصم الدولة العربية الإسلامية ولها فروعها في مدن كثيرة) بقيت تستعمل اللغاتِ الأجنبيةَ كما كان حالُها في عهود الدول السابقة قبل ظهور الإسلام، فكانت لغةُ الدواوين في العراق هي اللغةَ الفارسية، ولغتُها في الشام الرومية، أي اليونانية، وفي مصر اليونانية والقبطية. وقد استمر الحالُ على ذلك منذ بَدْء الإسلام حتى عهد عبد الملك بن مروان، فكان من نتائج ذلك احتفاظُ الدولة بطوائفَ من الموظفين الذين يُعتبرون أجانب، أي من غير العرب والمسلمين. ومن نتائجه بقاءُ تلك اللغاتِ الأجنبيةِ حيَّةً، وكأنها مُعْتَرفُ بها لغاتٍ رسمية، ويُقبِل الناسُ على تعُّلمها وإتقانِها لحاجةِ الدولة إليها، وكونِها طريقًا لتولّي الوظائفِ العالية، ولو استمر الحال كذلك لبقيتْ هذه اللغاتُ منافسةً للغة العربية، ولمَا أمكَن للغة العربية أن تتغلبَ عليها، بل لأدى ذلك إلى انتشار هذه اللغات الأجنبية، وكان هذا يُضْعِفُ من شأن اللغة العربية وخطرًا يهددها، وبالتالي كان يُضْعِفُ من تكوين الدولة الإسلامية .

أدرك عبدُ الملك تعارضِ هذا الوضع مع شخصية الدولة العربية الإسلامية، التي كان يرأسها ويرعاها، وكان حريصًا على أن تبلغ الإدارةُ في الدولة درجةً عالية من الكفاءة والدقة، ووجد من الناحية العملية أن هذا لا يمكن أن يتمَّ مادامَ هؤلاءِ الموظفون غريبين عن الدولة، وما دامت اللغاتُ التي يستعملونها في الأعمال والمكاتبات الرسمية هي لغات أجنبية، فقرر عبدُ الملك إزالةَ هذا الوضع الشاذ، وأصدر أوامره بتحويل الدواوين إلى اللغة العربية، فتكونَ هي اللغةَ الرسميةَ الوحيدةَ في جميع الدواوين، وفي الدولة كلِّها. وهذه الحركةُ تسمى في كتب التاريخ بحركة " تعريب الدواوين"، وكان لها نتائجُ عظيمةٌ بعيدةُ المدى.

وكان تعريب الدواوين سبيلاً إلى تعريب الجاليات والأقاليم، فكان هذا من أكبر العوامل في انتشارِ اللغةِ العربية. ولما كانت هي اللغةَ التي تؤدي إلى الوظائف والمناصب العالية فقد أصبحت لها المكانةُ الممتازة، وأقبل الموالي وغيرُهم على تعلُّمِها وإتقانِها، فتكونت في الدواوين طبقاتٌ من الموظفين المثقفين الذين حَصَلوا على قدرٍ من الثقافة العربية، ونَبَغُوا في الكتابة والآداب العربية. ومن أظهر الأمثلة في ذلك : عبد الحميدُ الكاتب في عهد بني أمية، ثم كبار الكُتَّاب في عهد بني العباس.

ولم يقتصر جهدُ عبد الملك بن مروان على تعريب هذه الدواوين فحسب، بل أراد أيضًا أن يُتِمَّ تعديلَ هذه الدواوين، لتناسبَ تطورَ الدولةِ الإسلامية، "ذلك أن الدفاتر والسجلات التي تكتب فيها مقادير الجزية كانت تحدد أهل الذمة في الأماكن القديمة التي كانوا يسكنونها في الماضي، وقد غير قسم منهم مكان إقامته، فاضطرب الديوان، فينبغي أن تُغيَّر أماكنُهم في السجلات، وهكذا أحدث عبد الملك ما سُمّي بالتعديل، أي أنه أمر أن يُسجَّلَ أهلُ الذمة بأسمائهم وأولادهم وما يملكون في مكان ولادتهم، وكانت نتيجةَ ذلك أن جُدِّد السجلُّ تجديدًا يلائم العصر من الناحية اللغوية ومن الناحية الفعلية الواقعية معًا، وكأنَّ سِجلَّ الجزيةِ أصبح في الوقت نفسه سِجِلَّ الأحوالِ المدنيةِ لأهل الذمة.

ثانيا- سك العملة الإسلامية (إصدار الدينار الإسلامي):

تُعَرَّف (السَّكّة) بأنها:" آلة من حديد تُطبع عليها الدارهم". ولذلك سُميت الدراهم المضروبة "سكَّة ". ولفظ "السَّكَّة" كان اسمًا للطابع، وهي الحديدة المتخذة لذلك، ثم نُقل إلى أثرها، وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم، ثم أُطلق هذا اللفظ على وظيفة القيام بعملية سكّ العملة، والنظر في استيفاء حاجاتها وشروطها، فصار هذا اللفظ اسمًا للوظيفة في عرف الدول.

وقد تجمعت أسبابٌ وعواملُ عديدة تشير كلُّها إلى وجوب حدوثِ تطورٍ كبيرٍ في نظامِ العُملةِ المتعارفِ عليه في العالم الإسلامي، بعد أن اتسعت رقعتُه ذلك الاتساعَ الكبيرِ، واستقرت أحوالهُ الداخليةُ بعد مُضِيّ فترةٍ من خلافة عبد الملك بن مروان.

وأهم هذه الأسباب:

١- أن العالَمَ الإسلاميَّ كان يتعامل حتى ذلك الوقت بالعُملة المالية الفارسية والرومية، من دراهمَ ودنانير. وهذه العُمْلاتُ الماليةُ قد تناقصت كِمياتُها المتداوَلُة بشكلٍ يثير القلقَ بعد انهيار الإمبراطورية الفارسيةِ واضطرابِ الأحوالِ في إمبراطورية الروم، فلم يَعُدْ حَجْمُ هذه العُمْلاتِ المتوافرِ يكفي لتغطيةِ النشاط التجاري والاقتصادي والحاجةِ الماليةِ للدولة الإسلامية الواسعةِ والنشيطة، وكان الغِشُّ والتزييفُ قد انتشر في الدراهم منذ أواخرِ عهدِ الدولة الفارسية، وكذلك كان حالُ الدنانيرِ الرومانيةِ إثْرَ اضطرابِ أمور الدولة منذ زمنٍ بعيد، وفسادِ ذمِمِ بعض المتعاملين بها من العرب أنفسِهم، وممن دخل في دولتهم، فأدى ذلك إلى أضرار وخيمة، منها :

أ- هبوطُ قيمةِ العملةَ وارتفاعُ أسعار الحاجيات، وزوالُ الثقة المالية.

ب- الغَبْنُ الذي يقع على الدولة في استيفاء حقوقها من الموارد، فيؤدي ذلك إلى نقص كمية الخَراج .

٢- كما أن الاختلاف في الأنظمة المالية السائدة في الدولة الإسلامية من

نظم مالية فارسية وبيزنطية كان سببًا في الاختلاف الواضح بين أحكام الجزية والخراج وعشور الأرض وعشور التجارة في العراق وفارس عنها في الشام ومصر، مما قد يُسبب بعضَ الصعوبات الاقتصادية. وكان بعضَ الخارجين على الدولة يسارعون بسك عُمْلاتٍ خاصةٍ بهم، ومن هؤلاء " قَطري بن الفُجاءة " – وهو من قادة الخوارج - و"عبد الله بن الزبير"، وأخوه "مصعب" وغيرهم؛ كمظهر من مظاهر السيادة وتكريس الوجود والسيطرة السياسية .

كل هذه العوامل كانت تتجمع لتشكل حافزًا إلى ضرب سَكَّة إسلاميةٍ خاصةٍ، يتعامل بها المسلمون جميعهم، وتكونُ أساسَ نظامهم المالي، غيرَ معتمدين في ذلك على غيرهِم من الدول والشعوب، وكان الذي فعل ذلك على الوجه الشامل هو الخليفة عبد الملك بن مروان في الشام سنة (٧٤هـ)، ثم أمر بتعميمها في جميع النواحي سنة (٧٦هـ).

٣- أما السبب المباشر والقريب والذي احتفى به بعض المؤرخين والرواة فجعلوه سببَ تعريب العملة وسكِّها في دار الإسلام فهو أنه في نطاق المبادلات التجارية بين الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، كانت القراطيس تدخل بلادَ الروم من أرض مصر، وفي مقابل ذلك الدنانير تأتي إلى العرب من قِبَل الروم، فكان عبدُ الله أولَ من أحدث الكتابَ الذي يُكتب في رءوس الطوامير (الصحائف) مثل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وغيرها مِن ذِكرْ الله، فكتب إليه ملِكُ الروم: "إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتابًا نكرهه ، فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذِكْر نبيكم ما تكرهونه"، فكَبُر ذلك في صدر عبد الملك أن يدع سُنَّة حسنةً سنَّها، فاستدعى خالدَ بن يزيد بن معاوية وقص عليه الخبر، فقال خالد : "يا أمير المؤمنين، حرِّمْ دنانيرهم فلا يُتعامل بها، واضربْ للناس سكَّكًا، ولا تُعفِ هؤلاء الكفرةَ مما كرِهوا في الطوامير". فقال عبد الملك : " فرَّجْتَها عني فَرَّج الله عنك"، فقام بسكِّ الدنانير والدراهمَ، وجعلهما "على شكلين مُدَوَّرين، والكتابةُ عليهما في دوائر متوازية، يُكتب فيها من أحد الوجهين أسماءُ الله تهليلاً وتحميدًا وصلاةً على النبي

وآله، وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة". ويُروي أن عبد الملك كتب على الدنانير﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وفي الوجه الآخر" لا إله إلا الله "، وطوَّقه بطوق فضة، وكتب فيه " ضُرب بمدينة كذا "، وكتب خارجَ الطوق "محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ". ولم يكتف عبدُ الملك بتعريب العملة؛ بل وَحَّد عِيارها ووزْنها، وجعل وزن الدرهم العربى أربعةَ عَشرَ قيراطًا من قراريط الدينار العزيز، فصار وزنُ كل عشرة دراهم دينارًا.

ولما صدرت العملةُ الإسلاميةُ وكثُرت أمر عبدُ الملك بمنع التعامل بالنقود الأجنبية الرومية والفارسية التي كان أكثرُها مغشوشًة، وجمُعتْ من الأسواق، وأُعيد سَبْكُها وطَبْعُها على النسبة الجديدة، وهكذا انتهي التعاملُ نهائيًا بالنقود الأجنبية، وصارت العملةُ الرسميةُ المعتَرفُ بها منذ ذلك الحين هي العملةُ العربيةُ الإسلاميةُ الصحيحةُ: الدينارُ العربيُّ الذهبُّي الخالص، والدِّرْهمُ الإسلاميُّ الفِضِّيُّ الخالص، والوَحْدَاتُ اللائي ينقسمن إليها، وأصبحت منزلة هذه العملةُ أشرفَ منزلة؛ لأنها كانت تمثل أعلى درجة في الجودة والنقاء.

● س٨- أكمل ما يأتى:

١- بنو أمية وقعوا في خطأ ..... كبير، وهو أنهم لم ينبعثوا بتيار حضاري يتمِّم تيارات ..... ويكمله، ويمتص كلَّ حركات الخروج والفتن.

٢- بنو أمية انهاروا من .....، وانتحروا عندما تفرغوا لـ..... بعضهم بعضًا، وتركوا الدولة في السنوات ..... الأخيرة، تتعرض لأشد المخاطر حتى جاء من قضى عليهم جميعًا، وهم .....

٤- السبب الرئيسي في عداء ..... للدولة الأموية يكمن في أن طوائف منهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا تمامًا من .....، حيث كانوا أصحاب ..... على العرب قبل الإسلام، فلما فتح المسلمون بلادهم عزَّ عليهم أن يحكمهم .....

الإجابة:

١- حضاري- الفتوحات الكبرى .

٢- الداخل – محاربة – السبع (١٢٥ – ٢٧هـ)- العباسيون .

٣- الموالي – ماضيهم- السيادة- العرب

القسم الثاني

الدولة العباسية

أ.د. يسري أحمد عبد الله زيدان

الوحدة السادسة

خلفاء العصر العباسي الأول

● س١- اكتب مذكرة تاريخية مختصرة عن بدء الدعوة العباسية .

الإجابة:

بدئ العمل ضد الأمويين بالعلويين الذين دعوا إلى إقامة خلافة علوية على أنقاض خلافة الأمويين. وآل هذا الأمر إلى عبد الله بن محمد بن الحنيفة بن على بن أبي طالب المعروف بأبي هاشم الذي كان يجد كل ترحيب وتقدير لدى خلفاء بني أمية .وحدث - كما تذكر المصادر التاريخية – أن أبا هاشم توفي في خلافة سليمان بن عبد الملك بقرية الحميمة بالشام عند العباسيين في أثناء زيارته لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فعهد إليه قبل وفاته بأمر الدعوة ضد الأمويين؛ لأن أبا هاشم لم يعقب من يخلفه في الدعوة ، ولصغر سن قادة البيت العلوي في ذلك الوقت ومنهم: أبنا زيد بن زين العابدين، وأخو زيد بن زين العابدين ولأن البيت العلوي والعباسي ينتميان إلى البيت النبوي، وهدفها واحد هو إسقاط الدولة الأموية.

وقد شكك بعض الباحثين في رواية تنازل أبي هاشم عن حقه، وحق العلويين في الخلافة للبيت العباسي ،لعدة اعتبارات، كلها يمكن تنفيذها، وإثارة الغبار عليها.

وعلى أية حال فإن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أصبح القائم بالدعوة ضد الأمويين مع نهاية القرن الأول الهجري، وقد أرسل دعاته خفية من

قرية الحميمة بالشام إلى الكوفة وخراسان للطعن في الأمويين والتبشير بخلافة أخرى تعيد إلى الناس حقوقهم بالعدل والمساواة.

● س٢- هناك عوامل أسهمت في نجاح العباسيين في إقامة دولتهم اذكر هذه العوامل.

الإجابة:

استطاع العباسيون أن يقيموا دولتهم، وأن يحققوا أهدافهم بإسقاط الدولة الأموية، وإنشاء دولة عباسية بديلة لها عن طريق بعض العوامل، يأتي في مقدمتها:

١- حسن اختيار شعار الدعوة العباسية وهو «الرضا من آل محمد » أو «الرضا من آل البيت »وهذا الشعار الجذاب مرن يخاطب به كل الناقمين على الأمويين ،ولا يخصص الدولة الجديدة في طائفة دون غيرها من طوائف البيت النبوي ،وإنما هو شعار عام ينجذب إليه العلويون والعباسيون وغيرهم، لأن لا يحدد فرقة وحدها دون غيرها لتتولى الخلافة الجديدة ، وهذا الشعار يضمن ضم كل آل البيت ومناصريهم ،وفي الوقت نفسه يفهمه ويقدره طوائف من المجتمع الإسلامي ،على رأسه : الفرس الذين يتفهمون كون الحكم في أسرة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما شبه الحكم الوراثي الذي كان بفارس قبل الفتح الإسلامي في خلافة عمر رضي الله عنه.

حسن اختيار الكوفة مكانا لنشر الدعوة العباسية؛ إذ إن الكوفة تميل إلى التشيع طوال عهدها، ونزلها منذ إنشائها صحابة كانوا مع علي بن أبي طالب ومنهم : سلمان الفارسي وعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وغيرهم . فهي صالحة للعمل ضد الأمويين، والشعار المعلن يجذب هؤلاء الشيعة .

٢- حسن اختيار خراسان مكانا لنشر الدعوة العباسية، لبعدها عن الأمويين وسلطانهم، ولأن الفرس بها كانوا يعتقدون وجود تفرقة بينهم وبين المسلمين

العرب، ولأنهم كانوا يظنون أن الدولة الأموية ظالمة لهم ، ولأنهم يقدرون أحقية البيت النبوي في الحكم وعدم أحقية الأمويين به قياسا للبيت النبوي.

٣- السيرة الكاملة في تنظيم الدعوة العباسية؛ حيث كان الدعاة يتخفون في زي التجار،ويخرجون من الحميمة الواقعة في الطريق من الشام إلى الحجاز،ومنه يسلكون الطرق التجارية إلى الكوفة فخراسان ،ويتظاهرون بالعمل في التجارة، ولم يسمح لأحد بالاتصال بالحميمة إلا عن طريق المشرف على الدعوة بالكوفة؛ فحوفظ على العباسيين بالحميمة عن طريق هذه السرية التامة، وحمي الدعاة من إلقاء القبض عليهم بهذا الاحتياط الشديد، والحذر الكبير.

٤- حسن اختيار الأعوان والأنصار والقادة ، ويظهر ذلك مع إبراهيم الإمام والقادة بن محمد بن علي والذي تولى أمر الدعوة العباسية سنة ١٢٥هـ. واختار شخصيتين قويتين ذكيتين هي: أبو سلمة الخلال الذي تولى رئاسة الدعوة، وأبو مسلم الخرساني الذي قاد الثورة في مراحلها الأخيرة ،وأظهرها سنة ١٢٩هـ وانتصر على جيوش العباسيين بخراسان وأرسل منها أنصاره إلى العراق سنة ١٣١هـ ثم الشام، وأثمرت هذه المعارك الحربية عن سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية.

● س٣- اشتهر الخليفة العباسي الأول والثاني ببعض الصفات غير الصحيحة. وضح ذلك.

الإجابة:

من الصفات غير الصحيحة التي اتصف بها الخليفة الأول «عبد الله بن محمد بن على »الملقب بأبي العباس السفاح، وهذا اللقب ورد لأول مرة عند المؤرخ المسعودي في القرن الرابع الهجري، وهو لقب أطلقه الخليفة نفسه على نفسه بالكوفة بعد قيام الدولة العباسية، وقصده منه أنه جواد، كريم، يكثر من سفك دم الإبل والأنعام، ولا يقصد أنه سفاك لدماء الناس. وهذا اللقب كان معروفا عند العرب قبل الإسلام دليلا على السخاء والكرم والجود، وممن

اشتهروا بذلك في الجاهلية« السفاح التغلبي » و«السفاح بني عبد مناه» الشاعر. وذكرت بعض المصادر مثل: « الإمامة والسياحة » لابن قتيبة، و«أخبار مجموعة في فتح الأندلس » لمجهول أن لقب السفاح أطلق على عم الخليفة عبد الله بن علي؛ كونه تتبع الأمويين بالشام بالقتل في أثناء قيام الدولة العباسية. وصفات أبي العباس تمنعه من أن يكون سفاحا. هذا وهناك ألقاب أخرى لأبي العباس منها: «القائم» و«المرتضى».

أما الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور، فقد تلقب بـ «أبي الدوانيق» وهو لقب معناه: البخل الشديد؛ لأن الدانق هو سدس الدرهم. وأبو جعفر المنصور اشتهر بحرصه الشديد في محاسبة عماله وموظفيه، وإنفاق كل درهم في مكانه الصحيح، فلقب بهذا اللقب الذي يعني البخل، ولم يكن المنصور بخيلا، بل رجل دولة كبير يراقب الموظفين والعمال مراقبة شديدة ولا يعطيهم إلا ما يستحقون من أموال، ويكفي أنه بهذه السياسة استطاع أن يترك في خزانة الدولة الإسلامية ٩٦٠مليون دينار.

● س٤- اشتهر الخليفة ..... بحسن الاعتقاد وتتبع الزنادقة وهو أول من أمر بتصنيف كتب.....

الإجابة:

المهدي بن المنصور - كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين.

● س٥:

تصرفت ..... في شئون الدولة العباسية في أثناء خلافة ابنها..... الذي نصحها بـ.....

الإجابة:

تصرفت الخيزران أم الخليفة موسى الهادي بن المهدي - ابنها موسى الهادي - الذي نصحها بالانشغال بالمصحف والقراءة فيه، والانشغال بغزل الثياب وغيرها عن التدخل في شئون الحكم.

● س٦- قام الخليفة المأمون بعملين ارتبطا معا برباط واحد. وضح ذلك.

الإجابة:

قام الخليفة المأمون بن الرشيد بعملين مهمين؛ لهما صلة ببعض، هما:

١- ترجمة الكتب،ومنها كتب الفلاسفة اليونان.

٢- إلزام الناس بالقول بخلق القرآن.

أما عن العمل بالقول الأول ،فإنه واصل الاهتمام بترجمة الكتب المختلفة التي بدئ في ترجمتها منذ خلافة الخليفة العباسي المنصور الذي ترجم بعض الكتب المتصلة بالعلوم التجريبية ،واستمر ذلك في عهد الرشيد ، وكان يوحنا بن ماسويه أبرز المترجمين لكتب الطب التي وجدت بأنقرة في خلافتي الرشيد والمأمون: واستمر يوحنا بن ماسويه في ترجمة الكتب زمن المأمون، وتوسع المأمون في ترجمة الكتب الفلسفية ، وكتب علوم الأوائل اليونانية، وجرت بينه وبين ملك الروم ثيوفيل مراسلات أفضت إلى إرسال كتب الفلسفة وعلوم الأوائل المخزنة ببلاد الروم إلى المأمون وترجمتها. أي إنه ترجم غير نافعة، فتحت بابا لم يسد في الجدل العقيم، والشقشقات الفكرية، ومن هذا الباب ولجت بعض الأفكار إلى الفكر الإسلامي النقي فتعكر بعد صفاء، وتلوث بعد نقاء، ومن ذلك خديعة المعتزلة بأفكار اليونان وتأثرهم بالثقافة اليونانية، فظهرت فرق إسلامية نهلت من هذه الثقافة اليونانية.وظهر ما عرف بالقول بخلق القرآن الذي نادى به المعتزلة، والتزمه المأمون وفرضه على المسلمين وأمر سنة ٢١٢هـ بحمل الناس على هذا القول، وامتحنهم فيه سنة ٢١٨هـ، وأوصى قبل موته أخاه المعتصم بالامتثال لهذا الفكر، فأخذ به وعذب القائلين بخلافة ومنهم الإمام

أحمد بن حنبل. واستمرت هذه الفتنة إلى عصر الخليفة المتوكل على الله الذي أعاد الحق إلى مكانه، ونصر مذهب أهل السنة، وأخمد مذهب الاعتزال وفكر المعتزلين.

● س٧- تحققت فتوحات وانتصارات مهمة في خلافة المنصور. ما أبرز هذه الفتوحات والانتصارات العسكرية ؟

الإجابة:

فتحت مناطق في المنصور العباسي فتحا نهائيا في خلافة المنصور، من أهمها: فتح طبرستان سنة ١٤١هـ، وهي منطقة تقع جنوب بحر قزوين في شمال إيران ،والغالب على هذه النواحي الجبال ،وهي بلاد حصينة منيعة. وغزيت طبرستان في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة ٢٩هـ وافتتح بعضها، واكتفى بتقديم بعض المال للمسلمين، وفي خلافة معاوية أرسل مصقلة بني هبيرة لغزو طبرستان، فسار إليها في عشرين ألفا، وكاد العدو للجيش الإسلامي فأرهمه بالخوف منه، حتى توغل الجيش الإسلامي في المضايق والعقاب، فدهمه العدو وهلك الجيش كله،فضرب المثل بمصقلة وجيشه وقيل:« حتى يرجع مصقلة من طبرستان ».

وفي خلافة المنصور أرسل حازم بن خزيمة وروح بن حاتم ومعهما مرزوق أبو الخصيب، ونزلوا بالجيش إلى طبرستان،وملوكها بعد صراع عنيف. وفي عهد المأمون افتتح موسى بن حفص جبال شروين من طبرستان. وأصبحت طبرستان ولاية إسلامية، حتى إنه في سنة ١٦٢هـ غزيت جرجان من طبرستان للقضاء على الفتنة التي نشبت بجرجان.

كما أنه في خلافة المنصور تم فتح كشمير على يد عمرو بن جبل سنة ١٤٥هـ. وهذه فتوحات وانتصارات جديدة لم تحقق للمسلمين من قبل، وتثبت – إلى جانب الانتصارات والفتوحات الأخرى – أن العصر العباسي لم يكن عصر تجميد للفتوحات، ولا توقيف للانتصارات.

● س٨- حقق المعتصم فتحا عظيما في خلافته. اذكر هذا الفتح وملابساته.

الإجابة:

الفتح الذي حققه المسلمون في خلافة المعتصم هو فتح عمورية سنة ٢٢٣هـ ، وكان نتيجة اعتداء الروم في عهد ثيوفيل على ثغر زبطرة وغيره من ثغور المسلمين،وقتل عدد كبير من المسلمين ،وقطع الروم أنوفهم وآذانهم، ونادت إحدى الأسيرات: «وامعتصماه ». ولما بلغ ما حدث للمعتصم، واستغاثة الأسيرة المسلمة عزم على تأديب الروم، وأمر بتعبئة الجيوش الإسلامية، وسأل عن أمنع وأحصن بلاد الروم ليفتحوا،فقيل له: عمورية، هي عين النصرانية، وأشرف مدن النصاري بعد القسطنطينية، وهي في غاية التحصن، فقصدها المعتصم وفتحها وقتل حوالي ثلاثين ألفا، وخرب المعتصم أنقرة، وأخذ المعتصم بثأر الإسلام من الطاغية ثيوفيل.

● س٩- للرشيد قبل الخلافة وبعدها انتصارات على الروم. وضح ذلك.

الإجابة:

تتابع جهاد العباسيين للبيزنطيين في منطقة الثغور منذ سنة ١٣٣هـ فيما عرف بحروب الصوائف و الشواتي، وحدثت حروب وحملات المسلمين على بلاد الروم سنة ١٤٠هـ و١٥٥هـ و١٦٢هـ و١٦٥هـ وفي هذه السنة الأخيرة قاد الرشيد وهو ولي عهد أبيه المهدي، غزو الروم بنفسه، وتوغل في بلاد الروم حتى وصل إلى خليج القسطنطينية، طلبت إيرين الوصية على عرش ابنها قسطنطين السادس الصلح؛ خوفا من سقوط القسطنطينية في أيدي جيش هارون الرشيد، على أن تقدم الجزية، وإقامة الأدلاء والأسواق في طريق العودة، وبلغ ما تقدمه من جزية أكثر من سبعين ألف دينار. وبالفعل التزمت إيرين بتقديم الجزية في هذه السنة، وفي السنة١٦٦هـ ،ثم نقضت الصلح الذي كانت مدته ثلاث سنوات.

أما في أثناء خلافة الرشيد، فإنه غزا الروم سنة ١٨١هـ ووصل إلى أنقرة، فطلبت إيرين الصلح من جديد، فقبلها الرشيد بعد الحاح، وقدمت إيرين الجزية للرشيد في فترة حكمها كله،فلما خلعت سنة ١٨٧هـ كتب الإمبراطور البيزنطي نفقور إلأى الرشيد يطلب إليه رد ما قدمته إيرين، فخرج الرشيد على رأس جيش تمكن من هزيمة البيزنطيين والوصول إلى القسطنطينية، فطلب نفقور الصلح على أن يؤدي ما كانت تؤديه إيرين من جزية المسلمين، فرضي الرشيد بذلك، وعاد نحو مملكته، فلما وصل الرقة نقض نفقور الصلح، فعاد الرشيد بسؤعة وهزم نفقور، وأعاد ما كان يأخذه منه.

ومن جديد قام الرشيد سنة ١٩٠هـ بقيادة الجيوش العباسية بغزو بلاد الروم وفتح عدة حصون رومانية منها: الصفصاف وملوانة، ورضي نفقور بدفع الجزية عن رأسه وبطارقته وسائر أهل بلده .

● س١٠- من الحركات الهدامة في خلافة المنصور:..... و..... و..... و.....

الإجابة:

حركة سنباذ المجوسي سنة ١٣٧هـ وحركة المسلمية سنة ١٣٧هـ - حركة الروندية سنة ١٤١هـ - حركة استاذ سيس سنة ١٥١هـ .

● س١١: دلل على نفي أسطورة العباسة أخت الرشيد كسبب من أسباب نكبة البرامكة .

الإجابة:

١- كانت العباسة متزوجة منذ سنة ١٧٢هـ بأميرالبصرة محمد بن سليمان ولما توفي تزوجت بواحد آخر، ولم تنكر أنها تزوجت من جعفر بن يحيى البرمكي.

٢- قصة العباسة أسطورة خيالية حاكاها الفرس بعد سقوط البرامكة.

٣- تكررت قصة العباسة مع أخت لها اسمها ميمونة؛ مما يدل على تهافت رواية قصة العباسة وعدم صحتها.

٤- لا يعرف الإسلام الزواج الصوري أو العبث في الزواج، وهو مما ظهرفي قصة العباسة المزعومة.

● س١٢- للعلويين ثورات ضد العباسين في العصر العباسي الأول، ما أهمها؟

الإجابة:

أهم ثورات العلويين في العصر العباسي الأول: ثورة محمد النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبي طالب بالمدينة المنورة سنة ١٤٥هـ وثورة أخيه إبراهيم بالبصرة في السنة السابقة نفسها.

ومن أهم ثوراتهم أيضا: ثورة الحسين بن علي بن أبي طالب سنة ١٦٩هـ بالمدينة المنورة في خلافة الهادي. وقتل الحسين بن علي في مكان بين مكة والمدينة عرف باسم المعركة:«فخ». وهرب اثنان من أخوة النفس الزكية هما: يحيى وإدريس ابنا عبد الله، من المعركة ،حيث توجه يحيى إلى بلاد الديلم وثار هناك على الخليفة الرشيد في خلافته، بينما فر إدريس بن عبد الله إلى المغرب الأقصى ، حيث قامت به دولة الأدارسة.

● س١٣: أنشئت مدينتان في العصر العباسي الأول- ما هما ؟ ومتى نشأتا؟

الإجابة:

المدينتان هما: مدينة بغداد، ومدينة سر من رأى (سامرا). والمدينة الأولى من إنشاء الخليفة العباسي المنصور سنة ١٤٥هـ وأقيمت في أقرب نقطة بين دجلة والفرات في إقليم العراق أو السواد واختير مكانها بدقة متناهية، وكان تخطيطها على شكل دائرة، ولذلك سميت بالمدينة المدورة، والبناء المدور أفضل

من غيره في الدفاع والاستراتيجية الحربية، وأكثر تعرضا للشمس والهواء من أي بناء آخر. والمدينة الثانية من إنشاء الخليفة العباسي المعتصم بالله سنة ٢٢١هـ، وانتهى من بنائها سنة ٢٢٣هـ ، وأنشئت من أجل استيعاب العنصر التركي الذي اعتمد عليه المعتصم اعتمادا كبيرا، وبنى سامرا لأجلهم، وسامرا تقع شمالي بغداد.وبنيت سامرا على ضفتي دجلة، وإن كان الجزء الأكبر منها يقع على الضفة الشرقية، على عكس بغداد التي كانت في البداية تقع على الضفة الغربية ثم توسعت إلى الضفة الشرقية.

واستمرت سامراء عاصمة للعباسيين في خلافة: المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد، ثم عادت بغداد لتكون عاصمة للخلافة العباسية حتى سقوطها سنة ٦٥٦هـ على أيدي التتار، ومقتل الخليفة العباسي الأخير بالعراق المستعصم بالله.

الوحدة السابعة

خلفاء العصر العباسي الثاني ـ عصر نفوذ الأتراك

● س١- اعرض لأحوال الخلافة العباسية في فترة الضعف الأولى .

الإجابة:

فترة ضعف الخلافة العباسية الأولى زمن نفوذ الأتراك تمتد من سنة ٢٣٢هـ بداية من خلافة المتوكل إلى سنة ٢٥٦هـ حيث نهاية خلافة المهتدي.

وحكم في تلك الفترة: المتوكل والمنتصر والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي. وفي تلك الفترة كان الأتراك يحكمون حكما غير مباشر، وكان الخلفاء العباسيون ألعوبة في أيدي الأتراك. يدل على ذلك أن الأتراك هم الذين ولوا الخليفة العباسي المتوكل على الله الذي جاء بعد الواثق عن طريق اختيارالأتراك. وكان التركي «ايتاخ» هوالمتحكم في الجيش ودار الخلافة والأموال والبريد. وقد استعمل الأتراك المنتصر بن المتوكل آلة لقتل والده

المتوكل الذي حاول التخلص من سيادة الأتراك على الحكم سنة ٢٤٤هـ عن طريق التحول من سامرا إلى دمشق بعيدا عن الترك. واستجاب المنتصر للترك فقتل والده المتوكل، فولاه الترك الخلافة، فأصبح المنتصر ألعوبة في أيدي منصبيه الخلافة. ولم ينعم المنتصر بالخلافة سوى ستة أشهر مات بعدها، وقيل: بل سمه الأتراك. فأختار الأتراك الخليفة المستعين بالله بن المعتصم الذي وقع تحت طائلة التركيين: وصيف وبغا، ووصف المستعين معهما بـ:

خليفـــــة فـــــي قفـــــص بـــــين وصـــــيف وبغـــــا

يقـــــول مـــــا قـــــالا لـــــه كمـــــا تقـــــول الببغـــــا

وقد تنازل المستعين للمعتز عن الخلافة ثم ثار الترك بالمعتز سنة ٢٥٥هـ لعدم تمكنه من دفع المال لهم، وقبضوا عليه وأقاموه في الشمس حتى خلع نفسه. ومن جديد اختار الترك محمد بن الواثق ولقبوه بالمهتدي بالله الذي أجمعت المصادر التاريخية على حسن سيرته، وتشبهه بعمر بن عبد العزي، وكان المهتدي حريصا على التخلص من الترك بضرب بعضهم ببعض، فلما استشعر الترك ذلك أجمعوا على قتله سنة ٢٥٦هـ، وتحقق لهم ما أرادوا. وهذا يثبت أن الترك هم الذين عينوا الخلفاء، وهم الذين تولوا عزلهم والنكاية بهم.

- **س٢- ثار الأتراك بالخليفة ..... سنة..... طالبين منه المال، فاعتذر بخلو الخزائن من المال،فلجأوا إلى أمة ..... ليأخذوا منها المال، فأبت، فخلعوا الخليفة.**

الإجابة:

المعتز بالله - سنة ٢٥٥هـ - قبيحة.

● س٣- استعادت الخلافة العباسية مكانتها في العصرالعباسي الثاني أثناء حكم..... و..... و..... وانتهت مع الخليفة ..... سنة .....

الإجابة:

المعتمد على الله والمعتضد بالله والمكتفي بالله - وانتهت مع الخليفة المقتدر بالله - سنة ٢٩٥هـ.

● س٤- اذكر أسماء الخلفاء العباسيين الذين حكموا في فترة الضعف الثانية في عصر نفوذ الأتراك .

الإجابة:

الخلفاء هم: المقتدر بالله والقاهر بالله والراضي بالله والمتقي لله والمستكفي بالله الذي انتهت معه فترة نفوذ الأتراك، وبدأت فترة نفوذ البويهيين.

● س٥- استحدث الخليفة ..... سنة ..... في العصر العباسي ..... عصر نفوذ ..... منصب إمرة الأمراء وتولاه ..... و.....

الإجابة:

الراضي بالله - سنة ٣٢٤هـ - الثاني - الأتراك - محمد بن واثق وابن البريدي.

● س٦- ما أبرز الفتن التي ظهرت في العصر العباسي الثاني؟

الإجابة:

أبرز الفتن:

١- فتنة الزنج من سنة ٢٥٥هـ - ٢٧٠هـ بزعامة علي بن محمد.

٢- فتنة القرامطة منذ سنة ٢٧٨هـ - ٤٧٠هـ وتزعمها عدد من الزعماء أبرزهم: أبو سعيد الجنابي وحمدان قرمط ويحيى بن زكرويه.

الوحدة الثامنة

خلفاء العصر العباسي الثالث ـ عصر نفوذ البويهيين

● س١- عرف ببني بويه.

الإجابة:

بنو بويه جماعة من الفرس سكنت الديلم في الجنوب الغربي من بحر قزوين، وكانت هذه الجماعة وثنية، وأسلمت في أثناء حكم الدولة الزيدية بطبرستان والديلم. وفي عهد الدولة الزيدية تولى على بن بويه بلاء الكرج (جورجيا الحالية) ولد سلطانه إلى أصفهان، بينما حكم أخواه الحسن وأحمد: كرمان والري والأهواز. وفي سنة ٣٢٣هـ قتل مؤسس الدولة الزيارية: مرداويج بن زيار، فآل حكم مناطقهما قتل مؤسس الدولة الزيارية: مرداويج بن زيار، فآل حكم مناطقها إلى هؤلاء البويهيين الشيعة الذين قصدوا بغداد سنة ٣٣٤هـ في خلافة المستكفي بالله واستولوا على الحكم في العصر العباسي الثالث حتى سنة ٤٤٧هـ.

● س٢- تناول أحوال الخلافة العباسية في عصرها الثالث مع البويهيين الشيعة.

الإجابة:

تحكم البويهيون في خلفاء العصر العباسي الثالث (٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ) بحيث لم يبق للخلفاء العباسيين شيء من الخلافة، يدل على ذلك أن علي بن بويه (عماد الدولة) كان يخصص للخليفة العباسي المطيع لله مائة دينار فقط. كما أن بهاء الدولة خلع الخليفة الطائع لله لأنه تجرأ وحبس رجلا من خواص الدولة. كما أن جلال الدولة بن بهاء الدولة منع عمال الخليفة القائم بالله من جمع

مال الجزية. واشترك بنو بويه مع الخلفاء العباسيين في العديد من الشارات المتصلة بالخلافة. وكان الملك البويهي يكتب اسمه على السكة مع الخليفة نفسه. وكان الملك البويهي يعين الوزراء والكتاب، وبقي للخليفة فقط تعيين القضاة والمفتين والأئمة والخطباء فقط.

● س٣- جرت محاولة لإنهاء حكم العباسيين السنة وحكم الفاطميين الشيعة بالعراق. وضح ذلك.

الإجابة:

حدثت سنة ٤٥٠هـ في أثناء خلافة القائم العباسي أن قام أمير تركي يدعى البساسيري بمحاولة لإنهاء الخلافة العباسية ببغداد وضمها للعبيديين بمصر على عهد المستنصر، وبالفعل خطب على المنابر ببغداد للمستنصر، وزيد في الآذان:«حي على خير العمل» وانتصر البساسيري على جند الخليفة وقبض على القائم بالله وحبسه، فكتب القائم إلى ملك السلاجقة طغرلبك يستنهضه لنجدة الخلافة العباسية، فأرسل طغرلبك عسكرا قاتل البساسيري حتى قتله، وأعاد الخطبة من جديد للخليفة العباسي القائم بالله، بعد أن كانت الخطبة ببغداد سنة كاملة للمستنصر الفاطمي بمصر.

الوحدة التاسعة والأخيرة

خلفاء العصر العباسي الرابع(عصر نفوذ السلاجقة وما بعده)

● س١- عادت الخلافة العباسية مع السلاجقة إلى مكانتها ونفوذها. بين ذلك.

الإجابة:

دخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧هـ، واستمر السلاجقة قوة في زمن خلفاء العصر العباسي الرابع حتى سنة ٥٩٠هـ في عهد الخليفة العباسي الناصر. وخلال هذه الفترة كان السلاجقة الذين يدينون بمذهب الخلافة نفسه، المذهب السني، يعاملون الخلفاء العباسيين بتقدير وتبجيل؛ مما أسهم في إعادة هيبة الخلافة العباسية ومكانتها يدل على هذا أن الخليفة المسترشد دخل في صراع مع السلطان السلجوقي مسعود، ولما هزم المسترشد، فإن السلطان مسعود عامل الخليفة المسترشد بكل توقيرسنة ٥٢٩هـ.

كما كان للخليفة المقتفى مواقفه المعارضة للسلطان مسعود، وكان المقتفى عالما بكل ما يجري في الخلافة العباسية في أيامه من أمور، وإن كانت صغيرة، ولا تتم إلا بمعرفته.

ومنذ سنة ٥٥٢هـ أقام سلاجقة العراق في همذان، فأصبحوا في موقف ضعيف لا يستطيعون من خلاله ممارسة أية سلطة فعلية على الخلافة العباسية، وذلك بسبب مواقف المقتفى ضدهم. كما قويت الوزارة في عهد المقتفى. وبمقارنة أحوال الخلفاء العباسيين مع أحوال أسلافهم يتبين لنا استعادة الكثير من سلطانهم قبل سنة ٥٥٢هـ واسترداد سلطانهم كله بعد سنة ٥٩٠هـ .

● س٢- لابن العلقمي دور في إسقاط الخلافة العباسية. وضح ذلك.

الإجابة:

أسهم ابن العلقمي وزير المستعصم بن المستنصر في زوال الدولة العباسية بالعراق من خلال:

١- تهوين أمر التتار عند الخليفة العباسي المستعصم.

٢- إسهامه في تقليل جيش الخلافة العباسية من مائة ألف فارس إلى عشرين ألفا فقط .

٣- إشارته على الخليفة المستعصم بألا تقاتل جيوشه التتار لأنه لا فائدة من مقاومتهم، لأنهم لا ينهزمون، وأن من المصلحة الخضوع لهم والاستسلام لجيوشهم.

٣- هناك أخبار ذكرها بعض المؤرخين ومنهم ابن الوردي تذكر استدعاء ابن العلقمي للتتار، وإخباره لهم بكل ما يتصل بجيش الخليفة واستعداده والأحوال ببغداد.

● س٣- أنشأ الخليفة العباسي ..... المدرسة ..... وينسب إلى هذا الخليفة العباسي إكثاره من الجند بحيث فاق في ذلك أباه الظاهر وجده .....

الإجابة:

المستنصر- المستنصرية - الناصر.

* * *